AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00959 5392

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

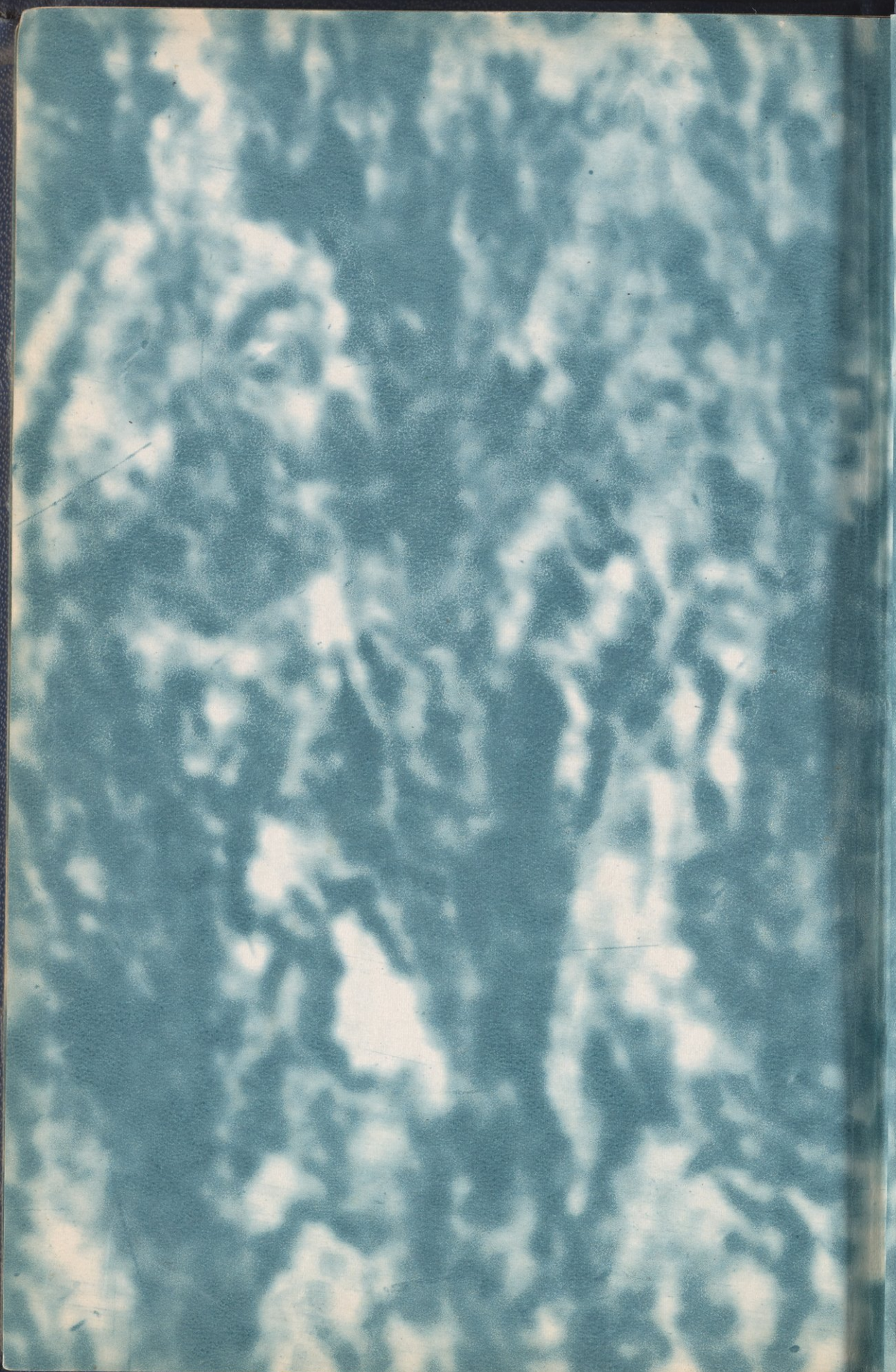

99-52947
part for 16th
1 13 15

Badawī, Aḥmad, Aḥmad

مِن بَلاغَةِ القُرآنِ

Min Balāghat al-Qur'ān

Pj
6696
Z5
R45
1950

تأليف

الدكتور أحمد أحمد بدوى

أستاذ النقد الأدبى المساعد
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة

تعتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر بالفجالة
١٨ شارع كامل صدقى

THE AMERICAN UNIVERSITY
THE LIBRARY
AT CAIRO

الإهداء

إلى روح أبى

أبى : قضيت عمرك الطاهر فى خدمة كتاب الله ، لا تمل قراءته ، تفسره لتلاميذك فى معهد الدرس ، وتتدارسه مع صحبك فى بيتك ، وكثيراً ما كنتُ أشهد طرفاً من ذلك منذ حداثتى ، وكانت الغبطة تملؤنى كلما فهمت تفسير آية ، أو أدركت جمال تعبير ، أو أشركتَنى فى المناقشة ، وسألتنى فأجبت ، أو سألتك فشرحت ووضحتَ ، ولم يكن عندك فى عهدك الأخير ما يشغلك عن تلاوة القرآن وتفهم معانيه ، فعساك ترضى عن هذا الجهد الذى أساهم به فى الكشف عن بلاغة القرآن وإدراك سر إعجازه .

وإلى روحك الطاهرة فى جنة الخلد ، أهدى هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على رسوله النبيّ الأميّ الذى يؤمن بالله وكلماته .

وبعد : فإن دراسة النص الأدبى دراسة كاملة تتطلب الوقوف عند لبناته الأولى التى هى المفردات ، لتبين مدى الإصابه فى اختيارها ، ومدى تمكنها فى موضعها من جملتها ، وقوة ربطها بأخواتها ، وقديماً قال القدماء وأصابوا : إن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما .

فإذا ما درست المفردات هذه الدراسة الفنية ، درست الجملة فى النص ، لإدراك سر قوتها وجمالها ، وهنا المجال فسيح أمام علوم البلاغة الاصطلاحية ، التى تدرس أسباب الجمال فى تكوين الجملة العربية ، فتبحث لِمَ قُدِّمَ هذا الجزء من الجملة ، ولم أخر ذاك ، ولماذا حذف هنا ، وأثبت هناك ، ولم جاء هنا التعريف ، وهناك التنكير ، ولم استخدم الخبر فى موضع الإنشاء ، ولم عبر هنا بالمجاز ، وكيف جمل هنا التشبيه ، وراق فى هذا الموضع الجناس ، إلى غير ذلك من أبحاث تتصل بالجملة والجملتين .

ونمضى بعدئذ إلى دراسة النص برمته ، ننظر إليه وحدة متصلة الأجزاء ،

فنرى مدى ارتباط بعضه ببعض ، ومدى تضافر أجزائه على رسم الصورة التى يريد النص توضيحها ، ومدى الإصابة فى ترتيب هذه الأجزاء ، كى يؤدى سابقها إلى لاحقها ، حتى إذا تم النص صارت فكرته واضحة فى النفس ، جلية مؤثرة .

ولا بد من دراسة المعانى التى حواها النص ، لمعرفة القوى منها والضعيف ، وما له دخل فى تكوين الصورة وما هو دخيل ، وكيف نضّدت هذه المعانى ونسقت ، حتى التأمت وحدة تنبض بالحياة .

لا نقف إذاً من دراسة النص عند حد التأمل فيما أودعه من تناسق لفظى ، أو جمال فى الأسلوب ، ولكن لابد من دراسة ما بين اللفظ والمعنى من تآخ وتناسب ، ودراسة ما اختير من المعانى ، لمعرفة مدى تأثيرها فى الفكر ، وإثارتها للوجدان ، فإن النفس الإنسانية تنقاد بهما ، وتخضع لهما .

والقرآن الكريم أمة وحده فى البلاغة العربية ، فأردت أن أتبين بعض أسرار سموه ، عساى أدرك سبب ما كان له من تأثير فى النفوس ، وسلطان على القلوب ، وقد سرت فى دراستى على هذا المنهج الذى تحدثت عنه ؛ فقسمت البحث كتابين ، خصصت الكتاب الأول منهما بدراسة البلاغة فى اللفظ والأسلوب ، وخصصت الثانى بدراسة المعانى ؛ فبدأت بمقدمات تمهيدية تحدد معنى الأدب ، وتبين ميدان عمله فى النفس الإنسانية ، وكيف نقرؤه قراءة صحيحة نافعة مؤثرة ، وتدرس العلوم التى يحتاج إليها الأديب منتجاً أو ناقداً ، وتشرح المنهج الأدبى فى القرآن ، وتعرض وجوه إعجازه ، لبيان الرأى الذى نختاره من بينها ، ثم عقدت فصلا لدراسة اللفظة المفردة فى القرآن ، تناولت فيه كيف تخيرت هذه الألفاظ تخيرا دقيقا ، لتدل على معانيها فى دقة وإحكام ، وكيف تقع الفاصلة من الآية موقع الجزء الذى به تمام المعنى ووفاؤه ، وحددت معنى الغريب والزائد وما فى استخدامهما واستخدام المعرب من ألوان البلاغة ، وفى الفصل الثانى طبقت تطبيقاً فنياً ما وعته علوم

البلاغة الثلاثة ، متجنباً كل التجنب المناقشات الفلسفية ، البعيدة عن روح البلاغة ، والتى كانت سبباً فى وأد الروح الفنى حيناً طويلا من الزمن ، وتحدثت فى الفصل الثالث عن السورة ، لتبين منهجها ومدى وحدتها ، محللا بعض السور ، كى تتضح الفكرة وتنجلى ، وختمت الكتاب الأول بفصل عن دراسة أسلوب القرآن ، أتبين ما أستطيع أن أتبينه من خصائص هذا الأسلوب ، وإنى أقرر أن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى المعاودة مرة أخرى ، لتعرف ألوان الأساليب القرآنية وتصنيف هذه الألوان ، تبعا للمعانى التى تناولتها ، لمعرفة خصائص كل لون على حدة ، فيدرس مثلا أسلوب السور المدنية ، وأسلوب الأحكام ، وأسلوب القصص ، وأسلوب الوصف ، وهكذا . ويوازن بين كل نوع وصاحبه ، ومثل هذه الدراسة المجدية تحتاج إلى إنعام نظر ، وصبر ، وأناة ، وطول وقت ، مما أرجو أن يوفقنى الله إليه فى القريب إن شاء الله .

وخصصت الكتاب الثانى بدراسة بعض المعانى القرآنية ، فدرست كيف تناول القرآن هذه المعانى وما الذى عنى به من بين عناصرها ، وكيف تناول هذه العناصر ، ليؤثر فى النفس الإنسانية ، ولم كان هذا التأثير خالدا .

والله المسئول أن يوفقنا إلى الصواب ، وأن يهدينا سواء السبيل .

حلوان الحمامات فى { ٤ صفر سنة ١٣٧٠ / ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠

الكتاب الأول

AMERICAN UNIVERSITY OF CAIRO

مقـــدّمات تمهيديّة :

العمل الأدبى

يقف الأديب عند سرير جندى جريح ، عائد من ميـدان القتال ، فيثير فيه منظره معانى شتى ، للبطولة والتضحية ؛ أو يدخل مصنعاً ، قد انصرف فيه كل عامل إلى آلته ، ومضت الآلات فى عملها تنتج مسرعة ، فيوحى إليه ما يراه ، بخواطر عن الدأب ، والنظام ، والتقدم ، ويحاول أن يسجل إحساسه إزاءما رأى ، وأن ينقل هذا الإحساس إلى غيره ، فينشىء مقالة ، أو يقرض قصيدة ، أو يؤلف قصة أو رواية ؛ ويغضب الخطيب لأمر ، فيحاول نقل غضبه فى خطبة إلى سامعيه ، ويختار لذلك ألفاظه وأساليبه ، بحيث تنقل إحساسه نقلاً صادقاً غير منقوص .

هذه المقالة ، أو القصيدة ، أو القصة ، أوالرواية، أوالخطبة، هى العمل الأدبى ؛ فهى الصلة بين الأديب والسامع أو القارىء ، وبها انتقل إحساس الأول إلى الثانى.

ونستطيع أن نعرِّف العمل الأدبى ، بأنه « التعبير عن تجربة للأديب بألفاظ موحية » والتعبير بالألفاظ ، هو الذى يميز الأدب من باقى الفنون الجميلة ، لأن الأدب يعـبِّر باللفظ ، بينما تعبر الموسيقى بالصوت ، والرسم باللون ، والنحت بالحجارة .

ونعنى بالتجربة كل ما جربه الأديب ، ومر بنفسه من شعور ، سواء أكان حقيقياً أم متخيلاً ، فقد تـكون حادثة صادفت المنشىء فى حياته ، أوصادفت غيره، وقد تـكون قصة سمع بها ، أو منظرا رآه ، أو فـكرة عرضت له ، أو وهماً مرَّ

بخياله ، ومن هنا كان كل شيء فى الحياة صالحاً لأن يكون مادة للأديب ، يتخذ منها صوراً لبيانه ، على شريطة أن يكون قد امتزج بشعوره ، وملك عليه جوانب نفسه ، ودفعه إلى الكلام ؛ ولهذا وجب أن يكون فى التجربة أمر غير عادى مألوف ، وأن تكون ذات قوة ممتازة ، وشدة خاصة ، حتى تبعث فى الأديب القوة الضرورية ، لمجهود أدبى ، يستطيع به أن يصف التجربة ، فى صدق ودقة ، وإتقان وبراعة ، وبذلك يستطيع أن يبعثها مرة أخرى فى نفوس قارئيه ، أو سامعيه .

هذا ، وإن الحقائق العلمية قد يمزج بها الأديب إحساسه ، وينقلها بهذه الصورة إلى القارىء ، فتصبح عملا أدبياً رائعاً .

إن التجربة لا تكون بسيطة أبداً ، بل لابد أن تكون مكونة مما تحمله الحواس إلى الفكر ، ومما يأتى به الفكر نفسه من معان ، يدعو بعضها بعضاً ؛ فالواقف أمام نهر النيل مثلاً ، لا تنقل إليه حواسه لون مائه ، وحركة موجه ، وما على جانبيه من حقول فحسب ، بل تنقل إليه أيضاً رقة النسيم ، ولون السماء ، وما قد يكون فيها من سحاب ، وهو يضيف إلى ذلك إحساسات أخرى ، ولدها خياله ، كموازنة هدوئه بالبحر وثورانه ، وقد يطوف هذا الخيال بينابيعه ، وبالشعوب التى تعيش على ضفافه ، أو يعود متوغلاً فى القدم ، فيذكر ما قام على شاطئيه من حضارة ومدنية ؛ فإذا كانت تلك اللحظة الشعورية قوية ، تتطلب التعبير عنها ، فإن الأديب يستخلصها من بين ما يمر به من التجارب ، ويحتفظ بها فى نفسه ، وكلما احتفظ بها ازدادت غنى ، بما ينضم إليها من ألوان الإحساس ، وبتداعى المعانى ؛ فإذا أراد أن ينقل تجربته إلى غيره ، وجب أن ينقلها كاملة ، فلا نكتفى منه بأن يصور لنا المنظر الذى رآه ، أو يذكر الإحساس الذى خالطه عند ما رآه ، بل يجب أن يؤدى تجربته كاملة الأجزاء ، لما شاهده وما أحسه معاً ، مرتبطين ارتباطاً وثيقاً ، حتى يحس بها القارىء إحساساً كاملاً وتنتقل إلى شعوره ،

فيتخيلها كما أدركها منشئها ، وبمثل هذا التناول يخلد الأديب لحظة من لحظات شعور مرت به فى حياته .

إن فى الإنتاج الأدبى لعملا إراديا للأديب ، ذلك أنه يتناول تجربته ، وهى مكونة من أجزاء ، فيرتبها ترتيباً منسقاً ، ثم يأخذ فى إيضاح سلسلة خواطره ، واحداً واحدا ، على أن يكون لكل خاطر منها دخل فى تصوير التجربة وإكمالها ، فيكون له وجود من أجل نفسه ، ووجود من أجل الكل الذى هو جزء منه ، وبجمع هذه الأجزاء ، تصير التجربة وحدة متسقة ، وكلا موحداً ، يتصل كل جزء فيها بسائر الأجزاء ، أما إذا كان بعض الأجزاء لادخل له فى تكوين الصورة ، ولكنه جاء بطريق الاستطراد ، أو لم تكن التجربة مسلسلة الخواطر ، يرتبط بعضها ببعض ، فإنها تنقل إلى السامع مشوهة ، لاصلة بين أجزائها ولا اتساق . وهاك تجربة لقتيلة بنت الحارث ، وقد أخذت تعاتب الرسول ، لقتله أخاها النضر ، برغم قرابته له ، واتصاله بنسبه :

أمحمد ياخير ضنء[1] كريمة ... فى قومها ، والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت ، وربما ... منّ الفتى ، وهو المغيظ ، المحنق
والنضر أقرب من أصبت وسيلة ... وأحقهم ، إن كان عتق ، يعتق
ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك ، تشقق

فقد بدأت حديثها معه تناديه باسمه ، نداء القريب ، الذى لا كلفة بينك وبينه ، مشعرة إياه بشدة الصلة بينهما ، حتى لكأنها توحى إليه ، بأن هذه القرابة القريبة ما كانت تنتظر على يده هذا المصير ، ثم انتبهت إلى مكانة الرسول فى قومه ، فنادته واصفة بما يتفق مع هذه المكانة ، وكأن قلب الأم ، الذى فى كل أنثى ، دفعها إلى أن تصفه بأنه خير ابن ، لأم كريمة فى قومها ، وأب عريق فى الشرف ، حتى إذا

---

(١) الضنء بالفتح : الولد ، ويكسر .

انتهت من استرعاء سمعه ، بهذا النداء ، أخذت تسأله سؤال الموجع ، الموقن بأن حكم القضاء قد تم ، ولا سبيل إلى استرجاعه ، فاستخدمت لذلك هذا الاستفهام الحزين ، الموحى بأنه لم يكن ثمة خطر فى إطلاقه ، فضلا عما فى هذا الإطلاق ، من مكرمة المن ، وأتت بكلمة (لو) المشعرة بالأسف ، لدلالتها على امتناع وجود الفعل ، وما كان أدق ذوقها فى اختيار كلمة « ربما » الدالة على حسن الأدب ، والتماسها العذر للرسول ، وتلميحها إلى مافى العفو ، برغم الغيظ والحنق ، من مثل أعلى ، جدير بالاقتداء ، حتى إذا انتهت من ذلك ، لمست من الرسول موضع العطف ، فذكرته بقربه منه ، واستحقاقه أن يظفر برعايته ، ثم انتقلت من ذلك إلى تصوير هذا القريب ، الجدير بالود ، أو بالمن ، والعتق — هدفاً لسيوف أقربائه ، تتناوله بأطرافها ، فتمزق بتمزيق أديمه ، القرابة وتقطع أواصرها .

وهكذا ، كان كل جزء له أثره ، فى نقل هذه التجربة التى ملكت نفس قتيلة ، ونجحت فى إيصال ألمها للسامع ، حتى روى أن الرسول بكى ، وقال : لو سمعتها قبل اليوم ما قتلته .

نستطيع أن نسمى التجربة التى تسيطر على الأديب ، وتدفعه إلى التعبير عنها بالإلهام ، وكلما عظم هذا الإلهام ، احتاج إلى قوة كبيرة ، تستطيع التعبير عنه تعبيراً يمثله تمثيلا صادقاً ؛ ولذا كان كبار الأدباء ذوى سلطان على اللغة ، وقدرة قديرة على التعبير ، فاستطاعوا أن ينقلوا إلينا من التجارب أعظمها وأسماها .

وإن لدى الأديب إحساساً لغوياً ممتازاً ، يستطيع به أن يختار من الألفاظ ماهو قوى فى تصويره ، واضح فى دلالته على مراده ، ويدرك ما تستطيع الألفاظ أن توحى به إلى القارىء ، وإن للألفاظ لوحياً يشع منها ، فيملأ النفس شعوراً ، ويثير الوجدان ، ويحرك العاطفة ، ذلك أن الألفاظ قد تراكم حولها بمضى الزمن والاستعمال ، معان أخرى ، أكثر من هذه المعانى التى نجدها لها فى القاموس ،

فليس ما بين يدينا من معانى الألفاظ فى المعاجم ، سوى هذه المعانى المتبلورة ، والأديب البليغ هو من يستنفد ما للألفاظ من معان ، أضفاها عليها الزمن ، فتثير فى النفس أعمق الإحساسات ، وتملأ الخيال بشتى الصور ، وإذا شئت فانظر فى القاموس إلى معانى كلمات : أم ، وطفولة ، ومدرسة ، ووطن ، مثلا ، فالأم فى اللغة هى الوالدة ، ولكن هذا اللفظ يثير فى النفس ، إذا سمع ، أسمى معانى الحب وأقدس ألوان العواطف ، وأشرف آيات الإيثار ، وأعمق معانى الحنان ؛ وليست الطفولة سوى وقت الصبا فى القاموس ، أما إذا سمعت فانها تثير تلك الخواطر ، التى تحوم حول هذه الأيام النضرة ، وعلى هاتيك الملاعب العزيزة ؛ وكم ذكريات تثيرها المدرسة فى النفس ، حول عهود محبوبة ، وآمال مرتقبة ، وأصدقاء مختارين ، بينما هى فى المعجم مكان الدراسة ؛ أما كلمة الوطن ، فقد تراكم حولها من المعانى والذكريات ما أشار ابن الرومى إلى بعضه ، حين قال :

وحبب أوطان الرجال إليهم ... مآرب ، قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم ... عهود الصبا فيها ، فحنوا لذلكا

فلا عجب أن تثير كلمة الوطن فى النفس هذه الذكريات العذبة المحبوبة . وإن أردت أن تدرك شدة وحى الألفاظ فاقرأ قوله تعالى : « ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ ! » ، وانظر أى كراهية ونفور ، يثيره فى النفس ، تخيل أكل لحم الأخ ميتاً ، واقرأ قول الشاعر :

وقانا لفحة الرمضاء واد ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه ، فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا ... ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنّى واجهتنا ... فيحجبها ، ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى ... فتلمس جانب العقد النظيم

وانظر ما توحى به إلى النفس « لفحة الرمضاء » ، فإنها تشعرك بهذا الهواء الساخن ، يلفح وجهك ، ويرمض عينيك ، فتكاد تضع يدك على هذا الوجه ، تحجب بها عنه هذه السخونة الممضة ، وتحس كما أحس الشاعر بفضل هذا الوادى عليه ، فقد حماه من وهج الشمس ، وسطوة الحر ، فلا غرابة أن يدعو له من كل قلبه ، أن يسقيه « مضاعف الغيث » ،وانظر ما توحى به إلى خيالك كلمة «دوح»: من ظل ظليل ، ونسيم بليل ، تسكن إليه النفس ، بعد لفحة الرمضاء ، وتخيل « حنو المرضعات » وما يثيره من معانى العطف والحنان ، أما « أرشف » فتوحى إليك بهذه المتعة ، التى يحس بها الظمآن ، لفحه حر الشمس ،فأوى إلى ظل ظليل وأخذ يشرب على مهل ، يستمتع بالماء الزلال ، وكيف يجده حينئذ ،ألذ من المدامة، وتخيل كذلك مايثيره عندك « يروع » والصورة التى تركتها ، وكلمة «العذارى» وموضع الفاء ، التى تدل على هذه الحركة السريعة ، الناشئة من الروعة ، وهكذا استطاع الأديب بهذه الألفاظ الموحية ، السيطرة على خيالنا ، وأن ينقل إلينا إحساسه وشعوره .

ولعل هذا هو السبب ، فى أن علماء البلاغة ، قد كرهوا استعمال الكلمات الغريبة ، لأنها تعجز عن أن تثير فى النفس معنى قبل البحث عنها ، فضلا عن أن تثير هذه الخواطر ، التى تحيط بالكلمة إذا استعملت .

على أنه قد يشفع فى بعض الأحيان ، لاستخدام الكلمة الغريبة، أنها وضعت فى موضع ، سهل الأسلوب فهمها ، وكانت هى بجرسها موحية بمعناها ، ولعل من ذلك قول شوقى :

خلوا الأكاليل للتاريخ ، إن له يدا تؤلفها درا ومخشلبا[1]

---

(١) الوارد فى المعاجم مشخلبة ، وهى كلمة عراقية،معناها: خرز بيض يشا كل اللؤلؤ والحلى ، يتخذ من الليف والخرز .

فهذا الجمع بين الدر والمخشلب ، يوحى بما بينهما من البون الشاسع ، وفى حروف الكلمة الغريبة ، ما يوحى بأنها تعنى شيئاً حقيراً .

والإحساس اللغوى عند الأديب هو الذى يختار اللفظ اختياراً دقيقاً ، بحيث يؤدى المعنى ، على وجه لا لبس فيه ولا اضطراب ، وهو لذلك يلحظ الفروق الدقيقة بين الكلمات ، ويأخذ من بينها أمسها بمعناها ، حتى تقوم بواجبها من التوصيل الصادق .

سمع ابن هرمة أدياً ينشد قوله :

هذا ابن هرمة ، قائماً بالباب بالله ربك ، إن دخلت ، فقل لها :

فقال له : لم أقل : « قائماً ، أكنت أتصدق ؟ . فقال : « قاعدا » ، فقال : أكنت أبول ؟ قال : فماذا ؟ قال : « واقفاً » ، وليتك علمت مابين هذين ، من قدر اللفظ والمعنى[1] .

بل إن الإحساس اللغوى ، قد يرهف ويدق ، فيختار من الكلمات ما يكون بين أصواتها وبين الموضوع ملاءمة ، بحيث يكون فيها تقليد للشىء الموصوف ، حتى كأنه يوحى به إلى الخاطر ، كما تحس بذلك فى كلمة « أرشف » من الشعر السابق ، وكما اختار المتنبى كلمة « تفاوح » فى قوله :

إذا سارت الأحداج فوق نباته تفاوح مسك الغانيات ورنده

فهى تدل بصيغتها ، على هذه الموجات النسيمية ، تحمل فى أردانها عبق المسك والرند . وكلمة صليل فى قوله :

وأمواه ، تصل بها حصاها صليل الحلى فى أيدى الغوانى

فهى تسمعك وسوسة المياه تداعب حصاها .

وبعض ألفاظ اللغة ، أسلس على اللسان وأجمل وقعاً على الأذن من بعض ،

---

(١) الوقوف لايقتضى الدوام والثبوت ، أما القيام فيقتضيهما .

وهو جمال ظاهرى ، يساعد الأديب على إيصال تجربته . وعلماء البلاغة يذكرون من صفات الألفاظ المفردة ما يصح أن تلتمسه هناك .

وفضلا عما للكلمات من خصائص يدركها إحساس الأديب ، كذلك النظم فى العبارة الأدبية ، يحمل معنى أكثر مما تؤديه الجملة ، بجريها على النحو ، فإن هناك قوى يبثها المؤلف فيها ، عن غير عمد حيناً وعن عمد حيناً آخر ، فنجده يقدم ، ويؤخر ، ويذكر ، ويحذف ، ويصل ، ويفصل ، ويأتى ببعض ألوان المعارف دون بعض ، وحيناً يدع المعرفة إلى النكرة ، وآنا يستخدم أداة من أدوات الطلب مكان أخرى ، أو يأتى بزخرفة فى مكانها ،وقد وصل علماء البلاغة إلى إدراك كثير من هذه الأسرار ، فعقدوا علما يتحدث عن خصائص الجملة ودعوه : علم المعانى ، وعلما للخيال الذى يعقد الصلة بين الأشياء ودعوه :علم البيان ، وآخر لبعض ألوان الجمال ، وسموه : علم البديع .

ولكن خصائص النظم ، لاتقف عند حد الجملة ، بل إن للأساليب خصائص ، فمنها ما يناسب الانفعال السريع ، والحركة المتوثبة ، ومنها ما يناسب العاطفة الهادئة ، والحركة البطيئة ، وقد يدفع الإحساس الفنى الأديب ، إلى انسجام فى النظم وموسيقى لفظية ، تساعد على الإيحاء ، وإن هذا الانسجام وهذه الموسيقى يصلان إلى الذروة فى فن الشعر ، وبذلك يستطيع الأديب أن يصل إلى أسمى درجات التأثير .

مجال الأدب بين مظاهر الشعور

يرى علماء النفس للشعور مظاهر ثلاثة : فهو تفكير ، إذا كان بحثاً عن حقائق الوجود ، لمعرفة أسبابها ، واستنباط قواعدها ، وإدراك ما بين بعضها وبعض من صلة أو تنافر . وهو وجدان ، إذا صحبه إحساس باللذة والألم ، فالحب والبغض ، والسرور والحزن ، والرجاء واليأس ، والخوف والغضب ، كلها وجدانات تتصل بالنفس ، فتحدث بها لذة أو ألما . وهو إرادة إذا حفز المرء إلى العمل ودفعه إليه ، كالرغبات والنيات .

وإن بين هذه المظاهر النفسية اتصالا وثيقاً لا يتأتى معه انفصال واحد عن صاحبيه ؛ وإن كان المظهر الغالب لأحدها ؛ فمن المحال أن نجد ألماً فى أنفسنا من غير أن نبحث عن سببه ، ونبذل طاقتنا فى سبيل إبعاده . ويستحيل أن نفكر فى عمل عقلى ، من غير أن نشعر بارتياح إذا سهل الأمر وانقاد ، وامتعاض إذا اعتاص والتوى . والأعمال الإرادية يصحبها التفكير والوجدان ، ولا تستقل بنفسها أبداً .

غير أن الصلة التى تربط هذه المظاهر بعضها ببعض ، قد تكون طبيعية ، إذا كانت التجربة نفسها تستدعى هذا الترابط ، بطريق تداعى المعانى ، كما إذا وصل إليك نبأ نجاحك مثلا ، فإن خواطر شتى تفد إلى نفسك من كل صوب ، ما بين سرور وابتهاج بما ظفرت به ، وتفكير فى الوسائل التى انتهجتها ، فوصلت بك الى تلك الغاية السعيدة ، الى رغبات وعزمات تصمم عليها ، ويدفعك إليها هذا الظفر المحبوب ، وبينما ترى بعض هذه الخواطر واضحاً جلياً للنفس ، يحتل بؤرة الشعور أو الحواشى القريبة منها ، تجد بعضها الآخر غامضا خفيا ، لا تكاد تشعر به . وتكون الصلة غير طبيعية إذا لم تكن التجربة مستدعية لها بطريق تداعى المعانى ، كما إذا

كنت تدرس نظريات الهندسة ، فسئمت العمل وتركته ، فليس بين نظريات الهندسة والسأم من صلة .

ليس التفكير الخالص بميدان للأدب ، وإنما هو مرتع للعلم وحده ، أما الأدب فمجاله الإحساس بالحسن ، الذى يثير فى النفس لذة ، أو بالقبح الذى يبعث فيها ألما ، فالأدب تعبير عن هذا الإحساس ، وتصوير له ، فهو لسان الوجدان وترجمانه ، إذا كان العلم لسان التفكير والمبين عنه .

تسمع قول قريط بن أنيف يعاتب قومه الذين لم ينجدوه ، ويمدح بنى مازن ، لأنهم أخذوا بيده ونصروه :

لو كنت من مازن لم تستبح إبلى ... بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا
إذاً لقام بنصرى معشر خشن ... عند الحفيظة ، إن ذو لوثة لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زرافات ، ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات ، على ما قال برهانا
لكنّ قومى ، وإن كانوا ذوى عدد ... ليسوا من الشرّ فى شىء ، وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته ... سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا ... شنوا الإغارة فرساناً وركبانا

فالشاعر هنا يصور لنا نقمته على قومه ، وازدراءه كثرة عددهم ، لخورهم ، وجبنهم ، حتى ليقابلون ظلم ظالمهم بالصفح والغفران ، وإساءة المسيئين إليهم بالعفو والإحسان ، يلتمسون لضعفهم المعاذير ، من الخضوع لتعاليم الدّين ، فكأن الله لم يخلق غيرهم لخشيته : أما بنو مازن ، فهو معجب ببسالتهم وإقدامهم ، يمنعون حماهم أن يستباح ، ويجد أعداؤهم فيهم خشونة لاتلين ، يسرعون إلى نصرة أخيهم قبل أن يطلبوا منه برهانا على ماقال ، فلا عجب أن تمنىّ استبدال قومه بغيرهم .

تحدث الشاعر فى تلك القطعة عن إعجابه وسخطه ، أى عن إحساسه بالجمال والقبح ، ونجح فى تصويرهما ونقلهما إلينا ، مستعيناً على ذلك بألوان من الخيال ، تكاد تلمس بها خشونة جانب من نصروه ، وترى بها الشر مكشراً لهم عن أنيابه ، وتبصرهم طائرين لا يلوون على شىء ، وموردا هذه المناقضات التى ما كان يليق أن تكون ، ومتهكما بهم تهكما مراً لا ذعا ، ويشعر القارىء لهذا الشعر بلذة ، أثارها فينا نجاحه فى التصوير ، وبراعته فى التعبير .

بينما نحن لا نعد من الأدب هذه المقالات العلمية ، تخاطب التفكير وحده ، من غير أن تشرك الوجدان معه .

على أن الأدب قد يستعين بقضايا الفكر على تصوير هذا الإحساس ، كما فعل المتنبى ، عندما أراد أن يصور حيرته اليائسة من الوصول إلى أن يدرك كنه الحياة ، ومصير الوجود ، فقال :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم ... إلا على شجب ، والخلف فى الشجب (١)

فقيل : تخلص نفس المرء سالمة ... وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته ... أقامه الفكر بين العجز والتعب

وهنا نجد الطريق ممهداً للحديث عن هدف الأدب ، والحق أننا نقف بهذا الهدف عند حد الإثارة الوجدانية ، فلا نطلب منه أن يمدنا بأفكار صادقة عن الحياة ، ولا أن يثير فينا النزوع إلى الأعمال الصالحة ، أى أنه ليس مهمته التعليم والإصلاح ؛ وإن كان ذلك لا يمنع من أن يزودنا بالأفكار ، أو أن يحرك إرادتنا للعمل ، سواء أكان ذلك مقصوداً للأديب أم غير مقصود ، فقد يقف الأدب عند حد الإثارة الوجدانية فحسب ، كما فى أدب الطبيعة ، وشعر الغزل ، وكثير من

---

(١) الشجب : الهلاك .

المراثى ، والرسائل ، والمقالات العاطفية المحضة ، مثل قول حافظ يصف عاصفة مرت بالبحر الأبيض ، وهو يركب سفينة فيه :

عاصف يرتمى ، وبحر يغير أنا بالله منهما مستجير
وكأن الأمواج ، وهى توالى محنقات ، أشجان نفس تثور
أزبدت ، ثم جرجرت ، ثم ثارت ثم فارت ، كما تفور القدور
ثم أوفت ، مثل الجبال على الفلك ، وللفلك عزمة لا تخور
تترامى بجؤجؤ ، لا يبالى أمياه تحوطه أم صخور
أزعج البحر جانبيها من الشدّ ، فجنب يعلو ، وجنب يغور
وهو آناً ينحط من علو كالسيل ، وآناً يحوطها منه سور
وهى تزورُّ كالجواد إذا ما ساقه للطِّعان ندب جسور
وعليها نفوسنا خائرات جازعات ، كادت شعاعا تطير
فى ثنايا الأمواج والزبد المندوف ، لاحت أكفاننا والقبور

وقول القشيرى :

حننت إلى ريا ، ونفسك باعدت مزارك من ريا ، وشعبا كما معا
فما حسن أن تأتى الأمر طائعاً وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا
قفا ودعا نجداً ، ومن حل بالحمى وقل لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ، ما أطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا !
ولما رأيت البشر (١) أعرض دوننا وجالت بنات الشوق يحنَّ نزعا
بكت عينى اليسرى ، فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم ، أسبلتا معا
تلفتُّ نحو الحى ، حتى وجدتنى وجمت من الإصغاء ليتا وأخدعا (٢)

---

(١) اسم جبل .
(٢) الليت : صفحة العنق . والأخدع : عرق فيها .

وأذكر أيام الحمى ، ثم أثنى على كبدى ، من خشية أن تصدعا
وليست عشيات الحمى برواجع إليك ، ولكن خل عينيك تدمعا

وقول ابن الرُّومى يرثى ابنه :

بكاؤكما يشفى ، وإن كان لا يجدى فجودا ، فقد أودى نظيركما عندى
ألا قاتل الله المنايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى فلله ، كيف اختار واسطة العقد ؟!
على حين شمت الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد
طواه الردى عنى ، فأضحى مزاره بعيداً على قرب ، قريباً على بعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه فلم ينس عهد المهد ، إذ ضم فى اللحد
محمد ، ماشىء توهم سلوة لقلبى ، إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا فؤادى ، بمثل النار ، عن غير ماقصد
فما فيهما لى سلوة ، بل حرارة يهيجانها دونى ، وأشقى بها وحدى

وحينا يمدنا بمعلومات عن الحياة ، ونظم الكون والمجتمع ، على شريطة أن يكون ذلك ممتزجا بشعور الأديب ، وناشئاً عن تجربة شخصية له ، كما ترى ذلك فى ألوان الأدب الاجتماعى والسياسى ، وفى شعر الحكمة ، كقول زهير :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ، ويوطأ بمنسم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه ، يستغن عنه ، ويذمم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يمد حمده ذما عليه ، ويندم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس، تعلم
لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقول المتنبى :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا ... مضر، كوضع السيف فى موضع الندى
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لا بالحر الذى يحفظ اليدا
وقيدت نفسى فى ذراك محبة ... ومن وجد الإحسان قيدا تقيدا

وقوله :

إنما أنفس الأنيس سباع ... يتفارسن جهرة واغتيالا
من أطاق التماس شىء غلابا ... واقتساراً، لم يلتمسه سؤالا
كل غاد لحاجة يتمنى ... أن يكون الغضنفر الرئبالا

وقديماً عدوا حسن إيراد الحجة من البلاغة، وضربوا لذلك المثل بقوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه، قال : من يحيي العظام وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة، وهو بكل خلق عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً، فإذا أنتم منه توقدون، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى، وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن، فيكون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء، وإليه ترجعون » .

وحينا يثير الأدب فينا الإرادة، ويدفعنا إلى العمل، وأظهر ما يتجلى ذلك فى الخطابة، فإنها كثيراً ما ترمى إلى إثارة التفكير، المصحوب بالوجدان، المتبوع بالعمل، كخطبة عبد الله بن طاهر فى جنده، وقد تجهز لقتال الخوارج : « إنكم فئة الله، المجاهدون عن حقه، الذابون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به : من الاعتصام بحبله، والطاعة لولاة أمره ؛ الذين جعلهم رعاة

الدين ، ونظام المسلمين ؛ فاستنجزوا موعود الله ونصره ، بمجاهدة عدوه ، وأهل معصيته ، الذين أشروا وتمردوا ، وشقوا عصا الطاعة ، وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين ، وسعوا فى الأرض فسادا ، فإنه يقول تبارك وتعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » وليكن الصبر معقلكم الذى إليه تلجئون، وعدتكم التى بها تستظهرون ،فإنه الوزر المنيع الذى دلكم الله عليه ، والجنة الحصينة التى أمركم الله بلبامها ؛ غضوا أبصاركم ، واخفتوا أصواتكم فى مصافكم ، وامضوا قدماً على بصائركم ، فارغين إلى ذكر الله والاستعانة به ، كما أمركم الله ، فإنه يقول : « إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » أيدكم الله بعز الصبر ، ووليكم بالحيطة والنصر » .

فأنت تراه قد أثار وجدانهم ، بما عرضه عليهم ، من الأفكار ليدفعهم إلى الجهاد . وكما فى الآيات القرآنية التى ترمى إلى تحريك الإرداة ،مثل قوله سبحانه وتعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ؛ فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

وكقول الشاعر :

ديبت للمجد ، والساعون قد بلغوا جهد النفوس ، وألقوا دونه الأزرا
وكابدوا المجد ، حتى مل أكثرهم وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد تمرا ، أنت آكله لن تبلغ المجد ، حتى تعلق الصبرا

وأكثر ما يحرك الأدب الإرادة من غير أن يأمرها بذلك ، كما فى الروايات التمثيلية الخلقية والاجتماعية ؛ وكما فى كثير من الشعر ، وربما كان هذا هو ماحدا بالأقدمين إلى أن يوصوا أولادهم بحفظه ودراسته ، بل ربما كان هو المعنى الذى لاحظوه عندما وضعوا لهذا اللون من القول الجميل اسم الأدب .

قال معاوية لابنه: يابنى ،ارو الشعر ، وتخلق به، فلقد هممت يوم صفين بالفرار مرات ، فما ردنى عن ذلك إلا قول ابن الأطنابة :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإقدامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت : ... مكانك ، تحمدى ، أو تستريحى
لأدفع عن مكارم صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

وأنت ترى الشعر نفسه لا يطلب إقداماً ، ولا يحث على ثبات ، ولكنه حديث عن هذا النزاع الذى دار بنفس قائله ، وهو فى ميدان القتال ، وكيف استطاع أن يثبت فى هذا الميدان ، يحمله على الثبات ماض ملىء بالجهاد ، وهمة تأبى النقيصة ، وقلب موكل با كتساب المجد ، ونفس اعتادت الإقدام على المكاره ، وضرب هامات الأبطال ، دفاعاً عن مآثره ، وحماية لعرضه ، وليس فى الشعر سوى هذا . ولكن معاوية رأى فى صاحبه بطلا جديراً بالاقتداء .

وبما قدمناه يتبين أن الخلاف على أن الإصلاح الاجتماعى من أهداف الأدب خلاف ظاهرى ، يزيله تحديد معنى الأدب ، وتحديد مجاله ، أما وقد قلنا : إن كل ما فى الحياة يصلح أن يكون موضوعاً للأدب ، على أن يُتناول من ناحية إحساس الأديب ، بما فيه من جمال أو قبح ، فلا ضير على الأديب إذاً أن يتناول مسألة خلقية أو اجتماعية يعالجها ، أو أن يدعو إلى فضيلة ، أو ينهى عن مأثمة ، على شريطة أن يكون ذلك من تجاربه ، وأن يثير فينا الوجدان فيرضى فنعمل ، أو يكره فنكف .

الأديب حر فى أن يتناول ما يشاء من تجاربه ، من غير أن نضع له خطة ينتهجها ، وكل ما نطالبه به أن يرسم لنا شعوره ، ولذا نرى من الأدباء من أحس بجمال المشورة فمدحها ، كبشار بن برد ، إذ قال :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح ، أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم

ومنهم من لم يرفيها جمالا ، كعبد الملك بن صالح ، حين قال :

« ما استشرت أحداً إلا تكبر علىّ ، وتصاغرت له ، ودخلته العزة ، ودخلتنى الذلة ، فعليك بالاستبداد ، فإن صاحبه جليل فى العيون ، مهيب فى الصدور ، وإذا افتقرت إلى العقول ، حقرتك العيون ، فتضعضع شأنك ، ورجفت بك أركانك ، واستحقرك الصغير ، واستخف بك الكبير ، وماعز سلطان لم يغنه عقله عن عقول وزرائه وآراء نصحائه » . وكلا القطعتين من الأدب .

أما التعبير الإباحى ، فليس من الأدب ولا الفن الجميل ، لأننا نعنى بالإثارة تلك الإثارة الوجدانية الروحية الخالصة ، أما إثارة الغريزة الجنسية فليست من عمل الأدب ، ومثل هذا اللون من القول ، مثل الصور الخليعة الماجنة ، لا يعدان من الفنون الرفيعة .

علوم البلاغة والنقد الأدبى

اصطلح الباحثون على عد علوم البلاغة ثلاثة : المعانى والبيان والبديع ، يريدون بعلم المعانى ذلك العلم الذى يبحث فى أسرار تركيب الجملة ، والمعانى التى تفهم من تكوينها على نحو مخصوص ، وذلك ماعناه عبد القاهر بمعانى النحو[1] ، أى معانى نهج العرب فى تكوينهم الجملة ، ولذلك وقف بحث هذا العلم عند تأمل الفروق بين الجملة الاسمية والفعلية ، وتدبر أحوال المسند والمسند إليه ، ومتعلقات الفعل : من ذكر ، وحذف ، وتقديم وتأخير ، وإيثار معرفة على أخرى ، أو صيغة من صيغ الفعل على غيرها ، إلى ماسوى ذلك من بحث أسرار الجمال فى نظم الجملة العربية .

---

(١) راجع ص ٦٣ — ٦٩ من كتاب دلائل الاعجاز .

أما علم البيان ، فموضوعه ذلك التصوير ، الذى يهب الفكرة وضوحاً وقوة ، فيزيد تأثيرها فى نفس المخاطب ، أو القارىء ، بالالتجاء إلى الخيال المصور ، ومن أجل هذا كان موضوع درسه التشبيه ، والاستعارة ، والكناية ، والمجاز ، وهى صور توحى بالتجربة الشعورية أتم إيحاء .

ويتناول علم البديع تلك المحسنات المعنوية حيناً ، واللفظية حيناً آخر ، ممايزيد فى جمال اللفظ ، وقوة تأثيره ، ووضوح المعنى .

ولقد باعد بين هذه العلوم وبين ما كان يرجى لها من نهوض ، أن كتب دراستها قد امتزجت بدراسات فلسفية ، نأت بها عن تقدير الفن الأدبى ، وآلت الكتابة فيها إلى عبارات موجزة مركزة ، يسودها الغموض ، وتحتاج إلى الشروح والحواشى ، واعتمد مؤلفوها على أمثلة تطبيقية ، بعيدة عن روح الفن ، ولا أثر للبلاغة فيها . هذا فضلا عن الحاجة إلى مراجعة ماقرره العلماء من قبل ، ووضعوه كأنه قواعد ثابتة ، فهو فى حاجة إلى التصحيح والتقويم من جديد ، لخطئه فى بعض الأحيان .

ولا أريد أن أطيل فى بيان ما عليه علوم البلاغة الحالية ، من قصور ، وجفاف ، مما يحتاج إلى جهود متضافرة فى دأب ، لإنقاذ هذه العلوم ، والأخذ بيدها ، حتى تعود دراستها فنية أدبية ، فتقوم بدورها فى إمداد النقد بالقواعد الصالحة ، التى تدرس أسباب الجمال المودع فى الجملة . وليس الشعور بالنقص فى علوم البلاغة حديثاً ، بل قد شعر القدماء أنفسهم به ، فقالوا : إنها علوم لم تنضج بعد .

أما صلة هذه العلوم بالنقد الأدبى ، فهى من علوم الأدب الاثنى عشر ، التى تحدث عنها القدماء ، ومن الخير أن نتبسط قليلا فى الحديث عن هذه العلوم ، لنرى مدى اعتماد النقد الأدبى عليها .

فمن تلك العلوم ما يعود إلى دراسة الكلمة المنفردة حيناً ، من حيث مادتها ،

وهو مادعوه علم اللغة ، وحيناً من حيث انتساب بعض الكلمات إلى بعض بالأصلية والفرعية ، وسموا ذلك علم الاشتقاق ، وحيناً آخر من حيث صورة الكلمة وهيئتها مما يدرس فى علم الصرف .

ومن تلك العلوم ما يعود إلى الجملة ، من حيث أداؤها للمعنى الأصلى ، ويعنى بذلك علم النحو ، أو من حيث إنها تفيد بنظمها معانى أخرى غير منطوق بها ، كالمعانى التى نستفيدها من تقديم الكلمة حيناً ، أو تعريفها حيناً ، إلى غير ذلك مما يبحث عنه علم المعانى ، أو من حيث إن الجملة تؤدى معناها بطريق الحقيقة ، أو مستعينة بالخيال ، وهو مايبحث عنه علم البيان ، ويلحقون بهذين العلمين علم البديع ، الذى يعمد إلى التأثير فى النفس ، من حيث الصناعة اللفظية أو المعنوية .

ومن تلك العلوم ما يعود إلى الشعر ، فيبحث فيه من حيث وزنه ، وذلك علم العروض ، أو من حيث قوافيه ، ومايعتورها من الصحة والسقم ، وهو علم القوافى .

كل هذه العلوم التى ذكرناها تدرس المفرد ، أو الجملة والجملتين ، أما النظر إلى النص النثرى برمته ، وإلى القصيدة كلها ، فقد وضع له الأقدمون علمين ، هما علم الشعر ، وعلم النثر .

وقل من كتب من العلماء فى هذين العلمين . ولعلنا نستطيع أن ندخل فى علم النثر دراسة الأساليب وألوانها ، وما يجب أن يكون هناك من صلة بين الأسلوب والموضوع ، وندخل فيه كذلك دراسة خصائص كل فن من فنونه ، فندرس المقالة ، والقصة ، والرواية ، والرسالة ، والخطبة ، مبينين ميزة كل لون من هذه الألوان ، لا من الناحية اللفظية فحسب ، ولكن من الناحية المعنوية كذلك ، فنرسم منهج كل نوع فى تناول معانيه .

ونستطيع أن ندخل فى علم الشعر تنوع بحوره ، ومناسبة كل بحر لعاطفة خاصة ، وموضوع خاص ، وندخل فيه أيضاً حديثاً عن القافية ووحدتها ، أو

تعددها ، وأثرها الموسيقى ، وحديثاً عن ألوان الشعر ، من عاطفى ، وروائى ، وقصصى ، وما يمتاز به كل لون من خصائص وسمات ، مع العناية التامة بناحية المعانى وطرق تناولها ، كما ندرس كذلك معنى العاطفة وأنواعها ، وألوان الخيال ، وقيمة الحقائق فى النصوص الأدبية . وقد ألم القدماء ببعض هذه النواحى ولكنهم لم يوفوها حقها من البحث والتحليل .

ولم ينس القدماء أن الأدب يعتمد على المعرفة ، وأن الأديب محتاج إلى أن يلم بخلاصة وافية لمختلف الثقافات ، فذكروا من بين علوم الأدب ، علم المحاضرات ، يريدون ما يعبرون عنه ، بأن على الأديب أن يأخذ من كل فن بطرف ، وهذه المعارف هى التى يتكىء عليها الأديب فى تصوير شعوره بالجمال أو بالقبح ، ولذا ترى الأديب فى حاجة إلى علم النفس ، والتاريخ ، والاجتماع ، مثلا ، عندما يضع رواية تمثيلية ، يحلل فيها نفوس الشخصيات ، أو يصف عصراً من عصور التاريخ ، أو يتناول مشكلة من مشاكل الاجتماع ، وهو محتاج إلى تلك العلوم وغيرها ، عندما يضع قصة ، أو أقصوصة ، أو عندما يضمن إنتاجه حقيقة من حقائق الحياة .

وهنا يجدر بنا أن نبين أن الشاعر أو الكاتب ، قد يوحى إليه شعوره تفسيراً لمظهر من مظاهر الكون يخالف تفسير العلم له ، فيوزن الأديب حينئذ بمقدار طبيعة هذا الشعور وصدقه ، لا بمقدار ما فيه من الحقائق . خذ مثلا لذلك قول شوقى يناجى النيل :

من أى عهد فى القرى تتدفق ... وبأى كف فى المدائن تغدق ؟ !
ومن السماء نزلت ، أم فجرت من ... عليا الجنان جداولا تترقرق ؟ ؟

فالحقيقة الجغرافية لمنابع النيل معروفة ، ولكن عظمة النيل وجلال ماله من أياد ، حتى لكأنه يفيض سلسبيلا من عليا الجنان ، أوحيا إلى شوقى بهذا التساؤل الشعرى البارع .

تلك هى علوم الأدب ، أما الأدب نفسه : شعره ونثره ، ففن من الفنون

الجميلة ، وهو لذلك ينبع من الموهبة ، ويفيض من الفطرة ، ثم تسدده هذه العلوم وتهدى خطاه ، وإن نظرة إلى تلك العلوم نفسها ، تجعلنا نؤمن بأن الناقد حين ينقد ، فى حاجه إلى تلك العلوم نفسها ، عند تقدير النص الأدبى وتقويمه ، ومن أجل هذا صح لنا القول بأن تلك هى علوم الأدب : إنتاجاً ونقداً ، فالناقد ، فضلا عن حاجته إلى العلوم اللغوية ، فى احاجة — كالأديب — إلى الإلمام بمختلف الثقافات ، حتى يستطيع أن يحكم على النص حكما صادقاً خالصاً .

أما النقد نفسه فكالأدب ، فن من الفنون ، يعتمد على الموهبة والفطرة ، ويتكىء على ما قدمنا من العلوم ، لبيان وجه جمال الجميل ، وقبح القبيح .

وقد طال الحديث عن صلة النقد بالذوق ، حتى لقد قيل إن النقد يعتمد على الذوق وحده ، وهذا صحيح إلى حد كبير ، فهذا الذوق هو الملكة الموهوبة ، التى يستطاع بها تقدير الأدب الإنشائى ، وإننا إذا تدبرنا حقيقة الأمر ، رأينا أن كل تعليل بلاغى ، هو تفسير لهذا الذوق السليم ، وتعليل عقلى له ، فليس تعليلك لجمال النص بأن فيه إيجازاً ، أو إطناباً ، أو حذفاً ، أو تقديماً ، سوى تفسير عقلى لذوقك الذى أحس بجمال النص .

وإذا كانت الملكات فى النفوس كالبذور ، تحتاج إلى التربة الصالحة ، والغذاء والماء فكذلك ملكة الأدب ونقده ، فى حاجة الى الرى ، والغذاء ، وذلك إنما يكون بدراسة ما أسلفناه من علوم ، وبالتملؤ من الأدب القوى ، وبالقراءة الأدبية الفاحصة ، والمران على تقويم النصوص ، والبحث عن أسرار جمالها ، ومناحى قوتها ، وبذلك يقوّم الذوق ويستقيم حكمه .

غير أن هذه التربة الصالحة التى يجب أن يغتذى الذوق منها ، تحتاج الى جهد جهيد ، وتضافر قوى الباحثين والدارسين ، حتى تصبح صالحة ، لإنتاج أبرك الثمرات ، ذلك أن من علوم النقد ماتم نضجه ، فلم يعد فى حاجة لغير تنظيمه ،

حتى يصبح الانتفاع به ميسوراً ، كعلم النحو ، والصرف ، والعروض ، والقافية، ومنها ما لم ينضج بعد ، بل هو فى حاجة الى معاودة النظر ، لتخليصه مما علق به مما ليس منه ، ولتصحيح أخطاء مضى عليها الزمن ، حتى استقرت صحتها فى الأذهان ، وهى غير صحيحة ، وتلك هى علوم البلاغة ، التى اختلطت بمسائل فلسفية، وملئت كتبها بأبحاث لفظية ، ومناقشات جدلية ، باعدت بينها ، وبين أداء رسالتها ، أداء كاملا غير منقوص ، وحسبى أن أشير إلى شروح التلخيص وحواشيه التى تضل البلاغة فى ثناياها وشعبها ، فلا تهتدى إليها . وحسبى كذلك أن أشير إلى ما فى باب التشبيه ، من أخطاء فى القواعد الموضوعة ، من وقوفهم عند حد الحس فى التشبيه ، وجعلهم البعيد الغريب فى التشبيه أبلغ أنواعه ، الى غير ذلك ، من أحكام تحتاج الى مراجعة النظر ، للوصول فيها الى حكم صحيح .

ومن تلك العلوم مالم يدرس الى اليوم ، سوى أشتات مبعثرة ، ونعنى بذلك علمى الشعر والنثر ، وقد أبنّاهما فيما مضى ، فلا عجب اذاً أن نرى النقد الأدبى متعثراً فى خطاه الى اليوم ، فإننا لم نهيىء له التربة الصالحة لنموه وإثماره ، وإذا أردنا أن ينهض النقد ليؤدى رسالته ، فلنهذب علومه ، ولنضع ما نقص منها ، جاعلين هدفنا من ذلك كله ، تربية ذوق صالح سليم .

القراءة الأدبية

هى تلك التى يحاول القارىء فيها ، أن يستحضر فى نفسه التجربة ، كما مرت بالأديب المنشىء ، وإذا كان الأديب يتخذ لنقل تجربته ألفاظاً يختارها ، توحى إلى قارئه بمشاعره ، فالقراءة الأدبية ، هى التى يقف القارىء فيها أمام كل كلمة فى النص الأدبى ، يتبين ما توحى به ، ويرى ما يحيط بها من الظلال ، ويتأمل سر اختيارها ، ليستخلص كل ما فيها ، من خواطر ومعان ، فيمارس التجربة التى مارسها المنشىء ، ويعيش اللحظة التى عاشها . ومن هنا قالوا : إن الأدب يضيف عمراً إلى عمر قارئه ، بسبب هذه التجارب التى يستحضرها ، ويشعر بها نفسه .

ويمر القارىء للأدب بثلاث مراحل ، فالمرحلة الأولى هى التى يقرأ فيها النص الأدبى ليعيش فى تجربته ، والمرحله الثانية هى مرحلة النقد ، وفيها يدرس القارىء ألفاظ النص ، ليرى قدرتها على التعبير عما أراده الأديب ، أو عجزها عن ذلك ، وفى المرحلة الثالثة ينقد ما يكون قد اشتمل عليه ، من معان وآراء ، فيرى خطأه وصوابه ، وصدقه أو كذبه ، ولن يستطيع القارىء أن يصل إلى المرحلة الثالثة ، إلا إذا عاش التجربة كما عاشها منشئها ، وتقمص شعوره ، وحينئذ يحكم بصواب ما قرأ أو خطئه ، فالقراءة الأدبية ألوان ثلاثة : قراءة متذوقة ، وقراءة ناقدة ، وقراءة حاكمة . ولكى نتبين كيف يُقرأ الأدب قراءة متذوقة ، نأتى ببعض المثل ؛ لنرى تلك الآفاق الواسعة التى يفتحها أمام أنفسنا ذلك النوع من القراءة .

قال البحترى فى وصف الربيع :

أتاك الربيع الطلق ، يختال ضاحكا ... من الحسن ، حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النيروز فى غسق الدجى ... أوائل ورد كن بالأمس نوّما

يفتقها برد الندى ، فكأنه يبث حديثاً ، كان قبل مكتما
فمن شجر ، رد الربيع لباسه عليه ، كما نشرت وشياً منمنما
ورق نسيم ، الريح حتى حسبته يجيء بأنفاس الأحبة نعما

ترى الشاعر قد جاء بكاف الخطاب فى أول حديثه كأنما ينبه من يخاطبه إلى أن جمال الطبيعة فى هذا الفصل قد جاء إليه ، وكأنه يدعوه إلى الابتهاج به ، والفرح بمقدمه ، وفى تعريف الربيع (بال) العهدية ، ما يثير فى النفس ما ألفته فى هذا الفصل الرائع من جمال وحياة ، وفى اختيار كلمة (الطلق) ما يوحى بمعنى الحرية التى يشعر الناس بها فى الطبيعة ، فليس فيها شذوذ بسحب متراكمة ولا مطر ، ولا أوحال فى الطرق ، تقيد الناس وتحبسهم فى بيوتهم ، ويشعرون بها فى أنفسهم ، أما فى الربيع فهم غير مقيدين بمنازلهم حيناً ، وبنوع من الملابس حيناً آخر ، وتأمل كلمة (يختال) فلعلها تصور لك اختيال الأزهار يداعبها مر النسيم ، وفى تعبيره (يختال ضاحكا) ما يوحى إليك بأن الشاعر لم يحس بالربيع مظاهر تراها العين فحسب ، ولكنه حياة تتدفق فى جميع أرجاء الكون ، فيهتز عطفه اختيالا ، ويبتسم ضاحكا ، ويزداد شعور الشاعر بهذه الحياة ، ويقوى إحساسه بإفصاح الربيع عن جماله وبهائه ، فيخاله يكاد يتكلم ويبين ، ويطرد إحساس الشاعر بحياة الربيع ، فيرى هذه الأزهار التى تملأ الجو بأريجها مخلوقات ، كانت تغط فى نوم عميق ، فجاءها الربيع ينبهها أن تستيقظ من رقادها ، وكأنما زارها فى الدجى ، يؤكد ألا يسفر وجه الصباح ، حتى تكون قد أخذت بهجتها وازينت ، كى لا يضيع عليها شىء من جمال النهار ، وذاك هو السر فى تنبيه الربيع لها ، فى غسق الدجى ، ثم ألا ترى فى استخدام (ورد) هنا ما يحمل إليك أريج أزهار الربيع ، وفى استخدام كلمة (أوائل) ما يشير إلى نشاط هذه الزهرات الأولى من أزهار الربيع ، وفى اختيار كلمة (نوّم) ما يوحى إليك بما كان فيه الزهر من غفلة عن جمال الحياة ، قبل أن ينبهه فصل

الجمال وإن هذه الغفلة والنوم ليحتاجان إلى إيقاظ عنيف ، ولذلك استخدم الشاعر كلمة (يفتق) التى تدل على شىء من العنف ، ثم ألا ترى أن الدفء مبعث اللجاج فى النوم ، فمن المعتاد أن البرد يوقظ النائم ، وبذلك ترى السر فى اختيار (برد الندى) وسيلة لايقاظ الأزهار ، ولما كان شعور الشاعر بتدفق الحياة فى الكون قويا دافقاً ، أحسن كأن هذا الورد يفشى سراً ، كان يخفيه ، واختار لتعبيره كلمة (يبث) التى تشعر بأن الحديث الذى يذيعه الورد حديث فى خفوت يشبه الهمس ، وقال (مكتما) لينقل إلى نفسك ما كان عليه جمال الزهرة قبل تفتحها من سرية محجوبة لا تبين ؛ فكثير من الزهر يتشابه قبل أن تتفتح أكمامه ، ويقف المرء أمامه ، لا يتبين ما يكون عليه أمره ، بعد أن يتفتح ، فجماله سر مكتم لا ينم عنه شىء ، واختار الشاعر كلمة (حديث) التى توحى بهذا التجاوب النفسى بين الطبيعة والإنسان .

وبهذا استطاع الشاعر ، أن يصور لنا إحساسه الروحى بجمال الربيع ، ولكنه لم ينس حظ العينين من هذا الجمال ، فحدثنا عن الشجر ، وقد استعاد خضرته ونضارته ، ودبجته الأزاهير ، واختار الشاعر كلمة (رد) التى توقظ فى نفسك ما كان عليه من تجرد ، لا تبهج العين رؤيته ، إذا ساب ثيابه ، فعاد حالياً بزينته وحليته ، واستخدم الشاعر كلمة (نشَّر) المضعَّفة الدالة على التكثير ، ليصور لك هذا المعرض الحى من معارض الطبيعة ، وكلمة (منمنم) توحى بدقة الوشى كأنما نسجته يد صناع ، (ورق) توقظ فى النفس موازنة بين نسيم الربيع وهواء الشتاء الكثيف ، وفى كلمة (حتى) ما يدل على عمق الشعور برقة هذا النسيم ، والتلذذ به ، وفى المجىء بكلمة (أنفاس) جمعاً وإيثارها على المفرد ، ما يوحى بأن نسيم الربيع يجىء متقطعاً ، كالأنفاس ، حتى لا يمل ، ووصف الأحبة بالنعمة يوحى إليك بالهدوء ، فليست هى بزفرات حارة ، يخرجها صدر يحترق بالحب .

وهاك بيتاً[1] من الشعر ، قال الأصمعى عنه : أنه أهجى بيت قالته العرب ، وهو :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهمو قالوا لأمهم : بولى على النار

فكل كلمة فى هذا البيت تكاد تنطق بالهجاء والذم ؛ فتنكير (قوم) لتحقيرهم ، والإشارة إلى أنه لولا هذه الصفات التى تسمهم ، لكانوا نكرة فى الصحراء ، لا يأبه بهم أحد ، والإيحاء بأن هذه الصفات الدنيئة إذا ذكرت ، وسمتهم ، فصاروا بها معروفين مميزين ، وكلمة (إذا) وهى تفيد الشرط ، تدل على أن مقدم الأضياف إليهم إنما هو فى أوقات معينة قليلة ، وليس ذلك بعادة دائمة (والسين والتاء) فى استنبح للدلالة على أن الأضياف كأنهم يمضون إلى الكلب ويعرضون له ، لينبح ، أما هو فيغط فى نوم عميق ، فليس لديه ما يحرسه ، ولم ير من قبل غرباء يطرقون هؤلاء القوم ، فلم يجد عملا فنام ، وربما كان عدم نباح الكلب ، لهزاله وضعفه من الجوع الذى يقاسيه فى صحبتهم ، وجاء (بالأضياف) جمع قلة ، ليؤذن بان من يقصد هؤلاء القوم عدد محدود قليل ، ونسب القول إليهم فى (قالوا) وهو قول مزر ، للإشارة إلى سوء أدبهم ، وامتهانهم لأمهم ، والمجىء بلفظة (أم) وهى تستدعى أعظم ألوان التقدير ، يوحى بما آلت إليه حال هذه الأم عندهم ، من هوان وضعة ، حتى صارت لديهم فى منزلة أقل من منزلة الخادم ، وإضافة الأم إليهم ، إشارة إلى لؤمهم ، ومبالغة فى تحقيرهم ، وإيذان بأنه ما كان ينبغى أن يعاملوها تلك المعاملة ، وهى أمهم ، وأنطقهم بلفظ (البول) وهو مما يثير شيئاً تتقزز منه النفوس ، إيماء إلى جفوتهم ، وأنهم لم يهذبوا ، ويصقلوا ، وتوجيه هذا الأمر إلى أمهم ، فيه ما فيه من التشنيع عليهم ، وفيه كذلك أنهم يبخلون بالماء ، فيستعيضون عنه بالبول ، وأن نارهم ضعيفة خافتة ، تكفى بولة عجوز لإطفائها ، وأتى الشاعر بحرف الجر : « على » الدال على الاستعلاء ؛ ليرسم صورة منفرة ، وهى صورة الأم ، وقد

---

(١) راجع فنون الأدب ص ٣٥ .

علت النار تبول عليها ، وتعريف النار إشارة الى تلك النار المعهودة التى يستطاع اعتلاؤها والبول عليها ، ولم ينسبهم الشاعر إلى البخل صراحة ، وإنما أخبر عنهم بما يدل على أقبح ألوان هذا البخل .

وهذه آيات من القرآن الكريم نقف عندها ، لنقرأها تلك القراءة الأدبية المتذوّقة ، قال تعالى : (ومن الناس مَن يقول : آمنا بالله وباليوْم الآخر ، وما هُم بمؤْمنين ؛ يُخادعون اللهَ والذين آمنوا ، وما يَخدعون إلا أنفسهمْ وما يشعرون ؛ فى قُلوبهم مرضٌ ، فزادهُم الله مرضاً ، ولهم عذابٌ أليم ، بما كانوا يَكذِبون ؛ وإذا قيل لهم : لا تُفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مُصلحون ؛ ألا إنهم هُمُ المفسدون ، ولكن لا يَشعرون ؛ وإذا قيل لهم : آمِنوا كما آمنَ الناس ، قالوا : أنؤْمن كما آمن السفهاء ! ألاَ إنهمْ همُ السفهاء ، ولكن لا يَعلمون ؛ واذا لَقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خَلوْا إلى شياطينهم ، قالوا : إنَّا مَعكم ، إنما نحن مُستهزئون الله يَستهزىء بهم ، ويَمدُّهمْ فى طُغيانهم يَعمهون ؛ أولئك الذين اشترَوُا الضلالةَ بالهُدَى ، فما ربحتْ تِجارتهم ، وما كانوا مُهتدين . مثلهم كمثل الذى استوْقدَ ناراً ، فلما أضاءتْ ما حَوْله ، ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظُلمات ، لا يُبصرون ، صُمٌّ بُكم عُمى فهم لا يرجعون ؛ أو كصيب من السماء ، فيه ظُلماتٌ ورَعدٌ وبَرقٌ ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذرَ الموت ، والله مُحيطٌ بالكافرين ؛ يكاد البرق يخطف أبصارَهمْ ، كلما أضاء لهم مَشوْا فيه وإذا أظلمَ عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهمْ ، إنّ اللهَ على كلّ شىء قدير) .

الا ترى فى اختيار كلمة الناس وعمومها ، عدم مجابهة المنافقين بتعيينهم ، وفى ذلك ستر عليهم ، وإغراء لهم بالإقلاع عن نفاقهم ، ذلك أنه ، ما دموا لم يعينوا ، من المتوقع أن يصغو إلى القرآن ، فربما انصرفوا عن غيهم ، إذا استمعوا إلى

تصوير حال ضلالهم ، وما هم فيه من حيرة واضطراب ، ولو أنه جبههم بكشف الستار عنهم ، لانصرفوا معرضين عن الإصغاء ، فلا يكون ثمة أمل فى هدايتهم ، وكلمة يقول ، توحى بأن إيمانهم لم يتعد أفواههم ؛ وأجرى على ألسنتهم الإيمان بصيغة الماضى ، ليوهموا سامعيهم أنهم قد دخلوا فى الإيمان منذ زمن بعيد ، زيادة منهم فى التمويه والخداع ، وخص الإيمان بالله وباليوم الآخر ، لأن الإيمان بهما يجمع كل ما يجب الإيمان به ، من كل ما يصل الإنسان بربه ، أو يصله بالناس ، واختار فى الرد عليهم الجملة الاسمية فى النفى ، ليدل بها على استقرار هذا النفى وثباته .

هؤلاء المنافقون إنما يخدعون بعملهم هذا الذين آمنوا ، ولكن القرآن جعل الخداع لله ، سخرية منهم ، واستهزاء بقولهم ، واستخدم الفعل المضارع هنا ، يصور به حالهم ، ويحضر هذه الصورة أمام عين السامعين ، واستخدم أداة القصر وهى ما وإلا ، ليردّ عليهم ردًّا حاسماً ، يبين أن خداعهم لن يضرّ أحداً غيرهم ، ولكن يصيبهم وحدهم أذاه ، وأوقع الخداع على أنفسهم ليكون ذلك مثار العجب أن يفعل ذلك من لديه مسكة من عقل ، وفى (ما يشعرون) تصوير صادق لهؤلاء المنافقين ، الذين لا يدركون مغبة خداعهم ، واستخدام كلمة مرض ، لما أصابهم من تغليب الهوى على العقل ، يوحى إلينا بأن عقولهم ، وقد تغلب عليها سلطان الهوى ، صارت غير مستطيعة أن تفكر تفكيراً سليماً ، وأن تقوم بوظيفتها التى خلقت لها ، كالجسم يصاب بالمرض ، فلا يستطيع أداء وظيفته ، وفى الدعاء عليهم بزيادة المرض ، إيذان بغضب الله وسخطه عليهم ، واستخدام (فى) فى هذه الجملة ، يؤذن بتمكن المرض من قلوبهم ، فكأنما انطوت قلوبهم عليه ، وفى كلمة (أليم) والعذاب لا يكون إلا مؤلماً ، إبراز لأهمّ خصائص العذاب ، واختيار (كان) والمجىء بخبرها فعلا مضارعاً ، يؤذن باعتيادهم الكذب ولجاجتهم فيه ، وجاء بالواو فى قوله :

وإذا قيل لهم ، إشارة إلى مأثمة جديدة من آثامهم ، وأتى بالفعل : (قيل) مبنياً للمجهول مؤذناً بأن من الواجب عليهم أن ينظروا إلى القول من حيث هو ، بقطع النظر عن قائله ، وألا يجعلوا للقائل دخلاً فى تقديرهم ووزنهم ، واختار كلمة (الفساد) ليصور بها ما يقوم به هؤلاء المنافقون ، من تشكيك المؤمنين وتخذيلهم عن نصرة الرسول ، وبثّ الفتن فى الأرض ، ونسب القول إليهم فى قالوا ليبين مدى تبجحهم ، وأنهم لا يبالون أن يقلبوا الحقائق ، ويطمسوا معالمها ، أماردهم ، فقد استخدموا له أداة من أدوات القصر ، يريدون بذلك نفى الإفساد عنهم نفياً باتاً ، وأن عملهم لا يعدو الخير والصلاح ، وبالغوا فى ذلك حتى أو هموا أن نفوسهم قد قصرت على الإصلاح ، قصراً فهى لا يمكن أن تلم بفساد ، واختاروا من أدوات القصر (إنما) التى تدل على أن الأمر من الوضوح ، بحيث لا يحتاج إلى دليل ولا برهان ، مبالغة منهم فى التمويه والخداع ، واستفتح الرد عليهم بألا ، ليسترعى الأذهان إليه ، حتى تتنبه إلى الرد ، ولا يفوتها منه شىء ، وبدأ الجملة بالتأكيد ، لأنه فى مقام يريد أن يقتلع من الأذهان دعواهم العريضة فى الإصلاح ، وهم الثانية ضمير فصل يؤكد الإسناد فى الجملة ، وتعريف الطرفين يفيد قصر المسند على المسند إليه ، فكأن الإفساد مقصور عليهم ، لا يبرحهم إلى سواهم ، وجاء بلكن ، يريد أن يخبرنا بخبر جديد عن هذه الطائفة التى انحصر الإفساد فى بنيها ، وأنه كان خليقاً بهم أن يدركوا هذه الحقيقة ، لو كان عندهم قدر من شعور ، أما وهم قوم لا يشعرون ، فذاك هو السر فى خفاء هذه الحقيقة البينة عنهم ، وفرق فى التعبير بين (وما يشعرون) فى الآية السالفة ، (ولكن لا يشعرون) فى تلك الآية ، فالجملة الأولى فى مكانها تنبىء بأن حركة خداع النفس تمر بهم ، من غير أن يتنبهوا إليها ، فهو لا ينفى الشعور عنهم مطلقا بل ينفى شعورهم بخداع أنفسهم ؛ أما فى هذه الآية فليس إفسادهم مما يقع منهم بلا شعور ، بل هم يفعلون عن رغبة

وإصرار ، ولـكنهم قد فقدوا التفـكير ، الذى يزنون به الأمور بميزانها الصحيح .

وتستطيع أن تمضى فى قراءة الآية التالية ، كما مضيت فى هذه الآية ، وقف فيها وقفة عند كلمتى (الناس) و (السفهاء) تتبين فى الـكلمة الأولى مدى الأدب ، الذى استخدمه الداعى فى دعوة هؤلاء القوم إلى الإيمان ، فهو لم يقل لهم آمنوا كما آمن العقلاء مثلا ، فيـكون فى ذلك جرح لشعورهم ، بما قد يكون فيه من تلميح إلى ضعف عقولهم ، بل لم يزد فى دعوته على أن دعاهم إلى الدخول فيما دخل فيه عامة الناس ، وفى ذلك منتهى الرفق واللين ، أما ردهم ففيه تبجح ، وعنف ، فقد ادعوا سفاهة هؤلاء الذين آمنوا .

وقف كذلك عنـد كلمة « يعلمون » وتأمل سر اختيارها ، تر أن السفاهة إنما ترجع الى العقل والتفـكير ، فناسب ذلك نفى العلم عنهم . وأما الآية السابقة فإفساد بأعمال يُشعر بها فناسب هناك نفى الشعور .

وامض كذلك فى قراءة الآية التى ترسم ما عليه المنافقون من الخداع ، وما لهم من وجهين يقابلون المسلمين بأحدهما ، ويقابلون رؤساءهم بوجه آخر ، وقف عند كلمة خـلوا ، لترى ما توحى به إلى نفسك من جبن هؤلاء المنافقين ، الذين لا يستطيعون أن يظهر واما تـكنه قلوبهم ، إلا فى خلوة لا يراهم فيها أحد ، وقف كذلك عند كلمة شياطين ، يرادبها رؤساء النفاق ، وتأمل ماتوحى به من ضروب المـكر والدهاء والفساد والضلال ، وانظر كيف كشف المنافقون أنفسهم أمام رؤسائهم ، فى جملتين اثنتين ، دلتا على حقيقتهم ، فى الجملة الأولى : قالوا إنا معكم ، أكدوا لرؤسائهم شدة إخلاصهم لهم ، حتى لا يدعوا لهؤلاء الرؤساء سبيلا إلى الشك فى إخلاصهم ، بسبب مايظهرونه بألسنتهم للمؤمنين من الإيمان ، وفى (معكم) ما يشعر بهذا الرباط القلبى ، الذى يربط المنافقين برؤسائهم ، وفى اختيار القصر وأداته فى الجملة الثانية : إنما نحن مستهزئون ، ما سبق أن ذكرناه ، فـكأنهم

يقولون لشياطينهم : إن استهزاءنا بالمؤمنين عندما نقول لهم : آمنا ، واضح ، لا يمكن أن يكون سبباً لشككم فى إخلاصنا لكم ، وأن قلوبنا معكم ، واختاروا الجملة الاسمية يدلون بها على ثبوت هذا الخبر واستقراره .

واختار الله فى الرد عليهم أن يأتى باسمه دون صفة من صفاته ، ليوحى إلينا بهذا الجلال ، الذى يحيط بذلك الاسم المقدس ، وأنه هو الذى سيتولى الاستهزاء بهم ، وكلمة يستهزىء ، تصور هذا الجزاء الساخط ، الذى يقابل به الله استهزاءهم ، ليصور بأمر محسوس ، أمراً معنوياً ، هو تركهم فى ضلالهم لا يهتدون ، واختيار كلمة الطغيان ، توحى بالخروج فى قوة عن الطاقة المألوفة فى العصيان والفجور ؛ والعمه فى الآية ، يصور لنا مدى تردد هؤلاء القوم فى غوايتهم وأنهم لا يهتدون إلى الحق والصواب ، فهم فى حيرة من أمرهم كالأعمى ، يسير على غير هدى ولا اطمئنان .

وامض فى قراءة الآية التالية ، وتأمل وجه استخدام اسم الإشارة ، يشير به إلى طائفة قد اتصفت بتلك الصفات الخادعة ، وكان لها أثرها فى الحكم عليهم ، وفى كلمة اشترى ، مايدل على إيثار هؤلاء القوم للضلالة على الهدى ، واختار كلمة الضلالة هنا ، وآثرها على الكفر والنفاق مثلا ، ليتسنى بيان حال مااختاروه فى إيجاز ، ووضع الهدى بجوار الضلالة ، ليتأتى فى يسر معرفة مدى خسران هؤلاء القوم ، وضعف عقولهم ، ونفى الربح عن التجارة ، ولم ينفه عن المتجرين للإشارة إلى أن هذه التجارة بطبيعتها تجارة خاسرة ، يقطع النظر عن المتجرين بها ، وفى « ما كانوا مهتدين » إشارة إلى جهلهم ، باختيار هذه التجارة الخاسرة .

وفى الآية التالية تستوقفنا كلمة استوقد ناراً ، فنتبين فيها حال رجل ، قد أحاطت به حلكة الظلام ، فهو يطلب جاهداً ناراً تضىء له مسالك السبيل ، والسين والتاء يدلان على هذا البحث القوى والطلب الجاد ، وفى كلمة أضاءت ،

مايدل على أنه قد أوتى أكثر مما كان يطمح إليه ، فلقد كان يبحث عن نار ، أيًّا ما كانت ، فأوتى ناراً قوية أضاءت ما حوله ، غير أن ذلك لم يلبث أن مضى وزال ، واستخدام ذهب بالنور أقوى من ذهب النور ، لأن فى التعبير الأول دلالة على أن آخذاً أخذ النور ، ومضى به ، فكيف إذا كان الذاهب به هو الله ، وفى إضافة النور إليهم ، ما يشعر بأنهم كانوا قد اطمأنوا إلى النور ، وفرحوا به ، فيكون الذهاب به أشد إيلاما وأنكى ، وجمع ظلمة ، ليشير إلى هذا الظلام المتكاثف ، والحلكة المتراكم بعضها فوق بعض ، وتأمل بعدئذ هذه الصفات التى خرجوا بها عن أن يكونوا من البشر ، بل عن يكونوا من الحيوان ، ما داموا قد عطلوا مواهبهم ، ولم ينتفعوا بها ، وكان لنسق الصفات على وزن واحد أثر موسيقى مؤثر .

والآيتان التاليتان استمرار فى وصف حيرة هؤلاء المنافقين ، فمثّلهم القرآن بحال من حصرتهم السماء بصيب ، وفى هذه الكلمة مايوحى بقوة المطر وشدة بطشه ، فهو ليس بغيث ينقذ الأرض من ظمئها ، ولكنه مطر يصيبها ويؤثر فيها ، وفى النص على أنه من السماء ، ما يوحى بهذا العلو الشاهق ، ينزل منه هذا المطر الدافق ، فأى رعب ينبعث فى القلب من جرائه ، وفى المجىء بكلمة (فيه) ما يدل على أن هذه الظلمات ، والرعد ، والبرق كأنما سكنت هذا الصيب ، وكأنما تنزل معه من السماء ، وفى إيثار الظلمات جمعا ، على المفرد ما سبق أن أشرنا إليه ، وفى تنكيرها ، وتنكير الرعد ، والبرق ، ما يشير إلى أنها من القوة والإزعاج ، إلى درجة لا يستطاع تحديدها ، وفى كلمة الأصابع ما يوحى بهذا الذعر ، الذى استولى عليهم من شدة الأصوات الرعدية المرعبة ، فهم يحاولون إبعاد صوتها عنهم ، وكلما زادت شدة الصوت ، زادوا من إدخال هذه الأصابع ، علها تسد آذانهم ، واختيار كلمة يجعلون ، وإيثارها على يضعون مثلا ، للإشارة إلى أن أصابعهم لطول ماصارت فى آذانهم ، أصبحت كأنها مركبة معها ، أما الوضع فلا يستفاد منه هذا الثبات

والاستمرار ، وبرغم أن المعنى على أن كل فرد منهم يضع إصبعاً فى أذن ، لانستطيع أن نبعد عن أنفسنا هذا الجو الذى خلقه حولنا استخدام الجمع ، الموحى بمقدار الهلع الذى أصاب أفئدتهم ، لهذا الصوت المنكر ، حتى لكأنهم يريدون إبعاده، بوضع كل ما يملكون من أصابع فى آذانهم . وجمع الصواعق إيذان بما اصطلح على إزعاجهم من صواعق رهيبة ، لا صاعقة فحسب . وكلمة حذر تدل على شدة شعورهم بقرب الموت منهم ، وإسناد الإحاطة إلى الله فيه من الجلال والرهبة مافيه، واختيار كلمة محيط يدل على شمول العذاب لهم ، وإحاطته بهم من كافة الأرجاء ، فهم لايستطيعون الإفلات منه أينما ساروا ، وفى إيثار كلمة الكافرين على المنافقين، بيان لحقيقة حالهم ، وأن النطق باللسان لايغنى عن الحق شيئا .

تحدثت الآية الكريمة عن هذا الصيب ، وأن فيه ظلمات ورعداً وبرقاً ، وذكرت أن حال المنافقين فى خوفهم وهلعهم ، كحال السائر فى هذا الصيب ؛ لاضطراب حياتهم ، وخوفهم أن ينكشف أمرهم ، فهم فى اضطراب نفسى شديد، وشرحت الآية ما يصيب السائر من الفزع ، من جراء الرعد يصم أذنيه ، وتحدثت الآية الثانية عما أضمره لهم البرق والظلمات ، من إخافة وإرهاب ، فقال سبحانه : يكاد البرق يخطف أبصارهم ، وفى استخدام « يخطف » تصوير بأمر محسوس ، يبعث فى النفس خوفاً ، فكأن يداً تمتد نحو السائر تسلب منه نور عينه ، والمجىء بكلما يوحى بهذه اللهفة التى تملأ قلوبهم ، والرغبة فى الخروج من الظلمات المتكاثفة، فلا يكاد النور يبدد هذه الظلمة قليلاً ، حتى ينتهزوا الفرصة فيمشوا ، وإذا أظلم عليهم قاموا ، وفى كلمة (على) مايدل على شدة وطأة الظلام عليهم ، وفى « قاموا » مايوحى إليك بتكاثف الظلمات حولهم ، فلا يكادون يحركون أقدامهم ، عندما تطبق عليهم هذه الظلمات .

وهكذا تستطيع بالقراءة الأدبية أن تصل إلى تصور مايراد من النص أكمل

تصور وأوفاه . وبعد هذه القراءة المتذوقة ، تقف لترى مقدار ما فى هـذا النص من تلاؤم بين ألفاظه ومعانيه ، وتلك هى القراءة الناقدة كما ذكرنا ، فترى الآيات تصف هذا الاضطراب فى نفسية هؤلاء المنافقين ، وما يظنون أنهم يقومون به من خداعهم لله والمؤمنين ، وعنيت الآيات بوصف ضلالهم وخسرانهم ، برغم ما فى عصرهم من نور ، لايـكاد يضىء أمامهم الطريق قليلاً ، حتى يطبق الظلام مرة ثانية عليهم ، لأنهم لم يستعملوا آذانهم ، فيما خلقت له ، من الاستماع إلى صوت الحق ، ولا ألسنتهم فى التعبير عنه تعبيراً ينبعث عن قلوبهم ، ولا أعينهم فى الاهتداء بما ترى ، إلى الحق والصواب . ذلك موقفهم من دعوة الحق ، أما نفسهم المضطربة الخائفة ، فقد ضربت الآيات لها مثلا : هذا الذى يحيط به الصيب ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، وبهذا كله صورت الآيات من هؤلاء المنافقين ، صلتهم بالمجتمع الذى يعيشون فيه ، بين مسلمين وكافرين ، وموقفهم من النور الذى أضاء عصرهم ، وتغلغلت إلى أعماق نفوسهم ، فصورت خوفها واضطرابها ، وكل جزء من هـذه الآيات له قيمته فى هذا التصوير ، بحيث تستطيع أن تتخيل هؤلاء القوم ، وأن تستمع إليهم ، وقد التقوا بالمؤمنين ، فقالوا لهم : آمنا ، ومضوا إلى شياطينهم ، فقالوا لهم : إنا معكم ، وتتخيلهم وهم يعملون جهدهم ، على أن يوقدوا نيران الفتنة ، ويسعون فى الأرض فساداً ، فإذا قيل لهم : لاتفسدوا فى الأرض ، قالو : إنمـا نحن مصلحون ؛ وتستطيع أن تتبين هـذا المرض الذى أحاط قلوبهم بأكنة ، وخيل إليهم أنهم يستطيعون خداع المؤمنين ، بإظهار كلمة الإيمان لهم ، مع أنهم يضمرون لهم أشد ألوان الاحتقار والاستهزاء ، وأن تتصور موقفهم من الهـدى الذى سطعت شمسه أمامهم ، فـكانوا صماً عمياً ، فإذا تغلغلت فى أعماق قلوبهم رأيت الذعر ، قد استبد بها ، كما يستبد بمن أحاط به صيب ، فيه ظلمات ورعد وبرق .

ثم نحكم بعد ئذ على ما فى هـــذه المعانى من خطأ أو صواب ، وتناسق أو اضطراب ، وهى القراءة الثالثة الحاكمة ، وبما ذكرناه تتبين الدقة فى التصوير .

وهنا نشير إلى ما قد يتراءى فى تصوير المنافق فى تلك الآيات ، من وصفه بالإفصاح عن معتقده كما تدل على ذلك الآية : « وإذا قيل لهم : آمنوا ، كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء » ، وبإخفاء معتقده ، كما تدل على ذلك آية : « وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم إنما نحن مستهزئون » .

وليس بين الآيتين خلاف فى التصوير ، فالآية الأولى تبين نفسيتهم الحقيقية ، عند ما يعرض عليهم الإيمان فإنهم يقولون فى أنفسهم : أنؤمن كما آمن السفهاء ، وكأنهم لشدة شعورهم يجهرون بذلك ، أما الآية الثانية فتصف صلتهم الخارجية ، بالمؤمنين ، وأنهم يظهرون لهم الإيمان ، ويبطنون الكفر والنفاق ، فإحدى الآيتين تشرح نفسيتهم ، والثانية تتحدث عن اضطرابهم بين ما يظهرون وما يضمرون .

وبهذه القراءات الثلاث تستطيع أن تقول : إن النص الأدبى أصبح واضحاً فى نفسك تمام الوضوح .

المنهج الأدبى فى القرآن

وأعنى بالمنهج الأدبى ، هذا المنهج الذى يتجه إلى إثارة وجدان القارىء ، إثارة روحية رفيعة ، تحدث السرور فى النفس فتقبل ، أو تحدث فيها الألم فتأبى وترفض ، والقرآن غنى بذلك ، لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع ، ولكنه يتكىء عليه وعلى الوجدان ليستميل ، فهو فى وعده ووعيده ، وأوامره ونواهيه ، وقصصه ، ووصفه ، وابتهاله ، وتسبيحه ، بل وفى أحكامه ، وبراهينه ، لا يغفل هذه الناحية من نواحى النفس الإنسانية ، لأن العمل غالباً يرتبط بها ويقترن ، فالقرآن يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية ، ليصل إلى هدفه : من تهذيب النفس ، وحب العمل الصالح ، والإيمان بالله واليوم الآخر .

خذ مثلا قوله تعالى : « ومن يطع الله والرسول ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم : من النبيِّين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » . ألا تراه قد أثار فينا شعور الغبطة والابتهاج ، حينما نخيل لأنفسنا أننا إن أطعنا الله والرسول ، فسنكون رفقاء للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين . أولا ترى أن هذا الشعور بالفرح ، جدير بأن يدفع المرء إلى الانقياد والطاعة .

وخذ قوله تعالى : « يأيها الذين أوتوا الكتاب ، آمنوا بما نزلنا ، مصدقاً لما معكم ، من قبل أن نطمس وجوهاً ، فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » تراه قد اتكأ على إثارة الخوف فى النفس من أن تشوه الوجوه أو تطمس ، أو أن تحل اللعنة بأصحابها ، كما حلت بأصحاب السبت ، وهذا الخوف ، بما يحدثه فى النفس من ألم ، جدير أن يدفع الناس إلى التفكير

العميق للتخلص من أسبابه ، والخلوص من مأزقه ، ولا يكون ذلك إلا بالإيمان بما أنزل الله . وقل مثل ذلك فى قوله تعالى : « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا ، كلما نضجت جلودهم ، بدلناهم جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب ، إن الله كان عزيزاً حكيما » . فأى رعب ينبعث فى النفس ، عندما تتخيل أصحاب النار ، وقد نضجت جلودهم ، فبدلوا بها جلوداً غيرها ، لا تلبث أن تنضج كرة أخرى ، فتتبدل ، وهكذا دواليك . وأى خوف شديد يملك المرء من هذا المصير المؤلم .

وخذ مثلاً هذا الجزء من قصة إبراهيم ، وهو قوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟! إنى راك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل ، رأى كوكباً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى ، لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : ياقوم ، إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه ، قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئاً ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » ألا يملأ نفسك إعجابا هذا الحوار بين إبراهيم وأبيه وقومه ، وهذا التأمل من إبراهيم فيما يحيط به ، ويسترعى نظره فى الكون ، أولا تحس بالقلق الذى استبد بإبراهيم وهو ينشد الله ، وبالراحة التى غمرته عندما اهتدى إليه ، أولا تشعر بالغبطة كما شعر بها إبراهيم ، وهو يتجه إلى الذى فطر السموات والأرض ، أولا يثور

فى نفسك الرغبة فى هذا الأمن ، الذى يناله الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ؟! كل أولئك إثارات وجدانية تحركها فى نفسك هذه القصة ، فتحب إبراهيم ، وتعجب به ، ويدفعك ذلك إلى الاقتناع بما اقتنع به إبراهيم .

وخذ قوله تعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » ، فهو بتلك الآيات يثير فى النفس ، شعور الإجلال لعظمة الخالق ، الذى بنى السماء بناءً محكماً ، وزينها نهاراً وليلا ، ومد الأرض ، ورفع الجبال فى أرجائها ، وأنبت فيها بهيج النبات ، وشعور الإعجاب بهذا المطر ، ينزل من السماء فيحيي الأرض بعد موتها ، وينشىء الجنات ، ويرفع النخل باسقات ، ألا ترى أن شعور الإجلال والإعجاب يدفع إلى الإيمان بقدرة الله على البعث والنشور .

وخذ قوله تعالى : « يابنى إسرائيل ، اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإياى فارهبون ، وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل ، وتكتموا الحق ، وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين ، أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون » ، ألا تراه يثير فيهم شعور العرفان بالجميل ، عند ذكر نعمه التى أنعم بها عليهم ، وهذا العرفان بالجميل يدفعهم إلى الوفاء بالعهد ، والإيمان بما أنزل ، لا أن يقابل منهم بالجحود ، والنكران ، وإلباس الحق ثوب الباطل ، كما أثار فيهم غريزة حب النفس ، عندما أنكر عليهم دعوتهم الناس إلى الخير ، ونسيانهم أنفسهم ،

وهكذا اتصل الأمر والنهى ، بتلك الإثارات الوجدانية ، التى تحمل النفس على قبول الأمر والنهى .

وخذ فاتحة الكتاب ، وهى من آيات الابتهال والتسبيح ، تر فيها الإثارات الوجدانية واضحة جلية : فاتل قوله تعالى : « الحمدلله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبدو إياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » ترى الحمد قد قرن بما يثير فى النفس الحب والإجلال معاً ، فالله المنعم بجليل النعم ودقيقها ، مالك يوم الدين ، يبعث فى النفس الفرح عند انتهاجها الصراط المستقيم ، بأنها ستكون مع الذين أنعم الله عليهم .

ويقرن الله سبحانه وتعالى أوامره بإثارات عاطفية ، تدعو إلى قبولها والعمل بها ، وها هو ذا ، كما رأينا ، يذكر بنى إسرائيل بنعمه عليهم ، هذا التذكير الذى يدفعهم إلى عرفان الجميل ، فيوفون بعهده ، ويرهبونه ، ويؤمنون بما أنزل مصدقاً لما معهم .

ويذكرنا برقابته لنا حتى نخافه إذ يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً » (٤ : ٥٨) .

ويثير فينا النخوة التى تدفعنا إلى الدفاع عن الضعاف والنساء والأطفال ، ويصور لنا لهفة هؤلاء على من ينصرهم ، فيبعث فى نفوسنا إحساس الرفق ، وعامل الشفقة ، ويرسم لنا من يقاتل ذياداً عن أولئك مقاتلا فى سبيل الله ، واستمع إليه سبحانه يقول : « وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون : ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً ، واجعل لنا من لدنك نصيرا ، الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ،

والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » (٤ : ٧٦) :

واقرأ قوله سبحانه: « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ، فإنه عندما أمرنا أن ندفع بالحسنى أثار فينا تلك الرغبة فى أن نجد بجوارنا الناصر والمعين نستكثر منهما ، حتى لينقلب العدو بتلك المعاملة ، كأنه صديق حميم .

وعندما حثنا على الصدقة ، اتكأ على غريزة حب النفس ، تلك الغريزة التى تستكثر بمقدار ما تستطيع من الخير ، فأبان القرآن أن ما سنبذله من صدقة ، سوف يعود خيره علينا أضعافاً مضاعفة ، قال سبحانه : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » (٢ : ٣٦١) .

واستمع إليه ينهى عن نسيان الله ، فيذكرنا بعاقبة ذلك ، وأن الله سوف يصرف هؤلاء الناسين عن خيرهم فيفسقون ، ويصور لنا الفرق الشاسع بين أصحاب النار وأصحاب الجنة ، ويذكرنا بالفوز الذى يظفر به من لا ينسى الله ، قال سبحانه : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » (٥٩ : ١٩) .

واقرأ هذه الابتهالات الرائعة التى يمتزج فيها الخوف بالرجاء ، والتى انبعثت من قلوب آمنت وتأملت خلق السماء والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، إذ يقول سبحانه : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً ، وقعودا ، وعلى جنوبهم ،

ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ، ما ، خلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار ، ربنا ، إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا ، إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنو بربكم فآمنا ، ربنا فاغفرلنا ذنوبنا ، وكفّرعنا سيئاتنا ، وتوفّنا مع الأبرار ، ربنا ، وآتنا ماوعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد ، فاستجاب لهم ربهم ، إنى لا أضيع عمل عامل منكم : من ذكر أو أنثى » (٣ : ١٩٠ وما يليها) أو لا ترى هذا الابتهال المؤثر جديراً بهذه الخاتمة السعيدة ، فقد استجاب لهم ربهم .

والأحكام فى القرآن تقترن بما يثير الوجدان ، حتى تقبل النفس على العمل بها راضية مغتبطة ، وخذ أشد الآيات توغلا فى بيان هذه الأحكام ، مثل آية الدَّين ، ألا تراه فيها يدعو الكاتب إلى أن يكون عادلا فيما يكتب ، مذكّراً إياه بأن معرفته الكتابة منّة من الله عليه ، يجب أن تقابل بالشكر ، ومن شكرها أن يكتب كما يجب ، قال تعالى : « ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب » ، ويذكّر من عليه الحق بأن يتقى الله ، وهو يملى ماعليه من دين : « وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ، ولا يبخس منه شيئا » ، ويتكىء على غريزة التملك ، عندما تحدث عن الحكمة فى كتابة الدين ، إذ كتابته تحفظ المال ، وتبعد الريب عن النفس فى قيمته ، قال سبحانه : « ذلكم أقسط عند الله ، وأقوم للشهادة ، وأدنى ألا ترتابوا » وعندما حذرنا أن نضر الكاتب والشهيد ، ذكرنا بأن الإضرار بهما فسوق ، لا يرضاه الله . وانتهت آية الدَّين بتذكيرنا بأن الله عليم بكل شىء ، يعلم مافيه الخير لنا فيأمرنا به ، ويكون النجح فى القيام به .

وختم القرآن حديثه عن أحكام الميراث بقوله تعالى : « تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده ، يدخله ناراً خالد فيها ، وله عذاب

مهين » وفى ذلك كما ترى إثارة عامل الخوف والرجاء . وفى استدلالات القرآن تجد فيها تلك الإثارات الوجدانية أيضاً ، واقرأ قوله تعالى مبرهناً على وحدانيته : «أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ، لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله ربِّ العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لايعلمون الحق ، فهم معرضون ؛ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ؛ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » ، فهو يثير فى النفس إجلال الله بتلك الصفات التى سيقت له ، وانفرد بها ، فهو رب العرش ، لا يسأل عما يفعل ، ولايسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، وهم من خشيته مشفقون ، وذلك كله مما يسند الإيمان بوحدانيته . وقبل أن أختم هذا الفصل ، أريد أن أقف قليلا ، عند تلك الآيات التى قد يبدو فيها أنها تبعث إثارات جسمية ، من مثل قوله تعالى : « مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن ، لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، ولهم فيها من كل الثمرات ، ومغفرة من ربهم ، كمن هو خالد فى النار ، وسقوا ماء حميما ، فقطع أمعاءهم » . وقوله تعالى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش ، بطائنها من استبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما

تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » .

وقوله تعالى : « ان المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ، ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون، متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا وتبعتهم ذريتهم بإيمان ، ألحقنا بهم ذريتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء ، كل امرىء بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم ، كأنهم لؤلؤ مكنون » .

وقوله تعالى : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا : سلاماً سلاماً » ، ونحو ذلك مما عنى به القران من ذكر لذائذ الجسد ، من طعام وشراب ونساء ، يمكن أن يقال فيه : إنه يثير لذات جسدية ، لا يعنى الأدب بإثارتها ، وهنا يصح أن نشير إلى أن القرءان ، وقد نزل للناس جميعاً ، عنى بأن يستميلهم إليه ، وفيهم المثالى ذو اللذة الروحية السامية ، والواقعى الذى لا يسمو بروحه عن واقع الحياة ، فنزل القرءان وفيه هذان الاتجاهان ، حتى يجد فيه كلا

الفريقين بغيته . ومما هو جدير بالذكر أن اللذائذ إنما وصفت فى معرض الحديث عن الجنة ، وأن القران يجمع فيها بين الواقعية والمثالية ، فتراه يقول: «ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » ، ويختم حديثه عن الجنة فى سورة الرحمن ، بقوله تعالى : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » ، كما أنه يتحدث عن الأمن وضمان الخلود فى جنة الخلد ، وهى لذائذ روحية ، ويضم إلى وصف الجنة ونعيمها، أنه لا لغو فيها ولا تأثيم ، إلا قيلاً :سلاماً سلاما ، وهكذا يجد الواقعى فى وصف الجنة طلبته . ويجد المثالى أمنيته ، على أن كثيراً من هذه اللذائذ الجسدية ، يبعث الراحة فى النفس ، والاطمئنان إلى بهجة الخلود ، أفلا تطمئن النفس إلى هذه الأنهار الجارية ، والعيون المتفجرة ، والأشجار ذات الغصون الوارفة ، والثمار الدانية ، والزوجات الحسان المقصورات فى الخيام ، وهل يثير ذلك لذة جسدية ، ولا يثير فيها معنى الأنس والحنان ؟ ! وفى الحق أن هناك مبالغة كبيرة فى ادعاء أن تلك الصفات خالصة لإثارات جسمية محضة .

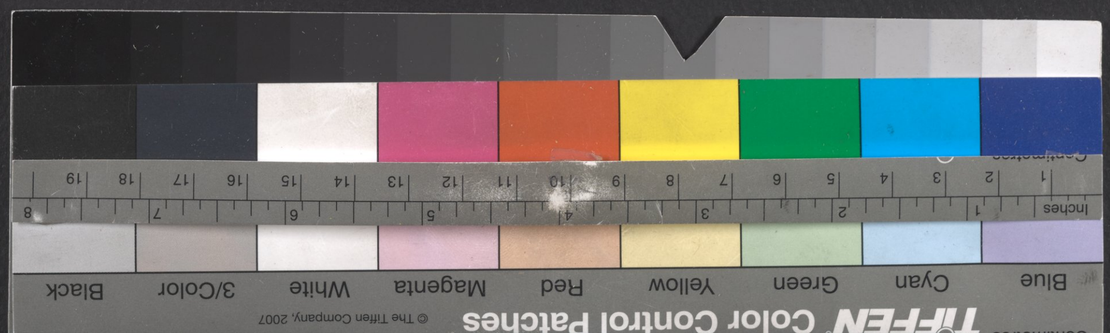

الفريقين بغيته . ومما هو جدير بالذكر أن اللذائذ إنما وصفت فى معرض الحديث عن الجنة ، وأن القرآن يجمع فيها بين الواقعية والمثالية ، فتراه يقول: «ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم » ، ويختم حديثه عن الجنة فى سورة الرحمن ، بقوله تعالى : « تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام » ، كما أنه يتحدث عن الأمن وضمان الخلود فى جنة الخلد ، وهى لذائذ روحية ، ويضم إلى وصف الجنة ونعيمها، أنه لا لغو فيها ولا تأثيم ، إلا قيلاً :سلاماً سلاما ، وهكذا يجد الواقعى فى وصف الجنة طلبته . ويجد المثالى أمنيته ، على أن كثيراً من هذه اللذائذ الجسدية ، يبعث الراحة فى النفس ، والاطمئنان إلى بهجة الخلود ، أفلا تطمئن النفس إلى هذه الأنهار الجارية ، والعيون المتفجرة ، والأشجار ذات الغصون الوارفة ، والثمار الدانية ، والزوجات الحسان المقصورات فى الخيام ، وهل يثير ذلك لذة جسدية ، ولا يثير فيها معنى الأنس والحنان ؟ ! وفى الحق أن هناك مبالغة كبيرة فى ادعاء أن تلك الصفات خالصة لإثارات جسمية محضة .

إعجاز القرآن

جاء محمد بدينه الجديد ، يدعوهم إلى ترك ما ألفوه ، من عبادة الأوثان ، وما اعتادوه فى حياتهم الاجتماعية ، والدينية ، والاقتصادية ، ويفرض عليهم فروضاً ، تتعب أبدانهم : من صوم ،وصلاة ؛ وتنقص أموالهم : من صدقة ؛ وزكاة ،ويحرم عليهم الخمر والميسر ، وألواناً من الزواج ، كانت مألوفة عندهم ، وغير ذلك من فروض وتكاليف ، وجدوا حمل أعبائها ثقيلا عليهم ، وتعرض محمد لهم ، فسب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، وأثار ثائرتهم ، فهبوا يدفعون محمداً بكل قوتهم ، وقدم لهم القرءان دليلا على صدق دعوته ، وبرهاناً على أنه رسول ، وتحداهم ، إذا كانوا فى مرية من أمره ، أن يأتوا بقرءان مثله ، فقال : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرءان لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » . قرأ محمد ذلك على ملأ من قومه ، والمعارضين منهم ، فأبلسوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله : « أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات » . فعجزوا ، فتحداهم أن يأتو بسورة واحدة « قل : فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » .

وقد كان العرب عند مبعث محمد (ﷺ) فى نهضة لغوية شاملة ، فيهم نوابغ الشعراء ، ومصاقع الخطباء ، ولهم — كما يقول الجاحظ — « القصيد العجيب ، والرجز الفاخر ، والخطب الطوال البليغة ، والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع ، والمزدوج ، واللفظ المنثور » ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والبلاغة والذلاقة

ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم[1] والقرآن نفسه يعترف بلددهم ، وشدة خصومتهم ، فقال عنهم : « بل هم قوم خصمون » وقال لمحمد : « لتبشر به المتقين . وتنذر به قوماً لدا » ، ولكنهم وقفوا فى حيرة من أمر هذا الكتاب ، فقد وجدوا له فى أنفسهم تأثيراً بالغاً ، لا يجدونه لغيره من ألوان الكلام . فنسبوه حيناً إلى السحر ، وحيناً إلى الشعر : « إن هذا إلا سحر يؤثر » ، « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » . « ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين » ، وحيناً مضوا بعد أن سمعوا القرآن ، يقولون قول العاجز المحنق ، يخفى عن الناس عجزاً لا يستطيع هذا القول أن يستره : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » . ولِمَ لم يشاءوا القول ، والقرآن يدعوهم فى كل آونة إلى القول ؟ .

وحينا أخذوا يوهمون الناس أن ليس فى هذا القرآن مايستحق المعارضة ؛ لأن من جاء به مجنون لا يؤبه لقوله :« وقالوا : يأيها الذى نزل عليه الذكر . إنك لمجنون » . « ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون » ، وتلك حيلة لم تجز على أحد . والقرآن صباح مساء ، يستطيل عليهم بأنهم عاجزون عن معارضته ، ويتحداهم بأن يأتوا بآيات قليلة من مثله . ويذكر فيما يذكر تعظيم شأنه وتفخيم أمره ، فيقول : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ، « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » ، « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين » ، « وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » ، وذلك كله مما يدفعهم إلى مباراته ، ليضعوا من شأنه ، وينزلوه عن تلك المنزلة التى يدعيها لنفسه ، ولكنهم لم يفعلوا ، مع إيمانهم فى صميم قلوبهم ، بماله من سلطان على نفوسهم ،

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص ٢٦ .

وأثر عميق فيها ، وانتهى الأمر بهم إلى أن فكروا فى حيلة صبيانية ، تحول بينه وبين التأثير فى نفوس سامعيه ، تلك هى أن يمنعوا أنفسهم من الإصغاء إليه ، ويمنعوا غيرهم من ذلك ، ظناً منهم أنهم ربما انتصروا بهذه الوسيلة الخاسرة : « وقال الذين كفروا : لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه ، لعلكم تغلبون » غير أنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا تأثيره ، ولا أن يوقفوا تيار تدفقه فى القلوب ، فلجئوا إلى السيف يحكم بينهم ، وبين محمد ، ولو أنهم استطاعوا إلى المعارضة سبيلا ، ما ركبوا هذا المركب الخشن ، وعرضوا أنفسهم وأهليهم للقتل حيناً ، وللأسر حيناً آخر ، فكان التجاؤهم إلى السيف الحجة القاطعة على عجزهم عن معارضة القرآن ومجاراته .

أما السبب الذى من أجله عجز العرب عن المجىء بمثل القرآن ، فللعلماء فيه مذاهب :

قال النظّام : « إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة ، بل هو كسائر الكتب المنزلة ، لبيان الأحكام : من الحلال والحرام ، والعرب إنما لم يعارضوه لأنّ الله تعالى صرفهم عن ذلك » .

وهذا هو المذهب المعروف بمذهب الصرفة ، وهو مذهب باطل لوجوه :

أولها أنه لو لم يكن معجزاً لما فيه من ألوان البلاغة وفنون البيان ، لكان إذا نزل فى درجة البلاغة ، وانحط فى مرتبة الفصاحة ، أبلغ فى الأعجوبة ، إذا صرفوا عن الإتيان بمثله ، ولما عنى أن يكون على هذا النظام العجيب ، وأن يظفر من الفصاحة بأوفى نصيب (١) .

ثانيها : أنهم لو كانوا قد صرفوا عن معارضته ، لم يكن من قبلهم من العرب مصروفين عنه ، لأنهم لم يتحدوا به ، فكان من الجائز أن نعثر فى كلام العرب الأقدمين على ما يشبه القرآن ، وذلك ما لم نجده فى تاريخ أدبهم (٢) .

---

(١) إعجاز القرآن ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

ثالثها : أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، ولكنهم منعوا منها بالصرفة ، لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون المنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فى نفسه فضيلة على غيره[1] فيصبح فى مكنة العظماء والبلغاء — بعد زمن التحدى — أن يأتوا بمثله ، ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فقد أتى جهابذة الكلام بعده بما فى وسعهم أن يأتوا ، واهتدى العلماء إلى تبيين أسباب الجمال فى القول ، ولكن لم يستطع أحد أن يدنو من هذا المكان البعيد ، أو يقارب هذا الأفق المتسامى ، وكلما اهتدوا إلى سر من أسرار الفصاحة ، ازدادوا إيماناً بالضعف والعجز أمام كتاب الله .

رابعها : أنه لو كان عجز العرب عن المعارضة بالصرفة ، لما استعظموا بلاغة القرآن ، وتعجبوا من حسن فصاحته ، كما أثر عن الوليد بن المغيرة حيث قال : « إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لطلاوة ، وإن عليه لحلاوة[2] » . بل كان الجدير بهم أن يتعجبوا من تعذر ذلك عليهم ، بعد أن كانوا عليه قادرين[3] ، ولم يكن لتعجبهم لفصاحته وجه ؛ فظهر من كل ما تقدم فساد هذا المذهب .

كما لا نقبل قول من قال : إن وجه الإعجاز فى نظم القرآن ، أنه حكاية عن كلام الله القديم ، لأنه لو كان كذلك ، لكانت التوراة والإنجيل وغيرهما من كتب الله معجزات فى النظم والتأليف ، وما قال بذلك أحد ، ولا ذكرته تلك الكتب نفسها ، وكذلك كان من الواجب أن تكون كل كلمة مفردة معجزة بنفسها منفردة ، وذلك مالم يقل به أحد[4] .

وقال بعض العلماء إن وجه الإعجاز ما تضمنه من الإخبار بالغيب ، ويوردون

---

(١) المرجع السابق ص ٣٣ .
(٢) الطراز ص ٣٩٤ .
(٣) نهاية الإيجاز ص ٥ .
(٤) راجع إعجاز القرآن ص ٥١ ، وتاريخ الأدب العربى فى صدر الإسلام والعصر الاموى ص ٢٨ .

لذلك آيات منها قوله تعالى « غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين » وتم غلب الروم كما أخبر فى هذا البضع . وقوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام ، إن شاء الله ، آمنين ، محلقين رءوسكم ، ومقصرين ، لا تخافون » فدخلوا كما قال .

وقال بعضهم : وجه ذلك أنه كان معلوما من حال محمد ، أنه كان أمياً ، لا يكتب ولا يقرأ ، ولا يعرف شيئاً من كتب المتقدمين ، وأقاصيصهم ، وأنبائهم ، وسيرهم ، ولكنه جاء بكثير من تاريخ الأنبياء السابقين ، مما لا سبيل إلى معرفته إلا بالتعلم ، فلما لم يكن ملابساً لحملة الأخبار ، ولا متردداً على أهل العلم ، ولا كان ممن يقرءون ، علم أنه لم يصل إلى علم ذلك إلا بوحى من الله ، ولذلك قال الله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون » ، وقال : « تلك من أنباء الغيب ، نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » .

غير أن التنبؤ بالغيب والحديث عن الماضين ، إن اتخذا دليلا على نبوة الرسول ، لم يصلحا برهاناً على إعجاز القرآن ، ذلك أن معظم القرآن ليس تنبؤا ولا قصصاً ، فلو كان الوجه ما ذكر ، لفقد معظم القرآن صفة الإعجاز ، لأن التحدى وقع بأقصر سورة منه ، وهى لا تحوى من التنبؤ والقصص شيئاً ، وردّ بعضهم قبول هذا الوجه من وجوه الإعجاز ، بأن القرآن حين تحدى العرب ، قالوا لرسول الله : إنك تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف ، فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، ونسبوه إلى أنه يؤلف الكتاب ، ثم ينسبه إلى الله ، افتراء عليه ، فتحداهم أن يأتوا بمثله مفترى : « أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ، إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم ، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون » فظن أن القرآن عندما تحداهم أن يأتوا بسور مفتريات ، سمح لهم أن يأتوا بالقصص الكاذب ، فى معارضة

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

القرآن ، وذلك ، عندى ، مالا أرى الآية مشيرة إليه ، فكيف تكون السور مثله ، وفى الوقت نفسه مفتريات ، ولكنه يجاريهم فى دعواهم أنه افترى الكذب على الله ، فنسب إليه كلاماً ، لم ينزل به وحى عليه ، فقال فى الرد عليهم : هاتوا كلاماً كاذباً كهذا الذى أتيت به ، فهو لم يتحداهم بالأساليب اللفظية فحسب ، ولكن تحداهم بما فى القرآن من معان وخواطر ، فلو أن المعانى والخواطر التى يجيئون بها كانت خاطئة أو كاذبة ، ماصح أن تكون سوراً مثل سور القرآن .

وذهب بعضهم إلى أن وجه الإعجاز هو خلو القرآن من التناقض[1]، وذلك غير مقبول أيضاً ؛ لأن الإجماع منعقد على أن التحدى واقع بكل سورة من سور القرآن ، وقد يوجد فى كثير من الخطب والشعر وغيرها ، ما يكون فى مقدار السورة خالياً من التناقض .

أما الوجه الذى نرتضيه لإعجاز القرآن ، فهو ما يتحقق فى كل قدر من القرآن، تحدى به « وهو أنه بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه[2] » وقد شعر العرب أنفسهم بما فى القرآن من سمو عن قول البشر ، فنسبوه إلى السحر ، فكأنهم يقولون : إن القرآن لا يستطيع أن يقوله إلا من أوتى قوة خارقة ، ليست من جنس قوى البشر ، وقد وازن الباقلانى[3] بين القرآن وكلام العرب فى وجوه ، نجمل بعضها فيما يلى :

فمن ذلك أن نظم القرآن خارج عن المعهود من نظام جميع كلامهم ، فليس من الشعر ، ولا من النثر المرسل ، ولا المسجوع ، وإذا كنت أخالف الباقلانى فى نفى السجع عن القرآن ، وأرى فى بعض آيه سجعاً ، فإنى أرى سجع القرآن يتخذ منهجاً خاصاً به ، لا يشركه فيه سواه ، كما سنبينه عند دراسة أسلوب القرآن .

---

(١) الطراز ج ٣ ص ٣٩٧ ، ونهاية الإيجاز ص ٦ .

(٢) إعجاز القرآن ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٨ وما يليها .

ومن ذلك أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ، على هذا القدر من الطول ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة .

ومن ذلك أن عجيب نظمه لا يتفاوت ، على ما يتصرف فيه من الوجوه : من قصص ، ووعظ ، واحتجاج ، وحكم ، وأحكام ، ووعد ، ووعيد ، ووصف ، وتعليم أخلاق كريمة ، وغير ذلك مما حواه القرآن ، بينما نجد كلام البليغ الكامل ، والشاعر المفلق ، والخطيب المصقع ، يختلف باختلاف الأغراض ، فمنهم من يجيد فى الوصف دون الغزل ، ومن يحسن إذا رغب ، والآخر إذا طرب ، وغيرهما إذا ركب ، أما نظم القرآن فلا انحطاط فى جميع ما يتصرف فيه عن المنزلة العليا ، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا .

ومن ذلك أن المعانى التى جاء بها القرآن ، وتعالج أحكام الشريعة ، والاحتجاج فى الدين ، والرد على الملحدين ، قد تسقت فى أسلوب بديع يتعذر على البشر ، لأنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة ، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، فإذا برع اللفظ فى المعنى البارع ، كان ألطف وأعجب ، من أن يوجد اللفظ البارع فى المعنى المتداول .

ومن ذلك أن الكلام يبين فضله ، ورجحان فصاحته ، بأن يذكر فى تضاعيف كلام ، فتأخذه الأسماع ، وتتشوف إليه النفوس ، ويرى وجه رونقه بادياً ، غامراً سائر ما يقرن به ، كالدرة التى ترى فى سلك من خرز ، وكالياقوتة فى وسط العقد ، وأنت ترى الآية من القرآن ، يتمثل بها فى تضاعيف كلام كثير ، وهى غرة جميعه ، وواسطة عقده ، والمنادى على نفسه ، بتميزه وتخصصه برونقه وجماله .

وجه الإعجاز الحق إذاً هو ما اتسم به القرآن من بلاغة ، تحير فيها أهل

الفصاحة من العرب ، وأعيان البلاغة من بينهم ، فسلموا ، ولم يشغلوا أنفسهم بمعارضته ، لعلمهم بالعجز عن بلوغ مداه ، وقوله تعالى حكاية عنهم : « لو نشاء لقلنا مثل هذا » يحمل دليل عجزهم ، فلو كانوا على ما وصفوا به أنفسهم : من القدرة على المجيء بمثل القرآن ، لتجاوزوا الوعد إلى الوفاء بما ادعوا ، فلما لم ينجزوا ما وعدوا ، علم عجزهم وقصور باعهم (١) .

ولما كانت البلاغة سر هذا الإعجاز ، وجب أن نلتمس أسبابها . وندرك مظاهرها ، ونضع اليد على الخصائص التى تعرض فى نظم الكلم ، حتى لا نكون مقلدين فيما نعلم ، وحتى تكون معرفتنا معرفة الصانع الحاذق ، الذى يعلم كل خيط من الإبريسم الذى فى الديباج ، وكل قطعة من القطع المنجورة فى الباب المقطع ، وكل آجرة من الآجر الذى فى البناء البديع (٢) .

---

(١) راجع من ادعى معارضة القرآن وما عورض به فى كتاب إعجاز القرآن للرافعى ص ٢٢٨ وما يليها .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣١ .

الفصل الأول

ألفاظ القرآن

البلاغة والنّظم :

لا تفضل الكلمة صاحبتها منفردة فى قاموس اللغة ، من حيث دلالة كل على معناه ، فكلمة قال ، لا تفضل تكلم ، وكلمة رجل ، لا ميزة لها على أسد ، اللهم إلا من ناحية أن بعض الكلمات أسهل جرياً على اللسان من بعض ، وأخف نطقاً ، فتجد مثلاً كلمة النفس أسلس من كلمة الجرشى ، وكلمة مرتفعات أسلس من كلمة مستشزرات ؛ وإلا من ناحية كثرة استعمال بعضها وغرابة البعض الآخر ، فإذا مانظمت الكلمة فى جملة ، صارت دالّة على نصيبها من المعنى ، وصار من حقنا أن نسأل : لم اختيرت هذه الكلمة دون تلك ، ولم آثرنا صيغة على أخرى ؟

وإن الأسلوب قد يروعك ويبهرك ، فإذا أخذت مفرداته كل مفرد على حدة ، فقد لا تجد فيه كبير روعة ، ولا قوة أسر ، ولكن عندما انتظمت هذه المفردات فى سلك فلاءمت ما قبلها ، وارتبطت بما بعدها ، اكتسبت جمالاً وجلالاً ، وإن شئت فانظر قوله تعالى : «وقيل : يا أرض ، ابلعى ماءك ، ويا سماء ، أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل : بعدا للقوم الظالمين » فإنك إذا أخذت كل كلمة على حدتها ، من غير نظر إلى ماقامت به من أداء حظها المقسوم لها فى معنى الجملة كلها ، فقد لا تجد لها من التأثير ما تجده لها ، وهى بين أخواتها ، تؤدى معناها .

وهنا يحق لنا أن نسأل عن فضل الكلمة فى موضعها ، ونتبين جمال اختيارها ، وندرك مالها من الميزة على صاحبتها ، وإذا سلكنا هذا المسلك فى الآية الكريمة ، رأينا الآية تصور ما حدث بعد الطوفان ، من ابتلاع الأرض ماءها ، ونقاء السماء بعد أن كانت تغطّى بسحبها ، واستواء السفينة على الجودى ، وقد طهرت الأرض من رجس المشركين ، فصور الله ذلك تصويراً حسياً ، يؤكد فى نفسك استجابة هذه الطبيعة العظيمة ، وخضوعها لأمر الله ، فهذا المطر المدرار ينهمل من السماء ، وهذا الماء الطاغى يجتاح نواحى الأرض ، وهذا الاضطراب فى أرجاء الكون ، لم يلبث أن سكن واستقر ، وعادت الطبيعة إلى هدوئها ، عندما تلقت أمر الله لها أن تسكن وتهدأ ، ولكن لما كان هذا الأمر قد صدر إلى الكون من غير أن يسمعه من فى الكون ، أو يروا قائله ، بنى الفعل للمجهول كما ترى . وأوثر فى نداء الأرض « يا » دون الهمزة ، لما يدعو اجتماعها مع همزة أرض إلى ثقل على اللسان فى النطق بهما ، وفُضّلت كذلك على « أيا » لما فى هذه من زيادة تنبيه ليست الأرض ، وهى رهن أمر الله ، فى حاجة إليه ، وأوثر تنكير الأرض لما فى ذلك من تصغير أمرها ، فالمقام هنا يستدعى ذلك التصغير ، ويستدعى الإسراع بتلبية الأمر ، وذلك لا يكون مع التعريف المقتضى لإطالة الكلام بأيتها ، وجاءت كلمة ابلعى هنا مصورة لما يراد أن تصنعه الأرض بمائها ، وهو أن تبتلعه فى سرعة ، فهى هنا أفضل من امتصى مثلا ، لأنها لا تدل على الإسراع فى التشرب ، وفى إضافة الماء إليها ما يوحى بأنها جديرة بأن تمتص ماء هو ماؤها ، فكأنها لم تكلف شططاً من الأمر ، وقل مثل ذلك فى قوله : ويا سماء أقلعى ، ولاحظ هذا التناسق الموسيقى بين ابلعى وأقلعى ، وبنى « غيض » للمجهول ، مصوراً بذلك إحساس من شاهدوا هذا المنظر الطبيعى ، فهم قد رأوا الماء يغيض والأمر يتم ، وكأنما قد حدث ذلك من تلقاء نفسه ، من غير أن يكون ثمة فاعل قد فعل ؛ واختيرت كلمة استوت

دون رست مثلا لما فى كلمة استوى من الدلالة على الثبات المستقر ، وبنى الفعل « قيل » للمجهول ، إشارة إلى أن هذا القول قد صدر ممن لا يعد كثرة ، حتى لكأن أرجاء الكون تردد هذا الدعاء ، وجاءت كلمة «بعداً» دون «هلاكا» مثلا ، إشارة إلى أن هلاك هؤلاء القوم الظالمين ، إنما قصد به إبعادهم عن الفساد فى الأرض ، والسخرية بمن آمن وعمل صالحاً ، وأوثر المجىء بالموصوف هنا ، لأنه لا يراد الدعاء على الظالمين لا تصافهم بالظلم ، وإنما يراد الدعاء على هؤلاء القوم بالبعد ، لا تصافهم بالظلم ، فالمقام هنا مقام حديث عن قوم ظلموا أنفسهم ، فاستحقوا لذلك أن يتخلص منهم ، وأحس فى كلمة بعداً ، دلالة على الراحة النفسية التى شعر بها من فى الكون ، بعد أن تخلصوا من هؤلاء القوم الظالمين ، ولعل لاستخدام المصدر الذى يؤكد أن الفعل قد تم ، أثراً فى ذلك . أو لا ترى الآية قد صورت لك ما حدث بعد الطوفان أدق تصوير ، فى عبارة موجزة ، فها هى ذى الأرض تبتلع ماءها ،وها هى ذى السحب فى السماء تنقشع مقلعة ، وها هو ذا الماء قد غاض ، وعادت الطبيعة كما كانت ، فاستقرت سفينة نوح ومن معه على الجودى ، وتنفس الكون الصعداء ، فقد طهر من القوم الظالمين .

وقد يتجمع الحسن حول حرف واحد فى الآية ، يثير فى نفسك ألواناً من المعانى ، لا تجدها إذا استبدلت به حرفاً آخر ؛ واستمع إلى قوله تعالى : « ويوم تقوم الساعة ، يقسم المجرمون : ما لبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون » ألا تشعر بما حول هذه الفاء ، من استفهامات تثيرها ، فكأن الذين أوتوا العلم والإيمان يقولون لمنكرى البعث : ألا تزالون مصرين على إنكاره ؟ وماذا أنتم فاعلون ؟ وكيف تلقون رباً أنكرتم لقاءه ؟ وشبيه

بهذا قول الشاعر ، وقد تمثل به أبو بكر ، حين أتاه كتاب خالد بالفتح وهزيمة الأعاجم :

تمنانا ، ليلقـانا بقوم تخال بياض لأمهم السرابا

فقد لاقيتنا ، فرأيت حرباً عواناً ، تمنع الشيخ الشرابا

فتأمل موضع الفاء فى قوله : فقد لاقيتنا ، أو لا ترى فيها معنى الاستخبار عما شاهده الأعداء منهم ، عند ما لاقوهم ، ومعنى الإخبار بأنهم أبلوا خير البلاء ، وكانوا فى الحرب أبطالا مغاوير ، وكذلك تأمل موضع الفاء فى قول العباس ابن الأحنف :

قالوا : خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول ، فقد جئنا خراسانا

أو لا ترى فيها معنى اللهفة على استنجاز الأمل ، والشوق القاتل إلى العود إلى الوطن المفارق ، والمطالبة بتنفيذ ما وعد به ، قبل أن يبدأ رحلته .

تخير اللفظ

يتأنق أسلوب القرآن فى اختيار ألفاظه . ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها ، يستخدم كلا حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة ، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها ، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها ، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء ، ولذلك لا تجد فى القرآن ترادفا ، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً . ولما بين الكلمات من فروق ، ولما يبعثه بعضها فى النفس من إيحاءات خاصة ، دعا القرآن ألا يستخدم لفظ مكان آخر ، فقال : « قالت الأعراب : آمنا ، قل : لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسلمنا ، ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » ، فهو لا يرى التهاون فى استعمال

اللفظ ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه . ولما كانت كلمة « راعنا » لها معنى فى العبرية مذموم ، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول بها فقال : « يأيها الذين آمنوا ، لا تقولوا : راعنا ، وقولوا : انظرنا » ، فالقرآن شديد الدقة فيما يختار من لفظ ، يؤدى به المعنى .

استمع إليه فى قوله : «وإذ نجيناكم من آل فرعون ، يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم» ، تجده قد اختار الفعل ذبح ، مصوراً به ما حدث ، وضعف عينه للدلالة على كثرة ما حدث من القتل ، فى أبناء إسرائيل يومئذ ، ولا تجد ذلك مستفاداً إذا وضعنا مكانها كلمة يقتلون .

وتنكير كلمة حياة ، فى قوله تعالى : «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» ، يعبر تعبيراً دقيقاً عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها ، مهما كانت حقيرة القدر ، ضئيلة القيمة ، وعند ما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء المتكلم ، فى قوله تعالى : « وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان ، وأنى له الذكرى ، يقول : ياليتنى قدمت لحياتى» ، عبرت أدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ ، وقد أدرك فى جلاء ووضوح ، أن تلك الحياة الدنيا لم تكن إلا وهماً باطلا ، وسرابا خادعا ، أما الحياة الحقة الباقية ، فهى تلك التى بعد البعث ، لأنها دائمة لا انقطاع لها ، فلا جرم أن سماها حياته ، وندم على أنه لم يقدم عملا صالحاً ، ينفعه فى تلك الحياة .

واستمع إلى قوله تعالى : « إنا نخاف من ربنا يوما عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا » ، تجد كلمة العبوس قد استعملت أدق استعمال ، لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم ، فإنهم يجدونه عابساً مكفهراً ، وما أشد اسوداد اليوم ، يفقد فيه المرء الأمل والرجاء ، وكلمة (قمطريراً) بثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم ، وفى كلمتى النضرة والسرور تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين ، وما يبدو على وجوههم من الإشراق ، وعما يملأ قلوبهم من البهجة .

ومن دقة التمييز بين معانى الكلمات ، ما تجده من التفرقة فى الاستعمال بين : يعلمون ، ويشعرون ، ففى الأمور التى يرجع إلى العقل وحده أمر الفصل فيها ، تجد كلمة « يعلمون » صاحبة الحق فى التعبير عنها ، أما الأمور التى يكون للحواس مدخل فى شأنها ، فكلمة « يشعرون » أولى بها ، وتأمل لذلك قوله تعالى : « ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون » فالسفاهة أمرٌ مرجعه إلى العقل ، وقوله تعالى : « فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم » وقوله تعالى : « أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » وقوله تعالى : «والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » وقوله تعالى : « ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون » وقوله تعالى : « بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون » وقوله تعالى : « ويعلمون أن الله هو الحق المبين » إلى غير ذلك مما يطول بى أمر تعداده ، إذا مضيت فى إيراد كل ما استخدمت فيه كلمة يعلمون .

وتأمل قوله تعالى : «ولا تقولوا لمن يُقتل فى سبيل الله : أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون» ، فمن الممكن أن يرى الأحياء وأن يحس بهم ، وقوله تعالى : « واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ، وأنتم لا تشعرون » ، فالعذاب مما يشعر به ويحس ، وقوله تعالى : « وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون» وقوله تعالى : «قالت نملة : يأيها النمل ، ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده ، وهم لا يشعرون » وقوله تعالى : « وقالت لأخته : قصيه ، فبصرت به عن جنب ، وهم لا يشعرون » وغير ذلك كثير .

واستخدم القرآن كلمة التراب ، ولكنه حين أراد هذا التراب الدقيق الذى لا يقوى على عصف الريح ، استخدم الكلمة الدقيقة وهى الرماد ، فقال : «والذين كفروا أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » ، كما أنه آثر عليها كلمة

الثرى ، عندما قال « تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، وما بينهما ، وما تحت الثرى» ، لأنه يريد — على ما يبدو من سياق الآيات الكريمة — الأرض المكونة من التراب ، وهى من معانى الثرى ، فضلاً عما فى اختيار الكلمة من المحافظه على الموسيقى اللفظية ، فى فواصل الآيات .

وعبر القرآن عن القوة العاقلة فى الإنسان بألفاظ ، منها الفؤاد واللب والقلب ، واستخدم كلا فى مكانه المقسوم له ، فالفؤاد فى الاستخدام القرآنى ، يراد به تلك الآلة التى منحها الله الإنسان ، ليفكر بها ، ولذا كانت مما سوف يسأل المرء عن مدى انتفاعه بها يوم القيامة ، كالسمع ، والبصر ، قال تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا » ، وتجد هذا واضحاً فيما وردت فيه تلك الكلمة من الآيات ، واستمع إلى قوله تعالى : « قل : هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاً ماتشكرون » ، وقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد مارأى » ، وقوله تعالى:« ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة ، وليرضوه، وليقترفوا ماهم مقترفون» وقوله تعالى : « نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة » ؛ وقوله تعالى : « مهطعين مقنعى رءوسهم ، لايرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء » .

أما اللب ولم يستخدم فى القران إلا مجموعاً ، فيراد به التفكير الذى هو من عمل تلك الآلة ، تجد هذا المعنى فى قوله تعالى : « ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون » (٢ : ١٧٩) وقوله تعالى : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٣ : ١٩٠) ، وقوله تعالى: « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » (١٢ : ١١١) وقوله تعالى : « وما يذكر إلا أولو الألباب » (٢ : ٢٦٩) .

أما القلب ، وهو أكثر هذه الكلمات دوراناً فى الاستخدام القرآنى ، فهو

بمعنى أداة التفكير ، فى قوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم ، أعين لا يبصرون بها » (٧ — ١٧٩) وقوله تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها » (٢٢ : ٤٦) . وقوله تعالى : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة » (٣ : ٨) وقوله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وهو أداة الوجدان ، كما تشعر بذلك فى قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » (٨ : ٢) وقوله تعالى : « وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر » (٣٣ : ١٠) وقوله تعالى : « يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة ، قلوب يومئذ واجفة » (٧٩ : ٨) وقوله تعالى : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ، ليزدادوا إيماناً » (٤٨ : ٤) وقوله تعالى : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » (٢٧:٧٥) وقوله تعالى : « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » (١٣ : ٢٨) .

وهو أداة الإرادة ، كما يبدو ذلك فى قوله تعالى : « إن كادت لتبدى به ، لولا أن ربطنا على قلبها ، لتكون من المؤمنين » (٢٨ : ١٠) وقوله تعالى : « وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام » (٨ : ١١) وقوله تعالى : « وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم » (٣٣ : ٥) .

فالقرآن يستخدم القلب فيما نطلق عليه اليوم كلمة العقل ، وجعله فى الجوف حيناً فى قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » (٣٣ : ٤) ، وفى الصدر حيناً ، فى قوله : « ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » — تعبير عما يشعر به الإنسان عندما يلم به وجدان ، أو تملؤه همة وإرادة .

ومن الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ أنه لا يكاد يذكر المشركين ، إلا بأنهم أصحاب النار ، ولكننا نجده قال فى سورة (ص) : « وقالوا : مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ أتخذناهم سخريا ، أم زاغت عنهم الأبصار ؟ إن ذلك

لحق تخاصم أهل النار » فنراه قد استخدم كلمة (أهل) وهى هنا أولى بهذا المكان من كلمة (أصحاب) ، لما تدل عليه تلك من الإقامة فى النار والسكنى بها . وكلمة (ميراث) فى قوله تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير » ـ واقعة موقعها ، وهى أدق من كلمة (ملك) فى هذا الموضع ، لما أن المال يرى فى أيدى مالكيه من الناس ، ولكنه سوف يصبح ميراثاً لله .

وقد يحتاج المرء إلى التريث والتدبر ، ليدرك السر فى إيثار كلمة على أخرى ، ولكنه لا يلبث أن يجد سمو التعبير القرآنى ، فمن ذلك قوله تعالى : « قالوا : إن هذان لساحران ، يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ، فأجمعوا كيدكم ، ثم ائتوا صفا ، وقد أفلح اليوم من استعلى ، قالوا : ياموسى ، إما أن تلقى ، وإما أن نكون أول من ألقى » (٢٠ : ٦٥) ، فقد يبدو للنظرة العاجلة أن الوجه أن يقال : إما أن تلقى وإما أن نلقى ، وربما توهم أن سر العدول يرجع إلى مراعاة النغم الموسيقى فحسب ، حتى تتفق الفواصل فى هذا النغم ، وذلك ما يبدو بادىء الرأى ، أما النظرة الفاحصة فإنها تكشف رغبة القران ، فى تصوير نفسية هؤلاء السحرة ، وأنهم لم يكونوا يوم تحدَّوا موسى بسحرهم ، خائفين ، أو شاكين ، فى نجاحهم ، وإنما كان الأمل يملأ قلوبهم ، فى نصر مؤزر عاجل ، فهم لا ينتظرون ماعسى أن تسفر عنه مقدرة موسى عندما ألقى عصاه ، بل كانوا مؤمنين بالنصر ، سواء أألقى موسى أولا ، أم كانوا هم أول من ألقى .

ومن ذلك قوله تعالى : « وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد » (٢ : ١٧٦) ؛ فقد يتراءى أن وصف الشقاق ، وهو الخلاف ، بالقوة أولى من وصفه بالبعد ، ولكن التأمل يدل على أن المراد هنا وصف خلافهم بأنه خلاف

تتباعد فيه وجهات النظر إلى درجة يعسر فيها الالتقاء ، ولا يدل على ذلك لفظ غير هذا اللفظ الذى اختاره القرآن . ومن ذلك قوله تعالى : « وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين ، من كل فج عميق » (٢٢ : ٢٧) فربما كانت الموسيقى ، والفاصلةُ فى الآية السابقة دالية — بجعل من المناسب أن يوصف الفج بالبعد ، فيقال : فج بعيد ، ولكن إيثار الوصف بالعمق ، تصوير لما يشعر به المرء أمام طريق حصر بين جبلين ، فصار كأن له طولاً ، وعرضاً ، وعمقاً .

وإيثار كلمة (مسكوب) فى قوله تعالى : « وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ! فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب » مكان كلمة (غزير) ـ أدق فى بيان غزارته ، فهو ماء لا يقتصد فى استعماله ، كما يقتصد أهل الصحراء ، بل هو ماء يستخدمونه استخدام من لا يخشى نفاده ، بل ربما أوحت تلك الكلمة بمعنى الإسراف فى هذا الاستخدام .

واستخدام كلمة « يظنون » فى الآية الكريمة « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون » (٢ : ٤٦) ـ قوية فى دلالتها على مدح هؤلاء الناس ، الذين يكفى لبعث الخشوع فى نفوسهم ، وأداء الصلاة ، والاتصاف بالصبر — أن يظنوا لقاء ربهم ، فكيف يكون حالهم إذا اعتقدوا ؟ .

ومن دقة أسلوب القرآن فى اختيار ألفاظه ما أشار إليه الجاحظ حين قال[1]: « وقد يستخف الناس ألفاظاً ويستعملونها ، وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع ، إلا فى موضع العقاب ، أو فى موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ، ويذكرون الجوع فى حالة القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لأنك لا تجد القران يلفظ

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤ .

به إلا فى موضع الانتقام ، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر ، وذكر الغيث » .

ولاختيار القرآن للكلمة الدقيقة المعبرة ، يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير ، ليشعرك به أتم شعور وأقواه ، وخذ لذلك مثلا كلمة « يسكن » فى قوله تعالى : « إن يشأ يسكن الريح ، فيظللن رواكد على ظهره » (٤٢ — ٣٣) وكلمة « تسوروا » فى قوله تعالى : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » (٢٨ — ٢١) وكلمة « يطوقون » فى الآية الكريمة : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » ، وكلمة « يسفك » فى آية : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك » (٢ — ٣٠) وكلمة « انفجر » فى قوله تعالى « وإذ استسقى موسى لقومه ، فقلنا : اضرب بعصاك الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا » (٢ — ٦٠) وكلمة « يخرون » فى الآية : « إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم ، يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون : سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا » (١٧ — ١٠٧) وكلمة « مكبا » فى قوله تعالى : « أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى ؟ أم من يمشى سويا على صراط مستقيم ؟ » (٢٧ — ٢٢) وكلمة « تفيض » فى قوله تعالى : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ، ترى أعينهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق » (٥ — ٨٣) وكلمة « يصب » فى قوله تعالى : « يصب من فوق رءوسهم الحميم » (٢٢ — ١٩) وكلمة « يدس » من قوله تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » (١٦ — ٥٩) وكلمة « قاصرات » من قوله تعالى : « وعندهم قاصرات الطرف

عين » (٣٧ — ٤٨) وكلمة (مستسلمون) فى قوله تعالى : « ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون » (٣٧ — ٢٦) (ومتشاكسون) فى قوله تعالى : « ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل » (٣٩ : ٢٩) ويطول بى القول ، إذا أنا مضيت فى عرض هذه الكلمات التى توضع فى مكانها المقسوم من الجملة ، فتجعل المعنى مصوراً تكاد تراه بعينك ، وتلمسه بيدك ، ولا أريد أن أمضى فى تفسير الكلمات التى استشهدت بها ، لأنها من وضوح الدلالة بمكان .

ولهذا الميل القرآنى إلى ناحية التصوير ، نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات ، مما أفرد له البيانيون علما خاصاً به دعوه علم البيان ، وأوثر أن أرجئ الحديث عن ذلك إلى حين ، وحسبى الآن أن أبين ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ فى النفس ، ذلك أن تصوير الأمر المعنوى فى صورة الشىء المحسوس يزيده تمكناً من النفس ، وتأثيراً فيها ، ويكفى أن تقرأ قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » (٢ : ٧) وقوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه » (٤٥ : ٢٣) لترى قدرة كلمة ختم ، فى تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس . وقوله تعالى : « الله ولى الذين آمنوا ، يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات » (٢ : ٢٥٧) لترى قيمة كلمتى الظلمات والنور ، فى إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل . وقوله تعالى : « صم بكم عمى ، فهم لا يرجعون » (٢ : ١٨) لترى قيمة هذه الصفات التى تكاد تخرجهم عن دائرة البشر ، وقوله سبحانه : « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » (٢ : ٢٧) فكلمات ينقضون ويقطعون ويوصل ، تصور الأمور المعنوية فى صور المحس الملموس ، وفى القرآن من أمثال ذلك عدد ضخم ، سوف نعرض له فى حينه .

وفى القرآن كثير من الألفاظ ، تشع منها قوى توحى إلى النفس بالمعنى وحياً ، فتشعر به شعوراً عميقاً ، وتحس بجو الفكرة إحساساً قويا . خذ مثلا قوله تعالى : « والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس » ، فتأمل ما توحى به كلمة تنفس ، من تصوير هذه اليقظة الشاملة للكون بعد هدأة الليل . فكأنما كانت الطبيعة هاجعة هادئة ، لا تحس فيها حركة ولا حياة ، وكأنما الأنفاس قد خفتت ، حتى لا يكاد يحس بها ولا يشعر ؛ فلما أقبل الصبح صحا الكون ، ودبت الحياة فى أرجائه .

وخذ قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار . . . . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » (٩ : ١١٨) وقف عند كلمة ضاق فى ضاقت عليهم أنفسهم ، فإنها توحى إليك بما ألم بهؤلاء الثلاثة من الألم والندم ، حتى شعروا بأن نفوسهم قد امتلأت من الندم امتلاء ، فأصبحوا لا يجدون فى أنفسهم مكانا ، يلتمسون فيه الراحة والهدوء ، فأصبح القلق يؤرق جفنهم ، والحيرة تستبد بهم ، وكأنما أصبحوا يريدون الفرار من أنفسهم .

واقرأ قوله تعالى: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، يدعون ربهم خوفاً وطمعاً» (٣٢ : ١٦) وتبين ما تثيرة فى نفسك كلمة تتجافى ، من هذه الرغبة الملحة التى تملك على المتقين نفوسهم ، فيتألمون إذا مست جنوبهم مضاجعهم ، ولا يجدون فيها الراحة والطمأنينة ، وكأنما هذه المضاجع قد فرشت بالشوك ، فلا تكاد جنوبهم تستقر عليها حتى تجفوها ، وتنبو عنها . وقف كذلك عند كلمة يعمهون فى قوله سبحانه : « الله يستهزئ بهم ، ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » (٢ : ١٥) فإن اشتراك هذه الكلمة مع العمى فى الحروف ، كفيل بالإيحاء الى النفس ، بما فيه هؤلاء القوم ، من حيرة واضطراب نفسى ، لا يكادون به يستقرون على حال من القلق .

واقرأ الآية الكريمة : « كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار ، وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (٣ : ١٨٥) أفلا تجد فى كلمة زحزح ما يوحى إليك بهذا القلق ، الذى يملأ صدور الناس فى ذلك اليوم ، لشدة اقترابهم من جهنم ، كأنما هم يبعدون أنفسهم عنها فى مشقة وخوف وذعر . وفى كلمة طمس من قوله تعالى : «ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر » . ما يوحى إليك بانمحاء معالم هذه العيون ، حتى كأن لم يكن لها من قبل فى هذا الوجه وجود . ويوحى إليك الراسخون فى قوله سبحانه : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم ، يقولون: آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب » (٣ : ٧) بهذا الثبات المطمئن ، الذى يملأ قلب هؤلاء العلماء ، لما ظفروا به من معرفة الحق والإيمان به . وتوحى كلمة شنآن فى قوله سبحانه : « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا » (٥ : ٢) توحى بهذا الجوى ، الذى يملأ الصدر ، حتى لا يطيق المرء رؤية من يبغضه ، ولا تستسيغ نفسه الاقتراب منه .

ولما سمعنا قوله تعالى لعيسى بن مريم: « إنى متوفيك ، ورافعك إلىّ ، ومطهرك من الذين كفروا » (٣ : ٥٥) أوحى إلينا التعبير بالتطهير ، بما يشعر به المؤمن بالله نحو قوم مشركين ، اضطر إلى أن يعيش بينهم ، فكأنهم يمسونه برجسهم ، وكأنه يصاب بشىء من هذا الرجس ، فيطهر منه إذا أنقذ من بينهم . وكلمة سكرت فى قوله سبحانه : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ، فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » (١٥:١٥) قد عبر بها الكافرون عما يريدون أن يوهموا به ، عما حدث لأبصارهم من الزيغ ، فكانت كلمة سكرت ، وهى مأخوذة من السكر دالة أشد دلالة على هذا الاضطراب فى الرؤية ، ولاسيما أن هذا

السكر قد أصاب العين واستقل بها ، ومعلوم أن الخلط من خصائص السكر ، فلا يتبين السكران ما أمامه ، ولا يميزه على الوجه الحق . واختار القرآن عند عد المحرمات كلمة أمهات ، إذ قال : « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » (٤ : ٢٣) وآثر كلمة الوالدات فى قوله سبحانه : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، لمن أراد أن يتم الرضاعة » (٢ : ٢٣٣) ، لما أن كلمة الأم تبعث فى النفس إحساساً بالقداسة ، وتصور شخصاً محاطاً بهالة من الإجلال ، حتى لتشمئز النفس وتنفر أن يمس بما يشين هذه القداسة ، وذلك الإجلال ، وتنفر من ذلك أشد النفور ، فكانت أنسب كلمة تذكر عند ذكر المحرمات ، وكذلك تجد كل كلمة فى هذه المحرمات مثيرة معنى يؤيد التحريم ، ويدفع إليه ، أما كلمة الوالدات فتوحى إلى النفس بأن من الظلم أن ينزع من الوالدة ماولدته ، وأن يصبح فؤادها فارغا ، ومن هنا كانت كل كلمة منهما موحية فى موضعها ، آخذة خير مكان تستطيع أن تحتله .

وقد تكون الكلمة فى موضعها مثيرة معنى لا يراد إثارته ، فيعدل عنها إلى غيرها ، تجد ذلك فى قوله سبحانه : « وأنه تعالى جد ربنا ، ماتخذ صاحبة ولا ولدا » (٧٢ : ٣) فقد آثر كلمة صاحبة ، على زوج وامرأة ، لما تثيره كلاهما من معان ، لا تثيرها فى عنف مثلهما - كلمة صاحبة .

وقد يكون الجمع بين كلمتين هو سر الإيحاء ومصدره ، كالجمع بين الناس والحجارة ، فى قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (٢ : ٢٤) فهذا الجمع يوحى إلى النفس بالمشاكلة بينهما والتشابه . وقد تكون العبارة بجملتها هى الموحية كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار » (٢٢ : ١٩) أولا تجد

هذه الثياب من النار ، موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم ، فقد خلقت الثياب يتقى بها اللابس الحر والقر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران .

لو بغير المـــاء صدرى شرق كنت كالغصان ، بالماء اعتصارى

ومن هذا الباب قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ، ذلك الذى يخوف الله به عباده ، ياعباد ، فاتقون » (٣٩ : ١٦) فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس ، فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران .

هذه أمثلة قليلة لما فى القرآن من كلمات شديدة الإيحاء ، قوية البعث لما تتضمنه من المعانى . وهناك عدد كبير من ألفاظ ، تصور بحروفها ، فهذه الظاء والشين فى قوله تعالى : « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » (٥٥ : ٣٥) والشين والهاء فى قوله تعالى : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ، وهى تفور » (٦٧ : ٧) والظاء فى قوله تعالى : « فأنذرتكم ناراً تلظى » (٩٢ : ١٤) والفاء فى قوله سبحانه : « بل كذبوا بالساعة ، واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا ، إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا » (٢٤ : ١٢) ، حروف تنقل إليك صوت النار مغتاظة غاضبة . وحرف الصاد فى قوله تعالى : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصرا ، فى يوم نحس مستمر » (٥٤ : ١٩) يحمل إلى سمعك صوت الريح العاصفة ، كما تحمل الخاء فى قوله سبحانه : « وترى الفلك فيه مواخر ، لتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » (٣٥ : ١٢) إلى أذنك صوت الفلك ، تشق عباب الماء .

وألفاظ القرآن مما يجرى على اللسان فى سهولة ويسر ، ويعذب وقعه على الأذن ، فى اتساق وانسجام .

قال البارزى فى أول كتابه : (أنوار التحصيل فى أسرار التنزيل) : اعلم أن

المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ؛ ولابد من استحضار معانى الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ، ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر ، فى أكثر الأحوال ، وذلك عتيد حاصل فى علم الله ، فلذلك كان القرآن أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملا على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح . ولذلك أمثلة منها قوله تعالى : «وجنى الجنتين دان» . لو قال مكانه : (وثمر الجنتين) قريب ، لم يقم مقامه من جهة الجناس بين الجنى والجنتين ، ومن جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل . ومنها قوله تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب » . أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة . ومنها : «لا ريب فيه» . أحسن من (لا شك فيه) لثقل الإدغام ، ولهذا كثر ذكر الريب . ومنها : «ولا تهنوا» أحسن من (ولا تضعفوا) لخفته . و « وهن العظم منى » ، أحسن من (ضعف) لأن الفتحة أخف من الضمة ، ومنها آمن أخف من صدق ، ولذا كان ذكره أكثر من ذكر التصديق . و «آثرك الله » أخف من (فضلك) و « آتى » أخف من (أعطى) و «أنذر» أخف من (خوّف) و « خير لكم » أخف من (افضل لكم) والمصدر فى نحو : « هذا خلق الله » « يؤمنون بالغيب » ، أخف من (مخلوق) و (الغائب) و « نكح » أخف من (تزوج) . لأن فعل أخف من تفعّل ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر ، ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة ، والغضب ، والرضا ، والحب ، والمقت ، فى أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة ؛ لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام . كأن يقال : يعامله معاملة المحبّ ، والماقت ، فالمجاز فى مثل هذا أفضل من الحقيقة ، لخفته ، واختصاره ، وابتنائه على التشبيه البليغ ، فإن قوله : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » أحسن من : (فلما عاملونا معاملة المغضب) أو (فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب) اهـ[1] .

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٢٥ .

وهناك لفظتان أبى القرآن أن ينطق بهما ، ولعله وجد فيهما ثقلا ، وهما كلمتا الآجر والأرضين . أما الأولى فقد أعرض عنها فى سورة القصص، فبدل أن يقول : «وقال فرعون: يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ، فهيء لى ياهامان آجرا ، فاجعل لى صرحا ، لعلى أطلع إلى إله موسى » . قال : « وقال فرعون : يأيها الملأ ، ما علمت لكم من إله غيرى ، فاوقد لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صرحا ، لعلى أطلع إلى إله موسى » . (القصص : ٣٨)

وأما الثانية فقد تركها فى الآية الكريمة : « الله الذى خلق سبع سموات ، ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما » (٦٥ : ١٢)

هذا ومما ينبغى الإشارة إليه ، أن القرآن قد أقل من استخدام بعض الألفاظ، فكان يستخدم الكلمة مرة أو مرتين ، وليس مرجع ذلك لشيء سوى المقام الذى يستدعى ورود هذه الكلمة . وللقرآن استعمالات يؤثرها ، فمن ذلك وصفه الحلال بالطَّيب ، وذكر السِّجِّيل مع حجارة ، وإضافة الأساطير إلى الأولين ، وجعل مسنون وصفاً للحمأ ، ويقرن التأثيم باللغو ، وإلاَّ بذمّة ، ومختالا بفخور ، ويصف الكذَّاب بأشر .

ووازن ابن الأثير بين كلمات استخدمها القرآن وجاءت فى الشعر، فمن ذلك أنه جاءت لفظة واحدة فى آية من القرآن وبيت من الشعر ، فجاءت فى القرآن جزلة متينة ، وفى الشعر ركيكة ضعيفة . . . أما الآية فهى قوله تعالى : « فإذا طعمتم فانتشروا ، ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم ، والله لا يستحيى من الحق » وأما بيت الشعر ، فهو قول أبى الطيب المتنبى :

تلذ له المروءة ، وهى تؤذى ومن يعشق يلذ له الغرام

وهذا البيت من أبيات المعانى الشريفة ، إلا أن لفظة تؤذى ، قد جاءت فيه

وفى آية القرآن ، فحطت من قدر البيت لضعف تركيبها ، وحسن موقعها فى تركيب الآية . . . وهذه اللفظة التى هى تؤذى إذا جاءت فى الكلام ، ينبغى أن تكون مندرجة مع ما يأتى بعدها ، متعلقة به ، كقوله تعالى : « إن ذلكم كان يؤذى النبى » وقد جاءت فى قول المتنبى منقطعة ، ألا ترى أنه قال : تلذ له المروءة وهى تؤذى ، ثم قال : ومن يعشق يلذ له الغرام ، فجاء بكلام مستأنف ، وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوى ، وأضيف إليها كاف الخطاب ، فأزال ما بها من الضعف والركة ، قال : « باسم الله أرقيك ، من كل داء يؤذيك[1] » . وكذلك ورد فى القرآن الكريم ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فلفظة (لى) أيضاً مثل لفظة يؤذى ، وقد جاءت فى الآية مندرجة متعلقة بما بعدها ، وإذا جاءت منقطعة لا تجىء لائقة ، كقول أبى الطيب أيضاً :

تمسى الأمانى صرعى دون مبلغه ... فما يقول لشىء : ليت ذلك لى[2]

وهنا من هذا النوع لفظة أخرى ، قد وردت فى القرآن الكريم ، وفى بيت من شعر الفرزدق ، فجاءت فى القرآن حسنة ، وفى بيت الشعر غير حسنة ، وتلك اللفظة هى لفظة القمل ، أما الآية فقوله تعالى : «فأرسلنا عليهم الطوفان، والجراد ، والقمّل ، والضفادع ، والدم ، آيات مفصلات » ، وأما بيت الشعر فقول الفرزدق :

من عزه احتجرت كليب عنده ... زرياً ، كأنهم لديه القمّل

وإنما حسنت هذه اللفظة فى الآية ، دون هذا البيت من الشعر، لأنها جاءت فى الآية مندرجة فى ضمن كلام ، ولم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت فى الشعر قافية أى آخراً انقطع الكلام عندها ، وإذا نظرنا إلى حكمة أسرار الفصاحة فى القرآن الكريم ، غصنا فى بحر عميق لاقرار له ، فمن ذلك هذه الآية المشار إليها ، فإنها قد

(١) المثل السائر ص ٥٧

(٢) المرجع السابق ص ٥٨ .

تضمنت خمسة ألفاظ ، هى : الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، وأحسن هذه الألفاظ الخمسة هى : الطوفان ، والجراد ، والدم ، فلما وردت هذه الألفاظ الخمسة بجملتها قدم منها لفظتا : الطوفان ، والجراد ، وأخرت لفظة الدم آخراً ، وجعلت لفظة القمل والضفادع فى الوسط ، ليطرق السمع أولا الحسن من الألفاظ الخمسة ، وينتهى إليه آخراً ، ثم إن لفظة الدم أحسن من لفظتى : الطوفان ، والجراد ، وأخف فى الاستعمال ، ومن أجل ذلك جىء بها آخراً ، ومراعاة مثل هذه الأسرار والدقائق فى استعمال الألفاظ ، ليس من القدرة البشرية[١] .

وقال ابن سنان الخفاجى ، معلقاً على قول الشريف الرضى :

أعزز علىَّ بأن أراك وقد خلت عن جانبيك مقاعد العواد

إيراد مقاعد فى هذا البيت صحيح ، إلا أنه موافق لما يكره فى هذا الشأن ، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم ، وهم العواد ، ولو انفرد ، كان الأمر فيه سهلا ، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبح لا خفاء به[٢] . وابن سنان يشترط لفصاحة الكلمة ألا يكون قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره[٣] ، قال ابن الأثير : وقد جاءت هذه اللفظة المعيبة فى الشعر فى القرآن الكريم فجاءت حسنة مرضية ، وهى قوله تعالى : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » وكذلك قوله تعالى : « وأنا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا »، ألا ترى أنها فى هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه ، كما جاءت فى الشعر ، ولو قال الشاعر بدلا من مقاعد العواد ، مقاعد الزيارة ، أو ما جرى مجراه، لذهب ذلك القبح ، وزالت تلك الهجنة ، ولذا جاءت هذه اللفظة فى الآيتين على

(١) المرجع السابق نفسه .
(٢) سر الفصاحة ص ٧٩ .
(٣) المرجع السابق ص ٧٨ .

ما تراه من الحسن ، وجاءت على ما تراه من القبح ، فى قول الشريف الرضى [١] .

ومن ذلك استخدام كلمة شىء ، ترجع إليها فى القرآن الكريم ، فترى جمالها فى مكانها المقسوم لها . واستمع إلى قوله تعالى : « وكان الله على كل شىء مقتدرا» (١٨:٤٥) وقوله تعالى : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » (٥٢:٣٥) وقوله تعالى : «فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيرا» (٤:١٩) وقوله تعالى : « إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » (١٠ : ٤٤) إلى غير ذلك من عشرات الآيات التى وردت فيها تلك اللفظة ، وكانت متمكنة فى مكانها أفضل تمكن وأقواه ، ووازن بينها فى تلك ، وبينها فى قول المتنبى يمدح كافوراً :

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوقه شىء عن الدوران

فإنك تحس بقلقها فى بيت المتنبى ، ذلك أنها لم توح إلى الذهن بفكرة واضحة تستقر النفس عندها وتطمئن ، فلا يزال المرء بعد البيت يسائل نفسه عن هذا الشىء ، الذى يعوق الفلك عن الدوران ، فكأن هذه اللفظة لم تقم بنصيبها فى منح النفس الهدوء الذى يغمرها ، عندما تدرك المعنى وتطمئن إليه .

ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها ، وسياجا لجلالها ، لم تهن لفظة ولم تتخل عن نصيبها ، فى مكانها من الحسن ، وقد يقال : إن كلمة الغائط من قوله سبحانه : « وإن كنتم مرضى أو على سفر ، أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » (٥ : ٦) قد أصابها الزمن ، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها ، ولكنا إذا تأملنا الموقف ، وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام ، وجدنا أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى ، وصاغه فى كناية بارعة ، فمعنى الغائط فى اللغة المكان المنخفض ،

---

(١) المثل السائر ص ٧١ .

وكانوا يعضون إليه فى تلك الحالة ، فتأمل أى كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة ، وإن شئت أن تتبين ذلك ، فضع مكانها كلمة تبرزتم ، أو تبولتم ، لترى ما يثور فى النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان ، ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية يوم نزل القرآن ، وأنها لا تزال إلى اليوم أسمى ما يمكن أن يستخدم ، فى هذا الموضع التشريعى الصريح .

الفاصلة *

نعنى بها تلك الكلمة التى تختم بها الآية من القرآن ، ولعلها مأخوذة من قوله سبحانه : « كتاب فصلت آياته ، قرآنا عربيا لقوم يعلمون » (٤١ : ٣) وربما سميت بذلك ، لأن بها يتم بيان المعنى ، ويزداد وضوحه جلاء وقوة ، وهذا لأن التفصيل فيه توضيح وجلاء وبيان ، قال تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجمياً ، لقالوا : لولا فصلت آياته » (٤١ : ٤٤) فمكانة الفاصلة من الآية مكانة القافية من البيت ، إذ تصبح الآية لبنة متميزة فى بناء هيكل السورة .

وتنزل الفاصلة من آيتها ، تكمل من معناها ، ويتم بها النغم الموسيقى للآية فنراها أكثر ما تنتهى بالنون والميم وحروف المد ، وتلك هى الحروف الطبيعية فى الموسيقى نفسها ، قال سيبويه : إن العرب إذا ترنموا يلحقون الألف والياء والنون ، لأنهم أرادوا مد الصوت ، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا .

وتأتى الفاصلة فى القرآن مستقرة فى قرارها ، مطمئنة فى موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم ، فهى تؤدى فى مكانها جزءاً من معنى الآية ، ينقص ويختل

(*) رجعت فى كثير من هذا الفصل إلى كتاب الإتقان .

بقصانها ، وهاك قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ، إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ، لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » ، ترى الآية قد كمل معناها بالفاصلة ، وأن الفاصلة قامت بأداء نصيبها منه .

وقد يشتد تمكن الفاصلة فى مكانها ، حتى لتوحى الآيات بها ، قبل نطقها ، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال : أملى على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحما » وهنا قال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت[1] — وحتى ليأبى قبولها ، والاطمئنان إليها ، من له ذوق سليم ، إذا غيرت وأبدل بها سواها ، كما حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : « فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات ، فاعلموا أن الله غفور رحيم » ، ولم يكن يقرأ القرآن ، فقال : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه[2] ، والآية إنما ختمت بقوله تعالى : « فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ، وسواء أصح ذلك أم لم يصح ، فإنا نشعر هنا بما بين الفاصلة والآية ، من ارتباط لا ينفصم .

خذ مثلا تلك الآيات التى تنتهى بوصفه سبحانه بالحكمة ، تجد فيها ما يناسب

---

(١) الإتقان ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠١ .

تلك الحكمة ويرتبط بها ، واقرأ قوله تعالى : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم » ألا ترى المقام وهو مقام تشريع وتحذير ، يستدعى عزة المحذر ، وحكمة المشرع . وقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك ، لا علم لنا إلا ماعلمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم » فالمقام هنا مقام للتعليم ، ووضع هذا التعليم فى موضع دون سواه ، فناسب ذلك وصفه تعالى بالعلم والحكمة . وقوله تعالى : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، فالتفرد بالألوهية ، والتصرف المطلق فى اختيار ما يشاء ، ثم تصوير الجنين على صورة خاصة ، كل ذلك يناسب وصفه تعالى بالعزة والحكمة . وقوله تعالى : « بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » فإمداد المؤمنين بالملائكة لتطمئن قلوبهم من نعم حكيم ، يمهد للمسببات بأسبابها ، والنصر لا يكون إلا من عزيز يهبه لمن يشاء . وقوله تعالى : « يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً ، يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ، ويغفر لكم والله غفور رحيم ، وإن يريدوا خيانتك ، فقد خانوا الله من قبل ، فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » فهو عليم بخيانتهم ، حكيم فى التمكين منهم .

وربما احتاج الأمر إلى إمعان وتدبر ، لمعرفة سر اختتام الآية بهذا الوصف ، ويبدو أن ختمها بسواه أولى ، ومن ذلك قوله تعالى : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم ، فإنك أنت العزيز الحكيم » ، فقد يبدو بادئ ذى بدء أن قوله : وإن تغفر لهم ، يحتم أن تكون الفاصلة الغفور الرحيم ، ولكن تأملا هادئاً يهدى

إلى أنه لا يغفر لمن استحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد ، يرد عليه حكمه ، فهو عزيز غالب ، وحكيم يضع الشيء فى موضعه ، وقد يخفى وجه الحكمة على الناس فيما يفعل ، فيتوهم أنه خارج عن الحكمة ، وليس كذلك ، فكان الوصف بالحكيم احتراسا حسنا ، أى وإن تغفر لهم مع استحقاقهم العذاب ، فلا اعتراض لأحد عليك فى ذلك ، والحكمة فيما فعلته ، ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة: « أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » ، وفى سورة الممتحنة : « واغفر لنا ربنا ، إنك أنت العزيز الحكيم » وفى سورة غافر : « ربنا ، وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم »(٤٠ : ٨) وفى سورة النور : « ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم » (٢٤ : ١٠) فقد يكون من المناسب فى بادىء الرأى أن يوصف سبحانه هنا بتواب رحيم ، لأن الرحمة مناسبة للتوبة ، لكن التعبير بالحكمة هنا ، إشارة إلى حكمته سبحانه فى مشروعية اللعان ، الذى سن أحكامه ، فى هذه السورة[1].

وخذ الآيات التى تنتهى بوصفه تعالى بالعلم ، أو بالقدرة ، أو بالحلم ، أو بالغفران ، تجد المناسبة فى ذلك الختم واضحة جلية ، واقرأ قوله تعالى : « ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم » ، (٢ : ١١٥) فهو يعلم بما يجرى فى المشرق والمغرب ، وقوله تعالى: « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا ، تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم » (٢ : ١٢٧) السميع لنجوانا ، والعليم بما تضمره أفئدتنا من الإخلاص لك ، وقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً — الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، حقاً على المتقين ، فمن بدله بعد ماسمعه ، فإنما إثمه على الذين يبدلونه ؛ إن الله سميع عليم »

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٠٣ .

(٢ : ١٨) فهو سميع بما تم من وصية ، وعليم بمن يبدلها . وقوله تعالى : «ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر ، أو هو أقرب ، إن الله على كل شيء قدير » (١٦ : ٧٧) فالمجيء بالساعة فى مثل لمح البصر أو أقرب ، يستدعى القدرة الفائقة ، وقوله تعالى : « ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير » (٢٢ : ٦) فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة ، وقوله تعالى : « ولله ملك السموات والأرض ، والله على كل شيء قدير » (٣ : ١٨٩) فمالك السموات والأرض — لا ريب — يقدر على كل شيء .

وربما خفى الأمر فى الختم بأحد هذين الوصفين ، كما فى قوله تعالى فى سورة البقرة : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات ، وهو بكل شيء عليم » (٢ : ٢٩) وفى آل عمران « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، والله على كل شيء قدير » (٣: ٢٩) فإن المتبادر إلى الذهن فى آية البقرة الختم بالقدرة ، وفى آية آل عمران الختم بالعلم ، ولكن لما كانت آية البقرة عن خلق الأرض وما فيها ، على حسب مصلحة أهلها ومنافعهم ، وخلق السموات خلقاً مستويا محكما من غير تفاوت ، والخالق على هذا النسق يجب أن يكون عالماً بما فعله ، كلياً وجزئياً ، مجملا ومفصلا ، ناسب ذلك ختمها بصفة العلم ، ولما كانت آية آل عمران مسوقة للوعيد ، وكان التعبير بالعلم فيها ، يراد به الجزاء بالعقاب والثواب ، ناسب ختمها بصفة القدرة القادرة على هذا الجزاء[1].

واقرأ قوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم (٢ : ٢٢٥) ، تجد مناسبة الغفران و الحلم لعدم

---

(١) المرجع السابق نفسه .

المؤاخذة على اللغو فى الأيمان ، واضحة قوية . وقوله تعالى : « قول معروف ، ومغفرة ، خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم »(٢ : ٢٦٣) فالله غنى عن هذه الصدقة المتبوعة بالأذى ، وحليم لا يعجل العقوبة ، فربما ارتدع هذا المتصدق المؤذى . وقوله تعالى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم » (٣ : ١٥٥) فالعفو عن هؤلاء الذين استزلهم الشيطان ، يناسبه وصف الله بالغفور الحليم أتم مناسبة ، وقد يخفى وجه الوصف بذلك فى بعض الآيات ، كما فى قوله سبحانه : « تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليما غفوراً » (١٧ : ٤٤) فختم الآية بالحلم والمغفرة عقب تسبيح الأشياء غير ظاهر فى بادىء الرأى ، ولكن لما كان كل شىء فى السموات والأرض يسبح بحمد الله ، ويشير إليه ، ويدل عليه ، كان من الغفلة التى تستحق العقوبة ألا نفقه دلالة هذه المخلوقات على الخالق ، فناسب ذلك وصفه بالحلم والغفران ، حين لم يعاجل هؤلاء الغافلين بالعقاب .

واقرأ قوله سبحانه : « قالوا : ياشعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد»(١١ : ٦١) ، وصفوه بالحلم أى العقل ، الذى لا يتناسب فى زعمهم مع دعوته إياهم إلى ترك عبادة ما كان آباؤهم يعبدون ، ووصفوا بالرشد الذى يتنافى فى زعمهم كذلك ، مع دعوته إياهم إلى ترك تصرفهم فى أموالهم ، كما كانوا يتصرفون ، فقد ناسبت الفاصلة معنى الآية كما رأيت .

وقوله تعالى : « أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون ، يمشون فى مساكنهم ، إن فى ذلك لآيات ، أفلا يسمعون ، أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى

الأرض الجرز[١] ، فنخرج به زرعاً ، تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ، أفلا يبصرون» . (٣٢ : ٢٦و٢٧) ، ختمت الآية الأولى بيسمعون ، لأن المرعظة فيها مسموعة ، وهى أخبار من قبلهم من القرون ، وختمت الثانية يبصرون ، لأن الموعظة فيها مرئية من سوق الماء إلى الأرض الجرز ، وإخراج الزرع وأكل النبات[٢] .

وقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير» ، ختمت الآية باللطيف ، وهو يناسب مالا يدرك بالبصر ، وبالخبير ، وهو يناسب مايدرك الأبصار[٣] .

وقد تجتمع فواصل متنوعة ، بعد ما يكاد يتشابه ، لحكمة فى هذا التنوع ، ومن ذلك قوله تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم ، منه شراب ، ومنه شجر ، فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون » (١٦ : ١٠ و١١و١٢ و ١٣) .

ختمت الآية بيتفكرون ، لما أن الاستدلال بإنبات الزرع ، والثمر ، على وجود الله وقدرته ، يحتاج إلى فضل تأمل ، يرشد إلى أن حدوث هذه الأنواع ، يحتاج إلى إله قادر ، يحدثه ، فناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به ، وانتهت الثانية بيعقلون ، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان ، فيرتاح ليلا ويعمل نهاراً ، وتسخير الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فتشرق وتغرب فى دقة ونظام تامين ، يحتاج إلى عقل يهدى إلى أن ذلك لابد أن يكون بيد خالق مدبر ، فختمت الآية

---

(١) الأرض التى لا تنبت ، أو أكل نباتها .

(٢) الإتقان ج ٢ ص ١٠١ .

(٣) المرجع السابق نفسه .

بيعقلون ، وختمت الآية الأخيرة بيذكرون ، لأن الموقف فيها يستدعى تذكر ألوان مختلفة بثها الله فى الأرض ، للموازنة بين أنواعها ، بل الموازنة بين أصناف نوع منها ، فلا يلهيهم صنف عن سواه ، ولا يشغلهم نوع عن غيره ، وهذه الموازنة تفضى إلى الإيمان بقدرة الله ، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة .

ومن ذلك قوله تعالى : « قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ؛ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به ، لعلكم تذكرون ، وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٦ : ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣)

قال صاحب الإتقان[1] : فإن الأولى ختمت بقوله : لعلكم تعقلون ، والثانية بقوله : لعلكم تذكرون ، والثالثة بقوله لعكم تتقون ، لأن الوصايا التى فى الآية الأولى ، إنما يحمل على تركها عدم العقل ، الغالب على الهوى ، لأن الإشراك لعدم استكمال العقل ، الدال على توحيده ، وعظمته ، وكذلك عقوق الوالدين لا يقتضيه العقل ، لسبق إحسانهما ، إلى الولد بكل طريق ، وكذلك قتل الأولاد بالوأد من الإملاق ، مع وجود الرازق الحى الكريم ، وكذلك إتيان الفواحش لا يقتضيه عقل : وكذا قتل النفس لغيظ أو غضب فى القاتل ، فحسن بعد ذلك يعقلون .

وأما الثانية فتعلقها بالحقوق المالية ، والقولية ، فإن من علم أن له أيتاما ، قد يخلفه عليهم غيره من بعده ، لا يليق به أن يعامل أيتام غيره ، إلا بما يحب أن

---

(١) ج ٢ صفحة ١٠٢ .

يعامل به أيتامه ، ومن يكيل ، أو يزن ، أو يشهد لغيره ، لو كان ذلك الأمر له ، لم يحب أن يكون فيه خيانة ، وكذا من وعد لو وُعِد ، لم يحب أن يخلف ، ومن أحب ذلك عامل الناس به ليعاملوه بمثله ، فترك ذلك إنما يكون لغفلة عن تدبره وتأمله ، فلذلك ناسب الختم بقوله : « لعلكم تذكرون » ، وأما الثالثة فلأن ترك اتباع شرائع الله الدينية مؤد إلى غضبه ، وإلى عقابه ، فحسن : « لعلكم تتقون » أى عقاب الله .

ومن ذلك قوله تعالى : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، فمستقر ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حباً متراكباً ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون ، والرمان ، مشتبها ، وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » (٦ : ٩٧ و٩٨ و ٩٩) ختمت الآية الأولى بالعلم ، لأن الاهتداء بالنجوم فى ظلمات البر والبحر مما يختص به العلماء ، فكان إدراك هذا الفضل آية يستدلون بها على وجود الله وقدرته ، وختمت الآية الثانية بالفقه ، لأن إدراك إنشاء الخلائق من نفس واحدة ، وتنقلهم فى الأصلاب والأرحام ، مما يحتاج إلى تدبر وتفكر ، ناسبه ختم الآية بيفقهون ، إذ الفقه فهم الأشياء الدقيقة ، وتحدثت الآية الثالثة عن النعم التى أنعم الله بها على عباده : من إخراج النبات والثمار ، وألوان الفواكه ، فناسب ختمها بالإيمان ، الداعى إلى شكره تعالى على نعمه .

ومن ذلك قوله تعالى : « وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون » (٦٩ : ٤١ و ٤٢) فختم الأولى بتؤمنون ، لأن مخالفة القرآن لنظم الشعر ظاهرة واضحة ، فمن قال إنه شعر كان كافراً ومعانداً عناداً محضاً ، فكان من المناسب ختمه بقوله : « قليلا ماتؤمنون » ،

أما مخالفة القرآن لنظم الكهان فما يحتاج إلى تدبر وروية ، لأن كلا منها نثر ، فليست مخالفته له فى وضوحها لكل أحد كمخالفة الشعر ، ولكنها تظهر بتدبر ما فى القرآن من بلاغة رائعة ومعان أنيقة، فحسن لذلك ختمه بقوله : « قليلا ما تذكرون» .

ومما يجمل إيراده هنا أن تختلف الفاصلتان فى موضعين ، والمتحدث عنه واحد فيهما ، وذلك كقوله تعالى فى سورة إبراهيم : « وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »(١٤ : ٣٤)،وقوله تعالى فى سورة النحل : « أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ !وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » (١٦ : ١٨) والمتأمل يجد سر هذا الاختلاف ، أن القرآن راعى مرة موقف الإنسان من نعم الله ، فهو ظلوم كفار ، وأخرى مقابلة الله سبحانه نكران الجميل والظلم والكفر بالنعم ، بالغفران والرحمة ، وكان ختام الآية الأولى بما ختمت به ، لأنها كانت فى معرض صلة الإنسان بالله ، وكانت الثانية فى معرض الحديث عن الله ، فناسب ختم الآية بذكر صفاته

ونظير ذلك قوله سبحانه فى سورة الجاثية : « قل للذين آمنوا : يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ، ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون ، من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ثم إلى ربكم ترجعون » (٤٥ : ١٤و١٥) كررت هذه الآية فى سورة فصلت ، وختمت بفاصلة أخرى ، إذ قال تعالى « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » (٤١ : ٤٦) ولعل سر ذلك أن الآية الأولى جاء قبلها حديث عن منكرى البعث ، فناسب ختم الآية بالحديث عنه ، أما الآية الثانية فناسب ختمها معناها : من جزاء كل بما يستحق ؛ ونظير هذا

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ٢٠٢ .

أيضاً قوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيما » (٤ : ٤٨) وقال مرة أخرى فى السورة نفسها : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » (٤ : ١١٦) ونستطيع أن نلتمس سر هذا الاختلاف فى أن الآية الأولى وردت فى حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب ، مما ناسب أن تختم الآية بالافتراء ، الذى اعتاده اليهود ، وهم أهل الكتاب . أما الآية الثانية فقد وردت فى حديث عن المشركين ، وهم فى إشراكهم لا يفترون ، ولكنهم ضالون ضلالا بعيدا .

وقد تكون المخالفة لتعديد الأوصاف وإثباتها ، حتى تستقر فى النفس ، كما فى قوله سبحانه «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون»(٥ . ٤٤) فقد كررها قائلا . « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (٥ : ٤٥) وقال مرة ثالثة : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٥ . ٤٧) يريد أن يبين أن من لم يحكم بما أنزل الله ساتر لما أنزله الله ، ظالم لنفسه ، فاسق بهذا الستر .

وقد يتشابه المقامان فى الهدف والغاية فتتحد الفاصلة فيهما كما فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ، والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات ، من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ، طوافون عليكم ، بعضكم على بعض ، كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا ، كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليم حكيم » (٢٤ : ٥٨ و ٥٩) فالآيتان فى الاستئذان ، وقد ختمتا بفاصلة متحدة . واتحدت الفاصلة فى قوله سبحانه : « بلى من كسب سيئة

وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة ، هم فيها خالدون » ، للموازنة بين خلودين ، أحدهما فى الجنة ، والآخر فى السعير .

وقد تحدث العلماء عما يكون فى الآية مما يشير إلى الفاصلة ، ويسمون ذلك تصديراً وتوشيحا ، أما التصدير فأن تكون اللفظة قد تقدمت مادتها فى الآية ، ودعوه رد العجز على الصدر ، ومثلوا له بقوله تعالى : « أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً » وقوله تعالى : « هب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت الوهاب » وقوله تعالى : « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » وقوله تعالى : « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات ، وأكبر تفضيلا » ، وقوله تعالى : « قال لهم موسى : ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ، فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى » ، وقوله تعالى : « فقلت استغفروا ربكم ، إنه كان غفارا » .

وفى ذلك وشبهه ما يدل على التحام الفاصلة بالآية التحاما تاماً ، يستقر فى النفس وتتقبله أعظم قبول . وحينا يظن أن الآية تهيىء لفاصلة بعينها ، ولكن القرآن يأتى بغيرها ، إيثاراً لما هو ألصق بالمعنى ، وأشد وفاء بالمراد .

ومن ذلك قوله سبحانه : « وإذ قال موسى لقومه : إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، قالوا : أتتخذنا هزوا ، قال : أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين » فربما وقع فى النفس أن الفاصلة ترتبط بالاستهزاء ، وتتصل به ، ولكنها جاءت تبرؤاً من الجهل . وفى ذلك إشارة إلى أن الاستهزاء بالناس جهل وسفه ، لا يليق أن يصدر من عاقل ذى خلق .

أما ما سموه توشيحاً ، فهو أن يكون معنى الآية مشيراً إلى هذه الفاصلة ، ومثلوا له بقوله تعالى : « إن الله اصطفى آدم ، ونوحا ، وآل إبراهيم ، وآل عمران ،

على العاملين » فإن الاصطفاء يكون من الجنس ، وجنس هؤلاء المصطفين ، هو العالمون ، وبقوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » .

هذه الفواصل لها قيمتها فى إتمام المعنى ، وهى مرتبطة — كما رأينا — بآياتها تمام الارتباط ، ولها أثرها الموسيقى فى نظم الكلام ، ولهذه الموسيقية أثرها فى النفس ، وأسلوب القرآن فيه هذه الموسيقى المؤثرة ، ومن أجلها حدث فى نظم الآى ما يجعل هذه المناسبة أمراً مرعيا ، وتجد بعض ذلك فى كتاب الإتقان[1] ، ومن ذلك إيثار أغرب اللفظين نحو « قسمة ضيزى » وقد أحسن ابن الأثير توجيه هذه اللفظة إذ قال[2] : « إنها فى موضعها لا يسد غيرها مسدها ؛ ألا ترى أن السورة كلها التى هى سورة النجم — مجموعة على حرف الياء فقال تعالى : « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى » وكذلك إلى آخر السورة . فلما ذكر الأصنام وقسمة الأولاد ، وما كان يزعمه الكفار . قال : « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى » ، فجاءت اللفظة على الحرف المسجوع الذى جاءت السورة جميعها عليه ، وغيرها لا يسد مسدها فى مكانها .

وإذا نزلنا معك أيها المعاند على ما تريد قلنا : إن غير هذه اللفظة أحسن منها ، ولكنها فى هذا الموضع لا ترد ملائمة لأخواتها ، ولامناسبة ، لأنها تكون خارجة عن حروف السورة ، وسأبين ذلك فأقول : إذا جئنا بلفظة فى معنى هذه اللفظة ، قلنا : (قسمة جائرة أو ظالمة) ولا شك أن (جائرة ، أو ظالمة) أحسن من (ضيزى) ، إلا أنا إذا نظمنا الكلام ، فقلنا : « ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة جائرة . لم يكن النظم كالنظم الأول ، وصار الكلام كالشىء المعوز ، الذى يحتاج إلى تمام ، وهذا لا يخفى على من له ذوق ومعرفة بنظم الكلام » ، هذا وإن غرابة هذه اللفظة من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة .

---

(١) ج ٢ ص ٩٩ . (٢) المثل السائر ص ٦٢ .

وقد يشتد التقارب الموسيقى فى الفواصل ، حتى تتحد الفاصلتان فى الوزن والقافية ، كما فى قوله تعالى : « فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة » . وقوله : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم » وقوله : « إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم » وقد تختلفان فى الوزن ، ولكنهما تتقاربان فى حروف السجع ، كقوله تعالى « مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا » وقد تتساوى الفاصلتان فى الوزن دون التقفية . كقوله تعالى « ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة » وقوله : « وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم » .

وقد تختلفان وزنا وقافية ، ولكنهما تتقاربان ، كقوله تعالى : « الرحمن الرحيم مالك يوم الدين » وقوله : « ق ، والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون هذا شىء عجيب » .

ويسمى العلماء الفواصل المتفقة فى الحرف الأخير متماثلة ، وما عداها متقاربة ، ولا تخرج الفواصل عن هذين النوعين أبداً ، وقد تنتهى السورة بفاصلة منفردة تكون كالمقطع الأخير ، كقوله تعالى فى ختام سورة الضحى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث » .

وقد تتفق الفاصلتان لا فى الحرف الأخير فحسب ، ولكن فى حرف قبله ، أو أكثر ، من غير أن يكون فى ذلك كلفة ولا قلق ، بل سلاسة ولين وجمال ، مثال التزام حرف قوله تعالى : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك » وقوله تعالى « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » وقوله تعالى « فلا أقسم بالخنس الجوارى الكنس[1] » وقوله تعالى « والليل وما سق[2] ، والقمر إذا اتسق » .

ومثال ما اتفقا فى حرفين ، قوله تعالى « والطور ، وكتاب مسطور » وقوله

---

(١) الكواكب السيارة . (٢) جمع .

تعالى : « ما أنت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون »، وقوله تعالى : « حتى إذا بلغت التراقى ، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق » .

ومثال التزام ثلاثة أحرف قوله تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا ، فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ، ثم لا يقصرون » وأنت ترى فى كل ما التزم فيه حرف أو أكثر أنه طبيعى لا تكلف فيه .

هذا وإذا كانت الفاصلة فى الآية كالقافية فى الشعر ، فقد رأينا فيما سبق بعض ما تختلف فيه الفاصلة عن القافية ، حينما تتقارب الفواصل ولا تتماثل ، كما أنه من المعيب فى الشعر أن تتكرر القافية ، قبل سبعة أبيات وليس ذلك بعيب فى الفاصلة. قال تعالى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إدّا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدّا ، أن دعوا للرحمن ولدا » .

الغريب

نقصد بالغريب ماقل دورانه على الألسنة . فلم يستعمله الخطباء ولا الشعراء استعمال غيره من الألفاظ ، ويحوى القرآن الكريم عدداً منه ، فكان العرب فى عصر نزول القرآن ، يمضون إلى كبار الصحابة ، يسألونهم عن معانى هذه الألفاظ الغريبة ، فيجيبونهم ويقربون لهم هذه المعانى ، مستشهدين بأبيات الشعر ، والواقع أن قدرة الصحابة على فهم نصوص القرآن لم تكن فى درجة واحدة : فكان منهم المثقف ثقافة أدبية ممتازة ، ولم يكن ما نسميه الآن غريباً ، بغريب عند هؤلاء الذين تحداهم القرآن ، فلم يكن استخدامه حينئذ معيباً ولا مستكرهاً ، ومثال ذلك استعمال عباقرة الشعراء ألفاظا يعرفها جمهور المتأدبين ، ويتذوقون جمالها ، وإن كانت غير دائرة على ألسنة العامة . فلا يعاب الشاعر على هذا الاستخدام ، ولا

ينقص ذلك من قدر كلامه ، بل يضع أدبه فى مستوى الأدب الرفيع ، الذى تقدره وتدرك قيمته الصفوة الممتازة من الأدباء .

ومما يدل على أن القرآن يؤثر رفعة الأسلوب أنه يفضل أحيانا كلمة أدبية ، على أخرى شائعة عامية ، فتراه يستخدم « إلحافا » فى قوله تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا » (٢ : ٢٧٣) مكان « إلحاحا » وربما كان لتكرير الحاءين فى الكلمة أثر فى الإعراض عنها ، وليس ذلك بعجيب على كتاب نزل ، ليتحدى أبلغ البلغاء ، مستخدما أجمل وأرق ما يعرفونه من الألفاظ .

وينبغى أن نقرر أن مانسميه اليوم غريب القرآن ، قد برىء من الثقل على اللسان ، والكراهة على السمع ، والقرآن الكريم لا يستخدم هذا النوع من الألفاظ إلا قليلا ، وليس كل ما ذكره المؤلفون فى القرآن مما يندرج فى هذا النوع ، بل يضعون فيه كل ما يرتفع قليلا عن مستوى العام الشائع ، فتجد السجستانى مثلا يعد منه كلمات « انفصام ، وإسرافا ، وادرءوا ، وإعصار[1] » ، وليس ذلك بغريب.

أما ما نعده اليوم غريباً فعدد محدود من الكلمات ، مثل « قضباً وأباً » فى قوله تعالى : « إنا صببنا الماء صبًّا ، ثم شققنا الأرض شقّا ، فأنبتنا فيها حبا ، وعنباً وقضبا ، وزيتونا ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبا » (٨٠ : ٢٥ — ٣١) والقضب : القث ، والأب : ما ترعاه الأنعام ، ويقال : الأب للبهائم كالفاكهة للناس[2] ؛ وقد جاءت الكلمتان فاصلتين محافظتين أقوى محافظة على النغم الموسيقى ، كما أن الكلمة الثانية استخدمت فى معناها الدقيق .

وعلى هذا الوجه جاءت « إدًّا » فى قوله تعالى : « لقد جئتم شيئاً إدًّا » (١٩ : ٨٩) بمعنى الأمر العظيم .

---

(١) غريب القرآن ص ٣٦ و ٣٧ . (٢) المرجع السابق ص ٢٨ و ١٨٠ .

وقد يكون مايحيط بالكلمة دالا على معناها ، كما نجد ذلك فى « اركس» فى قوله تعالى : « كلما ردوا إلى الفتنة ، أركسوا فيها » (٤ : ٩١) وفى « أكنة » فى قوله تعالى «وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا»(٦:٢٥) و « أمتا » بمعنى ارتفاعا وهبوطا[1] من قوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا » (٢٠:١٠٥ — ١٠٧) و « ألتنا » بمعنى نقصنا ، من قوله تعالى : « وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين » (٥٢ : ٢١) ويكاد يكون هذا الأمر مبدأ عاما فى معظم ما نسميه اليوم بالغريب ، فهو مع قلته يحاط بما يشير إلى معناه ، وقد يتولى القرآن نفسه تفسير ما يرد من تلك الألفاظ ، ويكون ذلك فى موضع الترهيب والزجر ، أو الوعد بالخير ، فيكون النطق بهذه الكلمة الغريبة ، مثيراً فى نفس سامعها السؤال عنها ، والتنبه القوى لمعناها ، حتى إذا جاء هذا المعنى استقر فى النفس ، فملأها خوفا ، أو غمرها بالبهجة والحبور ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : « سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر، لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر ، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا » (٨٤ : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩) وقوله تعالى « كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين ، كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين ، الذين يكذبون بيوم الدين » (٨٣ : ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١)ومثله قوله سبحانه : « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون ، كتاب مرقوم ، يشهده المقربون » (٨٣ : ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١)

ولعل من وجوه بلاغة استخدام هذه الألفاظ الأدبية التى لم تشع على الألسنة إلا قليلا ، ما نراه من اختيار ما حسن وقعه على الأذن ، وجريه على اللسان منها ،

---

(١) المرجع السابق ص ١٧ .

ثم فى وضعه حيث لا يغنى غيره من الألفاظ غناءه ، لتناسب موسيقاه ، أو لأنه يؤدى المعنى الدقيق دون سواه ، وفى ذلك من براعة الاستعمال ما لا نجده فى الألفاظ المستعملة الشائعة .

وإذا أردت أن تعرف ما عده العلماء من غريب القرآن ، فارجع إلى مؤلف السجستانى ، وإلى كتاب الإتقان (ج ١ ص ١١٥) وفيهما تفسير هذا الغريب ، وفى الإتقان أبيات الشعر ، التى استشهد بها على معانى ماورد فى القرآن من هذه الألفاظ .

المعرب

واستخدم القرآن ألفاظاً تكلمت بها العرب ، وأدخلتها فى لغتها ، وإن كانت فى أصلها ليست من اللغة العربية ، وقد صقلتها العرب بألسنتها ، وشذبتها ، وربما تكون قد غيرت بعض حروفها ، أو أسقطت بعضها ، وإذا أدخلت العرب هذه الألفاظ ، استغنت بها غالباً عن أن تضع ألفاظاً فى معناها .

ومن هذه الكلمات المعربة التى استخدمها القرآن، وهى فى جملتها طائفة قليلة، كلمة إبريق[١] فى قوله تعالى : « يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين » (٥٦ : ١٧ ، ١٨) وكلمات استبرق ، وزنجبيل ، وسندس ، وسلسبيل[٢]، فى قوله سبحانه : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عيناً فيها تسمى سلسبيلا ... عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ، وحلوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شراباً طهورا » (٧٦ : ١٧ ، ١٨ ، ٢١) وكافور[٣]، فى قوله

---

(١) المعرب للجواليقى ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥ و ١٧٤ و ١٧٧ و ١٨٩ على التوالى .

(٣) المرجع السابق ص ٢٨٥ .

تعالى : « إن الأبرار يشربون من كأس ، كان مزاجها كافورا » (٧٦ : ٥) والفردوس[١] فى قوله سبحانه : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، كانت لهم جنات الفردوس نزلا » (١٨ : ١٠٧) والتنور[٢] فى الآية : « حتى إذا جاء أمرنا وفار التّنّور ، قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ، ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل » (١١ — ٤٠) ، ودينار[٣] ، فى قوله تعالى : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار ، لا يؤده إليك ، إلا ما دمت عليه قائما » (٣ : ٨٥) ، ودرهم، فى قوله : «وشروه بثمن بخس، دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين» (١٢ : ٢٠) . وسجيل[٤] فى الآية الكريمة : « وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل » (١٠٥ : ٣ ، ٤)، وسرادق[٥]، فى قوله سبحانه : « إنا أعتدنا للظالمين نارا، أحاط بهم سرادقها » (١٨ : ٢٩) والقسطاس[٦] فى قوله تعالى : « وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم » (١٧ : ٣٥) ، والمجوس[٧]، فى قوله تعالى : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » (٢٢ : ١٧) وغير ذلك. وقد أحصى كتاب الاتقان[٨] هذه الكلمات المعربة ، ولكنه عد فيها ما ليس منها ، متبعاً فى ذلك بعض الآراء ، مثل كلمة سيد ، وابلعى ، وأوّاب ، وتحت ، وغير ذلك ، وربّما

(١) المرجع السابق ص ٢٧٠ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٤ .
(٣) المرجع السابق ص ١٣٩ .
(٤) المرجع السابق ١٨١ .
(٥) المرجع السابق ص ٢٠٠ .
(٦) المرجع السابق ص ٢٥١ .
(٧) المرجع السابق ص ٢٣٠ والقاموس ماده مجوس .
(٨) ج ١ ص ١٣٨ .

اتفقت العربية وغيرها من اللغات السامية ، فى بعض الكلمات ، لأنها جميعها من أصل واحد ، وحينئذ لا يقال إن اللغة العربية قد أخذتها عن غيرها من اللغات السامية .

وليس استخدام هذه الألفاظ المعربة بمخرج القرآن عن أن يكون بلسان عربى مبين، فقد ارتضى العرب هذه الألفاظ ، واستخدموها فى لغتهم وارتضوها بين كلماتهم ، وقد نزل القرآن بما ألف العرب استعماله ، ليدركوا معناه ، فليس غريباً أن يتخذ من تلك الأدوات المعرَّبة ، أدوات له يؤدى بها أغراضه ، ومعانيه.

ووجه البلاغة فى إيثارها ، أنها تؤدى معانيها الدقيقة ، فى عبارة موجزة ، فإن العرب لم تضع لفظاً تدل به على معنى ما عربته ، فلم تعد ثمة وسيلة للتعبير عنه ، سوى اختيار اللفظ المعرب، أو الإتيان بأكثر من كلمة لأداء معناه ، فإذ أريد مثلا الاستغناء عن كلمة استبرق ، احتيج إلى كلمتين أو أكثر ، فقيل الديباج الثخين، وما دامت الكلمة المعربة خفيفة على اللسان ، فهى أولى من الكلمتين ، وهى متعينة حين لم يضع العرب بدلاً منها .

الزائد

أحصى النحاة ما ورد فى القرآن الكريم من كلمات زائدة ، وحصروها فى خمسة عشر لفظاً : هى إذ ، فى قوله تعالى : « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسدفيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال : إنى أعلم مالا تعلمون » (٢ : ٣٠) وإذا فى قوله تعالى : « إذا السماء انشقت » (٨٤ : ١) أى انشقت السماء كما قال : « اقتربت الساعة » . وإلى ، فى قوله تعالى : « ربنا ، إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع ، عند بيتك المحرم ، ربنا ، ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون » (١٤ : ٣٧) فى رواية من قرأ تهوى ، بفتح الواو . وأم ، فى قوله تعالى : « ونادى فرعون فى قومه ، قال : ياقوم ، أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين » (٤٣ : ٥١ ، ٥٢) والتقدير : « أفلا تبصرون ؟ ! أنا خير » . وإن ، فى قوله تعالى : « ولقد مكناهم فيما إن مكنا كم فيه ، وجعلنا لهم سمعا ، وأبصارا ، وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ، ولا أبصارهم ، ولا أفئدتهم من شىء (٤٦ : ٢٦) . وأن ، فى قوله تعالى : « ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ، وضاق بهم ذرعا » (٢٩ : ٣٣) وقوله تعالى : « فلما أن جاء البشير ، ألقاه على وجهه ، فارتد بصيرا ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم من الله مالا تعلمون » (١٢ : ٩٦) وقوله سبحانه : « وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا » (٢ : ٢٤٦) وقوله تعالى « وما لنا ألا نتوكل على الله ، وقد هدانا سبلنا (١٤ : ١٢) . والباء ، فى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (٢ : ١٩٥)

« وهزى إليك بجذع النخلة ، تساقط عليك رطباً جنياً » (١٩ : ٢٥) « فليمدد بسبب إلى السماء ، ثم ليقطع ، فلينظر ، هل يذهبن كيده ما يغيظ » (٢٢ : ١٥) « ومن يرد فيه ، بألحاد ، بظلم نذقه من عذاب أليم » (٢٢ : ٢٥) « فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون » (٦٨ : ٦) « والذين كسبوا السيئات ، جزاء سيئة بمثلها (١٠ — ٢٧) . « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » (٢ : ٢٢٨) والفاء ، فى قوله سبحانه : « هذا ، وإن للطاغين لشرّ مآب ، جهنم يصلونها ، فبئس المهاد ، هذا ، فليذوقوه ، حميم وغساق (٣٨ : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧) . وفى ، من قوله تعالى : « وقال اركبوا فيها ، بسم الله مجريها ومرساها » (١١ : ٤١) . والكاف ، فى الآية الكريمة : « ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير » (٤٢ : ١١) . واللام ، فى قوله تعالى : « قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون » (٢٧ : ٧٢) « هيهات هيهات لما توعدون » (٢٣ : ٣٦) . ولا ، فى قوله تعالى : « مامنعك ألا تسجد إذ أمرتك » (٧ : ١٢) « وقال ياهرون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، ألا تتبعن ، أفعصيت أمرى » (٢٠ : ٩٢ ، ٩٣) وقوله سبحانه : « يأيها الناس اتقوا الله ، وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين ، من رحمته ، ويجعل لكم نوراتمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم ، لئلا يعلم أهل الكتاب ، ألا يقدرون على شىء من فضل الله ، وأن الفضل بيد الله ، يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » (٥٧ : ٢٨ ، ٢٩) وقوله تعالى : « لا أقسم بيوم القيامة » (٧٥ : ١) وما على شاكلته من الآيات ، وقوله سبحانه : « فلا وربك لا يؤمنون ، حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما » (٤ : ٦٥) وقوله تعالى : « قل : تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ، ماظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون » (٦ : ١٥١) وقوله تعالى : « وأقسموا بالله

جهد أيمانهم ، لئن جاءتهم بآية ليؤمنن بها ، قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (٦ : ١٠٩) وقوله سبحانه : « وحرام على قرية أهلكناها ، أنهم لا يرجعون » (٢١ : ٩٥) وقوله سبحانه : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن ، كونوا ربانيين ، بما كنتم تعلمون الكتاب ، وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا » (٣ : ٧٩ ، ٨٠) . وما ، فى قوله سبحانه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » (٣ : ١٥٩) ، و « فبما نقضهم ميثاقهم ، وكفرهم بآيات الله » (٤ : ١٥٥) وقوله سبحانه : « مما خطيئاتهم أغرقوا ، فأدخلوا نارا » (٧١ : ٢٥) . ومن ، فى قوله تعالى : « ولقد جاءك من نبأ المرسلين » (٦ : ٣٤) . والواو ، فى قوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم ، طبتم ، فادخلوها خالدين » (٣٩ : ٧٣) وقوله سبحانه وتعالى : « فلما أسلما ، وتله للجنين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين (٣٧ : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) .

ذلك ما أحصاه النحويون من حروف ، قالوا : إنها زائدة ، وردت فى القرآن ، يعنون بزيادتها أنهم لا يستطيعون لها توجيهاً إعرابياً ، وإن كانوا يجدونها قد أدت معانى لا تستفاد من الجملة إذا هى حذفت . وسنقف عند كل آية نتبين فيها مازيد وسر زيادته .

اما زيادة إذ فى الآية الأولى فما لم يرتضه ابن هشام فى مغنيه[1] ، وقال صاحب الكشاف[2] : إذ منصوبة بإضمار اذكر ، ويجوز أن ينتصب بقالوا ، وعليه ، فليست إذ بزائدة .

---

(١) ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) ج ١ ص ٥٢٣ .

وكذلك لم يرتض[1] زيادة إذا فى الآية السابقة بل رآها شرطية حذف جوابها، لتذهب النفس فى تقديره كل مذهب ، أو اكتفاء بما علم فى مثلها من سورتى التكوير والانفطار ، ففى كلتا السورتين قد ذكر جواب إذا ، فقيل فى سورة التكوير فى الجواب : « علمت نفس ماأحضرت » ، وقيل فى سورة الانفطار : « علمت نفس ماقدمت وأخرت » .

وقيل فى توجيه آية (إلى) : إن تهوى بفتح الواو قد ضمنت معنى تميل[2]، وهو يتعدى بإلى فليست على ذلك بزائدة . وأم فى آيتها ليست زائدة كذلك ، بل هى منقطعة بمعنى بل ، وتفيد الإضراب الانتقالى ، وليست إن فى آيتها زائدة ، بل نافية ، والمعنى ولقد مكناهم ، فى أمور لم نمكنكم فيها ، والمجىء بإن هنا أفضل من المجىء بما ، حذرا من التكرير اللفظى .

أما أن فى الآيتين الأوليين فزائدة ، جىء بها مؤذنة بتراخى حدوث الفعلين بعدها فى الزمن ، تراخيا عبَّر عنه القرآن بهذه اللفظة ، ولوأن الفعل كان على الفور لا تصل الفعل بلما من غير فاصل بينهما . وأما فى الآيتين الأخيرتين ، فأن غير زائدة فيهما ، والمعنى أى داع لنا فى ترك القتال فى سبيل الله ، وفى ألا نتوكل على الله ، وقد هدانا سبلنا .

والباء ليست زائدة فى الآية الأولى ، فمعناها : ولا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التهلكة . أى لا تكونوا سبباً فى هلاك أنفسكم بأفعالكم . أما فى الآية الثانية فقد ضمن هزى معنى أمسكى هازة ، فجىء بالباء مصورة لمريم ، ممسكة بجذع النخلة ، تهزها ، مبعدة هذا الجذع حيناً ، ومقربة له إليها آخر . وأما الباء فى (بسبب) فعلى تضمين يمدد معنى يتصل ، إذ ليس المراد مطلق

---

(١) ج ٢ ص ٥٣٣ .

(٢) مغنى اللبيب ج ١ ص ١٢٣ .

مد سبب إلى السماء ، بل الهدف أن يعلق المغيظ نفسه بهذا السبب ، فساغ لذلك هذا التضمين ، ودلت الباء عليه .

وليست الباء فى (بإلحاد) داخلة على المفعول به بل هو محذوف ، والجار والمجرور حال من فاعل يرد ، كشأن الجار والمجرور بعده ، والمعنى ومن يرد فيه مراداً ما ، عادلاً عن القصد ، ظالما ، والإلحاد العدول عن القصد[1] فالباء للمصاحبة لا زائدة .

وليس من الضرورى جعل الباء زائدة فى (بأيكم المفتون) ، بل من الممكن أن تكون بمعنى فى ، والتقدير فى أيكم المفتون ، أى سترى ويرون فى أى الفريقين منكم يكون المجنون ، أفى فريق المسلمين ، أم فى فريق الكافرين .

ولم يرتض ابن هشام أن تكون الباء فى (بمثلها) زائدة ، بل قال : والأولى تعليق بمثلها ، باستقرار محذوف ، هو الخبر[2] ؛ كما لم يرتض زيادة الباء فى بأنفسهن فى الآية الكريمة ، بل قال : « فيه نظر ، إذ حق الضمير المرفوع المتصل ، المؤكد بالنفس ، أو العين ، أن يؤكد أولا بالمنفصل ، نحو قمتم أنتم أنفسكم ، ولأن التوكيد هنا ضائع ، إذ المأمورات بالتربص ، لا يذهب الوهم إلى أن المأمور غيرهن ، بخلاف قولك زارنى الخليفة نفسه[3] » . وعلل صاحب[4] الكشاف ذكر الأنفس هنا ، فقال : « فى ذكر الأنفس تهييج لهن على التربص ، وزيادة بعث ، لأن فيه ما يستنكفن منه ، فيحملهن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طوامح إلى الرجال ، فأمرن أن يقمعن أنفسهن ، ويغلبنها على الطموح ، ويجبرنها على التربص » .

وليست الفاء فى قوله سبحانه : « هذا فليذوقوه : حميم وغساق » — بزائدة ، بل هى آية ضمت ثلاث جمل قصيرة ، يوحى قصرها الخاطف بالرهبة فى النفس ،

---

(١) مدارك التنزيل ج ٣ ص ٧٦ .
(٢) مغنى اللبيب ج ١ ص ١٧٩ .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) ج ١ ص ١٠٦ .

والخوف ؛ فالجملة الأولى مبتدؤها مذكور حذف خبره ، فكأنه قال : هذا حق ثابت لا مراءَ فيه ، وكأنه يشير إلى ما تقدم من قوله : « وإن للطاغين لشر مآب: جهنم يصلونها ، فبئس المهاد » ثم فرع على ذلك العذاب الذى أعد لهم ، قائلاً : « فليذوقوه » ذاكراً ضميراً يبعث فى النفس ترقب تفسيره ، ففسره بأن ماسيذوقونه حميم يحرق بحرّه ، وغساق يقتل ببرده ، ولم يذكر المبتدأ هنا إسراعاً إلى ذكر العذاب المعد لهم . وخرجه ابن هشام[1] على أن خبر هذا هو حميم وغساق ، لا الجملة الطلبية ، وعليه فتأويل الآية : « هذا حميم وغساق ، فليذوقوه » وإنما أسرع بالجملة الطلبية ، تهديداً لهم ، وتشفياً منهم .

ولا وجه لزيادة «فى» من قوله سبحانه : « وقال اركبوا فيها » ؛ لأن ركوبهم كان فى السفينة . ولم ير صاحب الكشاف الكاف زائدة بل وجه الآية الكريمة بقوله : «قالوا: مثلك لا يبخل ، فنفوا البخل عن مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة فى ذلك ، فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه عمن يسد مسده ، وعمن هو على أخص أوصافه ، فقد نفوه عنه ، ونظيره قولك للعربى : العرب لا تخفر الذمم ، كان أبلغ من قولك : أنت لا تخفر ، ومنه قولهم: قد أيفعت لداته ، وبلغت أترابه ، يريدون إيفاعه وبلوغه ، فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله : « ليس كالله شىء » ، وبين قوله : « ليس كمثله شىء »[2].

وإذا ضمنت ردف معنى دنا ، فى قوله سبحانه : « ويقولون: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، قل : عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون » — لم تعد اللاّم زائدة ، كما لا تصير اللام زائدة فى الآية التالية إذا جعلناها وما بعدها متعلقة بالفاعل المحذوف ، وكان تأويل الجملة : هيهات هيهات الوقوع لما توعدون ، وكان حذف الفاعل لوضوح دلالة الجملة عليه .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

(٢) الكشاف ص ٣٣٨ ج ٢ .

أما لا الواقعة بعد منع فى الآيتين فزائدة ، أريد بها تصوير فعل الممتنع ، فإبليس فى الآية الأولى لم يسجد ، حين أمره الله ، وهارون فى الثانية لم يتبع موسى ، وعصى أمره . وأريد بها كذلك تصوير ما يكون من هؤلاء الكفرة ، إذا استجيب لهم ، ونزلت الآية التى اقترحوها ، فقال تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » — وتصوير أمر القرية التى أهلكت ، وأن من المحال عودتها فقال سبحانه : « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » — وبيان ما يكون من هذا البشر الذى يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، فهو لا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا . وتشعر فى لا وهى زائدة فى قوله تعالى : « لئلا يعلم أهل الكتاب » بأن أهل الكتاب هؤلاء ، لن يتدبروا الأمر تدبراً يؤدى بهم إلى الإيمان ، وأن علمهم حينئذ سيكون كلا علم ، فكأنهم لم يعلموا .

وأما لا الواردة فى القسم القرآنى ، فإنها مزيدة توطئة للنفى بعده ، وتوكيداً له ، كما فى قوله سبحانه : « فلا وربك لا يؤمنون ، حتى يحكّموك فيما شجر بينهم » وذلك مستفيض فى أشعارهم ، كقول امرىء القيس :

فلا وأبيـــك ابنة العامرى لا يدعى القـــوم أنى أفر

ومنها ما كان للنفى تعظيما للمقسم به ، كما فى قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم » وليس ذلك بمانع من أن تكون هذه الصيغة مؤكدة لما يذكر بعدها .

أما الآية الكريمة : « قل : تعالوا ، أتل ما حرم ربكم عليكم » . فنظرة إليها تريك أنه لم يذكر فيها المحرم ، وإنما ذكر فيها ما أمروا به ، من عدم الشرك بالله ، والإحسان إلى الوالدين ، إلى غير ذلك ، فكان المحرم عليهم ضد هذا الذى ذكره ، فليست لا زائدة بل هى للنفى ، والجملة متسقة مع ما تلاها .

وما ليست زائدة فى الآيات الثلاث الواردة ، بل هى نكرة تامة بمعنى شىء ،

وما بعدها بدل كل منها ، والمجيء بهذه النكرة متصلة بحرف الجر ، وهى تبعث فى النفس معنى مبهماً ، ليزداد الشوق إلى معرفة معناها ، حتى إذا ورد استقر فى النفس واطمأنت إليه . ولا يكون ذلك إلا حيث يكون الكلام مرتبطاً بأمر عظيم ، كالرحمة التى ألانت قلب الرسول ، والخطيئات التى أغرقتهم ، فأدخلوا بها النيران ، ونقض المواثيق التى كانت سبب ما يعانونه من اللعنة وسوء المصير .

أما من فى الآية الكريمة فاسم بمعنى بعض . والواو فى الآيتين ليست بزائدة ، وجواب إذا ولما محذوف ترك إلى النفس إدراكه ، حتى كأن العبارة لا تفى بالدلالة عليه .

ومن كل ذلك يبدو أن ما يمكن عده زائداً ، إنما هو حروف نادرة ، جىء بها لأغراض بلاغية ، وفت بها هذه الحروف الزائدة ، ويظهر أن تسميتها زائدة معناه أنها لا يرتبط بها حكم إعرابى ، لا أنها لم تؤد فى الجملة معنى .

وورد فى القرآن ما يبدو للنظرة السريعة أنه يمكن الاستغناء عنه ، ولكن التأمل يبين عن دقة بارعة ، فى اختيار هذا التعبير ، وبلاغة مؤثرة فى المجيء به . وهاك قوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون : هذا من عند الله ؛ ليشتروا به ثمناً قليلا » (٢ : ٧٩) ، فتأمل قوله بأيديهم يصور بها جريمة الافتراء ، ويرسم بها مقدار اجترائهم على الله ، ويؤكد ارتكابهم الجريمة بأنفسهم ، وإن شئت فأسقط تلك الكلمة ، وانظر أى فراغ تتركه إذا سقطت .

وقوله تعالى : « قد مكر الذين من قبلهم ، فأتى الله بنيانهم من القواعد ، فخر عليهم السقف من فوقهم ، وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » (١٦ : ٢٦) ، فمن فوقهم صورت هذه الكارثة ، التى نزلت بهم أكمل تصوير ، ومن هذا الباب قوله سبحانه : « أو كصيب من السماء ، فيه ظلمات ورعد وبرق » (٢ : ١٩) ، فالمطر لا يكون إلا من السماء ، ولكن التعبير عن المطر بالصيب ، ووصفه بأنه من

السماء ، يصوره لك كأنما هو حجارة مصوبة ، تهبط من هذا العلو الشاهق ، فتصيب بأذاها هذا السائر الضال .

وقوله تعالى : « إذ تلقونه بألسنتكم ، وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم » (١٥:٢٤) . وقوله تعالى : « وماجعل أدعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل » (٤:٣٣) فأفواهكم تدل فى الآية الأولى على أن الحديث الذى يجرى على ألسنتهم حديث لم يشترك فيه العقل ، ولم يصدر عنه ، وفى الآية الثانية ، تدل على أن النطق اللسانى ، لا يغير من الحقيقة شيئاً ، فهو لا يتعدى اللسان ، إلى ما فى الأفئدة من حقائق .

وقوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » . ففى ذكر الجوف تأكيد لإنكار وجود قلبين لرجل ، فإذا تصور القارىء جوفاً ، بادر بإنكار أن يكون فيه قلبان .

وذكر واحدة فى قوله تعالى : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال ، فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة » (٦٩ : ١٣ و ١٤ و ١٥) — فضلا عما فيه من صيانة النغم الموسيقى ، يوحى بقصر النفخة ، وسرعة الدكة ، وفى ذلك من إثارة الرعب ، وتصوير شدة الهول ما فيه . وقوله تعالى : « أفرأيتم اللات والعُزَّى ، ومناة الثالثة الأخرى » (٥٣ : ١٩ و ٢٠) تجد فيه وصف مناة بالثالثة ، زيادة عما فيه من الحفاظ على الاتساق القرآنى ، والموسيقى المتناسبة ، إشارة إلى مامنى به هؤلاء القوم من ضعف فى العقول ، وفساد فى التفكير ، حتى إنهم لم يقفوا بإشراكهم عند حد الهين ، بل زادوا عليهما ثالثا ، وإنى أشعر بالتهكم المر فى قوله : الأخرى .

وقد كفانى الأدباء أمر البحث فى توجيه قوله سبحانه : « فمن لم يجد فصيام

ثلاثة أيام فى الحج ، وسبعة إذا رجعتم ، تلك عشرة كاملة » (٢ : ١٩٦).فقوله : « تلك عشرة » مع أن الثلاثة والسبعة معلوم أنها عشرة ، رفع لتوهم أنها ثلاثة فى الحج ، أو سبعة فى الرجوع لاحتمال الترديد . وقوله : « كاملة » مع أن العشرة لو نقصت لم تكن عشرة ، فائدته أنَّ التفريق ما نقص أجرها ، بل أجرها كامل، كما لو كانت متوالية ، فنسب الكمال إليها ، لكمال أجرها[1] .

---

(١) الأقصى القريب ص ٨ .

الفصل الثانى

الآية القرآنية

تكونها

« كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت من لدن حكيم خبير » (٤١ — ١)

ذلك خير ما توصف به الجملة القرآنية ، فهى بناء قد أحكمت لبناته ، ونسقت أدق تنسيق ، لا تحس فيها بكلمة تضيق بمكانها ، أو تنبو عن موضعها ، أو لا تعيش مع أخواتها ، حتى صار من العسير بل من المستحيل ، أن تغير فى الجملة كلمة بكلمة ، أو أن تستغنى فيها عن لفظ ، أو أن تزيد فيها شيئا ، وصار قصارى أمرك إذا أردت معارضة جملة فى القرآن ، أن ترجع بعد طول المطاف إليها ، كأنما لم يخلق الله لأداء تلك المعانى ، غير هذه الألفاظ . وكأنما ضاقت اللغة ، فلم تجد فيها ، وهى بحر خضم ، تؤدى به تلك المعانى غير ما اختاره القرآن لهذا الأداء .

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسى ، فتصوره بألفاظها ، لتلقيه فى النفس ، حتى إذا استكملت الجملة أركانها ، برز المعنى ، ظاهراً فيه المهم والأهم ، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب ، ولكن المعنى هو الذى جعل ترتيب الآية ضرورة لا معدى عنه ، وإلا اختل وانهار . خذ مثلا قوله تعالى : « وإذ يرفع إبراهيمُ القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم » . تجد اسماعيل معطوفا على إبراهيم ، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت ، ولكن تأخره فى الذكر ، يوحى بأن دوره فى رفع القواعد دور ثانوى ، أما الدور الأساسى فقد قام به إبراهيم ، « قيل : كان إبراهيم يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة[1] » فنزلت

(١) الكشاف ج ١ ص ٧٤ .

الآية ، وكأنما كانت ستنسى دور إسماعيل لثانويته ، ثم ذكرته بعد أن انتهت من تكوينها . وخذ قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » ، فإنك ترى تقديم المفعول هنا ؛ لأنه موضع عناية العابد ورجاء المستعين ، فلا جرم وهو مناط الاهتمام أن يتقدم ، كما يتقدم كل ما يهتم به ويعنى . وخذ قوله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » ، تجد المستعان عليه فى الآية غير مذكور ، لا تخفُّفاً من ذكره ، ولكن ليوحى هذا الحذف إلى النفس أن كل ما يقوم أمام المرء من مشقة ، وما يعترضه من صعوبات ، يستعان على التغلب عليه ، بالصبر والصلاة .

تمضى الجملة القرآنية وقد كونت من كلمات قد اختيرت ، ثم نسقت فى سلك من النظام ، فلا ضعف فى تأليف ، ولا تعقيد فى نظم ، ولكن حسن تنسيق ، ودقة ترتيب ، وإحكام فى تلاؤم . واقرأ قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٢ : ٢ و ٣ و ٤) تر آيات قد التحم نسجها ، وارتبط بناء بعضها ببعض ، تسلم الجملة إلى أختها ، فى التئام واتساق ، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال ، ووصفته الجملة الثانية ، بأنه لا يعلق به الريب ، لا فى أخباره ، ولا فى نسبته إلى الله ، وفى الجملة التالية جعله هاديا لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه ، ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن ، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها ، ويقومون بواجبهم لله ، فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدى ، وواجبهم للمجتمع ، فيقدمون من أموالهم ما يساعدون به البائس والمعتر ، ولا يتعصبون لرسول دون رسول ، بل يؤمنون بما أنزل على محمد ، وما أنزل من قبله ، ورأس الإيمان وأساسه هو إيمانهم باليوم الآخر ، لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح ، وينهى عن المنكر

والبغى ، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين .

ذلك مثل من أمثلة الارتباط القوى بين جمل الآية القرآنية . وكثير من الجمل فى القرآن توحى إليك ألفاظها ، بمعان لايستطيع لفظ أن يحدها ، بل يترك للنفس أمر إدراكها ، وحسبى أن أشير من ذلك إلى قوله سبحانه : «وإذ أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء ، تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان » (٢ : ٨٥) أوَلا توحى إليك جملة « ثم أنتم هؤلاء » بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه ، وما هم حقيقة عليه ، فأى خيبة أمل تملأ النفس منهم ، أوَلا تدل هذه الجملة القصيرة على سخط شديد ، وتعجب لأمور ما كان ينتظر حدوثها ، ونتائج كانت المقدمات تمهد لغيرها .

وقوله تعالى : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، تلك أمانيهم ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٢ : ١١١) أوَلا تحس فى قوله سبحانه : « تلك أمانيهم » ؛ بالتهكم اللاذع بهم ، وأن تلك الأمانى التى تجول فى صدورهم ، لن تجد لها سبيلا إلى التحقق فى غير أحلامهم .

وتستخدم الجملة الفعلية فى القرآن للدلالة على التجدد والحدوث ، والاسمية للثبوت والاستمرار ، والمراد بالتجدد فى الماضى حصوله ، وفى المضارع تكراره ، تأمل ذلك فى قوله تعالى على لسان إبراهيم : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين » فأتى فى الخلق ، بالماضى لحصوله مرة واحدة ، وفيما عداه بالمضارع لتكرره طول الحياة ، وتأمل قوله تعالى : « قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من

تشاء بغير حساب » تجد المضارع هنا دالا على ما يتجدد من فعل الله سبحانه فى كل حين ، ومن الجملة الاسمية قوله تعالى : «أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » .

وقد يتغير اتجاه الجملة تبعاً لتغيُّر الاتجاه النفسىّ ، ففاتحة الكتاب قد تلون فيها الحديث ، وتغير اتجاه الجملة ، فكان حديثا عن الله المستحق للحمد ، وكان التصريح باسمه وصفاته مؤذناً بأنه أهل للحمد والثناء ، فإذا كان المقام مقام العبادة والاستعانة ، تحولت الجملة إلى الخطاب إيذاناً بقربك ممن تحمد قرباً قلبياً ، ويسمح لك الشعورُ بهذا القرب أن تطلب منه العون والمساعدة ، ويستمر الخطاب فى الجمل إلى « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم » حتى إذا جاء دور المغضوب عليهم ، تحول الأسلوب مرة أخرى ؛ فمن تعظيم الله ترك مخاطبته بإسناد الغضب إليه والإضلال .

وقوله تعالى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدًّا » فالانتقال من الحديث عنهم ، إلى الحديث إليهم زيادة فى تهديد من قالوا ، ومواجهة لهم بالسخط عليهم ، والتأنيب لهم . ومن ذلك قوله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » (١٤١٧) فقد يكون ظاهر السياق أن يقال : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، الذى باركنا حوله ، ليريه من آياته ، إنه هو السميع البصير » ، ولكنه عدل عن الغيبة إلى الحضور فى وسط الآية ، تعظيما من شأن المسجد الأقصى ، ومن شأن ما يرى الله من آياته . وقوله سبحانه : « ومالى لا أعبد الذى فطرنى ، وإليه ترجعون » (٣٦ : ٢٢) فقد يتراءى أن اتجاه الآية يقضى بأن تنتهى بقوله : وإليه أرجع ؛ ولكنه عدل عن ذلك ؛ لأن المقام مقام نقاش بين من آمن ومن كفروا ؛ فهو ينتهز كل فرصة ليقنعهم فيها بوجوب الإيمان بالله واليوم الآخر. أولا تدلنا هذه الخاتمة

على أن كمال الأدب هو الذى صاغ العبارة هذا الصوغ . وأنه يخفى وراءها قوله : وما لكم لا تعبدون الذى فطركم ؛ وقد يكون فى تعبيره هذا موحياً لهم بأنه لا يريد لهم غير ما يريد لنفسه ؛ وذلك أسرع إلى قبول النصح ، وأشد إظهاراً للإخلاص . ومن ذلك قوله سبحانه : « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين ، لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » (١٠ : ٢٢ ، ٢٣) فقد كان السياق يقضى أن تسير الآية على الخطاب ؛ ولكنه انتقل ليقص قصة هؤلاء الذين لا يذكرون الله إلا عند شدة تنزل بهم ، حتى إذا انقضت المحنة بغوا فى الأرض ، وفى ذلك تعجب من أمر هؤلاء القوم ، وإنكار عليهم كفرهم بأنعم الله ، ونسيانهم التخلص من المآزق متى ابتعدو عنها ، وفى الحديث عن غائبين إيحاء للمخاطبين بألا يفعلوا هذا الفعل المستنكر . وعلى منوال هذه الآية يجرى قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون ، وتقطعوا أمرهم بينهم ، كل إلينا راجعون » (٢١ : ٩٢ ، ٩٣) . وقوله سبحانه : « يأيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيي ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله ، النبى الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون » فقد يكون ظاهر السياق يقضى أن يقول : فآمنوا بالله وبى ، ولكنه عدل عن ذلك ليبين الدوافع التى تدعو إلى الإيمان به واتباعه .

وقوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا . أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » ، فعندما جاء الحديث عن زينة السماء الدنيا ، نسب ذلك إلى نفسه

صراحة ، لما فيها من الجمال الذى يبهر نفس رائيه ، والنفع الملموس لهم ، فذكرهم الله بأنه خالق هذا الجمال ، ومبدع هذه الزينة .

وقوله سبحانه : « وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيمو الصلاة ، وبشر المؤمنين » فربما ظن أن وجه العبارة أن تسند الأفعال كلها إلى ضمير الاثنين : « موسى، وهرون » ولكنه أسند الفعل مرتين إلى واو الجماعة ، إشارة إلى أن هذا التكليف لا يخصهما فحسب ، بل هما وقومها جميعا ، ثم أفرد الفعل فى آخر الآية يشير بذلك إلى أن المخاطب أولا وبالذات إنما هو أحدهما ، وهو الرسول موسى .

ومن ذلك قوله تعالى : « قالوا: ياهود، ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول: إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ، قال: إنى أشهد الله ، واشهدوا ، أنى برىء مما تشركون » فلم يقل : وأشهدكم ، لما يشعر به هذا التعبير من العناية بأمرهم ، لجعلهم قرناء لله ، فى الشهادة عليه ؛ أما التعبير بفعل الأمر ففيه تنبيه لهم ، وإيقاظ ، حتى يتلقوا ما سيلقيه عليهم ، مؤذنا إياهم بمباينتهم فيما يعبدون . وتأمل سر تلوين الأسلوب فى قوله تعالى : « قل : أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون » (٧ : ٢٩) فقد أبرز هذا التلوين العناية بكل واحد مما أمروا به على حدة ، فاتجه أمر الرب إلى القسط وحده ، ثم أمروا أمرا جديدا ، بأن يقيموا وجوههم عند كل مسجد ، وأمرا جديدا آخر بأن يدعوه مخلصين له الدين ، وفى ذلك من العناية بتوكيد كل أمر ما فيه ، ولم يجعل أحد هذه الأمور ملحقا بصاحبه — وانظر تفخيم أمر النبى صلوات الله عليه من تغيير نهج الأسلوب ، فى قوله تعالى : « ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ، جاءوك ، فاستغفروا الله ؛ واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابا رحيما » (٤ : ٦٤) إذ لم يقل : واستغفرت لهم .

ومن ذلك استعمال أحد الفعلين : الماضى ، والمضارع ، موضع صاحبه ، فيأتى بالمضارع مكان الماضى ؛ لإحضار صورة الفعل أمام السامع ، حتى لكأنه يشاهده ؛ وليس ذلك مما يثيره الفعل الماضى ، لأن سامعه قد يكتفى بأن يتخيل فعلا قد مضى ، وربما لا يستحضر صورته ، أو تكرره . واقرأ قوله تعالى : « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (٢ : ٨٧) تجد الفعل المضارع قد صور جريمتهم كأنهم يرتكبونها ؛ وفى ذلك من التشنيع عليهم ما فيه . وقوله تعالى : « والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ؛ كذلك النشور » ففى (تثير) ما يحضر تلك الصورة الطبيعية ، الدالة على القدرة الباهرة . وقوله تعالى : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ففى ذكر المضارع استحضار صورة خطف الطير له ، وهوى الريح به . ويستخدم الماضى مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل ، حتى كأنه قد وقع ، وذلك يكون فيما يستعظم من الأمور ؛ ومن أمثلته قوله سبحانه : « ويوم ينفخ فى الصور ، ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين » (٢٧ : ٨٧) وقوله تعالى : « ويوم نسير الجبال ، وترى الأرض بارزة ، وحشرناهم ، فلم نغادر منهم أحدا » (١٨ : ٤٧) وقوله تعالى : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » (١٦ : ١) وقوله تعالى : « وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ، قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا ، أجزعنا ، أم صبرنا ، مالنا من محيص » (١٤ : ٢١) وفى الإتيان بالماضى هنا من إيقاع الرهبة فى النفوس ما فيه لأن الفعل كأنه قد تم ، والقرآن يتحدث عنه . وفى استخدام الماضى فى قوله تعالى : « الذين يكتمون ما أنزلنا ، من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم

اللاعنون ، إلا الذين تابوا ، وأصلحو وبينوا ، فأولئك أتوب عليهم ، وأنا التواب الرحيم » (٢ : ١٥٩ ، ١٦٠) إشارة إلى ما اتسم به هؤلاء التائبون من مبادرة ، وإسراع إلى التوبة . وفى قوله تعالى : « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً ، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا ، من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا : لوأن لنا كرة ، فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وماهم بخارجين من النار » تأكيد لما سيحدث فى المستقبل حتى كأنه حدث .

التقديم والتأخير

إذا كانت الواو لمطلق الجمع ، ولا تقتضى ترتيباً ، ولا تعقيباً ، فليس معنى ذلك أن الآية القرآنية ، تجمع بها معطوفات على غير ترتيب ولا نظام ، وإذا كان من الجائز أن يتقدم بعض أجزاء الجملة على بعض ، فقد حرصت الجملة فى القرآن ، على أن يكون هذا التقديم ، مشيراً إلى مغزى ، دالا على هدف ، حتى تصبح الآية بتكوينها ، تابعة لمنهج نفسى ، يتقدم عندها فيها ما تجد النفس تقديمه أفضل من التأخير ؛ فيتقدم مثلا بعض أجزاء الجملة حين يكون المحور الذى يدر عليه الحديث وحده فيكون هو المقصود والمعنى ، والنفس يتقدم عندها ما يكون هذا شأنه ، فلا جرم أن يتقدم فى الجملة ، كما تقدم فى النفس ، ويدعو البلاغيون هذا التقديم بالاختصاص، ومن أمثلته قوله تعالى : « إياك نعبد، وإياك نستعين» فالله هنا وحده أهل العبادة ، ومنه وحده نستمد المعونة ، وقوله : « خذوه ، فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ، فاسلكوه » أولا ترى أن الجحيم وهذه السلسلة ، لن يفلت منهما أبداً هذا العاصى الأثيم ، وقوله تعالى : « واقترب الوعد

الحق ، فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » فتقديم شاخصة[١] على أبصار ، يصورها لك كأن كل صفة أخرى لها قد انمحت ، ولم يبق لها سوى الانفتاح الذى يؤذن بالخوف ، والذهول معاً . ولذلك كان نفى الغول[٢] مقصوراً على خمر الآخرة ، دون خمر هذه الحياة الدنيا ، دل على ذلك قوله تعالى: « يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون » . (٣٧ : ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧) . وكان الإنكار منصباً على عبادة غير الله فى قوله تعالى : « قل : أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ ! » (٣٩ : ٦٤) قال عبد القاهر[٣] « ومن أجل ذلك قدم « غير » فى قوله تعالى : « قل : أغير الله تدعون » وكان له من الحسن والمزية والفخامة ما تعلم أنه لا يكون لو أخر فقيل : قل أأتخذ غير الله ولياً ، وأتدعون غير الله ، وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ، وأيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ، أو يكون جهل أجهل ، وعمى أعمى من ذلك ؟ ! ولا يكون شىء من ذلك إذا قيل : أأتخذ غير الله ولياً ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ، ولا يزيد على ذلك فاعرفه . وكذلك الحكم فى قوله تعالى : « أبشراً منا واحداً نتبعه » وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أن من كان مثلهم بشراً ، لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع ، وينتهى إلى أن يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنهم مأمورون بطاعته » .

وقلّ فى القرآن أن يأتى التقديم للاحتفاظ بالموسيقى فى الآية القرآنية ، ولزيادة التناسق اللفظى فحسب ، ومن ذلك قوله تعالى : « فأوجس فى نفسه خيفة موسى ، قلنا : لا تخف ؛ إنك أنت الأعلى » ، فالتقديم والتأخير لهذه الصياغة التى يعنى بها القرآن ، وهى إحدى وسائل تأثيره فى النفس ، وأصل الجملة : « فأوجس

(١) شخص بصره : فتح عينيه ، وجبل ، لا يطرف .
(٢) غاله يغوله غولا : إذا أهلكه وأفسده .
(٣) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

موسى فى نفسه خيفة » وإذا أنت قرنت هذا التعبير بالآية السابقة واللاحقة ، وجدت خروجاً على النسق ، ونفرة لا تلتئم . وللمحافظة على هذه الموسيقى كذلك ورد قوله تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر » ، وعد ابن الأثير منها قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم » قال[1]: فقوله : « القمر قدرناه منازل » ، ليس تقديم المفعول به على الفعل من باب الاختصاص ، وإنما هو من باب مراعاة نظم الكلام ، فإنه قال : « الليل نسلخ منه النهار » ثم قال : « والشمس تجرى » ، فاقتضى حسن النظم أن يقول : « والقمر قدرناه منازل » ، ليكون الجميع على نسق واحد فى النظم » أى أن تبدأ الجمل كلها بالأسماء المتناسبة .

ويتقدم بعض المعطوفات والصفات على بعض ، كما يتقدم السبب على المسبب ، فى قوله سبحانه : « إياك نعبد ، وإياك نستعين » ، فتقديمهم العبادة على الاستعانة ، تقديم للوسيلة ، قبل طلب الحاجة ، وذلك أنجح فى توقع حصولها، وقوله سبحانه : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً ، وأناسى كثيراً »؛ فتقدم ذكر البلدة الميتة ، لأن فى حياتها حياة الأنعام ، فمن نباتها تأكل وتنمو ، وتقدم الأنعام على الأناسى ، لأن فى حياة تلك حياة هؤلاء ؛ ولهذا قدمت التوبة ، على الطهارة ، فى قوله تعالى : « إن الله يحبّ التّوّابين ، ويحب المتطهرين » ، وقدم الإفك على الإثم فى قوله سبحانه : « ويل لكل أفاك أثيم » (٤٥ : ٧) والاعتداء عليه ، فى قوله تعالى : « ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير ، معتد أثيم » (٦٨ : ١٠ ، ١١ ، ١٢) ويرد الحكيم بعد العليم ، فى معظم الآيات التى ورد فيها الوصفان ، فإن ورد الوصف

---

(١) المثل السائر ص ١٧٦ .

بالحكمة أولا كان ذلك لاتجاهات أخرى ، اقتضاها سياق الآية .

وتتقدم الكلمة لتقدمها فى الزمن ، أو العمل ، كما فى الآيات التى ورد فيها ذكر الأنبياء وكتبهم ، فإن بعضهم يتقدم على بعض ، بسبق زمنه ، كقوله تعالى : « وأنزل التوراة والإنجيل من قبل ، هدى الناس ؛ وأنزل الفرقان » (٣:٤) ، وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، اركعوا واسجدوا » ، وقوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برءوسكم ، وأرجلكم إلى الكعبين » .

وللترقى من العدد القليل إلى الكثير ، كما فى قوله سبحانه : « فانكحوا ماطاب لكم من النساء ، مثنى ، وثلاث ، ورباع » (٤ : ٣) وقوله تعالى : « ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة ، إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر ، إلا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » (٥٨:٧) وأما قوله سبحانه : « قل : إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد » (٣٤ : ٤٦) فقد سيقت فى مقام دعوتهم إلى التفكير فى شأن محمد ورسالته ، وربما كان اجتماعهم مثنى ، أسرع فى وصولهم إلى الحق . فقد تعترض أحدهم شبهة ، فيبددها صاحبه ، ولهذا قدم مثنى على فرادى .

ولتقديم الكثير على ما دونه ، ولهذا قدم السارق على السارقة فى قوله تعالى : « والسارق والسارقة ، فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا ، نكالا من الله ، والله عزيز حكيم » ؛ لأن السرقة فى الذكور أكثر . والأزواج على الأولاد ، فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم ، فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا ، وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم » ؛ لأن العداوة فى الأزواج أكثر منها فى

الأولاد . وقدمت الأموال على الأولاد ، فى قوله سبحانه : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وإنّ الله عنده أجر عظيم » (٦٤ : ١٥) لأن الأموال أكثر فتنة من الأولاد ، كما قدمت فى الآية الكريمة : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . ولكنه عند ذكر الشهوات ، قدم النساء والبنين عليها ، فقال : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة ، من الذهب والفضة ، والخيل المسومة ، والأنعام ، والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب » (٣ : ١٤) .

ولشرف المقدم وعلو رتبته ، ولهذا قدم اسمه تعالى فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » ، وقوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » ، أما قوله تعالى : « وجعلناها وابنها آية للعالمين» ؛ فلأن الكلام السابق كان حديثاً عنها .

ولأنه أدل على القدرة ، كما فى قوله تعالى : « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » ، (٢٤ : ٤٥) ومما يحتاج إلى تدبر لإدراك سر تقدمه قوله سبحانه : « لا تأخذه سنة ولا نوم »، فقد يبدو أن نفى النوم بعد السنة لا محل له ، فنفى السنة يدل من باب أولى على نفى النوم ، ولكن نسق الآية يريد أن ينفى الشبه بين الله والإنسان، فهو قيوم ، مدبر لشئون السموات والأرض ، لا يدركه مايدرك الناس ، من سنة ، يعقبها نوم ، فيترك شئون العالم ، ولا يديرها ، فالترتيب هنا ترتيب زمنى،لا ترتيب يتجه إلى نفى الأدنى فالأكثر .

وتقدم ضمير المخاطبين على الضمير العائد على الأولاد فى قوله سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم » (٦ : ١٥١) وفى موضع آخر ، تقدّم الضمير العائد على الأولاد ، وتأخر ضمير المخاطبين فى قوله : « ولا تقتلوا

أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيّاكم » (١٧ : ٣١) . ولعل السّر فى ذلك أنه فى الآية الأولى يخاطب آباء مملقين ، بدليل قوله : من إملاق، فكان من البلاغة أن يسرع فيعد هؤلاء الآباء بما يغنيهم من الرِّزق ، وأن يكمل ذلك بعدتهم برزق أبنائهم ، حتى تسكن نفوسهم ، ولا يجد القلق سبيلا إليها . أما فى الآية الثانية فالخطاب للأغنياء ، بدليل قوله خشية إملاق ، فإنه لا يخشى الفقر إلا من كان غنياً ، إذ الفقير منغمس فى الفقر ، فكان من البلاغة أن يقدم وعد الأبناء بالرزق ، حتى يسرع بإزالة ما يتوهمون من أنهم بإنفاقهم على أبنائهم ، صائرون إلى الفقر بعد الغنى ، ثم مضى يكمل طمأنينتهم فوعدهم بالرزق بعد عدة أبنائهم به .

وهكذا نرى القرآن الكريم، لا ينهج فى ترتيب كلماته سوى هذا المنهج الفنّى الذى يقدم ما يقدم ، لمعنى نفهمه وراء رصف الألفاظ ، وحكمة ندركها من هذا النسج المحكم المتين .

الذكر والحذف

يذكر القرآن ما يذكره ، مما يبدو أن السياق يجيز حذفه ، عند ما يكون فى هذا الذكر تثبيت للمعنى ، وتوطيد له فى النفس ، ويكون فى ذكره فضلا عن ذلك معان لا تستفاد إذا حذف؛ فمما ذكر فيه المسند إليه قوله تعالى : « قل هو الله أحد، الله الصمد » ، ذكر اسم الجلالة فى الجملة الثانية ليستقر فى النفس مرتبطا بخبره ، وليفيد بتعريفه وتعريف الخبر أنه وحده السيد الذى يقصد إليه ، عند اشتداد الخطوب ، وفضلا عن ذلك ترى فى الأسلوب هذا التناسق الموسيقى ، الذى يفقد إذا حذفنا لفظ الله ، برغم ما فى الكلام مما يدل عليه . ومن ذلك قوله تعالى : «يسألونك عن الروح ، قل : الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» ألا ترى فى ذكر الروح ، وارتباطها بخبرها ، ما يثبت معنى الجملة فى نفسك ، ولا يشتت أركانها فى فؤادك ، فيذكر لك ما يتحدث عنه صراحة ، ولا يدعك تلتمسه من الكلام . وإن شئت فاحذف كلمة الروح من الجملة ، وانظر أتجد المعنى فى الجلاء والاستقرار مثله عندما تذكر .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « وما تلك بيمينك ياموسى ؟ قال: هى عصاى » وذكر البلاغيون أن ذكر المسند إليه هنا للرغبة فى إطالة الكلام ، وتلذذا بهذه الإطالة ، هذا التلذذ الذى دفع موسى إلى أن يتحدث بما لم يسأل عنه ، فقال: «أتوكأ عليها ، وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى » .

ويذكر المسند إليه أيضاً صراحة ، تأكيداً لوقوع المسند ، إذا كان ذكر اسمه مما يطمئن السامع إليه ، واقرأ قوله تعالى: « لا يستوى القاعدون من المؤمنين، غير أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله ، بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين

بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى،وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » (٥ : ٩٥) أولا ترى فى ذكر اسم الله بعد الوعدضمانا لتنفيذه ، كما يذكر للتصوير الباعث على الرهبة ، كما فى قوله تعالى : « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها» فذكر الأرض إلى جانب إخراج الأثقال، يصور هذا الجرم الهائل ، وقد انشق عن فجوات تقذف بما ضمت الأرض من أثقال، وذكرها ، وهى المكان المستقر الثابت الذى نجد على سطحه الاستقرار ، يصورها مائدة مضطربة تحت أقدامنا ، فأى فزع يلم بنا عند هذا التصور . كما يذكر تأكيداً لنعمة أداها ، فيكون ذكره مثيراً لشكره ، كما فى قوله تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال » ألا ترى هذه النعمة الكبرى نعمة حقن دماء المسلمين جديرة بذكر المنعم ، ليشكر .

وفى ذكر المسند كذلك تثبيت لمعنى الجملة فى النفس ، وقد يثير حذفه برغم ما قد يدل عليه ، معنى لايراد ، وتأمل قوله تعالى : « أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » ، ففى تكرير لهم مايشعر بكمال قوة الجزاءين ، ويؤكد أن العذاب العظيم قد أعد لهم فى الآخرة .

ويحذف الفاعل من الجملة عندما تدل عليه قرينة واضحة ، فيصبح كالمتعين الذى تنصرف إليه النفس أول وهلة ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى :« كلا إذا بلغت التراقى، وقيل من راق ، وظن أنه الفراق » (٧٥ : ٢٦ و ٢٧)فالحديث فى ذكر الموت ، ولا يبلغ التراقى عند الموت إلا النفس ، وإذا نظرنا إلى الآيتين الكريمتين اللتين حذف الفاعل منهما ، وهما قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى ، كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم ، الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ، لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون » (٦ : ٩٤) وقوله تعالى : «ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين» (١٢ : ٣٥)

وجدنا ذكر الفعل فى الجملة الأولى مغنياً عن ذكر فاعله ، فالمراد أن التقطع حل بينهم مكان التواصل ، فكأنه قيل : لقد تم التقاطع بينكم ، وفى الجملة الثانية أغنى ذكر ليسجننه ، بما فيه من أدوات التوكيد عن ذكره ، وكان المجىء بتلك الجملة مصوراً لما حدث من هؤلاء القوم ، ومعبراً عما كان من أمرهم ، وهم يتشاورون فى أمر يوسف ، فقد قلبوا وجوه الرأى بينهم ، ثم بدا لهم فى عقولهم أمر ، عبروا عنه بقولهم : ليسجننه ، فكانت الآية حاكية لما حدث ، مصورة له .

ويحذف المبتدأ عندما يكون ذكر الخبر المتصف بصفة ، كأنه يشير إلى هذا المبتدأ ، وكأنما بلغ من الشهرة بهذا الوصف مبلغاً يغنى عن ذكره ، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه : « كتاب أحكمت آياته ، ثم فصلت ، من لدن حكيم خبير » .

ويحذف لأن ذكره يبعث فى النفس السأم ، لشدة وضوحه ، لقرب الحديث عنه ، كما تحس بذلك فى قوله تعالى : « ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين » (٢ : ٢) أو لا ترى أن فى ذكر الضمير العائد على الكتاب قلقاً ، لشدة قرب الكتاب الماثل أمام النفس . ومن ذلك قوله سبحانه : « وما أدراك ماهيه ؟ نار حامية » (١٠١ : ١١) . وتأمل الفرق بين هذا الأسلوب الموجز وبين أن يقال . « وما أدراك ماهيه . هى نار حامية » من الإسراع إلى ذكر النار ، بعد أن أثار الشوق بالسؤال عنها . وعلى ذلك قوله تعالى . « وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة » ، وقوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (٢ : ١٨) فما دام فى معرض الحديث عنهم ، ليس فى حاجة إلى إعادة ذكرهم .

ويحذف الخبر عندما يقوم دليل فى الكلام عليه ، فيكون ذكره كاللغو ، واقرأ قوله تعالى : « واللائى يئسن من المحيض من نسائكم ، إن ارتبتم ، فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللائى لم يحضن . وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ، ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً » (٦٥ : ٤) ؛ فالصمت عن الخبر . وعطف اللائى

لم يحضن على اللائى يئسن ، مؤذن باتحادهما فى الخبر . وتأمل حذف الخبر فى قوله سبحانه : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين » (٣٩ : ٢٢) ، أولا ترى فى حذف الخبر مايشير إلى أن عقد الموازنة بين من هو على نور من ربه ، ومن هو قاسى القلب مظلمه ، لا تستسيغه النفس ، حتى فى معرض الإنكار .

ويحذف الفعل إذا وقعت جملته جواب سؤال ، فيكون فى ذكر الفاعل إسراع بذكر المسئول عنه ، بعد أن فهمت النفس الفعل المسئول عنه ، واستقر أمره فى الفؤاد ، ومن ذلك قوله سبحانه : « قل : كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون : من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة ؛ فسينغضون إليك رءوسهم ، ويقولون : متى هو ؟ قل : عسى أن يكون قريباً » (١٧ : ٥٠ و ٥١) ، ومثله قوله سبحانه : « ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن : الله ؛ فأنى يؤفكون » (٢٩ : ٦١) . وحذف الفعل فى باب التحذير ، مثل قوله تعالى : « فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها » (٩١ : ١٣) يشير إلى أن هذا المفعول المذكور منهى عن المساس به ، بأى نوع من أنواع الأذى ، ففى حذف الفعل تعميم ، لا يتأتى إذا ذكر فعل بعينه .

وحذف فعل القول فى الجمل القرآنية الآتية : « وعرضوا على ربك صفاً ، لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » ، أى فقيل لهم : لقد جئتمونا ؛ وقوله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » ، أى فيقال لهم : أذهبتم طيباتكم ، وقوله تعالى : « ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم ، فلا تطعهما » ، أى وقلنا له : إن جاهداك ... هذا الحذف يصور ما حدث ، ولما كان ما حدث هو أنهم عرضوا على الله صفاً ، ثم سمعوا هذا التأنيب ، فكان القول مضمرا فى الواقع ، فأضمر فى

الجملة المعبرة عنه ؛ وعلى هذا النسق نرى قوله تعالى: « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم » ، فإنهم عرضوا ، فسمعوا ، فالقول مضمر كذلك . ومن السائغ لدىّ فى الآية الثالثة ، أن تكون من باب تلوين الأسلوب ، فقد كان الحديث عن غائب فلما كان أمر الوصية بالتوحيد معنياً به العناية كلها ، اتجه إلى المأمور يخاطبه ، موجهاً له الحديث ، زيادة فى التأكيد ، ولن يكون ذلك إذا كان الحديث عن غائب .

ويحذف المفعول ، عندما يكون المراد الاقتصار على إثبات المعانى ، التى اشتقت منها الأفعال لفاعليها ، من غير تعرض لذكر المفعولين ، فيصبح الفعل المتعدى كغير المتعدى ، ومن أمثله هذا الحذف ، قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون » ، إذ المعنى أيستوى من له علم ومن لا علم عنده ، من غير أن يقصد النص على معلوم . وقوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » ، وقوله تعالى : « وأنه هو أغنى وأقنى[1] » ، فالمعنى هو الذى منه الإضحاك ، والإبكاء ، والإماتة ، والإحياء ، والإغناء ، والإقناء ، فالغرض هنا إثبات الفعل للفاعل . قال عبد القاهر[2] : « وإن أردت أن تزداد تبينا لهذا الأصل .. فانظر إلى قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين ، وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال : ماخطبكما ؟ قالتا : لانسقى ، حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ؛ فسقى لهما ، ثم تولى إلى الظل » ففيها حذف مفعول فى أربعة مواضع ، إذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم ، أومواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما ، ثم إنه لايخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله إلا أن يترك ذكره ، ويؤتى بالفعل مطلقا ، وما ذاك إلا أن الغرض فى أن

---

(١) أقنى : أعطى ما يقتنى .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٢٤ .

يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ، ومن المرأتين ذود ، وأنهما قالتا لا يكون منا سقى ، حتى يصدر الرعاء ، وأنه كان من موسى عليه السلام من بعد ذلك سقى ، فأما ما كان المسقى ، أغنما أم إبلا أم غير ذلك ، فخارج عن الغرض وموهم خلافه ، وذاك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما ، جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هو ذود غنم ، حتى لو كان مكان الغنم إبل لم ينكر الذود... فاعرفه ، تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت ، إلا لأن فى حذفه وترك ذكره فائدة جليلة ، وأن الغرض لا يصح إلا على تركه » .

ويحذف المفعول بعد فعل المشيئة بعد لو ، وبعد حروف الجزاء ، حذراً من التكرير ، كما فى قوله سبحانه : «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » ، ولا يكاد يأتى مفعول المشيئة إلا فى الأمور الغريبة المتعجب منها ، كقوله تعالى : « لو أردنا أن نتخذ لهواً ، لاتخذناه من لدنا ، إن كنا فاعلين » (٢١ : ١٧) ، وقوله تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء » (٣٩ : ٤) .

ويحذف المضاف كثيراً فى القرآن ؛ لأغراض شتى ، تفهم من هذا الحذف ، وقد أحصى عز الدين بن عبد السلام فى كتابه : الإشارة إلى الإيجاز ، ما حذف من مضافات فى القرآن الكريم ، ويطول بى المقام إذا أنا حاولت ذكر السبب فى كل حذف ، وحسبى أن أورد هنا بعض الأمثلة ، مشيراً إلى مايحدثه الحذف فيها من جمال وروعة .

قال تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل » قالوا : أى كمثل باذر حبة أو زارعها . ولعل السر فى هذا الحذف هو اتجاه القرآن إلى الصدقة نفسها ، والجزاء عليها هذا الجزاء المضاعف .

وقال تعالى : « ومن يفعل ذلك ، فليس من الله فى شىء » أى فليس من

موالاة الله فى شىء ، يعنى أنه منسلخ من ولاية الله ؛ أو لا ترى أن حذف المضاف فى هذه الآية قد أوحى إلى أنفسنا معنى براءة الله منه ، وانقطاع الصلة بينه وبين الله ، تمام الانقطاع . ومثل ذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا » ، ومن أجمل ما حذف فيه المضاف قوله تعالى : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فهم لا يعقلون » ، فأصل الجملة : ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع ، ثم حذف المضاف وهو داعى ، رفعا لشأنه ، فى اللفظ ، عن أن يقرن بهذا الذى ينعق بما لا يسمع ، وبقى المراد وهو أن هؤلاء الكفار صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

وحذف الصفة فى قوله سبحانه : « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر ، فأردت أن أعيبها ، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » ، فقد حذفت الصفة بعد سفينة ، إذا المراد بها السفينة الصالحة ، لدلالة الآية على هذه الصفة ، فإن عيب السفينة لا يخرجها عن أن تكون سفينة ، وقد أوحى إلينا هذا الحذف ، بأن الملك ينظر إلى السفينة المعيبة ، كأنها فقدت حقيقتها .

وكثيرا ما يحذف جواب القسم فى القرآن كقوله تعالى : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل فى ذلك قسم لذى حجر ، ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ، التى لم يخلق مثلها فى البلاد » .

وقوله تعالى : « ق ، والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شىء عجيب ؛ أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد » .

وقوله سبحانه وتعالى : « والنازعات غرقا ، والناشطات نشطا ، والسابحات سبحا ، فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمرا ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة » .

فجواب القسم فى ذلك كله محذوف يفهم من السورة التى ورد فيها هذا القسم ، وإن فى هذا الحذف بعث النفس على التفكير ، لتهتدى إلى الجواب ، وتظل النفس تتبع هذه الآيات ، يتلو بعضها بعضا ، تستوحى منها هذا الجواب ، الذى لا بد أن يكون شيئاً عظيما يقسم عليه الله ، وإذا أنت تتبعت آيات السورة رأيتها حديثا عن البعث ، وتعجبا من منكريه ، مما يؤذن بأن هذا القسم وارد لتأكيده ، وأنه سيكون لا محالة ، أو لا ترى فى حذف هذا الجواب دلالة على مثوله فى الذهن؛ لشدة ما شغل النفس ، واستأثر بعميق تفكيرها ، يوم نزل القرآن مؤكدا مجىء اليوم الاخر .

وكذلك يحذف فى القرآن جواب - لو ، ولولا ، ولما ، وأما ، وإذا - ويورث هذا الحذف الكلام قوة وشدة أسر :

فمن أمثلة « لو » قوله تعالى: « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ، وأخذوا من مكان قريب » . أو لا ترى فى هذا الحذف إشارة إلى أن الجواب أمر عظيم ، يترك إلى الخيال إدراكه ، أما اللفظ فلا يستطيع الإحاطة به .

وقوله سبحانه . « ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، ولا هم ينصرون » . وحذف الجواب هنا كأنه يشير إلى تعينه ، فإن من يعلم أنه سيعرَّض للنار ، فيشوى بها وجهه وظهره ، ولا يجد ناصرا ينصره ، إن لم يؤمن ، يعمل بكل قواه على أن يتقى هذه النار ، فكأن تقدير الآية لو يعلم الذين كفروا . . لما أنكروا البعث ، ومالجوا فى كفرهم . وقوله تعالى : « قالوا : لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ، قال : لو أن لى بكم قوة ، أو آوى إلى ركن شديد » (١١ : ٧٩ ، ٨٠) وفى حذف الجواب هنا أخفاء لأمنية تجول فى نفس لوط ، كأنه لا يستطيع أن يبديها أمام قومه .

وقوله سبحانه : « ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ، أو قطعت به الأرض ، أو كلم به الموتى » (١٣ : ١٣) وحذف الجواب هنا يشير إلى أنه من الوضوح بمكان ، فلو أن قرآنا أوتى تلك القوة الخارقة ، لكان هذا القرآن جديرا أن تكون له هذه القوة . فإذا لم يتضح جواب (لو) ولم يشر إليه سياق الآيات ذكر ، كقوله تعالى : «ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ، فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون » ؛ لأنه إذا حذف احتمل وجوها ، منها أن يقال لما آمنوا ، أو لطلبوا ما وراء ذلك .

ومن حذف جواب (لولا) قوله تعالى : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم» ، وترك جواب (لولا) هنا يشير فى نفس هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة الرهبة من عذاب الله ، الذى يشير إليه ما بعد لولا . ومن حذف جواب لما قوله سبحانه : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين » ، وفى هذا الحذف إشارة كذلك إلى أن اللفظ لا يستطيع أن يصف ما أصاب إبراهيم وابنه من المسرة والابتهاج . ومن حذف جواب أما قوله تعالى : « فأما الذين أسودت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون» ، واستغنى هنا عن الجواب وهو القول ، إذ التقدير فيقال لهم : أكفرتم بعد إيمانكم استغناء بالمقول عنه . ومن حذف جواب إذا قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ، لعلكم ترحمون ، وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » ، وكأن فى حذف جواب إذا إشارة إلى أنه معروف واضح عند المخاطبين ، لا يكاد يحتاج إلى أن يذكر ، فضلا عما فى الآية الثانية من دلالة عليه ، فكأنه قيل : وإذا قيل لهم : اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون ،

أعرضوا ، وبينت الآية التالية أن هذا الإعراض سجية لهم ، فلا تكاد الآية تأتى إليهم ، حتى يعرضوا عنها .

ويعتمد القرآن على ذكاء قارئه ، فيحذف من الجمل ما يستطيع القارىء أن يدركه ، لأن السياق يستلزمه ويستدعيه ، فمن ذلك قوله تعالى ، فى قصة سليمان عليه السلام : « قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟ اذهب بكتابى هذا ، فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون ، قالت : يأيها الملأ ، إنى ألقى إلىّ كتاب كريم » فحذف ما حذف هنا من تفصيلات جزئية تدرك من السياق ، وفى تخطيها وصول إلى العناصر الجوهرية فى القصة . وقل مثل ذلك فى قوله تعالى : « يازكريا ، إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا ، قال : رب ، أنّى يكون لى غلام ، وكانت امرأتى عاقرا ، وقد بلغت من الكبر عتيا ، قال : كذلك قال ربك ، هو على هين ، وقد خلقتك من قبل ، ولم تك شيئا ، قال : رب ، اجعل لى آية ، قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب ، فأوحى إليهم ، أن سبحوا بكرة وعشيا ، يا يحيى ، خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا » فأغفل القرآن الحديث عن مجىء الغلام ، ونشأته ، وترعرعه ، مما ليس بعنصر أساسى فى القصة ، مادامت مخاطبته بأخذ الكتاب مغنية عنه ، ونهج القرآن ذلك النهج فى كثير من قصصه . ويدخل البلغاء كل ماذكرناه من الحذف فى باب الإيجاز .

التنكير والتعريف

وقفت طويلا عند الاسم النكرة ، أتبين ماقد يدل عليه التنكير من معنى ، ودرست ما ذكر العلماء من معان ، قالوا : إن هذا التنكير يفيدها ، وبدالى من هذا التأمل الطويل أن النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ، ويؤتى بها ، عندما لا يراد تعيين هذا الفرد ، كقوله سبحانه : « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، قال : ياموسى ، إن الملأ يأتمرون بك ، ليقتلوك ، فاخرج ، إنى لك من الناصحين » فليس المراد هنا تعيين الرجل ، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبأ الائتمار عليه بالقتل .

والنكرة بعدئذ تفيد معناها مطلقا من كل قيد ، أما ما يذكره علماء البلاغة من معان استفيدت من النكرة ، فإنها لم تفدها بطبيعتها ، وإنما استفادتها من المقام الذى وردت فيه ، فكأنما المقام هو الذى يصف النكرة ، ويحدد معناها ، فكلمة حياة مثلا تدل على معناها المجرد ، والمقام يهبها معنى التحقير حينا ، والتعظيم حينا آخر ، والنوعية فى موضع ثالث ، ولنقف قليلا عند بعض الآيات التى ورد فيها الاسم نكرة ، نتبين مدى الجمال فى وروده .

قال تعالى : « ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمَّر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » أولا ترى أن المراد هنا بيان حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة ، وأنها غالية عندهم كل الغلو ، لا يعنيهم أن تكون تلك الحياة رفيعة أو وضيعة ، ولهذا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، ومن هنا جاء التنديد بهم ، لأن الإنسان المثالى ، لا يريد الحياة ، إلا إذا كانت رفيعة صالحة

وقال تعالى : ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تفلحون » وهنا تجد المراد كذلك مطلق حياة يستفيدها المجتمع من حكم القصاص ، هى تلك التى يظفر بها من يرتدع عن القتل ، ولا يقدم عليه خوفا أن تناله يد القانون فيقتل ، فهذا الحكم العادل استزاد به المجتمع حياة بعض الأفراد الذين كانوا عرضة للقتل قصاصا .

وقال تعالى : «قل : قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟! فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك ، جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير » (٣ : ١٨٤ ، ١٨٤) فالرسل منكرة لا تدل على أكثر من معنى المرسلين ، والكثرة إنما استفيدت من هذه الصيغة من جموع التكثير ، الدالة على هذه الكثرة ، أما التعظيم فلا يستفاد من التنكير ، وإنما يستفاد من وصف هؤلاء الرسل ، بأنهم جاءوا بالبينات ، فالمقام هو الذى عظم هؤلاء الرسل ، وقد تأتى الكلمة نفسها فى مقام آخر ، ويكون ما يحيط بها دالا على حقارتها وضعتها ، مما يدل على أن التنكير فى ذاته لا يؤذن بتعظيم ولا تحقير .

وقال تعالى : « فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون » (٢ : ٢٧٩) فكلمة حرب منكرة ، لا تدل على أكثر من حقيقتها ، وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحرب فمنشؤه وصفها بأنها من الله ورسوله ، وإن حرباً يثيرها الله جديرة ان تبعث فى النفس أشد ألوان الفزع والرعب .

وقال تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم » (٩ : ٧٢) فلا تحمل كلمة رضوان فى الآية معنى أكثر من العطف ، أما أن يدل التنكير هنا على التقليل فما لا تفيده النكرة وحدها ، وإن كان معنى

الآية يحتمل ، أن قليل رضوان الله أكبر من الجنات والمساكن الطيبة ، لأن النكرة تطلق على القليل والكثير؛فما يطلق عليه رضوان قل أو كثر أكبر مما أثيبوا به .

ودل المقام على تعظيم الاسم المنكر ، فى قوله تعالى:« وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا ، إن كنا نحن الغالبين » (٧ : ١١٣) ذلك أنهم يطلبون مكافأة على عمل ضخم يقومون به ، هو إبطال دعوة موسى ، والإبقاء على دين فرعون ، أولا يكون ثواب ذلك عظيما يناسبه .

كما دل المقام على تعظيم الذكر ، فى كل آية وردت فيها تلك الكلمة منكرة، كقوله تعالى : « أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم ، على رجل منكم ، لينذركم ، ولتتقوا » (٧ : ٦٣) وقوله تعالى « وما تسألهم عليه من أجر ، إن هو إلا ذكر للعالمين » (١٢ : ١٠٤) فوصفه حيناً بأنه من الله ، وحينا بأنه ذكر للعالمين ، وحيناً بأنه مبارك ، يؤذن بعظمة هذا الذكر وجلال قدره .

كما دل المقام على التقليل فى قوله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق ، والساعة لا ريب فيها ، قلتم : ما ندرى ما الساعة ، إن نظن إلا ظناً ، وما نحن بمستيقنين » (٤٥ : ٣٢) ألا ترى أن جحدهم للساعة ، لا يؤذن إلا بظن ضئيل فى وجودها يتردد فى رءوسهم . وقد تكون الكلمة النكرة موحية بمعنى حقير إلى النفس ، كما فى قوله تعالى : « أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا » (١٨ : ٣٧) وقوله سبحانه : « قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه ، فقدره » (٨٠ : ١٧ و ١٨و١٩) .

ولأن النكرة لا تدل على شىء معين ، كان استخدامها فى بعض المقام مثيراً للشوق والرغبة فى المعرفة ، كما فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » (٦١ : ١٠) . ولأنها تدل على القليل والكثير

كانت بعد النفى لقصد العموم ، وعلى ذلك قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » (٢ : ٢) .

وتحدث العلماء عن تنكير السلام الصادر من الله فى قوله سبحانه : « سلام ، قولاً من رب رحيم » وقوله : « سلام على نوح فى العالمين » وقوله : « سلام على آل ياسين » وقوله : « سلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا » وقوله : « قيل : يانوح ، اهبط بسلام منا ، وبركات عليك » والذى أحسه فى هذا التعبير أن المقام هنا يدل على تعظيم هذا السلام الصادر منه سبحانه ، والمقام ينبىء بهذا التعظيم ، ويشير إليه .

وتستخدم ألوان المعارف فى القرآن الكريم فى مواضعها الدقيقة الجديرة بها : فيستخدم الضمير الذى يجمع بين الاختصار الشديد ، والارتباط المتين ، بين جمل الآية بعضها وبعض ، ومن روائع استخدام ضمير المخاطب ، أن يأتى به مخاطباً كل من يستطاع الخطاب معه ، عندما يكون الأمر من الوضوح بمكان ، ومن ذلك قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ، ربنا ، أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

وقوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ، وأخذوا من مكان قريب » (٣٤ : ٥١) فكأن سوء حالهم من الوضوح لدرجة ظهوره لكل أحد .

وعادة القرآن فى ضمائر الغيبة أنها تتفق إذا كان مرجعها واحداً ، حتى لا يتشتت الذهن ولا يغمض المعنى ، ولذا كانت الضمائر كلها تعود إلى موسى ، فى قوله سبحانه : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى : أن اقذفيه فى التابوت ، فاقذفيه فى اليم ، فليلقه اليم بالساحل ، يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ، ولتصنع على عينى » (٢٠ : ٣٨ وما بعدها) وليس من قوة النظم فى شىء أن يعود بعض هذه الضمائر على موسى وبعضها الآخر على التابوت . كما تعود

الضمائر كلها إلى الله فى قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه ، وتوقروه ، وتسبحوه بكرة وأصيلا » (٤٨ : ٩) .

فإن اتحد الضميران ، وكانا يعودان إلى مختلفين ، فإن المقام يحددهما تحديدا واضحاً ؛ ومن ذلك قوله سبحانه : « سيقولون : ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلبهم ، رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل : ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل ، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ، ولا تستفت فيهم منهم أحدا » (١٨ : ٢٢) فضمير فيهم يرجع إلى أهل الكهف ، وضمير منهم يرجع إلى ما رجع إليه ضمير سيقولون .

ولكن الكثير فى الاستعمال القرآنى أن يخالف بين الضمائر إذا تعدد مرجعها لسهولة التميز[1] كما فى قوله تعالى : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ؛ فضمير منها وهو لاثنى عشر شهرا ، أتى به مفردا ، وضمير منهن وهو للأربعة ، أتى به جمعا ، وكلا الأمرين جائز فى كليهما ، ولكن سنة القرآن إذا أعاد الضمير على جمع مالا يعقل ، إعادته مفردا إذا كان لأكثر من عشرة ، وجمعا إذا كان لأقل منها[2] .

وإذا كان مرجع الضمير مفرد اللفظ جمع المعنى ، راعى الأسلوب القرآنى اللفظ أولا ، والمعنى ثانياً عند تعدد الضمير ، وذلك أجمل فى السياق من العكس ، وتأمل ذلك فى قوله سبحانه : « ومن الناس من يقول : آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين » وقوله سبحانه : « ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة

---

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى بيومى ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

أن يفقهوه ، وفى آذانهم وقرا » ، فإن فى هذا الأسلوب حديثاً عن كل فرد من أفراد هذا المجموع أولا ، ثم حديثا عنه فى جماعة ثانياً .

وقد لا تجد فى الآية مرجعاً للضمير ، ولكنك تحس بوضوح معناه أيما وضوح ، لدلالة المقام على هذا المرجع ، ومن ذلك قوله سبحانه : « كل من عليها فان » ، فالضمير فى عليها يعود إلى الأرض ، من غير أن يجرى لها ذكر ، ولكنك لا تجد حرجا ولا مشقة فى إدراك معناه .

وقد يضع القرآن الاسم الظاهر موضع الضمير ، لأمور تلمسها فى كل مكان حدث فيه هذا الوضع ، وتأمل قوله تعالى : « أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير ، قل : سيروا فى الأرض ، فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير » (٢٩ : ١٩ و ٢٠) فوضع الله مكان ضميره ، لأن هذا الاسم يوحى بالجلال ، المؤذن بيسر بدء الخلق عليه ، وقدرته على إنشاء النشأة الآخرة .

وقوله تعالى : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها » ففى إظهار المؤمنين بدل أن يقول ثم أنزل الله سكينته عليكم ، إظهار لمن ثبت منهم فى مظهر من يستحق اسم المؤمن الحقيق .

وقوله تعالى : «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين» فأظهر الذين كفروا بدل الإتيان بضمير يعود عليهم ، لما فى ذلك من إبرازهم متعنتين جاحدين ، لا يرعون ما يجب أن يكون للحق : من حسن القبول ، والرضا به ، والاطمئنان إليه ، وفى ذلك تشنيع

عليهم ، وتصوير لمدى ضلالهم ومكابرتهم ، وعلى هذا المنهج جاء قوله تعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق ، كم أهلكنا من قبلهم من قرن ، فنادوا ، ولات حين مناص ، وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب » وهو بذلك يشير إلى أن هذا القول لا يكون إلا من كافر يخفى الحق ولا يقرُّ به .

ومما استخدمه القرآن ضمير الشأن أو القصة ، وهو ضمير لا مرجع له ، تسمعه النفس فتتهيأ لسماع ما يأتى بعده ، لأن الأسلوب العربى لا يأتى بهذا الضمير إلا فى المواطن التى يكون فيها أمر مهم ، تراد العناية به ، فيكون هذا الضمير أداة للتنبيه ، يدفع المرء إلى الإصغاء ، فإذا وردت الجملة بعده استقرت فى النفس ، واطمأن إليها الفؤاد .

واستمع إلى قوله تعالى : « قل : هو الله أحد » أو لا ترى الشوق يحفز السامع عندما يصغى إلى هذا الضمير — إلى أن يدرك ما يراد به ، فإذا وردت الجملة ثبتت فى النفس ، وقرت فى القلب .

وقوله تعالى : « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » تجد للضمير هنا من الإثارة وتثبيت المعنى ، ما يبين عن فضل هذا الضمير ، وما يمنحه الأسلوب من قوة وحسن بيان .

ويستخدم القرآن العلم ولم يستخدم الكنية[1] إلا فى قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب ، وتب » ، وفى اختيار هذه الكنية من الذم ، ما ليس فى الاسم ، وهذا هو السر فى اختيارها . وقل استخدامه كذلك للقب ، ومنه استخدام إسرائيل ، لقب يعقوب ، ومعناه عبد الله ، وقيل صفوة الله ، ولم تخاطب اليهود فى القرآن إلا بيا بنى

---

(١) الإتقان حـ ٢ ص ١٤٤ .

إسرائيل[١] . ومنه المسيح ، لقب لعيسى ، قيل معناه الصديق ، وقيل الذى لا يمسح ذا عاهة إلا برىء[٢] .

ويأتى اسم الإشارة للقريب فى القرآن ، مؤذنا بقربه ، قربا لا يحول دون الانتفاع به ، ومن هنا أوثر هذا النوع من أسماء الإشارة ، فى قوله سبحانه : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أن لهم أجراً كبيراً » (١٧ : ٩) ، أولا ترى أن المقام هنا مقام حديث عن هاد ، يقود إلى أقوم الطرق ، ولأن يكون هذا الهادى قريباً أنجح لرسالته ، وأقطع لعذر من ينصرف عن الاسترشاد بهديه ، بينما استخدم اسم الإشارة للبعيد ، مشيراً إلى القرآن نفسه ، عندما تحدث عن بعده عن الريب ، فكان الحديث عنه باسم الاشارة البعيد ، أنسب فى الدلالة على ذلك .

ويستخدم اسم الإشارة للقريب تنبيها على ضعة المشار إليه ، كما فى قوله تعالى: « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم » ، وقوله سبحانه : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا » وكأن فى اسم الإشارة للقريب ، ما يشير إلى أن هذا الشخص القريب منا ، والذى نعلم من أموره ما نعلم ، لا تقبل منه دعوى الرسالة ، ولا يليق به أن يذكر آلهتنا بسوء .

ويستخدم اسم الإشارة للبعيد أحيانا ليدل على ارتفاع مكانته ، وبعده عن أن يكون موضع الأمل والرجاء ، كما فى قوله سبحانه ، على لسان امرأة العزيز : « قالت : فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه ، فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن ، وليكونا من الصاغرين » (١٢ : ٣٢) ، أوليدل على ما يجب أن يكون عليه من بعد فى المكان والمنزلة ، ولعل من ذلك قوله تعالى : « إنما ذلكم الشيطان يخوف

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق نفسه .

أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنون » (٣ : ١٧٥) .

وفى اسم الإشارة لون من الإيجاز والتنبيه معاً ، عندما يشير إلى موصوف بصفات عدة ، فينبنى الحكم على هذه الصفات ، كما فى قوله سبحانه : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم » (٨ : ٢ و ٣ و ٤) .

ويأتى القرآن بالاسم الموصول ، عندما تكون صلته هى التى عليها مدار الحكم ، كما فى قوله سبحانه : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا ، وعد الله حقاً ، ومن أصدق من الله قيلا » (٤ : ١٢٢) . وقوله تعالى : « إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ، ولو افتدى به ، أولئك لهم عذاب أليم ، وما لهم من ناصرين » (٣ : ٩١)

والمجىء باسم الموصول ، فضلا عما ذكرناه ، يثير فى النفس الشوق إلى معرفة الخبر ، وقد تكون الصلة نفسها ممهدة لهذا الخبر ودالة عليه ، واقرأ قوله تعالى : « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم » (٩ : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢) أو لا ترى فى الصلة ما يوحى إليك بأنه قد أعد لهم خير عظيم ، يناسب إيمانهم وهجرتهم ، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم .

ومن خصائص اسم الموصول استطاعته أن يخفى تحته اسم المذنب ، وفى ذلك من الرجاء فى هدايته ، ما ليس فى إفشاء اسمه وفضيحته ، وتأمل قوله تعالى :

« ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ، ولا كتاب منير »(٢٢:٨) ، وقوله تعالى : « ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله ، جعل فتنة الناس كعذاب الله » (٢٩ : ١٠) ، وقوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ، ليضل عن سبيل الله بغير علم » (٣١ : ٦) ففى هـذا وغيره ذم لمن يتصف بذلك ، ودعوة له فى صمت إلى الإقلاع والكف ، ومن ذلك قوله سبحانه : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام » ٢ : ٢٠٤) . وجاء قوله تعالى بعده : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » (٢ : ٢٠٧) ليكون فى مقابلته ، حتى تكون الموازنة قوية جلية ، تدفع إلى العمل الصالح ابتغاء مرضاة الله .

وقد يعدل القرآن عن العلم إلى الاسم الموصول ، إذا كان فيه زيادة تقرير لأمر يريده القرآن ، كما فى قوله تعالى : « وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب » ألا ترى فى ذكر اسم الموصول زيادة تقرير لعفته ، فهو فى بيتها ، ووسائل إغرائه موفورة عندها ، وهو تحت سلطانها ، ولن تفهم هذه المعانى إذا جاء باسمها .

ويستخدم اسم الموصول كذلك ، لإظهار أن الأمر لا يستطاع تحديده بوصف ، مهما بولغ فيه ، تلمس ذلك فى قوله تعالى : « قال : ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين » (٢٦ : ١٨ ، ١٩) وقوله تعالى : « فغشيهم من اليم ما غشيهم » وفى ذلك ترك للخيال يسبح ، ليكمل الصورة ويرسمها .

ويستخدم القرآن التعريف بأل ، فتكون للعهد حينا ، وللجنس حينا آخر ، ومن أجمل مواقعها فيه أن تستخدم لاستغراق خصائص الجنس ، كما فى قوله تعالى:

« ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين » فكأنه قال : ذاك هو الكتاب المستكمل لخصائص جنسه ، فهو الكتاب الكامل .

وتأتى الإضافة فى القرآن أحيانا لتعظيم المضاف كقوله تعالى : « صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بما تفعلون » (٢٧ : ٨٨) أو تحقيره كما فى قوله سبحانه : « أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » (٥٨ : ١٩) .

وقد يعدل عن الإضافة ، حيث يبدو فى ظاهر الأمر أن المقام لها ، كما فى قوله سبحانه على لسان إبراهيم لأبيه : « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » (١٩ : ٤٥) فالعدول عن إضافة العذاب إلى الرحمن لعدم التجانس بينهما ، فالمناسب للعذاب أن يضاف إلى الجبار ، أو المنتقم مثلا ، لا إلى مصدر النعم ، أما السر فى وصف العذاب بأنه من الرحمن ، فالاشارة إلى أن العذاب إنما كان ، لأنه كفر بمن كان مصدر النعمة ، ولم يقم بواجب شكره .

الإفراد والتذكير وفروعهما

قال أبو منصور الثعالبي : لم يأت لفظ الريح فى القرآن إلا فى الشر ، والرياح إلا فى الخير ، قال الله عز وجل : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » وقال سبحانه : « إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا ، فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » .

وقال جل جلاله : « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » .

وقال : « ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته ، ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »[1] .

ولعل السبب فى ذلك أن ريح الشر ، تهب مدمرة عاصفة ، لا تهدأ ، ولا تدع الناس يهدءون ؛ فهى لاستمرارها ريح واحدة ، لا يشعر الناس فيها بتحول ولا تغير ، ولا يحسون بهدوء يلم بها ، فهى متصلة فى عصفها وشدة تحطيمها ، وذلك مصدر الرهبة منها والفزع ، أما الرياح التى تحمل الخير فتهب حيناً ، وتهدأ حيناً ، لتسمح للسحب أن تمطر ، فهى متقطعة تهب فى هدوء ، ويشعر المرء فيها بفترات سكون ، وأنها رياح متتابعة ، ففى تعبير القرآن تصوير للإحساس النفسى.

ووصف الريح مفردة بالطيبة فى قوله تعالى « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم

---

(١) فقه اللغة ص ٤٠٣ .

يبغون فى الأرض بغير الحق » ؛ لتقابل ريح الشر ، ولأن إفراد الريح مع السفن هو الرحمة بها ، ولو أنها جمعت ، فقد يدل الجمع على مجىء الريح من مهاب متعددة ، وفى ذلك دمار لها

وأبى القرآن — كما سبق أن ذكرنا — أن يجمع الأرض على أرضين ، ولعله وجد فيها ثقلا على اللسان فتركها .

قال الأستاذ السباعى[1] : (ومن دقائق القرآن فى هذا الباب اختياره إفراد السبيل مع الحق ، وجمعه مع الباطل ، لأن سبيل الحق واحدة ، وسبل الباطل متعددة ، قال تعالى : « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ومن هذه الجهة بعينها ، مجىء النور مفرداً للهدى ، والظلمات جمعاً للضلال ، وكلمة ولى بالإفراد مضافة إلى المؤمنين ، وبالجمع مضافة إلى الكفار . قال تعالى : « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات » .

واستخدم القرآن السماء مفردة ومجموعة ، ويدلنا على الفرق بين المعنيين فى الاستخدام القرآنى قوله تعالى : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ، ثم استوى إلى السماء ، فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم » . (٩٢ : ٢) فهو يعنى بالسماء هذه الجهة المرتفعة التى نشاهدها فوق رءوسنا ، ويعنى بالسموات هذه الكواكب السبعة ، التى تدور فى أفلاكها ، وتأمل قوله تعالى : « والسماء ذات البروج » (٨٥ : ١) وقوله تعالى : « الله الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » .

---

(١) تاريخ الأدب العربى ص ٩٥ .

وقوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » .

وقوله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض ، أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليما غفوراً » .

واستخدم القرآن جموعاً لم يستخدم مفرداتها ، كالأصواف والأوبار ، فى قوله تعالى : « والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ، تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعاً إلى حين » وليس فى مفرد هذين الجمعين من ثقل ، بل هو مفرداً ومجموعاً حسن رائق ، وإنما استخدم الجمع هنا ، لأن المقام له فهى أصواف وأوبار عدة متنوعة .

واستخدم الأرجاء فى قوله سبحانه : « والملك على أرجائها ، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (٦٩ : ١٧) ، والألباب فى قوله تعالى : « إن فى ذلك لعبرة لأولى الألباب » ، ولم يستخدم مفرد هذين الجمعين ، وهما رجا ولب ، والمفرد الأول قل استعماله ، والمفرد الثانى قل استعماله بالنسبة لجمعه ، وجمع الكلمتين أرق على اللسان من مفرديهما ، والمقام يستدعيه فيما ورد فيه ، كما استدعى المجىء بالجمع فى قوله تعالى : « وقالوا : مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار » (٣٨ : ٦٢) ولم يستخدم « الشرير » . وقوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة ، فقد جاء أشراطها » (٤٧ : ١٨) فللساعة أشراط عدة ، واستدعى المجىء بالمفرد دون الجمع ، فى كلمة البقعة ، فى قوله تعالى فى قصة موسى : « فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة : أن يا موسى ، إنى أنا الله » ، وليس فى الجمع وهو البقاع ثقل ولا نفور . ولم ترد الكلمة فى غير هذا الموضع .

وورد المشرق والمغرب فى القرآن مفردين بمعنى جهة الشروق والغروب ، كما فى

قوله تعالى : « ليس البر أن تولو وجوهكم قبل المشرق والمغرب » ، وورد المشرق مثنى فى آيتين ، هما قوله تعالى : « حتى إذا جاءنا ، قال : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ، فبئس القرين » (٤٣ : ٣٨) ؛ وواضح أن المراد بالمشرقين هنا المشرق والمغرب ، وقوله تعالى : «رب المشرقين ورب المغربين ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » (٥٥ : ١٧) . وعلى النسق القرآنى يكون المراد بالمشرقين المشرق والمغرب ، وبالمغربين المغرب والمشرق ، فيكون فى ذلك تكرير ، لتعظيم أمر المشرق والمغرب.

وقال بعض المفسرين : المشرقان هما مشرق الشمس فى الصيف ومشرقها فى الشتاء ؛ والمغربان مغربها فى الصيف ، ومغربها فى الشتاء[1] .

فإذا جمعت كان المراد الجهات التى تشرق منها الشمس أو تغرب ، والشمس ترى من الأرض تشرق فى كل يوم من مشرق ، غير الذى أشرقت منه بالأمس .

وللقرآن بعض لفتات فى التذكير والتأنيث ، يعتمد فيها على ماتثيره الكلمة فى النفس من معنى ، فيعيد الضمير على المعنى الذى أثارته الكلمة ، ورأيت من ذلك ثلاثة مواضع :

أولها قوله تعالى : « بل كذبوا بالساعة ، واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد ، سمعوا لها تغيظا وزفيرا » (٢٥ : ١١ و١٢) ، فلما كانت كلمة السعير تدل على النار المستعرة وتوحى بها ، أعاد الضمير عليها مؤنثاً .

وثانيها وصفه البلدة بالميت فى قوله سبحانه : « . . . وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحيي به بلدة ميتاً ، ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً » (٢٥ : ٤٩).

وقوله تعالى : « والذى نزل من السماء ماء بقدر ، فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون » (٤٣ : ١١) ، وسر ذلك أن الذى أحياه المطر ، إنما هو المكان الذى

---

(١) الكتاب ج ٢ ص ٤٢٥ .

تقام عليه البلدة ، فهو فى الحقيقة الذى جرى المطر فى عروقه فحيى ، فلما كان المراد بالبلدة المكان صح وصفها بالمذكر .

وثالثها قوله سبحانه : « فكيف تتقون ، إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيباً السماء منفطر به كان وعده مفعولا » (٧٣ : ١٧ و ١٨) .

ذكر السماء وهى مؤنثة ، لأنها بالنسبة إلى الأرض سقف لها ، وتنبه الذهن إلى أن السماء سقف ، يصور لك تشققها تصويراً قريباً إليك ، دانياً منك . وإن فى انتهاج القرآن ذلك النهج من المخالفة الصورية لما يلفت الذهن إلى ما وراء الألفاظ ، من معان مقصودة ، وصور ملحوظة .

التوكيد والتكرير

التَّوكيد من أهم العوامل لبث الفكرة فى نفوس الجماعات ، وإقرارها فى قلوبهم إقراراً ينتهى إلى الإيمان بها . وقيمة التوكيد بدوام تكراره بالألفاظ عينها ، ما أمكن ذلك ، (فإذا تكرر الشىء رسخ فى الأذهان رسوخاً ، تنتهى بقبوله حقيقة ناصعة)[١] وللتكرار تأثير فى عقول المستنيرين ، وتأثيره أكبر فى عقول الجماعات من باب أولى ، والسبب فى ذلك كون المكرر ينطبع فى تجاويف الملكات اللاشعورية ، التى تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان ، فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار ، وانتهى بتصديق المكرر[٢] .

واستخدم القرآن التوكيد وسيلة لتثبيت المعنى فى نفوس قارئيه ، وإقراره فى أفئدتهم ، حتى يصبح عقيدة من عقائدهم .

---

(١) روح الاجتماع ص ١٣٩ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

وقد يكرر القرآن الجملة المؤكدة عدة مرات بألفاظها نفسها ، علماً منه بما لذلك من أثر فى النفس ، فتراه مثلا فى سورة الشعراء يكرر الجملتين الآتيتين خمس مرات من غير أن يغير من ألفاظهما حرفاً ، فقال على لسان بعض رسله : « إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون » (٢٦ : ١٠٨ و١٢٦ و١٤٤ و١٦٣ و١٧٩) وهى وإن كانت مقولة على ألسنة عدة رسل ، توحى لتكررها بعبارة واحدة ، بصدق هؤلاء الرسل وتثبيت التصديق بهم .

ويؤكد القرآن صفات الله ، حتى يستقر الإيمان بها فى النفوس ، وذلك هو الأساس الذى ينبنى عليه الدين، فتسمعه يقول مكرراً ومؤكداً فى كثير مما يكرره : «إن الله على كل شىء قدير ، إن الله بما تعملون بصير ، إن الله واسع عليم ، إن الله مع الصابرين ، إن الله شاكر عليم ، إن الله غفور رحيم ، إن الله لا يحب المعتدين ، إن الله يحب المحسنين ، إن الله شديد العقاب ، إن الله عزيز حكيم ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، إن الله سميع عليم ، إن الله بكل شىء عليم ، إن الله غنى حميد ، إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد ، إن الله سريع الحساب ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، إن الله غنى عن العالمين ، إن الله عليم بذات الصدور ، إن الله بما يعملون محيط ، إن الله لا يخلف الميعاد » .

فهذا التأكيد يقرر معانى هذه الصفات فى النفس ، وإذا تكررت هذه المعانى فى النفس انبثق منها العمل الصالح ، المبنى على أساس من الإيمان المكين . وفى أحيان كثيرة يستغنى القرآن عن التوكيد بتكريرها فى مواضع شتى ، وهذا التكرير للصفات فى المناسبات المختلفة مصدر توطيدها فى النفس .

ويؤكد القرآن وعده ووعيده ، فيكرر مؤكداً قوله : إن يحب المتقين ، وإن الله مع المتقين ، فى مواضع شتى ، وقوله : إن الله لا يحب الكافرين ، وإن الله

لا يهدى القوم الكافرين . وحيناً يكتفى بالتكرير — كما قلنا — عن توكيد الجملة.

ويؤكد كل خبر هو مجال للشك أو الإنكار ، وكلما توغل الخبر فى ميدان الشك زادت ألوان المؤكدات ، وتأمل لذلك قوله تعالى : « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ؛ وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟! ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون ؛ وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » (٢ : ١١ — ١٤) أو لا تراهم عند ما أنكروا الإفساد فى الأرض والسفاهة أكد اتصافهم بها بألا ، وإن ، وتعريف ركنى الجملة المؤذن بالقصر ، وضمير الفصل . ولما كان إقرارهم للمؤمنين بالإيمان بألسنتهم مبعثاً للشك فى نفوس شياطينهم ، دفعهم ذلك إلى تأكيدهم لهم الثبات على مبادئهم ، وأنهم لا يبغون عنها حولا .

واقرأ قوله تعالى : « واضرب لهم مثلا : أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ، فعززنا بثالث ، فقالوا : إنا إليكم مرسلون ، قالوا : ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شىء ، إن أنتم إلا تكذبون ، قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » ألا ترى المرسلين قد أكدوا رسالتهم بإن ، عندما كذبهم أصحاب القرية ، فلما لج هؤلاء فى التكذيب ، زادوا فى تأكيد رسالتهم مؤكداً جديداً ، هو اللام ، وأشهدوا ربهم على صدق دعواهم .

وللتوكيد أساليب كثيرة فى القرآن الكريم ، فمنها التوكيد المعنوى بكل وأجمع ، كما فى قوله تعالى : « فسجد الملائكة كلهم أجمعون » وفائدة هذا اللون من التوكيد رفع مايتوهم من عدم الشمول ، وإنى أرى هنا ما رآه الفراء[1] من أن كلهم أفادت ذلك ، وأجمعون أفادت اجتماعهم على السجود ، وأنهم لم يسجدوا متفرقين.

---

(١) الإتقان ٢ : ٦٦.

ومنها التوكيد اللفظى ، بأن يكرر السابق بلفظه ، اسما كان ، أوفعلا ، أواسم فعل ، أو حرفاً ، أو جملة ، كما ترى ذلك فى قوله تعالى : « كلا إذا دكت الأرض دكا دكا » (٨٩ : ٢١) وقوله : « فمهل الكافرين أمهلهم رويداً » (٨٦ : ١٧) وقوله سبحانه : « هيهات هيهات لما توعدون » (٢٣ : ٣٦) وقوله : « أيعدكم أنكم إذا متم ، وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون » (٢٣ : ٣٥) ، وقوله:« إن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً » (٩٤ : ٥ و ٦) ، وكثيراً ما تقترن الجملة الثانية بثم ، كما فى قوله تعالى : « وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين؟!» (٨٢ : ١٧ و ١٨) .

ومنه تأكيد الضمير المنفصل بمثله ، كما قال تعالى : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، وهم بالآخرة هم يوقنون » (٢٦ : ٤) ، وتأكيد الضمير المتصل بالمنفصل ، فى قوله سبحانه : « قالوا : يا موسى ، إما أن تلقى ، وإما أن نكون نحن الملقين » (٧ : ١١٥) ، وفى تأكيدهم ما يشعر بثقتهم بأنفسهم ، وقوله تعالى : « قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى » (٢٠ : ٦٨) وفى ذلك تثبيت قلب موسى وبعث الطمأنينة إليه .

ومنه تأكيد الفعل بمصدره ، ويكون ذلك فى الأمور التى يتوهم فيها المجاز ، فيأتى الفعل لرفع هذا التوهم ، وتأمل ذلك فى قوله تعالى : «وكلم الله موسى تكليما» (٤ : ١٦٤) ، فقد يطلق الكلام على الإيحاء ، وينصرف الذهن إليه ، فجاء المصدر لإزالة هذا التوهم . وقوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيراً » (٥٢ : ٧ — ١٠) ، أو لا ترى أن اضطراب السماء، وسير الجبال ، مما قد تتردد النفس فى قبوله ، فجىء بالمصدر تأكيداً لوقوعه.

وقد يؤكد الفعل بمصدر فعل آخر نيابة عن المصدر ، كما فى قوله تعالى:«واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » (٧٣ : ٨) . وفى ذلك دلالة على ما للتبتيل من أثر

فى استجلاب رضوان الله ، فأمر به مؤكداً ، ولعل السر فى العدول إلى هذا المصدر، هو المحافظة على النغمة الموسيقية للآية .

ومن ألوان التوكيد أن يكون فى الجملة أداة من أدوات التوكيد، وهى إنَّ ، وأنَّ ، ولام الابتداء ، والقسم ، وألا الاستفتاحية ، وهاء التنبيه ، وكأن فى تأكيد التشبيه ، وضمير الشأن ، وضمير الفصل ، وقد ، والسين ، وسوف ، والنونان فى تأكيد الفعل ، ودخول الأحرف الزائدة فى الجملة ، وتؤكد الجملة بذلك لتثبيت معناها وتوطيده فى النفس ، وكلما كان هذا المعنى مجالا للشك أو الإنكار ، كان موضع التوكيد أنسب وأقوى ، كما ذكرنا .

وقد يؤكد القرآن أمراً هو من البداهة بمكان ؛ لأنه يرمى من وراء ذلك إلى هدف سام . تتبينه النفس عندما تتدبر أمر هذا التوكيد ، لترى ماموقعه ، ولم كان . وتأمل قوله تعالى : « ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » ، فلما كان تماديهم فى الضلال يصرفهم عن التفكير المستقيم ، المؤدى إلى الإيمان ، بالله ورسله ، واليوم الآخر ، وكانت هذه الغفلة تلفتهم عن التفكير فى مصيرهم ، فكأنهم مخلدون لا يصيبهم موت ولا فناء — أكد نزول الموت بهم تأكيدين ليفكروا فيه وفيما يتطلبه نزوله بهم ، من عمل صالح ينفعهم بعد هذا الموت .

وقد يكون تقوية التوكيد لقصد الترغيب ، كما ترى ذلك فى قوله تعالى: «ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فتاب عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » . (٢ : ٥٤) ، فتأكيد هذه الصفة بأربع تأكيدات ، لترغيب العباد فى التوبة ، والرجوع إلى الله سبحانه .

تدخل إن فى الكلام ، ففضلا عن تأكيدها لمعنى الجملة ، تربط ما بعدها بما قبلها قال عبد القاهر: «هل شىء أبين فى الفائدة ، وأدل على أن ليس سواء دخولها

وألا تدخل[1] من أنك ترى الجملة إذا هى دخلت ، ترتبط بما قبلها وتأتلف معه ، وتتحد به ، حتى كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحداً وكأن أحدهما قد سبك فى الآخر ، هذه هى الصورة ، حتى إذا جئت إلى إن فأسقطتها ، رأيت الثانى منهما قد نبا عن الأول ، وتجافى معناه عن معناه ، ورأيته لا يتصل به ، ولا يكون منه بسبيل ، حتى تجىء بالفاء . . ثم لا ترى الفاء تعيد الجملتين إلى ما كانتا عليه من الألفة ، وترد عليك الذى كنت تجد بإنَّ من المعنى ، وهذا الضرب كثير فى التنزيل جدا . من ذلك قوله تعالى : « يأيها الناس ، اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم » ، وقوله عز اسمه : « يابنىّ ، أقم الصلاة ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك لمن عزم الأمور » ، وقوله سبحانه : « خذ من أموالهم صدقة ، تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم ، إن صلاتك سكن لهم » ، ومن أبين ذلك قوله تعالى : « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون » وقد يتكرر فى الآية الواحدة ، كقوله عز اسمه : « وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم » ، وهى على الجملة من الكثرة ، بحيث لا يدركها الإحصاء » .

وإنما تقع إن موضع الفاء ، إذا كانت جملتها توضح ماقبلها ، وتبين وجه الفائدة فيه ، كتلك الآيات التى أوردها عبد القاهر ، فقوله تعالى : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » يبين سبب أمرهم بالتقوى فى قوله تعالى : « يأيها الناس ، اتقوا ربكم » ، وكذلك « إن صلاتك سكن لهم » بيان للسبب فى طلب الصلاة لهم من النبى ، ولكن ذلك لا يطرد فى كل موضع ، بل هناك ما لا يحصى من الجمل التى لا تقتضى الفاء ، كقوله تعالى « إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون » ، فقبله « إن هذا ما كنتم به تمترون » ، ولو أنك قلت : « إن هذا ما كنتم به تمترون ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٤٣ .

فالمتقون فى جنات وعيون » لم يكن كلاما[١] ، وقوله تعالى : « لهم فيها زفير ، وهم فيها لا يسمعون ، إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ، أولئك عنها مبعدون » ، فلو أتينا مكان إن بالفاء لم تجد لها وجها ، كما أنه لا يجوز المجىء بالفاء مكان إن فى قوله سبحانه : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والصابئين ، والنصارى ، والمجوس ، والذين أشركوا ، إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » ، وقوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنّا لا نضيع أجر من أحسن عملا » لأن جملة إن الثانية خبر عن الأولى فى الآيتين ، والخبر لا يجوز عطفه على المبتدأ .

قال عبد القاهر[٢] : « ومن خصائصها أنك ترى لضمير الأمر والشأن معها من الحسن واللطف ، ما لا تراه إذا هى لم تدخل عليه ، بل تراه لا يصلح حيث يصلح إلا بها ، وذلك فى مثل قوله تعالى : « إنه من يتق ويصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » . وقوله : « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم » وقوله : « إنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب » ، وقوله : « إنه لا يفلح الكافرون » . وقوله : « فإنها لا تعمى الأبصار . . . » .

« فإن قلت أو ليس قد جاء ضمير الأمر مبتدأ به معرى من العوامل فى قوله تعالى : « قل هو الله أحد » ، قيل : هو وإن جاء ههنا فإنه لا يكاد يوجد مع الجملة من الشرط والجزاء ، بل تراه لا يجىء إلا بإنّ ، على أنهم قد أجازوا فى (قل هو الله أحد) ألا يكون الضمير للأمر » .

ولما كان جواب السؤال والجمل التى تلقى فى مواضع الجدل مما يحتاج إلى إقراره فى نفس السائل والمجادل وتثبيته فى قلبهما ، كانت الجملة التى تقع جوابا من المراضع

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤ .
(٢) المرجع السابق نفسه .

التى تجىء فيها إن ، كما فى قوله تعالى : « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل : سأتلو عليكم منه ذكراً ، إنّا مكنا له فى الأرض » ، وقوله تعالى « فإن عصوك فقل : إنى برىء مما تشركون » ، وقوله تعالى : « قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » . فإذا كان الكلام جواب منكر حشد له أكثر من أداة واحدة للتوكيد .

وقد تدخل إن للدلالة على أن المتكلم كان يظن أمراً فحدث خلافه ، فيأتى بهذا التوكيد ليرد على نفسه ظنه ، وكأنه يريد لهذه النفس أن يستقر فيها هذا النبأ الجديد الذى لم تكن تتوقعه ، بل تتوقع سواه ، وكأنها تريد أن تخلى مكاناً من القلب قد شغل بخاطر ، لتحل فيه خاطراً جديداً ، وتأمل قوله تعالى حكاية عن أم مريم : « قالت : رب ، إنى وضعتها أنثى ، ، والله أعلم بما وضعت » فأم مريم كان الأمل يملأ قلبها فى أن تلد ذكراً نذرته لله ، ولطول ماشغلها هذا الأمل تجسم فى خيالها ، حتى صار كأنه حقيقة واقعة ، فلما وضعت مريم فوجئت بها ، فأرادت أن تقر هذا الأمر الجديد فى قلبها ، حتى تروض نفسها عليه ، وتستسلم لما كان . وكذلك قوله تعالى : حكاية عن نوح عليه السلام : « قال : رب ، إن قومى كذبون » . فلم يكن نوح يتوقع أن يكذبه قومه ، وقد جاءهم من ربهم بالنور والهدى ، فكان تكذيبهم صدمة له ، يريد أن يوطن عليها نفسه .

والتأكيد بإن أقوى من التوكيد باللام المؤكدة ، واللام المؤكدة هى لام الابتداء فى قوله تعالى : « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » . وقوله سبحانه : « وإنك لعلى خلق عظيم » . وقوله تعالى « إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى » ولام القسم ، كما فى قوله تعالى : « قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا » .

وهنا نقف عند قوله تعالى : « ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » .

فقد يبدو أن اللام لا موضع لها هنا؛لأن الإنسان المتحدث منكر للبعث ،ولكن التأمل يبين أن هذا الإنسان المنكر إنما يحكى ماحدثه به الرسول حين أكد له هذا البعث .

ومن أمثلة (ألا) التنبيهية التى تفيد التوكيد قوله تعالى : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون » وقوله سبحانه : « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم».ومن أمثلة (ها) التنبيهية ، ولم ترد فى القرآن إلاداخلة على ضمير المخاطبين المخبر عنه باسم الإشارة — قوله تعالى : « ها أنتم أولاء ، تحبونهم ولا يحبونكم » (٣ : ١١٩) ويبدو لى أن منشأ التوكيد فى البدء بهاتين الأداتين يعود إلى مافيهما من تنبيه السامع إلى ماسيرد بعدهما من أخبار ، وتهيئته لسماعها ، وذلك لا يكون إلا حيث يعتنى بهذه الأخبار ، لتستقر فى النفس وتثبت بها .

ويفيد ضمير الشأن التوكيد من ناحية أنه يثير النفس ، ويدفعها إلى معرفةالمراد منه ، فإذا جاء تفسيره استقر هذا التفسير فى النفس ، وتأكد فيها ، وليس بكثير استخدام هذا الضمير فى القرآن ، وإنما يكون فى المواضع التى يراد بها تعظيم أمر وتفخيمه عن طريق إبهامه ثم إيضاحه . ومن أمثلته قوله تعالى : « قل هو الله أحد » و « فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » و « فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا » .

أما ضمير الفصل فهو كثير فى القرآن ، ومن أمثلته قوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنهخلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفةإذا تمنى ، وأنعليه النشأةالأخرى ، وأنههو أغنى وأقنى ، وأنههو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى »

وقد استخدم القرآن هنا ضمير الفصل فى الأفعال التى هى مظنة الاشتراك ، كما ترى ذلك فى جملة الإضحاك والإبكاء والإماتة والأحياء والإغناء والإقناء ، أما حيث لا تدعى الشركة فلا حاجة إلى هـذا الضمير ، كما ترى فى جمل خلق الزوجين ، والنشأة الأخرى ، وإهلاك عاد الأولى .

ومن ذلك قوله تعالى « قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » (٢٦ : ٧٥ — ٨٢) ، وترى هنا مارأيته فى الآية الماضية من المجىء بضمير الفصل حيث يتوهم فى الفعل شركة ، كما فى الهداية والإطعام والشفاء ، أما حيث لا تتوهم تلك الشركة فلا يأتى ضمير الفصل كما فى الخلق والإماتة والإحياء .

ويقوى التوكيد فى ضمير الفصل حتى يدل على القصر والاختصاص ، كما ترى ذلك فى الآيتين السالفتين ، فإن ضمير الفصل نفى الشركة ، وجعل الفعل خاصاً بالله وحده ، وتلمس القصر الذى أفاده ضمير الفصل فى قوله سبحانه على لسان عيسى : « ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد» (٥ : ١١٧) ؛ فبعد وفاة عيسى لم يكن الرقيب عليهم سوى الله وحده .

هذا ، وقد تحدث البلاغيون طويلا فيما تفيده البـاء الزائدة فى خبر ما ، وليس ، من تأكيد فى الجملة ، منشؤه ما للباء الزائدة من معان ، منها المصاحبة ، فى قوله تعالى : « وما الله بغافل عما يعملون » (٢ : ١٤٤) . وقوله تعالى : « وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله » (٥٨ : ١٠) ترى هذه الباء قد نفت كل صـلة تربط بين الله والغفلة ، فى الآية الأولى ، وبين السحر والضير فى الآية

الثانية ، فلا صحبة بينهما ولا تلاق .

* * *

وكرر القرآن فى سورة الرحمن نيفا وثلاثين مرة قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » متسائلا عما يستطيع أن ينكره الجن والإنس مما أولاهما الله من نعم ، فلعل فى هذا السؤال المتكرر ما يثير فى نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكررت وآلاء توالت .

وهنا يحسن أن أقف مشيراً إلى ماقد يبدو حيناً من أن لا وجه لهذا التساؤل بعد بعض آيات السورة ، كما يتراءى ذلك فى قوله سبحانه وتعالى : « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان » ، فأى نعمة يذكر بها الجن والإنس فى فناء هذا العالم ؟ ولكن تأملا فى هذه الآيات وما ورد من هذا السؤال بعد وصف اليوم الآخر وأهواله ، يدل على أن مثل هذا السؤال سيوجه بعد فناء هذا العالم ، فكأن القرآن يقرر أن سيلقى مثل هذا السؤال ، يوم تنشق السماء ، ويوم يعرف المجرمون بسيماهم ، أفلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلا ، كما أوحى القرآن بذلك ، فى تلك الآلاء والنعم ، فيقوم بواجب الإيمان بالنعم وشكرها ، حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب الله الثقلين .

وكررت فى سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة ، وهى قوله تعالى : « ويل يومئذ للمكذبين » ، وإذا نظرنا إلى هذه السورة ، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر ، وتصفه ، فلا جرم كرر هذا الإنذار عقب كل وصف له ، أو فعل يقع فيه ، أو عمل من الله يدل على قدرة ، يحيى بها الناس بعد موتهم ، وفى هذا التكرير مايوحى بالرهبة ، ويملأ القلب رعباً من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب .

وفى سورة الشعراء ، كررت الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » ثمانى مرات

وكانت متمكنة من موضعها فى كل مكان حلت فيه ، فقد جاءت فى هذه السورة أولا ، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى الأرض ، أو ليس فيما تنبته من كل زوج بهيج ما يثير فى النفس التأمل لمعرفة خالق الأرض ومحييها . واستمع إليه سبحانه يقول : « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » (٢٦ : ٧ — ٩) .

ويكرر الآية فى موضع آخر ، تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى ، ونجاته ، وغرق فرعون ، وتلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه ، فهى جديرة بتسجيلها والإشارة إليها ؛ قال تعالى : « فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن فى ذلك لآية ، وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم » (٢٦ : ٦٣ — ٦٧) .

وكررت تلك الآية ست مرات أخرى عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها ، كتصوير جند إبليس ، وقد كبكبوا فى جهنم ، وأخذوا يختصمون فيما بينهم ، ويقررون أنهم كانوا فى ضلالة وعمى ، ويتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه ، أو ليس فى ذلك من العظة ماينهى عن مثل هذا المصير .

وكررها كذلك عقب قصة صالح ولوط وشعيب ، لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تتلقى منه العظات والعبر ، وكأن تلك الآية المكررة تشير إلى مرحلة من القول يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها ، وتأمل ما تحوى من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ .

وختم الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة للحديث عن مصير الكافر والمؤمن ، فهو عزيز يعاقب الكافر ، ورحيم بمن آمن .

وتجد الآية التى كررت فى سورة القمر ، وهى قوله سبحانه : «ولقد يسرنا القرآن للذكر ؛ فهل من مدكر » (٥٤ : ١٧ و٢٢ و ٣٢ و ٤٠) — منبهة فى كل موضع وردت فيه ، إلى أن ما سيأتى بعدئذ مما عنى القرآن بالحديث عنه ، تذكرة وعظة ، وهو لذلك جدير بالتأمل الهادىء والتدبر والادكار .

وقد يحدث التكرير فى آيتين متواليتين ، كما فى قوله سبحانه : « ولله مافى السموات ومافى الأرض ، وكان الله غنياً حميداً ، ولله مافى السموات ومافى الأرض ، وكفى بالله وكيلا » (٤ : ١٣١ و ١٣٢) . وذلك لتثبيت الإيمان بغنى الله عن عبادة العابد ، فى قلوب الناس ، ليقبلوا على العبادة مؤمنين بأنها لخيرهم وحدهم . بل قد يكون التكرير فى الآية الواحدة ، وذلك لتثبيت المكرر فى النفس ، كما فى قوله : « يأيها الذين آمنوا ، اتقوا الله ، ولتنظر نفس ماقدمت لغد ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعلمون » (٥٩ : ١٨) ، وقوله تعالى : وإذ قالت الملائكة : يامريم ، إن الله اصطفاك ، وطهرك ، واصطفاك على نساء العالمين » (٣ : ٤٢)

ويوحى التكرير فى سورة (الكافرون) باليأس إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة ، فليتدبروا أمرهم بينهم ملياً ، ليروا سر هذا الإصرار من محمد ، فعساهم يدركون أن هذا السر هو أن الرسول على حق ، فيما يدعو إليه ، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق .

القصر

يستخدم القرآن ألوانا من القصر ، عند ما يراد إثبات الحكم لمذكور ونفيه عما عداه ، فقد يقصر صفة على موصوف قصراً حقيقياً ، بحيث لا يتصف بهذه الصفة إلا ذلك الموصوف وحده ، كما تجد فى قوله سبحانه : « فاعلم أنه لا إله إلا الله ، واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ، والله يعلم متقلبكم ومثواكم » . (٤٨ : ١٩) وقوله سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » (١ : ٤ و ٥) . وقد لا يريد هذا الحصر الحقيقى بل يبغى إثبات الحكم لموصوفات يعتقد اتصافها بغير هذه الصفة ، كما فى قوله تعالى : « قل : لا أجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة ، أو دما مسفوحا ، أو لحم خنزير ، فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ولا عاد ، فإن ربك غفور رحيم » . (٦ : ١٤٥) ، فليس الطعام المحرم هو ما ذكر فى تلك الآية فحسب ، بدليل آية المائدة وإنما ذكرت تلك المحرمات هنا فى معرض الرد على من كان يعتقد حلها .

وقد يقصر موصوفا على صفة ، ولم يرد فى القرآن هذا القصر حقيقياً ، ومما ورد منه إضافياً قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ، فليس المراد هنا قصر محمد على الرسالة فحسب ، بحيث لا يتعداها إلى غيرها ، بل المراد أن محمداً مقصور على الرسالة ، لا يتعداها إلى الخلوص من الموت الذى استعظموا أن يلم به .

وقد تتجسم صفة من صفات الشىء ، حتى تطغى على ماسواها ، وحتى كأن الموصوف قد خلص لها فلم يعد متصفاً بغيرها ، فيصح قصره عليها ، كما فى قوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون » (٦ : ٣٢) .

ويخاطب القرآن بأسلوب القصر من يعتقد الشركة ، فيثبت القرآن بهذا الأسلوب الحكم لواحد وينفيه عن غيره ، كما فى قوله تعالى: «لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » (٥ : ٧٣) .

وقد يقلب به ما يعتقده المخاطب ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ، قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ، ولكن لا يعلمون » (٢ : ١٣) ، فقد كان المنافقون ، كما ترى ، يعتقدون أن المؤمنين سفهاء دونهم .

واستخدم القرآن من طرق القصر ما وإلا ، وهى أقوى أدواته ؛ لما فيها من وضوح معنى القصر ، ولذا تستخدم فى الأمور التى هى مجال الشك والإنكار ، نجد ذلك فى قوله سبحانه : « نحن أعلم بما يستمعون به ، إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى ، إذ يقول الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحوراً » (٢٧ : ٤٧) ، ألا ترى أن الظالمين يخاطبون بذلك قوماً آمنوا ، وينكرون دعوى سحر الرسول .

وقوله سبحانه « ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً » (٢٧ : ٦) ، فالتخويف يبعث فى النفس الشك فى أنهم ينصرفون عن كفرهم ، فكان ثمة مدعاة لتأكيد زيادة طغيانهم .

وقوله تعالى « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا » (١٧ : ٨٣) ، فهذا القرآن الذى هو شفاء ورحمة ، مجال لشك النفس فى أنه خسار للظالمين ، فكان المجال مجال تأكيد ذلك بما وإلا .

فإذا جاء أمر من الأمور المسلم بها بالنفى والإثبات ، فذلك لتقدير أمر صار به

فى حكم المشكوك فيه ، كقوله سبحانه : «وما أنت بمسمع من فى القبور ،إن أنت إلا نذير » فالمجىء هنا بالنفى والإثبات ، لأن النبى قد خوطب خطاب من يظن أنه يستطيع ان يحول قلوب المشركين عما هى عليه من الإباء والعناد ، ولا يعلم علم اليقين أن ليس فى وسعه شىء أكثر من التحذير والإنذار ، فجرى الأسلوب كما يجرى فى خطاب الشاك ، فقيل : « إن أنت إلا نذير » .

وكقوله تعالى : « قل : لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، فهو يخاطب قوما يرون فى الرسول مخلوقا قد يملك لنفسه الضر والنفع ، ويعلم الغيب ، فكان من المناسب ، وتلك حالهم ، أن يأتى من أدوات القصر بالنفى والاستثناء ، يزيل بها بذور الشك من نفوس سامعيه .

وكقوله تعالى : « قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السموات والأرض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، ويؤخركم إلى أجل مسمى ، قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » ؛ فإن هؤلاء المشركين « جعلوا الرسل كأنهم بادعائهم النبوة قد أخرجوا أنفسهم عن أن يكونوا بشراً مثلهم ،وادعوا أمراً لا يجوز أن يكون لمن هو بشر ، ولما كان الأمر كذلك أخرج اللفظ مخرجه ، حيث يراد إثبات أمر يدفعه المخاطب ويدعى خلافه ، ثم جاء الجواب من الرسل الذى هو قوله تعالى : « قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم » كذلك بإن وإلا دون إنما ، لأن من حكم من ادعى عليه خصمه الخلاف فى أمر هو لا يخالف فيه أن يعيد كلام الخصم على وجهه ،ويجىء به على هيئته ، ويحكيه كما هو »[1] .

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٢٥٦ .

ويجىء النفى والاستثناء أيضاً لبيان تأكيد الأمر فى نفس قائله ، كما فى قوله سبحانه : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلا » (١٧ : ٥٢) فهذا تعبير صادق لشعور المبعوثين يوم القيامة ، بأنه ما انقضى عليهم منذ وفاتهم سوى أمد يسير .

كما يجىء للإجابة عن سؤال محقق أو مقدر لتأكيد هذا الجواب ، كما فى قوله سبحانه : «وإذ قال الله : ياعيسى بن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال : سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق . . . ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن أعبدوا الله ربى وربكم » (٥ : ١١٦ و ١١٧) .

واستخدم إنما ؛ والأصل فيها أن تأتى فى الأمور التى يدعى أنها من الوضوح بمكان ، قال تعالى : « ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ، ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع ؛ حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ، إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون » ، ألا ترى أنه من الوضوح بمكان مؤاخذة هؤلاء الأغنياء القادرين على المساهمة فى الجهاد ، ثم يستأذنون راضين بأن يكونوا مع الخوالف . واقرأ قوله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون » ، فواضح بين أن المؤمنين ليسوا سوى هؤلاء الذين تخاف قلوبهم إذا ذكروا الله ، ويزدادون إيمانا إذا تليت عليهم آياته ، ويتوكلون على ربهم .

ولأنها تستخدم فى الأمور الواضحة جاء قوله تعالى حكاية عن اليهود : «وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون» ، فقد ادعوا أن إصلاحهم أمر واضح لا يحتاج إلى دليل ، ولذا احتوى الرد عليهم فنونا من التوكيد ، إذ قال سبحانه : «ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون» ، وكذلك حكى القرآن عنهم فى موضع

آخر : « وإذا لقوا الذين آمنوا ، قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » فهم يدعون لشياطينهم أن استهزاءهم بالمؤمنين من الأمور التى لا مجال للريب فيها ، ولا تكون مبعثا لسوء ظن شياطينهم فيهم.

وقد تجىء إنما فى موضع هو مجال للشك أو الإنكار كما فى قوله تعالى : «قالوا: إنما أنت من المسحرين » ، فهم يخاطبون الرسول الذى ينكر ولا ريب هذا الحكم، ولكنهم أتوا بتلك الصيغة ، كأنهم يدعون وضوح أنه مسحور، لا ينطق عن عقل واع مفكر .

قال عبد القاهر[1] : « ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب ، إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه ، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه ، نحو أنا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب» أن يعلم السامعون ظاهر معناه ، ولكن أن يذم الكفار ، وأن يقال : إنهم من فرط العناد، ومن غلبة الهوى عليهم ، فى حكم من ليس بذى عقل، وإنكم إذا طمعتم منهم فى أن ينظروا ويتذكروا ، كنتم كمن طمع فى ذلك من غير أولى الألباب. وكذلك قوله : « إنما أنت منذر من يخشاها» ، وقوله عز اسمه : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب » المعنى على أن من لم تكن له هذه الخشية فهو كأنه ليس له إذن تسمع ، وقلب يعقل ، فالإنذار معه كلا إنذار » .

وإنما فى مقام التعريض وسيلة مؤدبة مؤثرة معاً ، فضلا عن إيجازها ؛ أما إنها مؤدبة فلأنها تصل إلى الغرض من غير أن تذكر الطرف المقابل ، ومؤثرة من ناحية أنك توحى بأن ترك التصريح بما يخالف ما أثبته هو من الوضوح بمكان ، كما أن الاكتفاء بالمثبت يوحى أحيانا بأنه لا يليق أن يوازن بين ما أثبت ، وما نفى .

---

(١) المرجع السابق ٢٧٢ .

ويغلب على إنما فى القرآن أن تكون بمثابة الجواب عن سؤال يقتضيه السياق قبلها صريحا أو ضمنا[1] ، ويكثر فى الصريح سبقها بمادة القول ، كما فى قوله سبحانه « يسألونك عن الساعة : أيان مرسلوها ، قل : إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض ، لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها ، قل : إنما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ومن السؤال الضمنى قوله تعالى : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ... إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، والله عليم حكيم » . (٩ : ٥٨ ، ٦٠) .

وقل أن تستخدم أنما مفتوحة الهمزة وسيلة للقصر فى القرآن ، كقوله تعالى « قل : إنما يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » فالآية الكريمة تقصر الوحى على وحدانية الله ؛ والقصر هنا إضافى لا حقيقى .

ويفيد التقديم الحصر فى مواضع كثيرة ، كما سبق أن ذكرنا ، ومن أظهر ما يبدو فيه الحصر للتقديم مواضع الاستفهام ، وخذ لذلك مثلا قوله تعالى : « أفأنت تسمع الصم ، أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين » (٤٣ : ٤) ، فمعنى الآية أأنت بخاصة قد أوتيت قدرة إسماع الصم وهداية العمى ، وقوله تعالى : « قل : أغير الله اتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين » (٦ : ٢٤) . وقوله تعالى : « قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إو كنتم صادقين ، بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ، وتنسون

---

(١) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى ص ١٠٥ .

ما تشركون » ، ففى الآية الأولى اتجه الإنكار إلى اتخاذ غير الله وليا ، وفى الآية الثانية لا يُسألون عن مطلق الدعاء ، ولكن عن دعاء غير الله ، بإفراده بالدعاء أو باشراكه مع الله ، فقد حصل بالتقديم معنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ؟ ! ومعنى قولك أيكون غير الله بمثابة أن يكون موضعا لدعائكم . وكذلك الحكم فى قوله تعالى : « قالوا : أبشرا منا واحدا نتبعه » .

ومن وسائل القصر فى القرآن الكريم ضمير الفصل[1] ، وقد سبق بيان ذلك فى باب التوكيد .

وتعريف طرفى الجملة وسيلة للقصر أيضاً ، وكثيراً ما يذكر بين الطرفين ضمير الفصل ، كما فى قوله تعالى : « لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » وقوله تعالى : « أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (٢ : ٥) وضمير الفصل فى هذا ومثله يجعل ما بعده خالصاً لأن يكون خبراً .

---

(١) هو ضمير لا محل له من الإعراب يأتى بصيغة المرفوع مطابقاً لما قبله — السباعى بيومى .

الاستفهام

ورد الاستفهام فى القرآن الكريم على أصل معناه ، وهو طلب الفهم ومعرفه المجهول ، كما فى قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة: أيان مرساها » وقوله : « قال فرعون : وما رب العالمين » ، وقوله : « إذ قال الحواريون : ياعيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » ، وقوله : « قالوا : ادع لناربك يبين لنا ما لونها » ، وقوله « قالوا : ادع لناربك يبين لنا ما هى » وذلك الاستعمال كثير فى القرآن ، وأكثر منه أن يخرج الاستفهام عن أصل وضعه ، لمعان أخرى تفهم من سياق الكلام .

فمن ذلك الإنكار. ومعنى الاستفهام حينئذ معنى النفى ، وما بعده منفى ؛ ولذلك تصحبه إلا ، ويعطف عليه المنفى ، ويكون معناه فى الماضى معنى لم يكن ، وفى المستقبل معنى لا يكون ، ومن ذلك قوله تعالى : « أنؤمن لك واتبعك الأرذلون » و « أنؤمن لبشرين مثلنا » و « فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » و « ألكم الذكر وله الأنثى و « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون» و« أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا » و « فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين » .

ولعل السر فى جمال أسلوب الاستفهام هنا ، والعدول إليه عن أسلوب النفى ، هو أن الاستفهام فى أصل وضعه يتطلب جوابا يحتاج إلى تفكير ، يقع به هذا الجواب فى موضعه ، ولما كان المسئول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفى ، كان فى توجيه السؤال إليه حملا له على الإقرار بهذا النفى ، وهو أفضل من النفى ابتداء .

ومنها التوبيخ على فعل وقع ، وكان الأولى ألا يقع ، أو على ترك فعل ما كان ينبغى

ألا يقع ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » وقوله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » . والاستفهام هنا كذلك يثير فى النفس التفكير ويدفعها إلى تدبر الأمور ، حتى تقتنع بتفكيرها الخاص ، بأنه ما كان ينبغى أن يقع ما وقع ، أو كان الصواب أن يقع ما لم يقع .

ومنها التقرير ، وهو حملك المخاطب على أمر قد استقر عنده ، والاستفهام فى التقرير للنفى ، فإذا دخل على النفى صار الكلام موجبا ، ولذا يعطف عليه الموجب الصريح ، ويعطف هو على الموجب الصريح ، ومنه قوله تعالى : « ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل » والعدول عن الإخبار إلى الاستفهام حمل للمخاطب على الاعتراف بعد التدبر والأناة ، وتأمل قوله سبحانه : « ألست بربكم ؟ قالوا : بلى » .

ومنها التعجب ، كما فى قوله تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » ، وقوله سبحانه : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا ، فأحياكم » ، والعتاب كقوله تعالى : « عفا الله عنك ؛ لم أذنت لهم ؟ » والاستبطاء فى قوله سبحانه : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (٢ : ٢٢٤) . وتنبيه المخاطب على الضلال حين تدفعه بالاستفهام إلى التفكير وتدبر العواقب ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت .. فأين تذهبون » (٨١ : ١ و ٢ و ٢٦) .

وتحس بالهول والخوف يثيره الاستفهام فى قوله تعالى : « الحاقة ما الحاقة ؟ » وقوله : « القارعة ، ما القارعة ؟ » وفهم التهويل من الاستفهام ، لأنك به توحى إلى المخاطب بأن ما ذكر لا يليق أن يمر به المرء مر الكرام ، بل من الواجب التريث

والتمهل وفهم حقيقته ومدلوله ، وبالتهديد والوعيد فى قوله : « ألم نهلك الأولين » وبالتشويق والترغيب فى قوله سبحانه : « هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » وبالتحضيض فى قوله : « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم » وبالأمر فى قوله : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ؛ فهل أنتم منتهون » (٥ : ٩١) ، وإيراد الأمر فى صورة الاستفهام فضلا عما فيه من تعبير مؤدب ، لأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل وألا يفعل — فيه إغراء بالعمل وحث عليه .

وتستفيد التمنى من الاستفهام فى قوله تعالى : « هل ينظرون إلا تأويله ، يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » (٧ : ٥٣) ، ولعل السر فى إيرادهم التمنى فى أسلوب الاستفهام ، هو تصوير هذا الأمل الذى يجول بنفوسهم مجسما فيها تجسيما قويا ، حتى ليتلمسونه بين ظهرانيهم .

وتحس بالاستهزاء فى الاستفهام الوارد فى قوله سبحانه : « قالوا : ياشعيب ، أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء » وبالاستبعاد فى قوله تعالى : « أنى لهم الذكرى ، وقد جاءهم رسول مبين » (٤٤ : ٢٣)

وقد يكون الاستفهام مثارا لتنبيه المخاطب على أمر يغفل عنه ، ولا يوليه من عنايته ما هو به جدير ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكنا » وفى إيراد هذه المعانى بأسلوب الاستفهام تشويق ، وإثارة للتفكير ؛ للاهتداء إلى معرفة وجه الصواب .

الأمر والنهى

الأصل فى الأمر أن يكون لطلب الفعل على سبيل الإيجاب ، كقوله تعالى : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها ، فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، وما الله بغافل عما يعملون » (٢ : ١٤٤) .

ولكنه يجىء لغير الإيجاب كثيراً ، فيكون مثلا للدعاء فى قوله تعالى: « اهدنا الصراط المستقيم » ، وللتهديد فى قوله : « إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير ، أم من يأتى آمناً يوم القيامة ، اعملوا ما شئتم ؛ إنه بما تعملون بصير » (٤١ : ٤٠) ، ألا ترى هذا الأمر يحمل معنى عدم الاكتراث بأعمالهم ، لأن وبالها عائد عليهم لا محالة . وللتعجيز فى قوله : « أم يقولون افتراه قل : فأتوا بسورة مثله » . (١٠ : ٣٨) ، وفى هذا الأمر معنى التحدى ، ليظهر عجزهم فى وضوح وجلاء .

ولما كان الأثيم ولا ريب فى أقصى حالات التنبه لما ينزل به من عذاب أليم ، ولما يغلى فى بطنه كغلى الحميم ، كان الأمر فى قوله سبحانه : « ذق ؛ إنك أنت العزيز الكريم » . (٤٤ : ٤٩) — للإهانة . ويأتى الأمر لأغراض أخرى تدرك من سياق المقام .

والأصل فى النهى أن يكون لطلب الكف على سبيل التحريم ، كما فى قوله سبحانه : « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق » (١٧ : ٣٣) .

ويأتى لغير ذلك ، كالدعاء فى قوله تعالى : « ربنا ، لا تزغ قلوبنا ، بعد إذ هديتنا » . ويفهم من النهى فى قوله تعالى : « قال : اخسئوا فيها ، ولا تكلمون »

الإهانة ، ومن قوله : « يأيها الذين كفروا ، لا تعتذروا اليوم ، إنما تجزون ما كنتم تعملون » . (٦٦ : ٧) — اليأس من جدوى الاعتذار . ويأتى النهى فى القرآن لغير ذلك .

التمنى والترجى

التمنى طلب حصول أمر محبوب مستحيل الوقوع أو بعيده ، والحرف الموضوع له (ليت) كما فى قوله سبحانه « ياليتنى مت قبل هذا ، وكنت نسياً منسيا » . (١٩ : ٢٣) ، وقوله سبحانه « ياليت لنا مثل ما أوتى قارون ، إنه لذو حظ عظيم » ، (٢٨ : ٣٩) ، والمتمنى فى الآية الأولى مستحيل الوقوع ، والثانى بعيده .

وقد يتمنى بهل كما أشرنا إلى سر ذلك فى فصل الاستفهام ، وبلو : كما فى قوله تعالى : « وقال الذين اتبعوا : لو أن لنا كرة ، فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا » (٢ : ١٦٧) . وسر المجىء بلو للتمنى ، وهى تدل على الامتناع ، إشعار السامع من أول الأمر بامتناع هذا المتمنى واستحالة وقوعه .

أما الترجى ففى أمر محبوب قريب الوقوع ، والحرف الموضوع له لعل ، كقوله تعالى : « لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » (٦٥ : ١) وعسى ، كما فى قوله تعالى : « ولما توجه تلقاء مدين قال : عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » (٢٨ : ٢٢) وقد ترد لعل دالة على توقع أمر محذور ، كما فى قوله تعالى : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب » (٤٢ : ١٨) .

النـــداء

لم يستخدم القرآن من أدوات النداء سوى يا ، ويكون النداء لطلب إقبال المدعو ليصغى إلى أمر ذى بال ، ولذا غلب أن يلى النداء أمر أو نهى ، كقوله تعالى : « يأيها المدثر ، قم فأنذر » (٧٤ : ١) ، وقوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا ، لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » (٥ : ٧٨) وقد يتقدم عليه الأمر ، كما فى قوله سبحانه « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » (٣٦ : ٥٩) ، وقد يعقب النداء جملة خبرية تليها جملة الأمر ، كقوله تعالى : « قالوا : يأيها العزيز ، إن له أبا شيخاً كبيراً ، فخذ أحدنا مكانه » (١٢ : ٨٧) ، وقد لا تأتى جملة الأمر كما فى قوله : « قالت: يأيها الملأ ، إنى ألقى إلىَّ كتاب كريم » (٢٧ : ٢٩) .

وحيناً يأتى الاستفهام بعد النداء ، كقوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا ، ما لكم إذا قيل لكم : انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض » (٩ : ٣٨) ، أو قبله كقوله : « قل : أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟! » (٣٩ : ٦٤) .

وكثيراً ما يحذف لفظ النداء فى القرآن كما فى قوله سبحانه : « قال فما خطبكم أيها المرسلون » (١٥ : ٥٧) ، وقوله : « ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم » (٥٦ : ٥١) .

ولا يكاد يستخدم حرف النداء مع الرب ، بل ينادى مجرداً من حرف النداء ، ولعل فى ذلك تعبيراً عن شعور الداعى بقربه من ربه ، كقوله تعالى : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ، وقالوا : سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك

المصير ، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا ، لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا ، كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا » (٢ : ٢٨٥ ، ٢٨٦) . وقوله تعالى : « وإذ قال إبراهيم : رب ، أرنى كيف تحيي الموتى ؟ » (٢ : ٢٦)

وعلى كثرة ما نودى الرب فى القرآن لم أعثر عليه مسبوقا بحرف النداء إلا فى تلك الآية الكريمة : « وقيله: يارب ، إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، فاصفح عنهم ، وقل : سلام فسوف يعلمون » (٤٣ : ٨٨ ، ٨٩) وألمح فى المجىء بحرف النداء هنا خاصة ، تعبيراً عن حالة نفسية ألمت بالرسول ، وقد أفرغ جهده فى دعوة قومه وإنذارهم ، فلم يزدهم ذلك إلا تماديا فى كفرهم ، فأطبق الهم على فؤاده ، وكأنما شعر بتخلى الرب عن نصرته ، وبعده عن أن يمد إليه يد المساعدة فأتى بحرف النداء ، كأنما يريد أن يرفع صوته ، زيادة فى الضراعة إلى الله واستجلاب رضاه .

ولم يناد لفظ الجلالة فى القرآن ، واستغنى عنه حينئذ بكلمة اللهم ، قال سبحانه : « قل : اللهم ، مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء » (٣ : ٢٦) ، وأحس فى كلمة (اللهم) فخامة وروعة لا أحس بهما فى (يالله) .

القسم

لجأ القرآن إلى القسم متبعا النهج العربى فى توكيد الأخبار به ، لتستقر فى النّفس ، ويتزعزع فيها ما يخالفهـــا ، وإذا كان القسم لا ينجح أحيانا فى حمل المخاطب على التصديق ، فإنه كثيراً ما يوهن فى النفس الفكرة المخالفة ، ويدفع إلى الشك فيها ، ويبعث المرء على التفكير القوى فيما ورد القسم من أجله .

أقسم القرآن بالرب ، ولكنه ذكره حينا مضافا إلى السماء والأرض ، فقال : « فورب السماء والأرض إنه لحق » لما فى هذه الإضافة من الإشارة إلى خضوع السماء والأرض لأمره ، وفى ذلك تعظيم لشأنه ، وإيحاء بأن من كان هذا أمره لا يُزج باسمه إلا فيما هو حق لا مرية فيه . وحينا مضافاً إلى المشارق والمغارب ، فقال : « فلا أقسم برب المشارق والمغارب » ، لما توحى به هذه الإضافة من القدرة البالغة التى تسخر هذا الجرم الهائل وهو الشمس ، فيشرق ويغرب فى دقة وإحكام . وحينا مضافا إلى الرسول ، فقال : « فوربك لنحشرنهم والشياطين » ، وكأنه بذلك يوحى بان أرباب المشركين ليست جديرة بأن يقسم بها ، أو تكون محل الإجلال والتقدير .

واستخدم ما كان العرب يستخدمونه من الحلف بحياة المخاطب ، فأقسم بحياة رسوله عندما قال : « لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون » ، وفى ذلك تشريف لحياة الرسول ، وتعظيم لأمره فى أعين السامعين .

فإذا أقسم القرآن بمصنوعات الله كان فى ذلك تنبيه إلى ما فيها من روعة ، تدفع إلى التفكير فى خالقها ، وتأمل جمال القسم فى قوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ،

والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قدأفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، أو لا ترى هذا القسم مثيراً فى النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون،ومنظم شئونه هذا التنظيم المحكم الدقيق ، أو ليست هذه الشمس التى تبلغ أوج مجدها وجمالها عند الضحا ، وهذا القمر يتلوها إذا غابت ، وكأنه يقوم مقامها فى حراسة الكون وإبهاجه ، وهذا النهار يبرز هذا الكوكب الوهاج ، ثم لا يلبث الليل أن يمحو سناه ، وهذه السماء وقد أحكم خلقها ، واتسقت فى عين رائيها كالبناء المحكم الدقيق ، وهذه الأرض وقد انبسطت فى سعة ، وهذه النفس الإنسانية العجيبة الخلقة التى يتسرب إليها الهدى والضلال فى دفة وخفاء ، أليس فى ذلك كله ما يبعث النفس إلى التفكير العميق فى خالقه ، وأن هذا الخالق لا يذكر هو وما خلق محاطا بهذا الإجلال ، إلا فى مقام الحق والصدق .

وتامل جلال القسم فى قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم ، لو تعملون ، عظيم » ، وقوله سبحانه : « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى » ، وانظر كيف وجه النظر إلى ما حفظ النجوم فى مواقعها فلا تسقط ولا تضطرب ، من قدرة قديرة على هذه الصيانة والضبط ، وما يبعثه هوىُّ النجوم من رهبة فى النفس ، وكلا الأمرين مثار إعجاب بخالقه ، يبعث فى النفس الاطمئنان إلى خبر يكون هو موضع القسم فيه .

وأقسم القرآن فى مواضع أخرى بالليل والنهار والنجوم ، لما أنها مظاهر للقدرة الباهرة . كما أقسم بالرياح تحمل السحب مليئة بالمياه ، فتجرى بها فى رفق ويسر ، ثم تدعها توزع مياهها هنا وهناك ، إذ قال : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا ، فالجاريات يسراً ، فالمقسمات أمراً ، إن ما توعدون لصادق » ، وفى قدرة الريح على حمل السحب الموقرة بالماء ، وجريها بها فى الفضاء ، ثم فى نزول المطر ، ما يدل على قدرة الخالق الباهرة .

وهكذا فى كل ما أقسم به الله مظهر من مظاهر قدرته وعظمته . وحينا يثير العاطفة الوطنية ، التى تدفع إلى تقديس الوطن وإعزازه ، وتحمل النفس على قبول ما يقسم عليه به ، تجد ذلك فى قوله تعالى : « والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » وفى قوله سبحانه : « لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذ البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد » .

ويقسم القرآن غالبا على صدق ما جاء به هذا الدين ، الذى نزل القرآن لتثبيت أسسه وقواعده ، فيقول : « إن إلهكم لواحد » و « إن ما توعدون لصادق » و « إنه لقرآن كريم » و « ما ضل صاحبكم وما غوى » . وأحيانا يؤكد أحوال الإنسان فيقول : « إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد » إلى غير ذلك من آيات تتحدث عن طبائع الإنسان ، وأخلاقه ، وصلته بهذا الدين .

وقد تحدثنا فيما مضى عن حذف جواب القسم ، وسر هذا الحذف ، ونضيف إلى ما أسلفناه أن « أكثر ما يحذف الجواب إذا كان فى نفس المقسم به دلالة على المقسم عليه ، فإن المقصود يحصل بذكره فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز ، كقوله : «ص ، والقرآن ذى الذكر» ، فإن فى المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذو الذكر .. ومايدل على المقسم ، وهو كونه حقا من عند الله غير مفترى .. ولهذا قال كثيرون : إن تقدير الجواب ، إن القرآن لحق . وهذا يطرد فى كل ماشابه ذلك ، كقوله : «ق ، والقرآن المجيد» ، وقوله : « لا أقسم بيوم القيامة » ، فإنه يتضمن اثبات المعاد[1] » ، وقد تحدثنا كذلك عن لا وموقعها فى القسم .

« ومن لطائف القسم فى القرآن قوله تعالى : « والضحى ، والليل إذا سجى ،

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٣٥ .

ما ودعك ربك وما قلى » . . وتأمل مطابقة هـذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل — المقسم عليه ، وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمدا ربه ، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل ، على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمة احتباسه واحتجابه »[1] .

الفصل والوصل

عنى البلاغيون بالحديث عن الواو ، التى تذكر فتصل الجملة بأختها ، أو تترك فتدع الجملتين منفصلتين ، وغالوا فى تقدير معرفة الموضع الذى تصلح فيه الواو ، والموضع الذى لا تصلح فيه ، حتى قصر بعض العلماء البلاغة على معرفة الفصل والوصل ، وقد قصروا حديثهم فى ذلك الموضع على الجمل التى لا محل لها من الإعراب؛ وهذا لأن الجمل التى لها موقع من الإعراب ، يكون موضع الواو فيها من الوضوح بمكان ؛ لأنها تشرك الجملة الثانية فى حكم الأولى ، فتكون مثلها خبرا ، أو صفة ، أو حالا ، أو مفعولا ، أو غير ذلك ، والأمر فيه سهل بين ، أما الذى يشكل ، فأن تعطف على الجملة التى لا موضع لها من الإعراب ، جملة أخرى ، فهنا نقف لنرى لم لم يستو الحال بين أن نعطف ، وبين أن ندع العطف ، وخصت الواو بالحديث ؛ لأن غيرها من حروف العطف تفيد مع الإشراك معانى ، كأن تدل الفاء على الترتيب من غير تراخ ، وثم على الترتيب مع التراخى ، وأو للتردد بين شيئين ، فإذا عطفت جملة على جملة بواحد منها ، ظهرت فائدة هذا الحرف واضحة جلية . أما الواو فإنها لما كانت لمطلق الجمع ، لا تصل جملة بأخرى ، إلا إذا كان المعنى فى إحدى الجملتين متصلا بمعنى الجملة الأخرى ، ومرتبطا به ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « إنما

---

(١) المرجع السابق نفسه .

يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم، وقيل : اقعدوا مع القاعدين ، لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم ، يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ، لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق ، وظهر أمر الله ، وهم كارهون ، ومنهم من يقول : أئذن لى ، ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا ، وهم فرحون » . (٩ : ٤٥ — ٥٠) فالواو فى هذه الآيات قد وصلت الجمل بعضها ببعض لمكان الصلة بينها والتناسب ، فعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر يناسبه ارتياب قلوبهم ارتيابا ينغمسون فيه . وخذ الآية الثانية تر التناسب واضحاً بين تقاعسهم عن الخروج ، وعدم الإعداد له ، وبين كره الله لانبعاثهم ، وهكذا تجد الصلة جامعة بين الجملة وأختها جمعا يهيىء للواو مكانها بينهما .

وتأمل جمال الوصل فى قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت» ، فالمطلوب فى الآية التأمل فيما خلق الله ، ليصلوا بهذا التأمل إلى الإيمان بالبعث الذى ينبنى عليه أساس الدين ، والتناسب هنا بين الجمل واضح ، فقد بدأ حديثه بالإبل التى هى عنصر أساسى فى حياة البدوى فى صحرائه ، وانتقل من الإبل إلى ما يرونه أمامهم فى كل حين من سماء رفعت بلا عمد، وللسماء عند البدوى مكانة خاصة ، يتجه إليها ببصره يستنزل منها الغيث ، ويهتدى بنجومها فى سراه بالليل ، فإذا هبط ببصره قليلا رأى هذه الجبال الشامخة ، منصوبة تناطح السماء بقممها ، وترسو فى ثبات واطمئنان على أرض مهدت له ، وسطحت أمامه ، أو لا ترى أن تنقل البصر بين هذه المخلوقات

تنقل هادىء طبيعى لا قفز فيه ، وأن ارتباط بعضها ببعض فى طبيعة البدوى مهد للربط بينها ، وعطف بعضها على بعض .

واتصلت الجمل فى قوله سبحانه : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت » لما كانت تلك المظاهر من أمارات القيامة ، وما أقوى الصلة بين السماء تنشق ، والكواكب تنتثر ، لا نظام يجمعها ، ولا جاذبية تحفظها فى مكانها ، وما أقوى الصلة أيضا بين تفجر البحار فتطغى مياهها ، وبعثرة القبور تخرج مادفن فيها من الموتى ، فكأنها تنفجر كذلك. ومثل هذا قوله تعالى : « إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدّت ، وألقت مافيها وتخلت ، وأذنت لربها وحقت » .

واقرأ قوله تعالى : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ، فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات ، لعلكم تشكرون » ، (٨ : ٢٦) إن فى هذه النعم لرابطا يصل بعضها ببعض ، ويسمح للواو أن تجمع بينها ، فهؤلاء قوم كانوا قليلين مستضعفين ، يخشون أن يغير عليهم مغير ، يسلبهم الحرية ، فلا جرم كانت نعمة الأمن ، لها المكان الأول بين نعم الله عليهم ، ولم يقف الأمر عند حد الأمن ، بل زاد عليه أن أيدهم بنصره ، ولم تنته نعمه عند حد الطمأنينة والغلب ، بل رزقهم خفض العيش ، وطيبات الحياة .

وتأمل الواو الواصلة فى قوله تعالى : « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ، ويتّبع كل شيطان مريد » ، فالمجادلة فى الله واتباع الشيطان ينشئان من عدم الاحتكام إلى العقل (٢٢ : ٣) ، وقوله سبحانه : « يابنى ، أقم الصلاة ، وامر بالمعروف ، وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور ، ولا تصعّر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ؛ إن أنكر الأصوات لصوت

الحمير » (٣١ : ١٧ — ١٩) فإنه إذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فالمقيم لها جدير أن يأخذ على عاتقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإن من يعرّض نفسه لذلك ، جدير أن يلم به بعض الأذى ، فوصى من ينهض بهذا العبء أن يحتمل ويصبر ، وإذا كان قد أمره بالصلاة ، وهى خضوع للرّب ، فجدير به ألا يمتلىء بالتيه ولا الخيلاء ، وأن يسير على الأرض فى تؤدة ، ويتحدث إن تحدث فى وداعة وهدوء ، ومن ذلك ترى هذه الصلات القوية التى تربط بين هذه الجمل ربطا محكما . وخذ قوله تعالى : « يأيها الناس ، أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » (٣٥ : ١٥) لترى الرباط القوى بين فقر الناس وغنى الله .

وتأمل جمال الوصل فى قوله تعالى « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » وقوله تعالى : « ومكروا ، ومكر الله » وقوله : « يخادعون الله ، وهو خادعهم » وقوله : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى » ، وقوله : « يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا » وقوله : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

وقد يحتاج الأمر إلى فضل تدبر لمعرفة الصلة التى تربط بين جملتين ، تلك الصلة التى تسمح بمجىء الواو بينهما ، كما فى قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » ، ففى النظرة العاجلة يبدو كأنه لا ارتباط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت من ظهورها ، ولكن الربط نشأ من أن ناسا من العرب كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم بيتا ولا خيمة ولا خباء من باب ، بل إن كان من أهل المدر نقب نقبا من ظاهر البيت ليدخل منه ، وخرج من خلف الخيمة أو الخباء إن كان من أهل الوبر [1] ؛ فلما تحدث القرآن عن الأهلة وأنها مواقيت للحج ، ناسب ذلك أن يتحدث عن عادتهم هذه فى الحج ، ذاكرا أنها ليس من البر فى شىء .

---

(١) الطراز ج ٢ ص ٤٩ .

وتفصل الجملتان إذا كان بينهما امتزاج معنوى ، كأن ترفع الجملة الثانية ماقد يتوهم فى الجملة الأولى من تجوز أو سهو ونسيان ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين » فتعريف جزأى الجملة الأولى، والمجىء باسم الإشارة للبعيد ، مؤذن بوصف هذا الكتاب بأنه قد بلغ أسمى درجات الكمال، ولما كان ذلك قد يوهم أن ثمة مبالغة فى هذا الوصف ،نفى هذاالوهم وأتبع ذلك بقوله : « لا ريب فيه » أى فى بلوغه تلك الغاية من الكمال ،تأكيداً لما فهم من الجملة الأولى ؛ وأتبعه كذلك بقوله : « هدى للمتقين » تأكيداً ثانيا ؛ لأن معنى بلوغ القرآن للكمال إنما هو كماله فى الهداية والإرشاد .

ومن هذا الباب قوله تعالى : « وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا » . لم يقل: « وكأن فى أذنيه وقراً » ؛ لأن المقصود من التشبيه بمن فى أذنيه وقر ، هو بعينه المقصود من التشبيه بمن لم يسمع ، ولكن الثانى أبلغ وآكد فيما سيق له ، فالمراد من التشبيهين جميعا بيان أنه ليس لتلاوة الآيات عليه من فائدة ، وأن يجعل حاله إذا تليت عليه كحاله إذا لم تتل ، ولا ريب فى أن تشبيهه بمن فى أذنيه وقر ، أبلغ فى دلالته على هذا المعنى .

وعلى هذا النسق مما كانت الجملة الثانية فيه مؤكدة للجملة الأولى قوله تعالى : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم : لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » فقوله : « لا يؤمنون » تأكيد لقوله : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم » وقوله : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ... » تأكيد ثان أبلغ من الأول . وقوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله » فليست المخادعة شيئا سوى قولهم : آمنا ، من غير أن يكونوا مؤمنين. وكذلك قوله

---

(١) الطراز ج ٢ ص ٤٩ .

سبحانه : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون » وقوله تعالى : « ماهذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم» ، وقوله سبحانه: « وما علمناه الشعر، وما ينبغى له ،إنهو إلا ذكر وقرآن مبين » ، وقوله : « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » .

وقد يكون الامتزاج المعنوى بين الجملتين منشؤه أن الجملة الثانية شارحة وموضحة للجملة الأولى ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا : أئذا متنا، وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » ، فالقول الثانى ورد شارحاً ومبيّناً للقول الأول ، وقوله تعالى : « واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون : أمدكم بأنعام، وبنين، وجنات، وعيون » فجاء الإمداد الثانى موضحاً للأول، وقوله تعالى : «قال : ياقوم ؛ اتبعوا المرسلين ، اتبعوا من لا يسألكم أجراً ، وهم مهتدون» فلما كان المراد حث المخاطبين على اتباع الرسل ، جاء الاتباع الثانى موضحا ذلك ، إذ معناه اتبعوا من لا تخسرون شيئا من دنياكم فى اتباعهم ، وهم مهتدون ، تنالون باتباعهم سلامة دينكم ، وإذا أنت تأملت هذه الآيات وجدت الجملة الثانية فى الآية الأولى تقع من جملتها السابقة كما يقع بدل الكل من الكل ، ووجدتها فى الآية الثانية واقعة موقع بدل البعض من الكل ، وفى الآية الثالثة واقعة موقع بدل الاشتمال . وقد تقع موقع عطف البيان ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان : قال : ياآدم ، هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » فجاء قوله : «قال:يا آدم...» بدون الواو ؛ لأنه يوضح الوسوسة ويبين عنها ، ولو أنه جاءبالواو لأوهم المخالفة والتغاير .

وقد يكون منشأ هـذا الامتزاج أن الجملة الثانية واقعة فى موضع جواب لسؤال صريح فى الجملة الأولى ، أو يفهم منها ، كما فى قوله تعالى : « قال فرعون: وما رب العالمين ، قال: رب السموات والأرض وما بينهما ، إن كنتم موقنين ، قال

لمن حوله : ألا تستمعون ، قال : ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال: رب المشرق والمغرب وما بينهما ، إن كنتم تعقلون؛ قال : لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ، قال : أو لو جئتك بشىء مبين ؟ قال : فأت به إن كنت من الصادقين » ومنه قوله سبحانه : «وإذا قيل لهم : لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا : إنما نحن مصلحون ، ألا إنهم هم المفسدون» ، وقوله : « وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزىء بهم » .

وتتجلى دقة القرآن كذلك فى وصل الجمل بباقى حروف العطف غير الواو ، وتأمل قوله تعالى : « قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين » فهو قد عطف السقى على الإطعام بالواو إرادة للجمع بينهما بلا ترتيب ، ثم عطف الإحياء على الإماتة بثم ، لأنه إنما يكون بمهلة وتراخ ، وترى هذه الدقة فى قوله تعالى . « قتل الإنسان ما أكفره ! من أى شىء خلقه ؟ من نطفة خلقه ؛ فقدره ، ثم السبيل يسّره ، ثم أماته فأقبره ؛ ثم إذا شاء أنشره » ؛ فجاء قوله من نطفة خلقه بلا واو ، لأنها مفسرة لقوله من أى شىء خلقه ؛ وعطف قوله : فقدره ؛ بالفاء ، تنبيهاً على أن التقدير مرتب على الخلق وعلى عدم التراخى بينهما ، وعطف السبيل بثم ، لما بين الخلق والهداية من التراخي والمهلة الكثيرة ، ثم عطف الإماتة بثم ، إشارة إلى التراخى بينهما بأزمنة طويلة ، ثم عطف الإقبار بالفاء ، إذ لا مهلة هناك ، ثم عطف الإنشار بثم ، لما يكون هناك من التراخى باللبث فى الأرض أزمنة متطاولة » .

وقد يبدو فى بادىء الرأى أن الموضع لحرف غير ما ذكر ، ولكن التأمل الدقيق يجعل الموضع للحرف المذكور ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « ولا تطع من

أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطا » ، فقد يبدو بادىء الرأى أن الموضع للفاء هنا ، فيقال : ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا فاتبع هواه ؛ لأن فعل المطاوعة لا يعطف إلا بالفاء ، تقول أعطيته فأخذ ، وكسرته فانكسر ، ولكن التأمل يدل على أن الآية تعدد صفات الشخص الذى نهى الرسول عن طاعته ، ومن أغفل الله قلبه عن ذكره فقد غفل قلبه ، فكأنه قال : ولا تطع من غفل قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه . ومن هنا كانت الواو فى مكانها .

ويجمع القرآن بالواو أيضا بين المفردات المتناسبة ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « قل : إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » وقوله : « قل : إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » .

وجرى الاستعمال القرآنى على ألا يعطف بعض الصفات على بعض إلا إذا كان بينها تضاد ، تجد ذلك فى قوله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن ، مسلمات ، مؤمنات ، قانتات ، تائبات ، عابدات ، سائحات ، ثيبات وأبكارا » فقد مضت الصفات بعضها بجوار بعض من غير عاطف ، إلا بين ثيبات وأبكار ، للتنويع ورفع التناقض ، وفى قوله تعالى : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق ، البارىء ، المصور ، له الأسماء الحسنى » فلما تضادت الصفات عطفت كما فى قوله سبحانه : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن » ، وجاءت الواو فى قوله سبحانه : « تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير » لأن الصفتين وهما غفران الذنوب وقبول التوبة تواردا على معنى واحد ، هو التجاوز عن الذنب ، فجاءت الواو بينهما مؤذنة بالتغاير ، ومشيرة إليه ، فالله يغفر الذنب حينا من تلقاء نفسه بفضله ،

وحينا يعفو عنه بسبب ندم التائب واعتذاره ، فدلت الواو على هذا المعنى ، وأشارت إليه .

بدائع القرآن

ليس البديع فى يد الفنان حلية تقتسر ، ولا زينة يستغنى الكلام عنها ، ولا زخرفة يأتى دورها ، بعد أن يكون المعنى قد استوفى تمامه ، ولا يجىء مكانه فى المرتبة الثالثة ، بعد استيفاء علمى المعانى والبيان حقهما ، فإن الإنتاج الأدبى يبرز إلى الوجود فى نظمه الخاص ، وبه الصور البيانية ، والمحسنات البديعية ، دفعة واحدة ، فكأنما هذا المحسن البديعى جاء فى مكانه ليقوم بنصيبه من أداء المعنى أولا ، أما مافيه من جمال لفظى فقد جاء من أن تلك الكلمة بالذات يتطلبها المعنى ، ويقتضى المجىء بها .

وليس كل ما ذكره علماء البديع بألوان جمال تستحق أن تذكر بين المحسنات . وذلك يتطلب معاودة النظر ، فى دراسة هذه الألوان ، لا ستبقاء الجميل ، وحذف ما لا غناء فيه .

وليست أريد الحديث الآن عن جناية البديع على الأدب العربى عندما يراد لذاته ، فيستغلق المعنى ، ويضؤل . أما ماورد فى القرآن مما نعدّه محسنات بديعية فقد وردت الألفاظ التى كان بها هذا الحسن البديعى فى مكانها ، يتطلبها المعنى ، ولا يغنى غيرها غناءها .

خذ ما ورد فى القرآن الكريم من الجناس التام ، كقوله تعالى : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ، يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » تجد كلمة الأبصار الأولى مستقرة فى مكانها فهى جمع بصر ، ويراد به نور العين الذى تميز

به بين الأشياء، وكلمة الأبصار الثانية جمع بصر بمعنى العين، ولكن كلمة الأبصار هنا أدل على المعنى المراد من كلمة العيون، لما أنها تدل على ما منحته العين من وظيفة الإبصار، وهي التي بها العظة والاعتبار، فأنت ذا ترى أن أداء المعنى كاملا، تطلب إيراد هذه الكلمة، حتى إذا وردت رأينا هذا التناسق اللفظي.

واقرأ قوله تعالى: « ويوم تقوم الساعة، يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة » فكلمة (الساعة) الأولى جيء بها دالة على يوم القيامة، واختير لذلك اليوم هذا الاسم هنا، للدلالة على معنى المفاجأة والسرعة، وكلمة (ساعة) الثانية تعبر أدق تعبير عن شعور هؤلاء المجرمين، فهم لا يحسون أنهم قضوا في حياتهم الدنيا برهة قصيرة الأمد جداً، حتى يعبروا عنها ببرهة أو دقيقة مثلا، ولا بفترة طويلة، يعبرون عنها بيوم مثلا، فكانت كلمة (ساعة) خير معبر عن شعورهم بهذا الوقت الوجيز.

وما ورد في القرآن من جناس ناقص، فسبيله سبيل الجناس التام، وانظر إلى قوله تعالى: « وهم ينهون عنه، وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم، وما يشعرون » (٦ : ٢٦) ألا ترى أن موقف الكفار من القرآن، أنهم يبعدون الناس عنه، كما يبعدون أنفسهم عنه، فعبر القرآن عن ذلك بكلمتين متقاربتين ليشعر قربهما بقرب معنييهما.

ويطول بي القول إذا أنا مضيت في بيان كيف حلت كل كلمة في جمل الجناس محلها، بحيث لا تغني كلمة أخرى في هذا الموضع غناءها، وحسبي أن أشير إلى تلك الآيات، التي ورد فيها ما كون بعض ألوان من الجناس، مثل قوله تعالى: « فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر ». وقوله تعالى: « وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة ». وقوله: « والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق ». وقوله سبحانه: « ولقد أرسلنا فيهم منذرين، فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ».

فأنت ترى النهي عن القهر جاء إلى جانب اليتيم، بمعنى الغلبة عليه والاستيلاء

على ماله ، وأما السائل فقد نهى عن نهره وإذلاله ، فكلا الكلمتين جاء فى موضعه الدقيق ، كما وردت كلمتا ناظرة وناضرة أى مشرقة ، وإشراقها من نظرها إلى ربها ، وقد توازنت الكلمتان فى جملتيهما ، لما بينهما من صلة السبب بالمسبب . واختيار كلمة الساق فى الآية الثانية لتصور هذه الرحلة التى ينتقل فيها المرء من الدنيا إلى الآخرة ، فكأنه سوق مسافر ينتهى به السفر إلى الله . وفى كلمة المنذرين مايشير إلى الربط بينهم وبين المنذرين الذين أرسلوا إليهم .

وقل مثل ذلك فى قوله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » فإن شدة التشابه بين الكلمتين يوحى بالقرابة بينهما ، مما يجعل إحداهما مؤكدة للأخرى فالهمزة المغتاب ، واللمزة العياب ؛ فالصلة بينهما وثقى ، كالصلة بين الفرح والمرح فى قوله تعالى : « ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تمرحون » .

وإيثار كلمة النبأ فى قوله سبحانه : « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » لما فيها من معنى القوة ، لأن هذه المادة تدل على الارتفاع والنتوء والبروز والظهور ، فناسب مجيئها هنا ، ووصف النبأ تأكيدا لقوته باليقين .

ويعدون من أنواع البديع المشاكلة ، ويعنون بها ذكر الشىء بغير لفظه ، لوقوعه فى صحبته ، ويمثلون لذلك بقوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة مثلها » قالوا : فالجزاء عن السيئة فى الحقيقة غير سيئة ، والأصل وجزاء سيئة عقوبة مثلها . وبقوله تعالى : « ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين » والأصل أخذهم بمكرهم . وبقوله تعالى : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » قالوا : والمراد فعاقبوه ، فعدل عن هذا ، لأجل المشاكلة اللفظية . ولكننى أرى القرآن أجل من أن يسمى الشىء بغير اسمه لمجرد وقوعه فى صحبته ، بل أرى هذا التعبير يحمل معنى ، وجىء به ليوحى إلى القارىء بما لا يستطيع أن يوحى به ولا أن يدل عليه ماقالوا : إنه الأصل المعدول عنه ، فتسمية جزاء السيئة سيئة ، لأن العمل فى نفسه سوء ، وهو

يوحى بأن مقابلة الشر بالشر ، وإن كانت مباحة ، سيئة يجدر بالإنسان الكامل أن يترفع عنها ، وكأنه بذلك يشير إلى أن العفو أفضل وأولى ، وعلى هذا النسق تماماً ورد قوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ، وأما مكر الله فأن يفعل بهم كما يفعل الماكر ، يمدهم فى طغيانهم يعمهون ، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وعدوا من ألوان البديع الاستثناء ، ومثلوا له بقوله تعالى : فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وفى هذا التعبير ، فضلا عن إيجازه ، إيحاء بطول المدة ، وتهويل للأمر على السامعين ، وفى ذلك تمهيد العذر لنوح فى الدعاء على قومه ، وذلك لأن أول ما يطرق السمع ذكر الألف ، فتشعر النّفس بطول مدته ، وتتصور جهاد نوح فى ذلك الزمن المديد ، ولن يقلل الاستثناء من شأن هذا التصور ، ولا يتحقق هذا الإحساس إذا بدأت بغير الألف .

ومنها اللف والنشر بذكر شيئين أو أكثر ، ثم ذكر ما يقابلها ، وفيه جمع للمتناسبات من غير فاصل بينها . خذ قوله تعالى : « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله» ، ألا ترى بين الليل والنهار مناسبة تجمع بينهما ، ثم يثير هذا تطلعا إلى معرفة السبب فى أنهما من رحمته ، وفى ذلك عنصر التشويق ،وفى تقديم السكون على ابتغاء الفضل تقديم الاستعداد للجهاد فى الحياة على الجهاد . وتأمل كذلك ما يثيره الإجمال من التشويق فى قوله تعالى : «يوم تبيضُّ وجوه ، وتسودُّ وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضّت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ، وفى الإجمال الأول إعطاء صورة سريعة لهذا اليوم ، ثم يعود بعدئذ إلى إكمال الصورة فى تفصيل وإيضاح ، وربما يكون قد بدأ عندما فصل بذكر من اسودت وجوههم ، ليكون الحديث منتهياً بذكر طريقة الخلاص

من عذاب ذلك اليوم . ومن اللف والنشر قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك، ولا تبسطها كل البسط؛ فتقعد ملوما محسوراً » . والسر فى الجمع أولا ذكر المنهى عنه جملة واحدة ، ثم العود بعد ذلك لبيان سر هذا النهى .

وما ورد فى القرآن من طباق بالجمع بين المتضادين ، كانت الكلمة فيه مستقرة فى مكانها تمام الاستقرار ، سواء كان التضاد لفظا أو معنى ، حقيقة أو مجازاً ، إيجابا أو سلباً ، كقوله تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير ، أم هل تستوى الظلمات والنور » فأنت تراه يعقد الموازنة بين هذين الضدين، ولا مفر من الجمع بينهما فى الجملة لعقد هذه الموازنة التى تبين عدم استوائهما . وكقوله تعالى : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا » ، وقوله سبحانه : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود »

ومن الطباق السلبى قوله تعالى : « قل : هل يستوى الذين يعلمون ، والذين لا يعلمون » ، وقوله : « فلا تخشوا الناس ، واخشون » . ومن الطباق المعنوى قوله تعالى : « إن أنتم إلا تمكذبون ، قالوا : ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون » أى إنا لصادقون ، فإن الرسول يجب أن يكون صادقا .

ومما يرتبط بالطباق المقابلة بأن يؤتى بمعنيين أو أكثر ، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب ، فمن الجمع بين الاثنين قوله تعالى : « فليضحكوا قليلا، وليبكوا كثيراً »، وبين الثلاثة قوله سبحانه : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم » وبين الأربعة قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسنيسره للعسرى » ، وهذه المقابلة بين المعانى تزيدها فى الفكر وضوحا ، وفى النفس رسوخا .

ومن ذلك ترى أن ما ورد فى القرآن من طباق ومقابلة لم يجىء اعتسافا ، وإنما جاء المعنى مصوراً فى هذه الألفاظ ، التى أدت المعنى خير أداء وأوفاه ، وكان منها هذا الطباق والمقابلة .

ومن ألوان البديع العكس بأن يقدم فى الكلام جزء ، ويؤخر آخر ، ثم يقدم المؤخر ويؤخر المقدم ، وجمال العكس فى أنه يربط بين أمرين ، ويعقد بينهما أوثق الصلات أو أشد ألوان النفور ، تجد ذلك فى قوله سبحانه : « يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل » وقوله تعالى : « يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى » وقوله سبحانه : « هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » ، وقوله تعالى : « لاهن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن » وقوله تعالى : « ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء » .

ومن أجمل أنواعه ائتلاف المعنى مع المعنى ، بذكر الأمور المتناسبة بعضها إلى جانب بعض ، كقوله سبحانه : « قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله » ، وقد يخفى فى بعض الأحيان وجه الجمع بين المعنيين ، كما فى قوله سبحانه : « إن لك ألا تجوع فيها ، ولا تعرى ، وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى » فقد يبدو أن الوجه الجمع بين الجوع والظمأ ، والعرى والضحاء ، ولكن التأمل الهادىء يدل على أن الجوع والعرى يسببان الشعور بالبرد فجمعا معاً ، والظمأ والضحاء يسببان الشعور بالحر ، إذ الأول يبعث التهاب الجوف ، والثانى يلهب الجلد ، فناسب ذلك الجمع بينهما.

هذا ولست أرمى هنا إلى حصر ما عثر عليه العلماء من ألوان البديع فى القرآن، فقد تكفل بذلك غيرى ، وأفرد ابن أبى الإصبع لذلك كتابا عدد فيه هذه الألوان ، ومثل لها ، وذكر من ذلك أكثر من مائة نوع ، وكل ما قصدت إليه هو بيان أن ما نشعر به من جمال لفظى حينا ومعنوى حينا آخر ، لم يأت إلا من أن اللفظة القرآنية قد استدعاها المعنى ، ولم يكن ثمة لفظة أخرى تغنى غناءها ، فلما استقرت فى مكانها زاد بها الكلام إشراقاً ، والمعنى وضوحا وجلاء .

التشبيه فى القرآن

— ١ —

أرى واجبا على قبل الحديث عن التشبيه فى القرآن الكريم ، أن أتحدث قليلا عن بعض نظرات للأقدمين فى هذا الباب ، لا أوافقهم عليها ، ولا أرى لها قيمة فى التقدير الفنى السليم .

فما اعتمد عليه القدماء فى عقد التشبيه العقل ، يجعلونه رابطاً بين أمرين أو مفرّقا بينهما ، وأغفلوا فى كثير من الأحيان وقع الشىء على النفس ، وشعورها به سروراً أو ألما ، وليس التشبيه فى واقع الأمر سوى إدراك ما بين أمرين من صلة فى وقعهما على النفس ، أما تبطن الأمور ، وإدراك الصلة التى يربطها العقل وحده ، فليس ذلك من التشبيه الفنى البليغ ، وعلى الأساس الذى أقاموه استجادوا قول ابن الرومى :

بذل الوعد للأخلاء سمحا وأبى بعد ذاك بذل العطاء

فغدا كالخلاف ، يورق للعين ، ويأبى الإثمار كل الإباء

وجعلوا الجامع بين الأمرين جمال المنظر وتفاهة المخبر ، وهو جامع عقلى ، كما ترى ، لا يقوم عليه تشبيه فنى صحيح ، ذلك أن من يقف أمام شجرة الخلاف أو غيرها من الأشجار ، لا ينطبع فى نفسه عند رؤيتها سوى جمالها ونضرة ورقها وحسن أزهارها ، ولا يخطر بباله أن يكون لتلك الشجرة الوارفة الظلال ثمر يجنيه أولا يكون ، ولا يقلل من قيمتها لدى رائيها ، ولا يحط من جمالها وجلالها ، ألا يكون لها بعد ذلك ثمر شهى ؛ فإذا كانت تفاهة المخبر تقلل من شأن الرجل ذى المنظر الأنيق ، وتعكس صورته منتقصة فى نفس رائيه ،

فإن الشجرة لا يقلل من جمالها لدى النفس عدم إثمارها ، وبهذا اختلف الوقع لدى النفس بين المشبَّه والمشبَّه به ، ولذلك لا يعد من التشبيه الفنى المقبول .

وقبل الأقدمون من التشبيه ما عقدت الحواس الصلة بينهما ، وإن لم تعقدها النفس ، فاستجادوا مثل قول الشاعر يصف بنفسجاً :

ولا زوردية تزهو بزرقتهـا ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

فليس ثمة مايجمع بين البنفسج وعود الكبريت ، وقد بدأت النار تشتعل فيه ، سوى لون الزرقة التى لا تكاد تبدأ حتى تختفى فى حمرة اللهب ، وفضلا عن التفاوت بين اللونين ، فهو فى البنفسج شديد الزرقة ، وفى أوائل النار ضعيفها ، فضلا عن هذا التفاوت ، نجد الوقع النفسى بين الطرفين شديد التباين ، فزهرة البنفسج توحى إلى النفس بالهدوء والاستسلام وفقدان المقاومة ، وربما اتخذت لذلك رمزاً للحب ، بينما أوائل النار فى أطراف الكبريت تحمل إلى النفس معنى القوة واليقظة والمهاجمة ، ولا تكاد النفس تجد بينهما رابطا . كما استجادوا كذلك قول ابن المعتز .

كأنا وضوء الصبح يستعجل الدجى ... نطير غرابا ذا قوادم جون

قال صاحب الإيضاح : « شبه ظلام الليل حين يظهر فيه ضوء الصبح بأشخاص الغربان ، ثم شرط قوادم ريشها بيضاء ، لأن تلك الفرق من الظلمة تقع فى حواشيها ، من حيث يلى معظم الصبح وعموده ، لمع نور ، يتخيل منها فى العين كشكل قوادم بيض » . وهكذا لم ير ابن المعتز من الدجى وضوء الصباح سوى لونيهما ، اما هذا الجلال الذى يشعر به فى الدجى ، وتلك الحياة التى يوحى بها ضوء الصبح ، والتى عبّر القرآن عنها بقوله : « والصبح إذا تنفس » — فما لم يحس به شاعرنا ، ولم يقدره نقادنا ، وأين من جلال هذا الكون الكبير ، ذرة تطير !؟

وقبلوا من التشبيه ما كان فيه المشبه به خيالياً ، توجد أجزاؤه فى الخارج دون

صورته المركبة ، ولا أتردد فى وضع هذا التشبيه بعيداً عن دائرة الفن ، لأنه لا يحقق الهدف الفنى للتشبيه ، فكيف تلمح النفس صله بين صورة ترى ، وصورة يجمع العقل أجزاءها من هنا وهنا ، وكيف يتخذ المتخيل مثالا لمحسوس مرئى ، وقبل الأقدمون لذلك قول الشاعر :

وكأنّ محمر الشقيق إذا تصوّب أو تصعّد
أعلام ياقوت نشر ن على رماح من زبرجد

ألا ترى أن هذه الأعلام من الياقوت المنشورة على رماح الزّبرجد ، لم تزدك عمق شعور بمحمر الشقيق ، بل لم ترسم لك صورته إذا كنت جاهله ، فما قيمة التشبيه إذاً وما هدفه ؟ وسوف أتحدث عن الآية الكريمة التى فيها هذا اللون من التشبيه لندرك سره وقيمته .

هذا ، ولن نقدر التشبيه بنفاسة عناصره ، بل بقدرته على التصوير والتأثير ، فليس تشبيه ابن المعتز للهلال حين يقول :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وتلمس شبه له بهذا الزورق الفضى المثقل بحمولة العنبر ، مما يرفع من شأنه ، أو ينهض بهذا التّشبيه الذى لم يزدنا شعوراً بجمال الهلال ، ولا أنسا برؤيته ، ولم يزد على أن وضع لنا إلى جانب الهلال الجميل صورة شوهاء متخيلة ، وأين الزورق الضخم من الهلال النحيل ، وإن شئت فوازن بين هذه الصورة التى رسمها ابن المعتز للهلال ، وتلك الصورة التى تعبر عن الإحساس البصرى والشعور النفسى معا ، حينما تحدث القرآن عن هذا الهلال ، فقال : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » فهذا العرجون القديم أقدر على تصوير القمر كما تراه العين ، وكما تحس به النفس ، أكثر من تصوير الزورق الفضى له ، كما سنرى .

— ٢ —

التشبيه لمح صلة بين أمرين من حيث وقعهما النفسى ، وبه يوضح الفنان شعوره نحو شىء ما ، حتى يصبح واضحاً وضوحاً وجدانياً ، وحتى يحس السامع بما أحس المتكلم به ، فهو ليس دلالة مجردة ، ولكنه دلالة فنية ، ذلك أنك تقول: ذاك رجل لا ينتفع بعلمه ، وليس فيما تقول سوى خبر مجرد عن شعورك نحو قبح هذا الرجل ، فإذا قلت: إنه كالحمار يحمل أسفاراً ، فقد وصفت لنا شعورك نحوه ، ودللت على احتقارك له وسخريتك منه .

والغرض من التشبيه هو الوضوح والتأثير ، ذلك أن المتفنن يدرك مابين الأشياء من صلات يمكن أن يستعين بها فى توضيح شعوره ، فهو يلمح وضاءة ونوراً فى شىء ما ، فيضعه بجانب شىء آخر يلقى عليه ضوءاً منه ، فهو مصباح يوضح هذا الإحساس الوجدانى ، ويستطيع أن ينقله إلى السامع .

ليس من أغراض التشبيه إذاً ماذكره الأقدمون من « بيان أن وجود المشبه ممكن ، وذلك فى كل أمر غريب يمكن أن يخالف فيه ويدعى امتناعه[1] » . وقد استشهدوا على هذا الغرض بقول المتنبى :

فإن تفق الأنام ، وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

وليس فى هذا البيت تشبيه فنى مقبول ، فليس الأثر الذى يحدثه المسك فى النفس سوى الارتياح لرائحته الذكية ، ولا يمر بالخاطر أنه بعض دم الغزال ، بل إن هذا الخاطر إذا مر بالنفس قلّل من قيمة المسك ومن التلذذ به ، وهذه الصورة التى جاء بها المتنبى ليوضح إحساسه نحو سموّ فرد على الأنام ، ليست قوية مضيئة ، تلقى أشعتها على شعوره فتضيئه لنا ، فإن تحول بعض دم الغزال إلى

(١) الإيضاح ج ٢ ص ٣٤ .

مسك ليس بظاهرة قريبة مألوفة ، حتى تقرب إلى النفس ظاهرة تفوق الممدوح على الأنام ، كما أن ظاهرة تحول الممدوح غير واضحة ، ومن ذلك كله يبدو أن الرابط هنا عقلى لا نفسى وجدانى .

وليس من أغراضه ما ذكره الأقدمون أيضاً من الاستطراف ، فليس تشبيه فحم فيه جمر موقد ببحر من المسك موجه الذهب — تشبيهاً فنياً على هذا المقياس الذى وضعناه ، فإن بحر المسك ذا الموج الذهبى ، ليس بهذا المصباح الوهاج الذى ينير الصورة ويهبها نوراً ووضوحاً .

ولما كان هدف التشبيه الإيضاح والتأثير أرى الأقدمين قد أخطئوا حينما عدّوا البليغ من التشبيه ما كان بعيدا غريباً نادراً ، ولذلك عدّوا قوله :

وكأن أجرام النجوم لوامعاً درر نثرن على بساط أزرق

أفضل من قول ذى الرمة :

كحلاء فى برج ، صفراء فى نعج[1] كأنها فضة قد مسها ذهب

« لأن الأول مما يندر وجوده دون الثانى ، فإن الناس أبداً يرون فى الصياغات فضة قد موهت بذهب ، ولا يكاد يتفق إن يوجد درر قد نثرن على بساط أزرق[2] » وذلك قلب للأوضاع ، وبعد عن مجال التشبية الفنى الذى توضع فيه صورة قوية تبعث الحياة والقوة فى صورة أخرى بجوارها ، وبرغم أن التشبيهين السالفين حسّيان أرى التشبيه الثانى أقوى وأرفع ، ولست أرمى إلى أن يكون التشبيه مبتذلا ، فإن الابتذال لا يثير النفس ، فيفقد التشبيه هدفه ، ولكن أن يكون فى قرب التشبيه ما يجعل الصورة موضحة مؤثرة كما سنرى .

---

(١) البرج بالتحريك : أن يكون بياض العين محدقاً بالسواد ، والنعج : البياض الخالص .
(٢) الإيضاح ، ج ٢ ص ٦٠ .

— ٣ —

ليس الحس وحده هوالذى يجمع بين المشبه والمشبه به فى القرآن ، ولكنه الحس والنفس معاً ، بل إن للنفس النصيب الأكبر والحظ الأوفى .

والقرآن حين يشبه محسوساً بمحسوس يرمى أحيانا إلى رسم الصورة كما تحس بها النفس ، تجد ذلك فى قوله سبحانه يصف سفينة نوح : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » ألا ترى الجبال تصور للعين هذه الأمواج الضخمة ، وتصور فى الوقت نفسه ، ما كان يحس به ركاب هذه السفينة ، وهم يشاهدون هذه الأمواج ، من رهبة وجلال معاً ، كما يحس بهما من يقف أمام شامخ الجبال . وقوله تعالى يصف الجبال يوم القيامة : « وتكون الجبال كالعهن[1] المنفوش » فالعهن المنفوش يصور أمامك منظر هذه الجبال ، وقد صارت هشة لا تماسك أجزاؤها ، ويحمل إلى نفسك معنى خفتها ولينها . وقوله تعالى : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » فهذا القمر بهجة السماء وملك الليل ، لا يزال يتنقل فى منازله ، حتى يصبح بعد هذه الاستدارة المبهجة ، وهذا الضوء الساطع الغامر ، يبدد ظلمة الليل ، ويحيل وحشته أنسا — يصبح بعد هذا كله دقيقاً نحيلا محدوداً لا تكاد العين تنتبه إليه ، وكأنما هو فى السماء كوكب تائه ، لا أهمية له ، ولا عناية بأمره ، أو لا ترى فى كلمة العرجون ووصفها بالقديم مايصور لك هيئة الهلال فى آخر الشهر ، ويحمل إلى نفسك ضآلة أمره معاً . وقوله تعالى يصف نيران يوم القيامة : « إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالة صفر » فالقصر وهو الشجر الضخم ، والجمال الصفر ، توحى إلى النفس بالضخامة والرهبة معا ، وصور لنفسك شرراً فى مثل هذا الحجم من الضخامة يطير .

---

(١) الصوف .

ويرمى أحيانا إلى اشتراك الطرفين فى صفة محسوسة ، ولكن للنفس كذلك نصيبها في اختيار المشبه به الذى له تلك الصفة ، وحسبى أن أورد هنا آيات ثلاثة تتبين فيها هذا الذى أشرنا إليه . فالقرآن قد شبه نساء الجنة ، فقال : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان » وقال : « وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون » وقال: « وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون » ، فليس فى الياقوت والمرجان واللؤلؤ المكنون لون فحسب ، وإنما هو لون صاف حىّ فيه نقاء وهدوء ، وهى أحجار كريمة تصان ويحرص عليها ، وللنساء نصيبهن من الصيانة والحرص ، وهن يتخذن من تلك الحجارة زينتهن ، فقربت بذلك الصلة واشتد الارتباط ، أما الصلة التى تربطهن بالبيض المكنون ، فضلا عن نقاء اللون ، فهى هذا الرفق والحذر الذى يجب أن يعامل به كلاهما ، أولا ترى فى هذا الرّفق أيضاً صلة تجمع بينهما ؟ وهكذا لا تجد الحس وحده هو الرابط والجامع ، ولكن للنفس نصيب أى نصيب .

وحيناً يجمع بين الطرفين المحسوسين معنى من المعانى لا يدرك بإحدى الحواس ، وقلّ ذلك فى القرآن الكريم الذى يعتمد فى التأثير أكثر اعتماد على حاسة البصر ، ومن القليل قوله سبحانه : « أولئك كالأنعام ، بل هم أضل » ، وصفة ضلال الأنعام من أبرز الصفات وأوضحها لدى النفس .

وكثر فى القرآن إيضاح الأمور المعنوية بالصور المرئية المحسوسة ، تلقى عليها أشعة الضوء تغمرها ، فتصبح شديدة الأثر ، وها هو ذا يمثل وهن ما اعتمد عليه المشركون من عبادتهم غير الله وهنا لن يفيدهم فائدة ما ، فهم يعبدون ويبذلون جهداً يظنونه مثمراً وهو لا يجدى ، فوجد فى العنكبوت ذلك الحيوان الذى يتعب نفسه فى البناء ، ويبذل جهده فى التنظيم ، وهو لا يبنى سوى أوهن البيوت وأضعفها ، فقرن تلك الصورة المحسوسة إلى الأمر المعنوى ، فزادته وضوحاً وتأثيراً .

قال تعالى : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » .

وها هو ذا يريد أن يحدثنا عن أعمال الكفرة ، وأنها لاغناء فيها ، ولا ثمرة ترجى منها ، فهى كعدمها ، فوجد فى الرماد الدقيق ، لا تبقى عليه الريح العاصفة ، صورة تبيّن ذلك المعنى أتم بيان وأوفاه ، فقال سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء ، ذلك هو الضلال البعيد » .

وليس فى القرآن سوى هذين اللونين من التشبيه : تشبيه المحسوس بالمحسوس ، وتشبيه المعقول بالمحسوس ؛ أما قوله سبحانه : « إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين » فالذى سمح بأن يكون المشبه به خيالياً هو ماترا كم على الخيال بمرور الزمن من أوهام رسمت فى النفس صورة رءوس الشياطين فى هيئة بشعة مرعبة ، وأخذت هذه الصورة يشتد رسوخها بمرور الزمن ، ويقوى فعلها فى النفس ، حتى كأنها محسوسة ترى بالعين وتلمس باليد ، فلما كانت هذه الصورة من القوة إلى هذا الحد ساغ وضعها فى موضع التصوير والإيضاح ، ولا نستطيع أن ننكر مالهذه الصورة من تأثير بالغ فى النفس . ومما جرى على نسق هذه الآية قوله تعالى : « فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولّى مدبراً ولم يعقب » ففى الخيال صورة قوية للجان ، تمثله شديد الحركة لا يكاد يهدأ ولا يستقر .

والتشبيه فى القرآن تعود فائدته إلى المشبه ، تصويراً له وتوضيحا ، ولهذا كان المشبه به دائماً أقوى من المشبه وأشد وضوحاً ، وهنا نقف عند قوله تعالى : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درّىّ ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ، ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ،

ويضرب الله الأمثال للناس ، والله بكل شيء عليم » . فقد يبدو للنظرة العجلى أن المشبه وهو نور الله أقوى من مصباح هذه المشكاة ، ولكن نظرة إلى الآية الكريمة ، ترى أن النور المراد هنا هو النور الذى يغمر القلب ، ويشرق على الضمير ، فيهدى الى سواء السبيل ، أو لا ترى أن القلب ليس فى حاجة إلى أكثر من هذا المصباح ، يلقى عليه ضوءه ، فيهتدى الى الحق ، وأقوم السبل ، ثم ألا ترى فى اختيار هذا التشبيه ايحاء بحالة القلب وقد لفه ظلام الشك ، فهو متردد قلق خائف ، ثم لا يلبث نور اليقين أن يشرق عليه ، فيجد الراحة والأمن والاستقرار ، فهو كسارى الليل يخبط فى الظلام على غير هدى ، حتى إذا أوى إلى بيته فوجد هذا المصباح فى المشكاة ، وجد الأمن سبيله إلى قلبه ، واستقرت الطمأنينة فى نفسه ، وشعر بالسرور يغمر فؤاده .

وإذا تأملت الآية الكريمة رأيتها قد مضت تصف ضوء هذا المصباح وتتأنق فى وصفه ، بما يصور لك قوته وصفاءه ، فهذا المصباح له زجاجة تكسب ضوءه قوة ، تجعله يتلألأ كأنه كوكب له بريق الدر ولمعانه ، أما زيت هذا المصباح فمن شجرة مباركة قد أخذت من الشمس بأوفى نصيب ، فصفا لذلك زيتها حتى ليكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، ألا ترى أن هذا المصباح جدير أن يبدد ظلمة الليل ، ومثله جدير أن يبدد ظلام الشك ، ويمزق دجى الكفر والنفاق . وقد ظهر بما ذكرناه جمال هذا التشبيه ودقته وبراعته .

— ٤ —

أول ما يسترعى النظر من خصائص التشبيه فى القرآن أنه يستمد عناصره من الطبيعة ، وذلك هو سر خلوده ، فهو باق ما بقيت هذه الطبيعة ، وسر عمومه للناس جميعاً ، يؤثر فيهم لأنهم يدركون عناصره ، ويرونها قريبة منهم ، وبين أيديهم ؛ فلا تجد فى القرآن تشبيهاً مصنوعا يدرك جماله فرد دون آخر ، ويتأثر به إنسان دون إنسان ، فليس فيه هذه التشبيهات المحلية الضيقة مثل تشبيه ابن المعتز :

كأن آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

مما لا يستطيع أن يفهمه على وجهه ، ويعرف سر حسنه ، إلا من كان يعيش فى مثل حياة ابن المعتز ، وله من أدوات الترف مثل أدواته .

تشبيهات القرآن تستمد عناصرها من الطبيعة ، انظر إليه يجد فى السراب وهو ظاهرة طبيعية يراها الناس جميعاً ، فيغرهم مرآها ، ويمضون إلى السراب يظنونه ماء ، فيسعون إليه ، يريدون أن يطفئوا حرارة ظمئهم ، ولكنهم لا يلبثون أن تملأ الخيبة قلوبهم ، حينما يصلون إليه بعد جهد جهيد ، فلا يجدون شيئاً مما كانوا يؤمّلون ، إنه يجد فى هذا السراب صورة قوية توضح أعمال الكفرة ، تُظَن مجدية نافعة ، وماهى بشىء ، فيقول : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ، يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا » .

ويجد فى الحجارة تنبو على الجس ولا تلين ، ويشعر عندها المرء بالبنو والجسوة ، يجد فيها المثال الملموس لقسوة القلوب ، وبعدها عن أن تلين لجلال الحق ، وقوة منطق الصدق ، فيقول : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ، فهى كالحجارة أو أشد قسوة » أو لا ترى أن القسوة عند ما تخطر بالذهن ، يخطر إلى جوارها الحجارة الجاسية القاسية .

ويجد فى هذا الذى يعالج سكرات الموت ، فتدور عينه حول عواده فى نظرات شاردة تائهة ، صورة تخطر بالذهن لدى رؤية هؤلاء الخائفين الفزعين من المضىّ إلى القتال وأخذهم بنصيب من أعباء الجهاد ، فيقول : « قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحة عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت » .

ويجد فى الزرع وقد نبت ضئيلا ضعيفا ، ثم لا يلبث ساقة أن يقوى ، بما ينبت حوله من البراعم ، فيشتد بها ساعده ، ويغلظ ، حتى يصبح بهجة الزارع وموضع إعجابه ، يجد فى ذلك صورة شديدة المجاورة لصورة أصحاب محمد ، فقد بدءوا قلة ضعافاً ثم أخذوا فى الكثرة والنماء ، حتى اشتد ساعدهم ، وقوى عضدهم ، وصاروا قوة تملأ قلب محمد بهجة وقلب الكفار حقداً وغيظاً ، فقال : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ... ومثلهم فى الأنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار » .

ويجد فى أعجاز النخل المنقعر المقتلع عن مغرسه ، وفى الهشيم الضعيف الذاوى ، صورة قريبة من صورة هؤلاء الصرعى ، قد أرسلت عليهم ريح صرصر تنزعهم من أماكنهم ، فألقوا على الأرض مصرّعين هنا وهناك ، فيقول : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر » ويقول : « إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة ، فكانوا كهشيم المحتظر » .

فأنت فى هذا تراه يتخذ الطبيعة ميدانا يقتبس منها صور تشبيهاته ، من نباتها وحيوانها وجمادها ، فمما اتخذ مشبها به من نبات الأرض المرجون ، وأعجاز النخل ، والعصف المأكول ، والشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، والحبة تنبت سبع سنابل ، وهشيم المحتظر ، والزرع الذى أخرج شطأه . ومما اتخذ مشبها به من حيوانها الإنسان فى أحوال مختلفة ، والعنكبوت ، والحمار ، والكلب ، والفراش ،

والجراد ، والجمال ، والأنعام ؛ ومما اتخذ مشبهاً به من جمادها العهن المنفوش ، والصيب ، والجبال ، والحجارة ، والرماد ، والياقوت ، والمرجان ، والخشب ، ومن ذلك ترى أن القرآن لا يعنى بنفاسة المشبه به ، وإنما يعنى العناية كلها باقتراب الصورتين فى النفس ، وشدة وضوحهما وتأثيرهما .

هذا ولا يعكر على ما ذكرناه من استمداد القرآن عناصر التشبيه من الطبيعة ، ما جاء فيه من تشبيه نور الله بمصباح وصفه بأنه فى زجاجة كأنها كوكب درىّ ، لأن هذا المصباح قد تغير وتحول ، فإن المراد تشبيه نور الله بالمصباح القوى ؛ والمصباح باق ما بقى الإنسان فى حاجة إلى نور يبدد به ظلام الليل .

ومن خصائص التشبيه القرآنى ، أنه ليس عنصراً إضافياً فى الجملة ، ولكنه جزء أساسى لا يتم المعنى بدونه ، وإذا سقط من الجملة انهار المعنى من أساسه ، فعمله فى الجملة أنه يعطى الفكرة فى صورة واضحة مؤثرة ؛ فهو لا يمضى إلى التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته ، ولكن التشبيه يأتى ضرورة فى الجملة ، يتطلبه المعنى ليصبح واضحاً قويا ، وتأمل قوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » ، تجد فكرة عدم سماعهم الحق وأنهم لا ينطقون به ، ولا ينظرون إلى الأدلة التى تهدى إليه ، إنما نقلها إليك التشبيه فى صورة قوية مؤثرة ، كما تدرك شدة الفزع والرهبة التى ألمت بهؤلاء الذين دعوا إلى الجهاد ، فلم يدفعهم إيمانهم إليه فى رضا وتسليم ، بل ملأ الخوف نفوسهم من أن يكون الموت مصيرهم ، تدرك ذلك من قوله سبحانه : « يجادلونك فى الحق بعد ما تبين ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون » . وتفهم اضطراب المرأة وقلقها ، وعدم استقرارها على حال ، حتى لتصبح حياتها مليئة بالتعب والعناء — من قوله سبحانه : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل ، فتذروها كالمعلقة » . وتفهم مدى حب المشركين لآلهتهم من قوله تعالى : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب

الله » . وهكذا تجد للتشبيه مكانه فى نقل الفكرة وتصويرها ، وقل أن يأتى التشبيه فى القرآن بعد أن تتضح الفكرة نوع وضوح ، كما فى قوله تعالى : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة » وإذا أنت تأملت أسلوب الآية الكريمة وجدت هذا التعبير أقوى من أن يقال : وإذ صار الجبل كأنه ظلة ، لما فى كلمة نتق من تصوير انتزاع الجبل من الأرض تصويراً يوحى إلى النفس بالرهبة والفزع ، ولما فى كلمة فوقهم من زيادة هذا التصوير المفزع وتأكيده فى النفس ، وذلك كله يمهد للتشبيه خير تمهيد ، حتى إذا جاء مكن للصورة فى النفس ، ووطد من أركانها . ومع ذلك ليس التشبيه فى الآية عملا إضافياً ، بل فيه إتمام المعنى وإكماله ، فهو يوحى بالإحاطة بهم ، وشمولهم ، والقرب منهم قرب الظلة من المستظل بها ، وفى ذلك ما يوحى بخوف سقوطه عليهم .

ومن خصائص التشبيه القرآنى دقته ، فهو يصف ويقيد ، حتى تصبح الصورة دقيقة واضحة آخاذة ، وخذ مثلا لذلك قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » فقد يتراءى أنه يكفى فى التشبيه أن يقال : مثلهم كمثل الحمار الذى لا يعقل ؛ ولكن الصورة تزداد قوة والتصاقا والتحاما ، حين يقرن بين هؤلاء وقد حملوا التوراة ، فلم ينتفعوا بما فيها ، وبين الحمار يحمل أسفار العلم ولا يدرى مما ضمته شيئاً ، فتمام الصورتين يأتى من هذا القيد الذى جعل الصلة بينهما قوية وثيقة .

وقوله تعالى : « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » فربما بدا أنه يكفى فى تصوير إعراضهم وصفهم بأنهم كالحمير ، ولكنه فى دقته لا يكتفى بذلك ، فهو يريد أن يصور نفرتهم من الدعوة ، وإسراعهم فى إبعاد أنفسهم عنها ، إسراعا يمضون فيه على غير هدى ، فوصف الحمر بأنها مستنفرة ، تحمل نفسها على الهرب ، وتحثها عليه ، يزيد فى هربها وفرارها أسد هصور يجرى خلفها ، فهى تتفرق

فى كل مكان ، وتجرى غير مهتدية فى جريها ، أولا ترى فى صورة هذه الحمر وهى تجدّ فى هربها لا تلوى على شىء ، تبغى الفرار من أسد يجرى وراءها ، ما ينقل إليك صورة هؤلاء القوم معرضين عن التذكرة ، فارين أمام الدعوة لا يلوون على شىء ، سائرين على غير هدى ، ثم ألا تبعث فيك هذه الصورة الهزء بهم والسخرية .

ومن ذلك وصفه الخشب بأنها مسندة فى قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة » ، فهى ليست خشباً قائمة فى أشجارها ؛ لما قد يكون لها من جمال فى ذلك الوضع ، وليست موضوعة فى جدار ؛ لأنها حينئذ تؤدى عملا ، وتشعر بمدى فائدتها ، وليست متخذا منها أبواب ونوافذ ، لما فيها من الحسن والزخرف والجمال ، ولكنها خشب مسندة قد خلت من الجمال ، وتوحى بالغفلة والاستسلام والبلاهة .

ولم يكتف فى تشبيه الجبال يوم القيامة بالعهن ، بل وصفه بالمنفوش ، إذ قال : « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ، للدقة فى تصوير هشاشة الجبال ، كما لم يكتف فى تشبيه الناس يخرجون يوم القيامة بأنهم كالجراد بل وصفه بالمنتشر ، فقال : « يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر » ، حتى يكون دقيقاً فى تصوير هذه الجموع الحاشدة ، خارجة من أجداثها منتشرة فى كل مكان تملأ الأفق ، ولا يتم هذا التصوير إلا بهذا الوصف الكاشف .

ومن خصائص التشبيه القرآنى المقدرة الفائقة فى اختيار ألفاظه الدقيقة المصورة الموحية ؛ تجد ذلك فى كل تشبيه قرآنى ، وحسبى أن أشير هنا إلى بعض أمثلة لهذا الاختيار .

نجد القرآن قد شبه بالجبال فى موضعين ؛ فقال : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » ، وقال : « ومن آياته الجوارى فى البحر كالأعلام » ولكنك تراه قد آثر كلمة الجبال عند الموج ، لما أنها توحى بالضخامة والجلال معا ، أما عند وصف

السفن فقد آثر كلمة الأعلام ، جمع علم بمعنى جبل ، وسر إيثارها هو أن الكلمة المشتركة بين عدة معان تتداعى هذه المعانى عند ذكر هذه الكلمة ، ولما كان من معانى العلم الراية التى تستخدم للزينة والتجميل ، كان ذكر الأعلام محضرا إلى النفس هذا المعنى ، إلى جانب إحضارها صورة الجبال ؛ وكان إثارة هذا الخاطر ملحوظا عند ذكر السفن الجارية فوق البحر ، تزين سطحه ، فكأنما أريد الإشارة إلى جلالها وجمالها معاً ، وفى كلمة الأعلام وفاء بتأدية هذا المعنى أدق وفاء .

وشبه القرآن الموج فى موضعين ، فقال : « وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » وقال : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين » . وسر هذا التنويع أن الهدف فى الآية الأولى يرمى إلى تصوير الموج عاليا ضخماً ، مما تستطيع كلمة الجبال أن توحى به إلى النفس ، أما الآية الثانية فتصف قوما يذكرون الله عند الشدة وينسونه لدى الرخاء ، ويصف موقفا من مواقفهم كانوا فيه خائفين مرتاعين ، يركبون سفينة تتقاذفها الأمواج ، ألا ترى أن الموج يكون أشد إرهابا وأقوى تخويفا إذا هو ارتفع حتى ظلل الرءوس ، هنالك يملأ الخوف القلوب ، وتذهل الرهبة النفوس ، وتبلغ القلوب الحناجر ، وفى تلك اللحظة يدعون الله مخلصين له الدين ، فلما كان المقام مقام رهبة وخوف ، كان وصف الموج بأنه كالظلل أدق فى تصوير هذا المقام وأصدق .

وعلى طريقة إيثار كلمة الأعلام على الجبال التى تحدثنا عنها ، آثر كلمة القصر على الشجر الضخم ، لأن الاشتراك فى هذه الكلمة بين هذا المعنى ومعنى البيت الضخم ، يثير المعنيين فى النفس معاً ، فيزيد الفكرة عن ضخامة الشرر رسوخاً فى النفس .

وآثر القرآن كلمة « بنيان » فى قوله سبحانه : « إن الله يحب الذين يقاتلون

فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ، لما تثيره فى النفس من معنى الالتحام والاتصال والاجتماع القوى ، وغير ذلك من معان ترتبط بما ذكرناه ، مما لا يثار فى النفس عند كلمة حائط أو جدار مثلا .

واختار القرآن كلمة « لباس » ، فى قوله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم ، وأنتم لباس لهن » ، لما توحى به تلك الكلمة من شدة الاحتياج كاحتياج المرء للباس ، يكون مصدر راحة ، وعنوان زينة معاً .

ومن مميزات التشبيه القرآنى أيضاً أن المشبه قد يكون واحداً ويشبه بأمرين أو أكثر ، لما لصلة تربط بين هذا الأمر وما يشبهه ، تثبيتاً للفكرة فى النفس ، أو لما لها من عدة زوايا ، ومن ذلك مثلا تصوير حيرة المنافقين واضطراب أمرهم ، فإن هذه الحيرة يشتد تصورها لدى النفس ، إذا هى استحضرت صورة هذا السارى قد أوقد ناراً تضىء طريقه ، فعرف أين يمشى ، ثم لم يلبث أن ذهب الضوء ، وشمل المكان ظلام دامس ، لا يدرى السائر فيه أين يضع قدمه ، ولا كيف يأخذ سبيله ، فهو يتخبط ولا يمشى خطوة حتى يرتد خطوات . أو إذا استحضرت صورة هذا السائر تحت صيّب من المطر قد صحبه ظلمات ورعد وبرق ، أما الرعد فمتناه فى الشدة إلى درجة أنه يود اتقاءه بوضع أصابعه إذا استطاع فى أذنيه ، وأما البرق فيكاد يخطف البصر ؛ وأما الظلمات المتراكمة فتحول بين السائر وبين الاهتداء إلى سواء السبيل ، وتجد تعدد هذا التشبيه فى قوله سبحانه . « مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً . . . أو كصيب من السماء ... » .

ومن النظر إلى الفكرة من عدّة زوايا أنه حيناً ينظر إلى أعمال الكافرين من ناحية أنها لا أثر لها ولا نتيجة ، فيرد إلى الذهن حينئذ هذا الرماد الدقيق لا يقوى على البقاء أمام ريح شديدة لا تهدأ حتى تبدأ لأنها فى يوم عاصف ، ألا ترى هذه

الريح كفيلة بتبديد ذرّات هذا الغبار شذر مذر ، وأنها لا تبقى عليه ولا تذر ، وكذلك أعمال الكافرين ، لا تلبث أن تهب عليها ريح الكفر ، حتى تبددها ولا تبقى عليها ، وللتعبير عن ذلك جاء قوله سبحانه : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لا يقدرون مما كسبوا على شىء ، ذلك هو الضلال البعيد » . وحيناً ينظر إليها من ناحية أنها تغر أصحابها فيظنونها نافعة لهم ، مجدية عليهم ، حتى إذا جاءوا يوم القيامة لم يجدوا شيئاً ، ألا ترى فى السراب هذا الأمل المطمع ، ذا النهاية المؤيسة ، ولأداء هذا المعنى قال تعالى : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة : يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً » . وحينا ينظر إليها من ناحية ما يلم بصاحبها من اضطراب وفزع ، عندما يجد آماله فى أعماله قد انهارت ، ألا تظلم الدنيا أمام عينيه ، ويتزلزل كيانه ، كهذا الذى اكتنفه الظلام فى بحر قد تلاطمت أمواجه ، وأطبقت ظلمة السحاب على ظلمة الأمواج ، ألا يشعر هذا الرجل بمصيره اليائس ، وهلاكه المحتوم ، ألا يصور لك ذلك صورة هؤلاء الكفار عندما يجيئون إلى أعمالهم فلا يجدون لها ثواباً ولا نفعا ، ولتصوير ذلك جاء قوله سبحانه : « أو كظلمات فى بحر لجّى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » .

— ٥ —

ويهدف التشبيه فى القرآن إلى ما يهدف إليه كلّ فنّ بلاغىّ فيه : من التأثير فى العاطفة ، فترغب أو ترهب ، ومن أجل هذا كان للمنافقين والكافرين والمشركين نصيب وافر من التشبيه ، الذى يزيد نفسيتهم وضوحاً ، ويصور وقع الدعوة على قلوبهم ، وما كانوا يقابلون به تلك الدعوة من النفور والإعراض .

يصور لنا حالهم وقد استمعوا إلى دعوة الداعى ، فلم تثر فيهم تلك الدعوة رغبة فى التفكير فيها ، لمعرفة ماقد تنطوى عليه من صدق ، وما قد يكون فيها من صواب ، بل يحول بينهم وبين ذلك الكبر والأنفة ، وما أشبههم حينئذ بالرجل لم يسمع عن الدعوة شيئاً ، ولم يطرق أذنه عنها نبأ ، بل ما أشبههم بمن فى أذنه صمم ، فهو لا يسمع شيئا مما يدور حوله ، وبمن أصيب بالبكم ، فهو لا ينطق بصواب اهتدى إليه ، وبمن أصيب بالعمى ، فهو لا يرى الحق الواضح ، وبذلك شبههم القرآن ، فقال : « ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ، ثم يصر مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم » ، وقال : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فهم لا يرجعون » .

أما مايشعرون به عندما يسمعون دعوة الحق فضيق يملأ صدورهم ، ويئودهم حمله ، كهذا الضيق الذى يشعر به المصعد فى جبل ، فهو يجر نفسه ويلهث من التعب والعناء ، وهكذ صور الله ضيق صدورهم بقوله : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » .

وما دام هؤلاء القوم لا يستخدمون عقولهم فيما خلقت له ، ولم تصغ آذانهم إصغاء من يسمع ليتدبر ، فقد وجد القرآن فى الأنعام شبيها لهم يقرنهم بها ، ويعقد

بينهم وبينها وثيق الصلات ، فقال : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ؛ أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » . وأنت ترى فى هذا التشبيه كيف مهد له التمهيد الصالح ، فجعل لهم قلوبا لا يفقهون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وآذانا لا يسمعون بها ؛ ألا ترى نفسك بعدئذ مسوقا إلى إنزالهم منزلة البهائم ؛ فإن ورد هذا التشبية عليك ، وجد فى قلبك مكاناً ، ولم تجد فيه بعداً ولا غرابة ؛ بل ينزل بهم حيناً عن درجة الأنعام ، فيراهم خُشُباً مسندة .

وحيناً يريد أن يصورهم ، وقد جدوا فى الهرب والنفرة من تلك الدعوة الجديدة ، فيقول : « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة » ، وقد تحدثنا عن هذا التشبيه فيما مضى .

أما هذا الذى آمن ثم كفر ، وانسلخ عن الإيمان ، واتبع هواه ، فقد عاش مثال الذلة والهوان ، وقد وجد القرآن فى الكلب شبهاً يبين عن خسته وحقارته ، ومما يزيد فى الصلة بين الاثنين أن هذا المنسلخ يظل غير مطمئن القلب ، مزعزع العقيدة ، مضطرب الفؤاد ، سواء أدعوته إلى الإيمان ، أم أهملت أمره ، كالكلب يظل لاهثاً ، طردته وزجرته ، أم تركته وأهملته ، قال : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » .

ولم ينس القرآن تصوير حيرتهم ، واضطراب نفسيتهم ، ولمح فى اضطرابهم صلة بينهم وبين من استوقد ناراً ، ثم ذهب الله بنوره ، وبين السائر تحت صيب منهمر ، فيه ظلمات ورعد وبرق .

وصورو َهنَ ما يعتمد عليه من يتخذ من دون الله أولياء بوهن بيت العنكبوت ، وحين أراد أن يتحدث عن أن هؤلاء الأولياء لن يستفيد منهم عابدوهم شيئا ، رأى فى هذا الذى يبسط كفه إلى الماء ، يريد وهو على تلك الحال أن ينقل الماء إلى فيه ، وما هو ببالغه ، شبيها لهم ، فقال : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ، إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال .

وتعرض لأعمال الكفرة كما سبق أن ذكرناه ، ولصدقاتهم التى كان جديراً بها أن تثمر وتزهر ، ويفيدوا منها ، لولا أن هبت عليها ريح الشرك فأبادتها ، كما تهب الريح الشديدة البرد بزرع كان ينتظر إثماره فأهلكته : « مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر ، أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ، فأهلكته ، وما ظلمهم الله ، ولكن أنفسهم يظلمون .

وهناك طائفة من التشبيهات ترتبط بيوم القيامة ، لجأ إليها القرآن للتصوير والتأثير معاً ، فإذا أراد القرآن أن يبين قدرة الله على أن يأتى بذلك اليوم ، بأسرع مما يتصور المتصورون لجأ إلى أسرع ما يراه الرائى ، فاتخذ مثلا يؤدى إلى الهدف المراد فيقول : « ولله غيب السموات والأرض ، وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ، إن الله على كل شىء قدير » .

ويقرب أمر البعث إلى الأذهان بتوجيه النظر إلى بدء الإنسان ، وأن هذا البعث صورة من هذا البدء ، فيقول : « كما بدأكم تعودون » ، وبتوجيه النظر إلى هذا السحاب الثقال يسوقه الله لبلد ميت ، حتى إذا نزل ماؤه دبت الحياة فى أوصال الأرض ، فخرج الثمر منها يانعاً ، وهكذا يخلق الله الحياة فى الموتى ، قال سبحانه : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالاً سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » .

وإذا جاء يوم القيامة استيقظ الناس لا يشعرون بأنه قد مضى عليهم حين من الدهر طويل منذ فارقوا حياتهم ، ويورد القرآن من التشبيه ما يصور هذه الحالة النفسية ، فيقول : « ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ، قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » ، وإذا نظرت إلى قوة التشبيه مقترنة بقوله : « يتعارفون بينهم » ، أدركت مدى ما يستطيع أن يحدثه فى النفس من أثر . وقد كرر هذا المعنى فى موضع آخر يريد أن يثبته فى النفس ويؤكده ، فقال : « يسألونك عن الساعة : أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

ها هم أولاء قد بعثوا ، خارجين من أجداثهم فى كثرة لا تدرك العين مداها ، وماذا يستطيع أن يرسم لك تلك الصورة ، تدل على الغزارة والحركة والانبعاث ، أفضل من هذا التشبيه الذى أورده القرآن حين قال : « خشعاً أبصارهم ، يخرجون من الأجداث ، كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر » ؛ وحيناً يصوِّرهم ضعافاً يتهافتون مسرعين إلى الداعى كى يحاسبهم ، فيجد فى الفراش صورتهم ، فيقول : « القارعة ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، يوم يكون الناس كالفراش المبثوث » ، ولا إخال أحداً لم ير الفراش يسرع إلى الضوء ، ويتهافت عليه فى ضعف وإلحاف معاً ، ولقد تناول القرآن إسراعهم مرة أخرى ، فشبههم بهؤلاء الذين كانوا يسرعون فى خطوهم ، ليعبدوا أنصابا مقامة ، وتماثيل منحوتة ، كانوا متحمسين فى عبادتها ، يقبلون عليها فى رغبة واشتياق ، فيقول : « يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ، كأنهم إلى نصب يوفضون » .

ويتناول المجرمون ؛ فيصوِّر ما سوف يجدونه يومئذ من ذلة وخزى ، ويرسم وجوههم ، وقد علتها الكآبة : « كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . أما طعامهم فمن شجرة الزقوم ، يتناولونها

فيحسون بنيران تحرق أمعاءهم فكأنما طعموا نحاساً ذائباً أو زيتاً ملتهباً ،وإذا ما اشتد بهم الظمأ واستغاثوا قدمت إليهم مياه كهذا النحاس والزيت تشوى وجوههم ، قال تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم » ، وقال سبحانه : « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه» ألا ترى التشبيه يثير فى النفس خوفاً وانزعاجاً ؟!

ويصور آكل الربا يوم القيامة صورة منفرة منه ، مزرية به ، فهل رأيت ذلك الذى أصابه مس من الشيطان ، فهو لا ينهض واقفاً حتى يسقط ، ولا يقوم إلا ليقع ، ذلك مثل آكل الربا ، « الذين يأكلون الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا » .

ولعب التشبيه دوراً فى تصوير يوم القيامة وما فيه من الجنة والنار ، ففى ذلك الحين ، تفقد الجبال تماسكها ، وتكون « كالعهن المنفوش » ، وتفقد السماء نظام جاذبيتها ، فتنشق ، ويصبح الجو ذا لون أحمر كالورد : « فإذا انشقت السماء ، فكانت وردة كالدهان » ، وأما جهنم فضخامتها وقوة لهبها مما لا يستطيع العقل تصوره ، ومما لا يمكن أن تقاس إليها تلك النيران التى نشاهدها فى حياتنا ، وحسبك أن تعلم أن شررها ليس كهذا الشرر الذى يشبه الهباءة اليسيرة ، وإنما هو شرر ضخم ضخامة غير معهودة ، وهنا يسعف التشبيه ، فيمد الخيال بالصورة ، حين يجعل لك هذا الشرر كأنه أشجار ضخمة تتهاوى ، أو جمال صفر تتساقط ، « إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالة صفر » ، وأما الجنة ففى سعة لا يدرك العقل مداها ، ولا يستطيع التعبير أن يحدها ، أو يعرف منتهاها ، ويأتى التشبيه ممداً فى الخيال ، كى يسبح ما يشاء أن يسبح ، فيقول : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .

وهكذا ترى التشبيه يعمل على تمثيل الغائب حتى يصبح حاضراً ، وتقريب البعيد النائى حتى يصير قريبا دانياً .

ولجأ القرآن إلى التشبيه يصور به فناء هذا العالم الذى نراه مزدهراً أمامنا ، عامراً بألوان الجمال ، فيخيل إلينا استمراره وخلوده ، فيجد القرآن فى الزرع يرتوى من الماء فيصبح بهيجا نضراً ، يعجب رائيه ، ولكنه لا يلبث أن يذبل ويصفر ، ويصبح هشيما تذروه الرياح — يجد القرآن فى ذلك شبهاً لهذه الحياة الدنيا ، ولقد أوجز القرآن مرة فى هذا التشبيه وأطنب أخرى ، ليستقر معناه فى النفس ، ويحدث أثره فى القلب ، فقال مرة : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدراً » ، وقال مرة أخرى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد ، كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً . ثم يكون حطاما » . وقال مرة ثالثة : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

ولما كان للمال أثره فى الحياة الاجتماعية ، لعب التشبيه دوره فى التأثير فى النفس ، كى تسمح ببذله فى سبيل تخفيف أعباء المجتمع ، فقرر مضاعفة الثواب على ما يبذل فى هذه الناحية ، فقال فى موضع : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل ؛ فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير » ؛ فلهذا التشبيه أثره فى دفع النفس إلى بذل المال راضية مغتبطة كما يغتبط من له جنة ، وقد استقرت على مرتفع من الأرض ، ترتوى بما هى فى حاجة إليه من ماء المطر ، وتترك مازاد عن حاجتها ، فلا يظل بها حتى يتلفها ، كما يستقر فى المنخفضات ؛ فجاءت الجنة بثمرها مضاعفا . وفى مرة

أخرى رأى مضاعفة جزاء الحسنة كمضاعفة الثمرة ، لهذا الذى يبذر حبة قمح ، فتخرج عوداً يحمل سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » . وحاط القرآن هذه المضاعفة بشرط ألا يكون الإنفاق عن رياء ، وهنا نقف أمام هذا التشبيه القرآنى الذى سبق تصويراً لمن يتصدق لا عن باعث نفسى ، تتبين إيحاءاته ، ونتلمس وجه اختياره ، إذ يقول سبحانه : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله ، واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل ، فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين » ، أرأيت هذا الحجر الصلد قد غطته قشرة رقيقة من التراب ، فخاله الرائى صالحاً للزرع والإنبات ، ولكن وابل المطر لم يلبث أن أزال هذه القشرة فبدا الحجر على حقيقته ، صلدا لا يستطيع أحد أن يجد فيه موضع خصب ، ولا تربة صالحة للزراعة ، ألا ترى فى كلمة الصفوان هنا ما يمثل لك هذا القلب الخالى من الشعور الإنسانى النبيل ، والعطف على أبناء جنسه عطفاً ينبع من شعور حى صادق ، ولكن الصدقة تغطيه بثوب رقيق ، حتى يخاله الرائى قلباً ينبض بحب الإنسانية ، ويُبنى عليه كبار الآمال فيما سوف يقدمه للمجتمع من خير ، ولكن الرياء والمن والأذى لا تلبث أن تزيل هذا الغشاء الرقيق ؛ فيظهر القلب على حقيقته قاسياً صلبا لا يلين .

— ٦ —

وتأتى الكاف فى القرآن أحياناً لا لهذا التشبية الفنى الخالص ، بل لإيقاع التساوى بين أمرين ، ومن أمثلة هذا الباب قوله تعالى : « وعد الله المنافقين والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم ، كالذين من قبلكم ، كانوا أشد منكم قوة ، وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم ، فاستمتعتم بخلاقكم ، كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون» وقوله تعالى : « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول ، فأخذناه أخذا وبيلا » ؛ فهو يعقد موازنة بينهم وبين من سبقهم ، ويبين لهم الوجوه التى يتفقون فيها معهم ، ولا ينسى أن يذكر ما أصاب سابقيهم ، وإلى هنا يقف ، تاركا لهم أن يصلوا بأنفسهم إلى ماينتظرهم من العواقب ، وإنها لطريقة مؤثرة فى النفس حقاً ، أن تضع لها شبيها ، وتتركها تصل بنفسها إلى النتيجة فى سكينة وهدوء ، لا أن تقذف بها فى وجهها ، فربما تتمرد وتثور .

ومن كاف التساوى أيضاً قوله تعالى : « إنا أوحينا إليك ، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » ، وقد يلمح فى ذلك الرغبة فى إزالة الغرابة عن نفوس السامعين ، واستبعادهم نزول الوحى على الرسول ، فالقرآن يقرنه بمن لا يشكّون فى رسالته ، ليأنسوا بدعوة النبى ؛ وقد يكون فى هذا التساوى مثار للتهكم ، كما فى قوله تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى ، كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » ؛ أو مثار للاستنكار ، كما فى قوله تعالى : « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله » فسر الاستنكار كما ترى هو تسوية عذاب الناس بعذاب الله .

وقد تأتى الكاف وسيلة للإيضاح ، وتقوم هى وما بعدها مقام المثال للقاعدة ، وغير خاف ماللمثل يضرب من التأثير والإقناع ؛ ومن ذلك قوله تعالى : « إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وأولئك هم وقود النار، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم : كذبوا بآياتنا ، فأخذهم الله بذنوبهم ، والله شديد العقاب » فجاء بآل فرعون مثالا لأولئك الذين لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً . ومن كاف الإيضاح قوله سبحانه: « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » ، وقوله : « وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى ، فتنفخ فيه ، فتكون طيراً بإذنى » .

« كذلك »

فى القرآن الكريم

وردت « كذلك » فى القرآن الكريم ، فى أكثر من مائة موضع ، ولوجود الكاف ، وهى للتشبيه ، فيها ، ظن كثير من العلماء أنها لا تكون إلا للتشبيه، ومضى فى كل آية ورد فيها هذا التعبير ، يبين التشبيه فى الجملة ، وفى كثير من الأحيان لا يبدو معنى التشبيه واضحاً ، فيتلمس مقوماته ، ويتكلف تفسيره تكلفاً يوحى بضآلة هذا التشبيه ، وأنه لم يزد المعنى جلاء ، وهو الغرض الأول من التشبيه .

وقد تتبعت هذه العبارة فيما وردت فيه من الآيات فوجدتها أكثر ما تأتى لمعان ثلاثة :

أولها التشبيه ، وذلك عندما يراد عقد الصلة بين أمرين ، ولمح ما بينهما من ارتباط ، وهنا يؤدى التشبيه رسالته فى إيضاح المعنى وتوطيده فى النفس ، تجد ذلك فى قوله تعالى : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا

أقلّت سحاباثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » فالصلة وثيقة بين بعث الحياة فى الموتى وبين بعث الحياة فى الأرض الميتة ، فتنبت من كل الثمرات ، وإن فيما نراه بأعيننا من هذه الظاهرة الطبيعية التى نشاهدها فى كل حين ، إذ نرى أرضاً ميتة لا حياة فيها ، ثم لا يلبث السَّحاب الثقال ، أن يفرغ عليها مطره ، فلا تلبث أن تزدهر وتخرج من كل زوج بهيج ، إن فى ذلك لما يبعث فى النفس الاطمئنان إلى فكرة البعث ، والإيمان بها ، فلا جرم ، انعقد التشبيه بين البعثين ، وزاد التشبيه الفكرة جلاء .

واقرأ قوله تعالى: « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة، إذ أقسموا ليصرمنّها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن إغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، ألا يدخلنّها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين، فلما رأوها قالوا : إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسجون ، قالوا : سبحان ربنا ، إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا : ياويلنا ، إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ، إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » أرأيت أصحاب هذه الجنة ، وقد أقسموا أن يستأثروا بثمر جنتهم ، وأن يجنوا ثمارها مبكرين فى الصباح ، ولم يدر بخلدهم الاستعانة بالله فى عملهم ، وبينما هم يستعجلون قدوم الصباح ويحلمون بالثروة التى ستدرّها عليهم حديقتهم ، طاف على تلك الجنة طائف أباد ثمرها ، وهم نائمون ، وفى بكرة الصباح أسرع بعضهم ينادى بعضاً أن الخير فى البكور ، فانطلقوا لا تكاد تسمع لأقدامهم وقعا ، يتهامسون وهم يتحدثون ، كى لا يسمع مسكين صوتهم فيتبعهم ، ولقد وصلوا إلى حديقتهم ، واطمأنوا إلى أنهم

سيقدرون على إحراز غلتها ، ومنع المساكين منها ، فما راعهم إلا أن وجدوا أشجارهم بلا ثمار ، وجنتهم جرداء مقفرة ، هنالك ملأ الندم قلوبهم ، وأخذ بعضهم يلوم بعضاً ، يتحسرون على أمل قد ضاع ، وعلى ما اقترفوه من ظلم وطغيان ؛ أرأيت هذا العذاب الذى صار إليه هؤلاء القوم ، عذاب من فقد أمله وقد كان قريباً من يده ، وعذاب من يؤنبه ضميره على جرم اقترفه ، وقد رأى جزاءه أمام عينيه ، ألا ترى أن هذا العذاب النفسى الأليم جدير بأن يكون مثالا ينذر به الله كل من يتصرف تصرف أصحاب هذه الجنة .

وهى أيضاً للتشبيه فى قوله سبحانه : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام : لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ؛ فتبينوا » . وقوله تعالى : « قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » ، وما على نسق هذه الآيات مما تعقد فيه الكاف صلة بين أمرين .

وتأتى كاف كذلك فى كثير من الآيات بمعنى مثل فى قولك : مثلك لا يكذب ، تريد أنت لا تكذب ، وفائدة مجىء مثل ، الإشارة إلى أن من له صفاتك لا يليق به أن يكذب ، تجد ذلك فى مثل قوله تعالى : « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتاً من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة ، أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطلّ ، والله بما تعملون بصير . أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، وله فيها من كل الثمرات ، وأصابه الكبر ، وله ذرية ضعفاء ، فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون » ؛ فالمعنى على أن الله يبين الآيات ذلك البيان الجلىّ الواضح المؤثر ، لعله يثمر ثمرته ، فيدعو سامعيه إلى التفكير والتدبر . ذلك هو ما أفهمه من هذا التعبير ، ولا أفهم أنه يريد أن يبين آيات غير هذه الآيات بياناً يشبه بيان الآيات السالفة ، وإذا أنت حاولت عقد التشبيه على حقيقته رأيت فيه

تفاهة وقلة غناء ؛ وخذ قوله تعالى : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لاتفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، وكذلك نجزى المجرمين » ، فليس المراد — على ما يظهر لى — أن المجرمين يجزون جزاء يشبه الجزاء الموصوف فى الآية الكريمة ، وإنما يجزون هذا الجزاء نفسه ، من غلق أبواب السماء فى وجوههم ، وأنهم لا يدخلون الجنة أبدا .

واقرأ قوله تعالى : « تلك القرى نقصّ عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » تر المراد أن الله يطبع على قلوب الكافرين ذلك الطبع الذى يحول بينهم وبين الإيمان بما كذبوا من قبل ، وإذا أنت حاولت عقد تشبيه لم تجد فيه كبير غناء ، إذ يصير المعنى يطبع الله على قلوب الكافرين طبعاً يشبه طبعه على قلوب الكافرين ، وفى ذلك مافيه من ضياع قيمة التشبيه

فمن هذا يبدو أن التشبيه فى هذه الآيات وأمثالها غير ملحوظ ، وإنما يراد توجيه النظر إلى ما سبق هذه الأداة فحسب ، وتأتى الكاف حينئذ إشارة إلى أن ماذكر فى الآيات وأشير إليه ، قد بلغ من الكمال مبلغاً عظيما ، لدرجة أنه صار نموذجاً كاملاً ، يمكن أن يتخذ مثالاً يشبه به سواه ، فقد أفادت الكاف بلوغ المعنى تمامه .

وتأتى « كذلك » أيضاً لتحقيق المعنى وتثبيته ، ولا يبدو فيها التشبيه ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « قال: رب ، أنى يكون لى غلام، وقد بلغنى الكبر ، وامرأتى عاقر ، قال : كذلك ، الله يفعل ما يشاء » وفى قوله تعالى : « قالت : أنى يكون لى غلام ، ولم يمسسنى بشر ، ولم أك بغيا ، قال : كذلك ، قال ربك هو علىّ هيّن ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا ، وكان أمراً مقضياً » ومحاولة خلق تشبيه من هذه العبارة لا يؤدى إلا إلى التكلف والتفاهة معاً ، ويقدر بعض العلماء فى مثل هذا

التركيب أن كذلك خبر لمبتدأ محذوف تقديره الأمر كذلك ، ونحن نوافق على هذا التقدير ، وليس فى كذلك تشبيه هنا ، وإنما المراد الأمر هو ما أخبرت به ، لاريب فيه ، ومن (كذلك) هذه التى للتحقيق والتوكيد ، تولدت كلمة (كده) فى اللغة العامية للدلالة على التحقيق أيضاً ، ونحن نستخدمها فى ذلك المعنى عندما نقول : الحق كذلك ، والصواب كذلك ، نريد الحق والصواب هو ذلك ، ولعل السر فى المجىء بكاف التشبيه هنا ، هو بيان تمام المطابقة بين الحقيقة الخارجية والحقيقة الكلامية ، أى أن ما يكون فى الواقع يطابق مادل عليه الكلام .

تفيد « كذلك » التحقيق إذا كوّنت هى ومبتدؤها جملة مستقلة ، كما فى الآيتين السالفتين وما على شاكلتهما ، وتفيد التحقيق وتأكيد الجملة فى غير هذا الموضع أيضاً ، ويكثر ذلك عندما يليها فعل ماض ، كما فى قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها؟! كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ، وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ، ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم ، وما يشعرون » ، فلا تجد للتشبيه موضعاً فى هذه الآية ، وإذا أنت حاولته وجدته لا يغنى فى التصوير شيئاً ، و « كذلك » هنا تؤدى معنى قد ، ولها أمثلة كثيرة فى القرآن كقوله تعالى: « فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون ، كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون » ، وقوله تعالى : « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين » ، وقوله تعالى : « الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ، كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم ، لتلو عليهم الذى أوحينا إليك » . وربما جاءت إفادتها للتحقيق ، من كثرة مجيئها لبيان التطابق ، واستعملت فى لازم معناها الأصلى الذى تنوسى .

واستعمال كذلك للتحقيق والتوكيد ، لا يقل عن استخدامها فى التشبيه .

وكثير من المفسرين يتكلف جعلها فى تلك المواضع أيضاً للتشبيه ، فيتمحّل ، ويمضى فى تأويلات لا نصيب لها من البلاغة وقوة الفن .

ومما ذكرناه يبدو أن تلك العبارة لا تقف عند حد التشبيه ، بل لها هذه المعانى الثلاثة التى شرحناها .

التصوير بالاستعارة

اقتصر الأقدمون عندما تحدثوا عن الاستعارة فى القرآن ، على ذكر أنواعها ، من استعارة محسوس لمحسوس بجامع محسوس أو بجامع عقلى ، ومن استعارة محسوس لمعقول ، ومن استعارة معقول لمعقول أو لمحسوس ، ومن استعارة تصريحية أو مكنية ، ومن مرشحة أو مجردة ، إلى غير ذلك من ألوان الاستعارة ، وهم يذكرون هذه الألوان ، ويحصون ما ورد فى القرآن منها ، ويقفون عند ذلك فحسب ، وبعضهم يزيد فيجرى الاستعارة ، ظانا أنه بذلك قد أدى ما عليه ، من بيان الجمال الفنى فى هذا اللون من التصوير ، ولم أر إلا ما ندر من وقوف بعضهم يتأمل بعض هذه اللمحات الفنية المؤثرة ، وليس مثل هذه الدراسة يجد فى تذوق الجمال وإدراك أسراره ، ومن الخير أن نتبين الأسرار التى دعت إلى إيثار الاستعارة على الكلمة الحقيقية .

وإذا أنت مضيت إلى الألفاظ المستعارة رأيتها من هذا النوع الموحى ، لأنها أصدق أداة تجعل القارىء يحس بالمعنى أكمل إحساس وأوفاه ، وتصور المنظر للعين ، وتنقل الصوت للأذن ، وتجعل الأمر المعنوى ملموساً محساً ، وحسبى أن أقف عند بعض هذه الألفاظ المستعارة الموحية ، نتبين سر اختيارها :

قال سبحانه : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ، ونفخ فى الصور ،

فجمعناهم جمعاً » . فكلمة « يموج » لا تقف عندحد استعارتها لمعنى «الاضطراب» بل إنها تصور للخيال هذا الجمع الحاشد من الناس ، احتشاداً لا تدرك العين مداه، حتى صار هذا الحشد الزاخر كبحر ، ترى العين منه ماتراه فى البحر الزاخر من حركة وتموج واضطراب ، ولا تأتى كلمة « يموج » إلا موحية بهذا المعنى ، ودالة عليه ، وقال سبحانه : « رب ، إنى وهن العظم منى ، واشتعل الرأس شيبا »وهنا لاتقف كلمة اشتعل عند معنى انتشر فحسب ، ولكنها تحمل معنى دبيب الشيب فى الرأس فى بطء وثبات ، كما تدب النار فى الفحم مبطئة ، ولكن فى دأب واستمرار ، حتى إذا تمكنت من الوقود اشتعلت فى قوة لاتبقى ولا تذر ، كما يحرق الشيب ما يجاوره من شعر الشباب ، حتى لا يذر شيئاً إلا التهمة ، وأتى عليه ، وفى إسناد الاشتعال إلى الرأس ما يوحى بهذا الشمول الذى التهم كل شىء فى الرأس . وقد تحدثنا فيما مضى عما توحى به كلمة تنفس ، من إثارة معنى الحياة التى تغمر الكون عند مطلع الفجر .

وقال تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذاهم مظلمون »فكلمة نسلخ تصور للعين انحسار الضوء عن الكون قليلا قليلا ، ودبيب الظلام إلى هذا الكون فى بطء ، حتى إذا تراجع الضوء ظهر ما كان مختفياً من ظلمة الليل . وقال تعالى : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه ، إلا جعلته كالرميم » ففى العقم ما يحمل إلى النفس معنى الإجداب الذى تحمله الريح معها .

وكثر فى القرآن أخذ الكلمات الموضوعة للأمور المحسوسة ، يدل بها على معقول معنوى ، يصير به كأنه ملموس مرئى ، فضلا عن إيحاءات الكلمة إلى النفس ، خذ مثلا قوله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه ، فنبذوه وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس مايشترون » ألا ترى أن كلمة نبذ ، فضلا عن أنها تدل على الترك ، توحى إلى نفس القارىء معنى

الإهمال والاحتقار ، لأن الذى ينبذ وراء الظهر إنما هو الحقير المهمل . وقوله تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه[1] فإذا هو زاهق » فكلمة القذف توحى بهذه القوة التى يهبط بها الحق على الباطل ، وكلمة يدمغه توحى بتلك المعركة التى تنشب بين الحق والباطل ، حتى يصيب رأسه ويحطمه ، فلا يلبث أن يموت . وتأمل قوة التعبير بالظلمات والنور يراد بهما الكفر والإيمان ، فى قوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » وجمع الظلمات يصور لك إلى أى مدى ينبهم الطريق أمام الضال ، فلا يهتدى إلى الحق ، وسط هذا الظلام المتراكم . ومن ذلك قوله تعالى : « إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح » ، فإنك تشعر فى كلمة العقدة بهذا الربط القلبى ، الذى يربط بين قلبى الزوجين . ويطول بى القول إذا أنا وقفت عند كل استعارة ، من هذا اللون ، وحسبى أن أشير إلى بعض نماذجه ، كقوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين » ، فكلمة الصدع بمعنى الجهر توحى بما سيكون من أثر هذه الدعوة الجديدة ، من أنها ستشق طريقها إلى القلوب ، وتحدث فى النفوس أثراً قويا ، وقوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » ، فأى صلة متينة ذلك الدين الذى يربطك بالله ، يثير هذا المعنى فى نفسك ذلك التعبير القوى المصور : حبل الله .

وقوله تعالى : « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » ، وقوله تعالى : « لم تصدّون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا » ، وقوله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا ، فأعرض عنهم ، حتى يخوضوا فى حديث غيره » ، وتأمل جمال (أفرغ) فى قوله سبحانه : « ربنا أفرغ علينا صبرا » ، وما يثيره فى نفسك من الطمأنينة التى يحس بها من هدأ جسمه بما يلقى عليه ، وهذه الراحة تشبهها تلك الراحة النفسية ، ينالها من منح هبة الصبر

---

(١) يصيب دماغه بالضرب .

الجميل ، ومن الدقة القرآنية فى استخدام الألفاظ المستعارة أنه استخدم « أفرغ » وهى توحى باللين والرفق عند حديثه عن الصبر ، وهو من رحمته ، فإذا جاء إلى العذاب استخدم كلمة « صب » فقال : « صب عليهم ربك سوط عذاب » ، وهى مؤذنة بالشدة والقوة معاً .

وتأمل كذلك قوة كلمة « زلزلوا » فى قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه : متى نصر الله ، ألا أن نصر الله قريب » ، ولو أنك جهدت فى أن تضع كلمة مكانها ما استطاعت أن تؤدى معنى هذا الاضطراب النفسى العنيف .

وقد تحدثنا فيما مضى عن جمال التعبير فى قوله تعالى : « ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل » وقوله سبحانه : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » . وقد يستمر القرآن فى رسم الصورة المحسوسة بما يزيدها قوة تمكّن لها فى النفس ، كما ترى ذلك فى قوله تعالى : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين » فقد أكمل صورة الشراء بالحديث عن ربح التجارة والاهتداء فى تصريف شئونها .

وقد يحتاج المرء إلى تريث يدرك به روعة التعبير ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » ؛ فقد يبدو أن المناسبة تقضى أن يقال : فألبسها الله لباس الجوع ، ولكن إيثار الذوق هنا لأن الجوع يشعر به ويذاق ، وصح أن يكون للجوع لباس ، لأن الجوع يكسو صاحبه بثياب الهزال والضنى والشحوب .

وقد يشتد وضوح الأمر المعنوى فى النفس ، ويقوى لديها قوة تسمح بأن

يكون أصلا يقاس عليه ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « إنا لما طغى الماء حملنا كم فى الجارية » ، فهنا كان الطغيان المؤذن بالثورة والفوارن أصلا يشبه به خروج الماء عن حده ، لما فيه من فورة واضطراب ، وعلى هذا النسق جاء قوله تعالى : « وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية » . فهذه الريح المدمرة ، يشبه خروجها عن حدها العتوّ والجبروت .

وقد يجسم القرآن المعنى ، ويهب للجماد العقل والحياة ، زيادة فى تصوير المعنى وتمثيله للنفس ، وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة المكينة ، ومن أروع هذا التجسيم قوله سبحانه : « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح» ألا تحس بالغضب هنا ، وكأنه إنسان يدفع موسى ويحثه على الانفعال والثورة ، ثم سكت وكفّ عن دفع موسى وتحريضه . ومن تعقيل الجماد قوله سبحانه : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض : ائتيا طوعاأو كرها ، قالتا : أتينا طائعين » وفى ذلك التعبير ما يدل على خضوعهما واستسلامهما ، وقوله سبحانه : « فانطلقا ، حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أن يضيّفوهما ، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض ، فأقامه » ، وكأنما الجدار لشدة وهنه وضعفه يؤثر الراحة لطول ما مر به من زمن . وقوله تعالى : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ، تكاد تميّز من الغيظ ، كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير » فهذا التميز من الغيظ يشعر بشدة ماجناه أولئك الكفرة ، حتى لقد شعر به واغتاظ منه هذا الذى لا يحس . وعلى هذا النسق قوله سبحانه : « كلا إنها لظى ، نزاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولى » ألا تحس فى هذا التعبير كأن النار تعرف أصحابها بسيماهم ، فتدعوهم إلى دخولها . ومنه قوله تعالى : « حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت » وفى ذلك ما يشعرك بالحياة التى تدب فى الأرض ، حين تأخذ زخرفها وتتزين .

هذا وقد كثر الحديث عن قوله سبحانه : « واخفض لهما جناح الذل من الرحمة » ، ورووا ما يفهم منه أن أبا تمام قلد هذا التعبير ، فقال :

لا تسقنى ماء الملام ؛ فإننى صبٌّ قد استعذبت ماء بكائى

حتى إنه يروى أن أحدهم أرسل إليه زجاجة يطلب منه فيها شيئاً من ماء الملام ، فقال أبو تمام : حتى تعطينى ريشة من جناح الذل ؛ قيل : فاستحسنوا منه ذلك . وعندى أن ليس الأمر على ما ذكروه ، وأن هذا التعبير كناية عن الرفق فى معاملة الوالدين ، وأخذهما باللين والرقة ، كما تقول : « واخفض لهما الجناح ذلا » ولكن لما كان ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الإنسان وبين الذل ، إذ أن هذا الجانب هو مظهر الغطرسة حين يشمخ المرء بأنفه ، ومظهر التواضع حين يتطامن — أجازت هذه الصلة إضافة الجناح للذل لا على معنى الملكية ؛ فلسنا إذاً بحاجة إلى تشبيه الذل بطائر نستعير جناحه ، ولكنا بحاجة إلى استعارة الجناح للجانب ، وجمال ذلك هنا فى أن اختيار كلمة الجناح فى هذا الموضع يوحى بما ينبغى أن يُظِلَّ به الابن أباه من رعاية وحب ، كما يظل الطائر صغار فراخه .

وبما ذكرناه يبدو أن بيت أبى تمام لم يجر على نسق الآية الكريمة ، فليس هناك صلة ما بين الماء والملام تجيز هذه الإضافة ، ولا سيما أن إيحاء الكلمات فى الجملة لا تساعد أبا تمام على إيصال تجربته إلى قارئه ، فليس فى سقى الماء ما يثير ألماً ، ولو أنه قال : لا تجرعنى غصص الملام ، لاستطاع بذلك أن يصور لنا شعوره أدق وأوفى ، لما تثيره هاتان اللفظتان في النفس من المشقة والألم .

مجازات القرآن

— ١ —

قسم البلاغيون المجاز قسمين : مجازاً عقلياً ، ومجازاً لغوياً ، وجعلوا الأول فى إسناد الفعل أو ما يشبهه إلى غير فاعله الأصيل لملابسته له ، وحكمة هذا الإسناد حيناً قيام ما أسند إليه الفعل بدور رئيسى فى الجملة ، وقد يكون هو الركن الذى لا يتم العمل بدونه ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « إن فرعون علا فى الأرض، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين » ، فإسناد الذبح إلى فرعون لأنه هو الآمر به ، ولولاه ما حدث ، وما الجند المنفذون سوى آلات مسخرة تفعل ما تؤمر به ، وعلى هذا المنوال قوله تعالى : « وقال فرعون : يأيها الملأ ، ما علمت لكم من إله غيرى، فأوقد لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صرحا » ، فمن هامان الوزير يصدر الأمر لأتباعه بإعداد مواد البناء ، ورفع الصرح ، وقوله : « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار » ، أو لا تجد أن هؤلاء الذين بدّلوا نعمة الله كفراً ، هم العنصر الفعال فيما آل إليه حال قومهم من عقبى السوء ، لأنهم هم الذين كانوا سبب إضلالهم و كفرهم .

ولما كان يوم القيامة تملؤه أحداث مرعبة ، تملأ النفوس هولا يتسبب عنها لشدتها الشيب ، وكان هذا اليوم ظرفا لتلك الأحداث ، صح أن يسند الشيب إليه فى قوله سبحانه : « فكيف تتقون — إن كفرتم — يوما يجعل الولدان شيباً »

وقد أجاز ذلك شدة الارتباط بين الأحداث وظرفها ، كما أن شدة الارتباط بين العيشة وصاحبها جعلت من الجميل نسبة الرضا إليها فى قوله : « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية » .

— ٢ —

اما المجاز اللغوى وهو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له أولا ، لصلة بين المعنيين غير صلة التشابه ، فقد وجدت كثيراً ممن تعرضوا لدراسته فى القرآن الكريم ، قد مضوا يلتمسون أمثلته ، ويبوبونه ، ويذكرون أقساما كثيرة له ، حتى بلغوا من ذلك حد التفاهة ، ومخالفة الذوق اللغوى ، فوجدوا مثلا فى قوله تعالى : « إنا منكم وجلون » مجازاً لغوياً ، من وصف الكل بصفة البعض ، إذ الوجل محله القلب ، وقياساً على ذلك جعلوا مثل محمد عالم وجاهل وراغب وخائف ، وما على شاكلتها ، مجازاً لغوياً . ووجدوا كذلك فى قوله سبحانه : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون ، بشيراً ونذيراً » مجازاً ، لأن البشارة والإنذار بعض ما فى القرآن ، وفى قوله سبحانه : « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وجدوا مجازاً ، لأن الشهر اسم لثلاثين ليلة ، وقد أريد جزء منه ، إلى غير ذلك من أمثلة يطول بى وجه إحصائها وبيان ما فيها من تكلّف وتفاهة ، ولو سرنا على منهجهم لوجدنا فى كل ما ننطق به مجازاً ، وليس فى ذلك كبير نفع ، مادامت الكلمة لا تسترعى انتباه القارىء ، ولا تستوقفه لتبين السر فى استخدامها .

لا أريد أن أمضى فى بيان ما تكلفوه ، وجروا وراءه من تلمس الأسباب لعد الآيات من باب المجاز اللغوى ، وكل ما أريد قوله هنا هو أن أكثر هذه الكلمات أصبحت توحى بالفكرة من غير أن يثار فى النفس المعنى المجازى .

خذ مثلا قوله تعالى : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم » ، فإنهم قالوا : إن فيه إطلاق الكل على البعض ، والمراد تعجبك وجوههم ، لأن الأجسام لا ترى كلها ،

وإنما يرى الوجه فحسب ، ولا أرى تأويلا أبعد من هذا التأويل عن روح الآية ، فالجسم وإن كان لا يرى كله ، من المستطاع أن يدرك الإنسان بنظره ماعليه الجسم من جمال يبعث على الإعجاب ، ولا تريد الآية : تعجبك وجوههم ، ولكنها تريد يعجبك ماعليه أجسامهم من ضخامة ، وما يبدو فيها من مظاهر النماء والقوة ، وما عليه وجوههم من جمال ونضرة .

وخذ قوله تعالى : «وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ؛ .. ووجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية» ، قالوا : إنه من إطلاق الجزء وإرادة الكل ، فقد عبَّر بالوجوه عن جميع الأجساد ، لأن النصب والتنعم حاصل لكلها ، ولا أرى الذهن فى حاجة إلى أن يفهم هنا من الوجه معنى الجسم ، لأن النصب والنعمة يظهران أتم ظهور على الوجه .

وخذ قوله تعالى : « إذ قال الحواريون : ياعيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء » قالوا إنه من إطلاق الملزوم على اللازم ، إذ المراد هل يفعل ، فأطلق الاستطاعة على الفعل لأنها لازمة له . ولا أرى فى ذلك كبير غناء .

ولكنك لا تعدم فى بعض الأحيان روعة فى بعض ماعدُّوه من ألوان هذا المجاز ، كما فى قوله تعالى : : « يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق ، حذر الموت » وقوله سبحانه : « ذلك بما قدمت يداك » ، وقد لا تكون اليد هى الفاعلة ، ولكن لما كان أكثر الأعمال بها ، جعل هذا التعبير وراق .

الكناية والتعريض

تقوم الكناية القرآنية بنصيبها كاملا فى أداء المعانى وتصويرها ، خير أداء وتصوير ، وهى حيناً راسمة مصوّرة موحية ، وحيناً مؤدبة مهذبة ، تتجنب ماينبو على الأذن سماعه ، وحيناً موجزة تنقل المعنى وافياً فى لفظ قليل . ولا تستطيع الحقيقة أن تؤدى المعنى كما أدّته الكناية ، فى المواضع التى وردت فيها الكناية القرآنية .

فمن الكناية المصورة الموحية قوله تعالى : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً » ؛ ألا ترى أن التعبير عن البخل باليد المغلولة إلى العنق ، فيه تصوير محسوس لهذه الخلة المذمومة فى صورة قويّة بغيضة منفرة ، فهذه اليد التى غلّت إلى العنق لا تستطيع أن تمتد ، وهو بذلك يرسم صورة البخيل الذى لا تستطيع يده أن تمتد بإنفاق ولا عطية ؛ والتعبير ببسطها كل البسط يصوّر لك صورة هذا المبذر الذى لا يبقى من ماله على شىء ، كهذا الذى يبسط يده ، فلا يبقى بها شىء ، وهكذا استطاعت الكناية أن تنقل المعنى قوياً مؤثراً .

ومنها قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا ، اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظنّ إثم ، ولا تجسسوا ، ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ، فكرهتموه » ، وتأمل كيف مثل الاغتياب بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله ، ثم لم يقتصر على ذلك ، حتى جعله لحم الأخ ، ولم يقتصر على لحم الأخ حتى جعله ميتا . «فأما تمثيل الاغتياب بأكل لحم إنسان آخر مثله ، فشديد المناسبة جداً ، وذلك لأن الاغتياب إنما هو ذكر مثالب الناس ، وتمزيق أعراضهم ، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه ، لأن أكل اللحم فيه تمزيق لا محالة.

ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر مثله ، إلا أنه لا يكون مثل كراهة لحم أخيه ، وهذا القول مبالغة فى الاستكراه ، لا أمد فوقها ؛ وأما قوله (ميتا) فلأجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ، ولا يحس بها[1] » .

ومنها قوله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ، ولا جان » فأنت ترى فى قصر الطرف تصويراً للمظهر المحسوس لخلة العفة ، ولو أنه استخدم عفيفات ما كان فى الآية هذا التصوير المؤثر ، ولا رسم أولئك السيدات فى تلك الهيئة الراضية القانعة ، التى لا يطمحن فيها إلى غير أزواجهن ، ولا يفكرن فى غيرهم .

ومن الكناية المهذبة قوله سبحانه : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل ، وأمّه صديقة ، كانا يأكلان الطعام » ، ألا ترى فى التعبير بأكل الطعام أدباً ورقّة تغنيك عن أن تسمع أذنك : كانا يتبرّزان ويتبوّلان .

ومنها قوله تعالى : « نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم » وقوله : « وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط ، أو لامستم النساء ، فلم تجدوا ماء ، فتيمّموا صعيداً طيباً » وهكذا كنى الله بالملامسة ، والمباشرة ، والإفضاء ، والرفث ، والدخول ، والسرّ ، كما فى قوله سبحانه : « ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، أو أكننتم فى أنفسكم ، علم الله أنكم ستذكرونهن ، ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفا » .

ومما يصح أن يوجه النظر إليه هنا ، أن القرآن كان يلجأ إلى الصراحة ، عند ما يتطلبها المقام ، فلا يحاور ، ولا يداور ، بل يعمد إلى الفكرة فيلقى بها فى وضوح ، ويقول : « قل للمؤمنين : يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم » ، ولا عجب فى صراحة كتاب دينى ، يجد فى التصريح ، مالا تستطيع الكناية الوفاء به فى موضعه .

---

(١) كتاب الفوائد ص ١٢٧ .

ومن الكناية الموجزة قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا » أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، ولن تأتوا بسورة من مثله ، ومثل هذا التعبير كثير فى القرآن .

أما التعريض فهو أن يذكر شيء يدل به على شيء لم يذكر ، وأهم أغراضه الذّمّ ، كما فى قوله تعالى : « قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم ، إن كانوا ينطقون » ، ففى نسبة الفعل إلى كبير الأصنام تعريض بأن الصغار لا تصلح أن تكون آلهة لأنها لم تستطع أن تدفع عن نفسها ، وبأن الكبير لا يصلح أن يكون إلهاً ، لعجزه أن ينهض بمثل هذا العمل .

ومن باب التعريض أيضاً تلك الآيات التى على مثال قوله تعالى : « إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، وتلك طريقة مؤثرة تدفع السامعين إلى التفكير العميق ، حتى لا يكونوا ممن لا يعقلون .

هذا ، وقد سبق أن تحدثنا عن جمال استخدام (إنما) عندما يراد بها التّعريض .

الفصل الثالث

السورة

— ١ —

قُسِّم القرآن الكريم سوراً ، سُمِّيت كل منها باسم خاص ، أخذ من بعض ما عالجته السورة من المعانى ، أو مما تحدثت عنه من إنسان وحيوان أو غيرهما ، أو من بعض كلماتها .

والسورة القرآنية قد تكون ذات موضوع واحد تتحدث عنه ، ولا تتجاوزه إلى سواه ، مثل كثير من قصار السور ، كسورة النبأ والنازعات والانشقاق ، وكلها تتحدث عن اليوم الآخر ، والهمزة والفيل وقريش ، وهى تتحدث عن عقاب من يعيب الناس ، وما حدث لأصحاب الفيل ، وما أنعم الله به على قريش من نعمة الألفة .

وقد تتناول السورة أغراضاً شتى ، مثل معظم سور القرآن ، وهنا نقف لنتبين أىّ الخطتين أقوم وأهدى : أن يرتب القرآن موضوعاته ويجعل كل سورة تتناول موضوعاً واحداً معيناً ، فتكون سورة للأحكام ، وأخرى للتاريخ ، وثالثة للقصص ، ورابعة للابتهال ، حتى إذا فرغت منه تناولت سورة أخرى غرضاً آخر وهكذا ، أو أن تتناثر أحكامه وقصصه ووعده ووعيده على النحو الذى انتهجه ، والذى يبدو بادىء ذى بدء أن السلك الذى يربط بين آياته ضعيف الربط أو واهى التماسك ؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب أن نعرف الهدف الذى إليه يرمى القرآن

الكريم ، لنرى أقوم الخطتين لتحقيق هذا الهدف والوصول به إلى جانب التوفيق والنجاح .

أمّا هدف القرآن الكريم فغرس عقيدة التوحيد فى النفس ، وانتزاع مايخالف هذه العقيدة من الضمير ، والدعوة إلى العمل الصالح المكوّن للإنسان المهذب الكامل ، بسن القوانين المهذّبة للفرد ، الناهضة بالجماعة .

وإذا كان ذلك هو هدف القرآن ، فإن المنهج القرآنى هو الذى يحقق هذا الهدف ، فى أكمل صوره ، وأقوى مظاهره ، ذلك أنه لكى يحمل على اتّباع ما يدعو إليه ، يمزج دعوته بالحث على اتباعها ، ويضرب المثل بمن اتبع فنجح ، أو ضل فخاب ، ويتبع الحديث عن المؤمنين بذكر بعض الأحكام التى يجب أن يتبعها هؤلاء المؤمنون ، ويعقب ذلك بالترغيب والترهيب ، ثم يولى ذلك بوصف اليوم الآخر وما فيه من جنة أو نار ، وهو فى كل ذلك يتكىء على الغريزة الإنسانية التى تجعل المرء خاضعاً بالترغيب حيناً ، والترهيب حيناً آخر ، والقرآن حين يستمد شواهده من حوادث التاريخ لا يستدعيه ذلك أن ينهج منهج المؤرخين ، فيتتبع الحادث من مبدئه إلى منتهاه ، ويمعن النظر فى الأسباب والنتائج ، ويقف عند كل خطوة من خطواته ، ولكنه يقف من هذا الحادث عند الفكرة التى تؤيد غرض الآية ، والجزء الذى يؤيد الهدف الذى ورد فى الآيات ، وقل مثل ذلك فى القصة عند ما يوردها ، فإنها تساق للهدف الذى تحدّثنا عنه ، وهو من أجل ذلك ينظر إليها من زاوية بعينها ، ولا يرمى غالباً إلى قصّ القصّة برمتها . وسوف نشبع الحديث فى ذلك فيما يلى .

يتنقل القرآن إذاً بين الأغراض المختلفة ، لا اعتباطاً وبلا هدف ، ولكن لصلات وثيقة تربط بين هذه الأغراض ، بحيث تتضافر جميعها فى الوصول إلى الغاية القصوى وتحقيقها .

ولنبدأ فى تفصيل ما أجملناه مبينين الصلات الوثيقة التى ترتبط آية بآية ، ثم موضحين وجوه الترابط القوى بين الأغراض المختلفة فى السورة الواحدة .

فقد تقع الآية الثانية صفة لكلمة فى الآية الأولى كما فى قوله تعالى : « إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ، ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون » . وقد تكون الآية الثانية توكيداً لفكرة الآية الأولى ، كما تجد ذلك فى قوله سبحانه : « قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ، إن كنت صادقين ؛ ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم ، والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ، والله بصير بما يعملون » . وقد تكون الآية الثانية رداً على مافى الآية الأولى ، كما فى قوله تعالى : « وقالوا : لن تمسنا النار ، إلا أياماً معدودة ، قل : أتخذتم عند الله عهداً ، فلن يخلف الله عهده ؟ أم تقولون على الله ما لا تعلمون ؟ بلى ، من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته ، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . وقد تحمل الآية الثانية فكرة مضادة لفكرة سابقتها ، كما فى قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين ، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أنّ لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً ، قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، وأوتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهّرة ، وهم فيها خالدون » . ولا ريب أن الجمع بين حكم المتضادين فى الذهن يزيده جلاءً ووضوحاً .

وتأمل الصلة القوية بين هاتين الآيتين ، وهى صلة الربط بين الحكم وحكمته فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحرّ بالحرّ ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى ، فمن عفى له من أخيه شىء فاتّباع بالمعروف ، وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ، ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ، لعلكم تتقون » . ويصف الكتاب ثم يحبّب فى اتباعه ، مبغّضاً إلى النفوس صورة منكريه ، فيقول : « ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون ، إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » . ويعقب توحيد الله بدلائل هذا التوحيد فى قوله : « وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو ، الرّحمن الرّحيم ، إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » .

ويطول بى القول إذا أنا مضيت فى الاستشهاد على بيان الصلات التى تربط آية بآية ، ولكنى أشير هنا إلى أن إدراك هذه الصلة يتطلب فى بعض الأحيان تريثاً وتدبراً ، يسلمك إلى معرفة هذه الصلة وتبيّنها ، ولكنك تصل — ولا ريب — إلى وثاقة هذا الارتباط ومتانته ، وخذ لذلك مثلا قوله تعالى : « أولئك هم المؤمنون حقاً ، لهم درجات عند ربّهم ، ومغفرة ، ورزق كريم ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون » ، فقد لا يظهر موضع

الكاف ولا مكان الصلة بين الآية الثانية وما قبلها من الآيات ، ولكن التأمل يهدى إلى أن القرآن يربط بين أمرين : أولهما ما بدا من بعض المسلمين من عدم الرضا بما فعله الرسول فى قسمة الغنائم ، وثانيهما ما كان قد ظهر من بعض المؤمنين من كراهية أن يخرج الرسول من منزله إلى الغزو ، وقد تمّ فى هذا الغزو النصر والغنيمة ، فكأنه يقول: إن الخير فيما فعله الرسول فى قسمة الغنائم ، كما كان الخير فيما قام به الرسول من خروجه إلى الغزو ؛ وبذلك تبدو الصلة قوية واضحة بين الخبرين .

ومن ذلك قوله تعالى : « وقالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء ، وهم يتلون الكتاب ؛ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ؛ ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى فى خرابها ، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، لهم فى الدنيا خزى ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ؛ ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثمّ وجه الله ، إن الله واسع عليم » فقد تبدو الصلة منفصمة بين هذه الآيات ، ولكنك إذا تأملت الآية الأولى وجدت فيها حديثاً عن الذين لا يعملون ولا يتلون الكتاب ، وهؤلاء لا يعترفون بشىء مما أنزل الله ، فهم يسعون فى تقويض أسس الأديان جميعاً ، لا فرق عندهم بين دين ودين ، وهم لذلك يعملون على أن يحولوا بين المسلمين وعبادة الله ، ويسعون فى تخريب بيوت عبادته ، ومن هنا صح هذا الاستفهام الذى يدل على أنه لا أظلم من هؤلاء الذين لا يعلمون ، وارتباط الآية الثالثة بما قبلها لدلالتها على أن عبادة الله ليست فى حاجة إلى مسجد يقام ، بل لله المشرق والمغرب ، فحيثما كنتم ففى استطاعتكم عبادة الله لأن ثمة وجه الله .

« قال بعض المتأخرين : الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع

القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة له التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها ؛ فهذا هو الأمر الكلىّ المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فإذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية فى كل سورة[1] » .

ولكل سورة فى القرآن هدف ترمى إليه ؛ فتجد سورة الأنعام مثلا تتجه إلى إثبات توحيد الله ونبوّة رسوله ، وإبطال مذاهب المبطلين وما ابتدعوه من تحليل حرام ، أو تحريم حلال ؛ وتجد سورة الأعراف تتجه إلى الإنذار والاتّعاظ بقصص الأولين وأخبارهم ، وتجد سورة التوبة تحدد علاقة المسلمين بأعدائهم من المشركين وأهل الكتاب والمنافقين ، وتجد سورة الحجر ترمى إلى إثبات تنزيل القرآن وترهيب المكذبين به ، بقصّ أخبار المكذبين قبلهم ، وهكذا تجد هدفاً عاماً تدور حوله السورة ، وتتبعه معان أخرى تؤكده ويستتبعها ، ويخلص الإنسان فى السورة من معنى إلى آخر خلوصاً طبيعياً لا عسر فيه ولا اقتسار .

ولنحلل سورة من القرآن ، تتبين فيها منهجه ، وندرك مدى تأثير هذا المنهج فى النفس الإنسانية .

ففى سورة المزمل ، والهدف منها تهيئة الرسول للدعوة ، وإعداده لما سيلقاه فى سبيلها من متاعب ومشاق ، بدئت السورة بنداء الرسول ، وتكليفه بما يعده لحمل أعباء الرسالة ، فقال تعالى : « يأيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ، ورتّل القرآن ترتيلا ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ، إن

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١١٠ .

ناشئة الليل هى أشد وطئاً وأقوم قيلا ، إن لك فى النهار سبحا طويلا ، واذكر اسم ربك ، وتبتّل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » ، ألا تراه يُعدُّه بهذه الرّياضة النفسية الشاقة لتحمل أعباء الرسالة المضنية فليمض الليل أو جزءاً منه فى التهجد وقراءة القرآن ، استعداداً لما سيلقى عليه من تكاليف شاقة ثقيلة ، وإنما أمر الرسول بالتهجّد فى الليل لأن السهر فيه أشق على النفس، ولكنها تخلص فيه لله ، وتفرغ من مشاغل النهار وصوارفه ، وأمر بذكر الله ، والإخلاص له تمام الإخلاص ، فهو رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو .

بعد هذا الإعداد بالرياضة أراد أن يوطنه على تحمل الأذى فى سبيل هذه الدعوة والصبر عليه ، وينذر هؤلاء المكذبين بما سيجدونه يوم القيامة من عذاب شديد ، وهنا يجد المجال فسيحاً لوصف هذا اليوم وصفاً يبعث الرهبة فى النفس ، والخوف فى القلب ، عساها تكف عن العناد ، وتنصاع إلى الصواب والحق ، ولا ينسى أن يضرب المثل من التاريخ لمن كذّب وعصى ، كى يكون عظة وذكرى ، فقال : « واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجراً جميلا ، وذرنى والمكذبين أولى النّعمة ، ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا ، وجحيما ، وطعاماً ذا غصة ، وعذاباً أليماً ، يوم ترجف الأرض والجبال ، وكانت الجبال كثيباً مهيلا ، إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم ، كما أرسلنا إلى فرعون رسولا ، فعصى فرعون الرسول ، فأخذناه أخذاً وبيلا ، فكيف تتقون ، إن كفرتم ، يوما يجعل الولدان شيباً ، السماء منفطر به كان وعده مفعولا » .

فأنت ترى الانتقال طبيعياً من توطين الرسول على الأذى ، ثم بعث الطمأنينة إلى نفسه بأن الله سيتكفل عنه بتأديب المكذبين ، بما أعده الله لهم من عذاب أليم يوم القيامة ، وتأمل ما يبعثه فى النفس تصور هذا اليوم الذى ترجف فيه

الأرض ، وتنهار الجبال فيه منهالة ، وينتقل إلى الحديث عن عاقبة من كذب بالرسل من أسلافهم ، ثم يتجه إليهم ، موجّهاً لهم الخطاب يسألهم متعجباً ، عما أعدوه من وقاية لأنفسهم يصونونها بها من هول يوم ، يشيب الطفل فيه من شدته ، وحسبك أن ترفع الطرف إلى أعلى ، فترى السماء التى أحكم بناؤها ، قد فقدت توازنها وتصدّع بناؤها .

ويختم هذا الإنذار بجملة تدفع النفس إلى التفكير العميق ، وتفتح أمامها باب الأمل والنجاة لمن أراد أن يظفر وينجو ، إذ قال : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » ألا تحس فى هذه الجملة معنى إلقاء المغبة على عاتق هؤلاء المنذَرين ، وأنهم المسئولون عما سوف يحيق بهم من ألم وشقاء ، أَوَ ليس فى ذلك ما يحفزهم إلى التفكير الهادىء المتزِن ، عساهم يتخذون إلى ربهم سبيلا ؟

وينتقل القرآن من إنذاره لهؤلاء المكذبين إلى خطابه للمطيعين ، وهم الرسول وطائفة ممن معه ، فيشكر لهم طاعتهم ، ولا يرهقهم من أمرهم عسراً ، ويطلب إليهم القيام ببعض الفروض ، ويحببها إليهم ، فهم عندما يؤتون الزكاة يقرضون الله ، ومن أوفى بأداء الحقوق منه سبحانه ، ويختتم خطابه لهم بوصفه بالغفران والرحمة ، فيقول : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدّر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ماتيسر منه ، وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأقرضوا الله قرضاً حسناً ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، هو خيراً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم » . فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة مدى الرفق فى خطاب المطيعين ، وما أعد لهم من رحمة وغفران ، فى مقابل مالدى الله من أنكال وجحيم لهؤلاء المكذبين .

أنت بذلك التحليل ترى مدى الترابط بين الأغراض المختلفة ، واتساق كل غرض مع صاحبه ، وحسن التخلص وطبيعة الانتقال من غرض إلى آخر . وتستطيع أن تمضى فى تحليل سور القرآن على هذا النسق ، وسوف ترى الربط بين الأغراض ، قوياً وثيقاً .

فإذا رأيت فى بعض السور بعض آيات يشكل عليك معرفة وجه اتساقها فى غرض السورة فتريث قليلا تر وجه المجىء بها قوياً ، ولعل من أبعد الآيات تعلقاً بسورتها فى الظاهر قوله تعالى فى سورة القيامة : « لا تحرّك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرآناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه » ، فإن السورة كلها حديث عن يوم القيامة وأحواله ، وأفضل ما رأيته فى توجيه هذه الآيات ما حكاه الفخر الرازى من « أنها نزلت فى الإنسان المذكور قبل فى قوله : « ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر » قال : « يعرض عليه كتابه ، فإذا أخذ فى القراءة تلجلج خوفاً ، فأسرع فى القراءة ، فيقال له : لا تحرك به لسانك ، لتعجل به ، إن علينا أن نجمع عملك ، وأن نقرأ عليك ، فاذا قرأناه عليك فاتبع قرآنه بالإقرار بأنك فعلت ، ثم إن علينا بيان أمر الإنسان ، وما يتعلق بعقوبته[1] » وإذا كنت أوافقه فى أصل الفكرة فإنى أخالفه فى تفصيلاتها ، فالمعنى ، على ما أرى ، ينبّأ الإنسان يومئذ بما قدّم وأخّر ، وذلك كما أخبر القرآن ، فى كتاب مسطور ، وفى تلك الآيات يصف القرآن موقف المرء من هذا الكتاب فهو يتلوه فى عجل كى يعرف نتيجته ، فيقال له : لا تحرك بالقراءة لسانك لتتعجل النتيجة ، إن علينا أن نجمع مافيه من أعمال فى قلبك ، وأن نجعلك تقرؤه فى تدبر وإمعان ، فإذا قرأته فاتجه الاتجاه الذى يهديك إليه ، وإن علينا بيان هذا الاتجاه وإرشادك إليه ، إما إلى الجنة ، وإما إلى السعير . وبذلك يتضح أن لا خروج فى الآيات على نظم

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٠٨ .

السورة وهدفها .

ذلك هو ما أراه فى ترتيب آيات القرآن الكريم وشدّة ما بينها من ارتباط ، وكان بعض العلماء يشعر بشدة صلة آى القرآن بعضها ببعض ، حتى يكون كالكلمة الواحدة ، ومن هؤلاء ابن العربىّ [١] . وممن عنى بدراسة التناسب بين الآيات أبو بكر النيسابورى « وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسىّ إذا قرىء عليه : لم جعلت هذه الآية إلى جانب هذه ، وما الحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة ؟ وممن أكثر منه فخر الدين ، قال فى تفسيره : أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط [٢] » .

لا أوافق إذاً عز الدين بن عبد السلام عند ما قال : « المناسبة علم حسن ، ولكن يشترط فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث ، فضلا عن أحسنه ، فإن القرآن نزل فى نيّف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض [٣] » . ولا أوافق أبا العلاء بن غانم فى قوله : « إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذى هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم ، وأن ليس فى القرآن شىء من حسن التخلص [٤] » .

لا أوافقهما ، وحجتى فى ذلك أمران : أما أولهما فما نراه من حسن التناسب وقوة الارتباط حقاً بين الآى بعضها وبعض ، محققة بذلك هدف القرآن كما تحدثنا ، ولعل عز الدين ومن لف لفه كان يرى التناسب يتم إذا جمعت آيات الأحكام مثلا

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٠٨ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع السابق نفسه .
(٤) المرجع السابق ص ١٠٩ .

كلها فى سورة واحدة أو عدة سور ، وجمعت القصص كلها كذلك فى سورة واحدة أو عدة سور ، وجمعت حوادث التاريخ كلها فى سورة واحدة أو عدة سور ، وهكذا ، وقد سبق أن بيَّنا أن هذا النهج لا يحقق الهدف الذى يرمى إليه القرآن من الإرشاد والهداية ، فليس القرآن كتاب قصص أو تاريخ ، ولكنه كتاب دين ، يرمى إلى التأثير فى النفس ، فهو يلقى العظة ، مبيِّناً ما فى اتباعها من خير ، وضارباً بالمثل من التاريخ على صدق ما ادعى ، ومستشهداً بقصص الأولين وآثارهم ، ومقنِّناً من الأحكام ما فيه خير الإنسانية وكمالها ، وكل ذلك فى تسلسل واطراد وحسن اتساق ، ترتبط المعانى بعضها ببعض ، ويؤدى بعضها إلى بعض .

أولا نرى فى هذا النهج القرآنى وسيلة لتكرير العظات والإنذار والتبشير فى صور متعددة مرات عدة ، وللتكرير ، كما قلنا ، أثره فى تثبيت المعنى فى النفس ، وبلوغ العظة والهدف الذى ترمى إليه ، ولن يكون للتكرير جماله إذا عمد القرآن إلى كل غرض على حدة فوضع آيه بعضها إلى جانب بعض .

وأما ثانيهما فتاريخى يعود إلى ترتيب الرسول للقرآن بأمر ربه ، فقد كانت تنزل عليه الآيات فيأمر كتبة الوحى أن يضعوها فى موضعها بين ما نزل من القرآن ، فى هذه السورة أو تلك ، ويضع بعض ما نزل فى مكة بين آيات السور المدنية ، فلولا أن رابطاً يجمع بين هذه الآيات بعضها وبعض ما كان ثمة سبب يدفع إلى هذا الوضع ولا يقتضيه ، بل لرتبت الآى كما نزلت وما كان هناك داع إلى ترتيب ولا تبويب ، أما والقرآن قد نزل للناس كافة ، وللأجيال جميعها فقد اختار الله لكتابه خير ترتيب يحقق الهدف الذى له نزل الكتاب الحكيم .

— ٢ —

وتبدأ سور القرآن مثيرة فى النفس الإجلال ، وباعثة فيها الشوق ، والرغبة فى تتبع القراءة ، والاستزادة منها ، فهى حيناً ثناء عليه تعالى بتعداد ما له من صفات العظمة والجلال ، كما فى قوله تعالى : « سبّح لله ما فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت ، وهو على كل شىء قدير ؛ هو الأوّل والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » ؛ وحيناً تعظيم من شأن الكتاب وتقدير له ، تقديراً يبعث على الإصغاء إليه وتدبرّ آياته ، كما فى قوله سبحانه : « تنزيل من الرّحمن الرّحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً » ، أولا ترى الشوق يملأ نفسك وأنت تصغى إلى مثل تلك الفاتحة : « تلك آيات الكتاب المبين » ، وكأنما هى تنبيه للسامع كى يستجمع كل ما يملك من قوة ، ليستمع إلى ما سيلقى إليه ، وكذلك يثور الشوق لدى سماع كل فاتحة فيها ثناء على الكتاب وتعظيم لأمره ، شوق يدعو إلى معرفة ما يحويه هذا الكتاب ، الذى يصفه حيناً بأنه يخرج من الظلمات إلى النور ، فى قوله : « كتاب أنزلناه إليك ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » ، وبأنه لا ريب فيه فى قوله تعالى : « ذلك الكتاب ، لا ريب فيه ، هدى للمتقين » .

وكثر فى القرآن البدء بالقسم ، وهو بطبيعته يدفع إلى التطلع لمعرفة المقسم عليه ، لأنه لا يلجأ إلى القسم إلا فى الأمور المهمة التى تحتاج إلى تأكيد وإثبات ، وقد يطول القسم فيطول الشوق ، وتأمّل جمال البدء بالقسم فى قوله تعالى : «والليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، وماخلق الذكر والأنثى ، إنسعيكم لشتى» . وكما يثير القسم الشوق والتطلع ، كذلك يثيرهما فى النفس الاستفهام والشرط ،

فى الاستفهام تتجمع النفس لمعرفة الجواب ، وفى الشرط تتطلع لمعرفة الجزاء ، وقد افتتحت عدة سور من القرآن بهما ، كما فى قوله تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا : آمنا ، وهم لا يفتنون » ، وقوله : « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت » .

وقد تبدأ السورة بنداء الرسول أو المؤمنين ، للأمر بشىء ذى بال ، أو النهى عن أمر شديد النكر ، أو تبدأ بخبر يثير الشوق ، أو تدخل السورة مباشرة فى الحديث عن الغرض الذى نزلت لأجله ، كما فى قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » وكأن فى ضخامة الغرض وقوته مايشغل عن التمهيد له ، بل كأن فى التمهيد إضاعة لوقت يحرص القرآن على ألا يضيع .

وقد يكون مفتتح السورة موحيا بفكرتها ، ومتصلا بها شديد الاتصال ، ومتناسباً معها شديد التناسب ، فمن ذلك سورة آل عمران التى افتتحت بقوله : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وقد عالجت السورة أمر عيسى ونزهت الله عن الولد ، أو لا ترى البدء مناسباً لهذا التنزيه ؟ ومن ذلك سورة النساء ، فقد تحدثت عن كثير من أحكامهن فى الزواج والميراث ، فكان من أجمل براعات الاستهلال قوله تعالى : « يأيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيبا » ، ألا ترى فى خلق المرأة من زوجها مايوحى بالرفق والحنان الذى يجب أن تعامل به المرأة ، فلا يبخس حقها زوجة أو أما أو بنتاً ، وفى الحديث عن تقوى الأرحام هنا إشارة كذلك إلى أن السورة ستعالج بعض أمورهم أيضاً ورثة يتامى ، وقل مثل ذلك فى أول الأنعام التى ترمى إلى إثبات توحيد الله ، إذ قال : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات

والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » ، فليس غير السموات والأرض شيء يبقى خلقه لغير الله .

— ٣ —

ولخاتمة السورة أثرها الباقى فى النفس ، لأنه آخر ما يبقى فى الذهن ، وربما حفظ دون باقى الكلام ، ومن أجل هذا كانت خواتم سور القرآن مع تنوعها تحمل أسمى المعانى وأنبلها ، فهى حيناً دعاء وابتهال يحمل النفس الإنسانية إلى عالم روحى سام ، يعترف فيه الإنسان بعجزه أمام قدرة الله ، ويطلب من هذه القوة القاهرة أن تعينه وأن تنصره ، أو لا يشعر المرء حين يلتجىء إلى هذه القوة بأنه ألقى ثقله ، وتخفف من عبئه ، كما تجد ذلك فى ختام سورة البقرة إذ يقول سبحانه « ربنا ، لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ، ولا تحمل علينا إصراً ، كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ، ولا تحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » أو لا يؤذن هذا الدعاء بعد سورة اشتملت على كثير من الجدل والنقاش ، وجملة كبيرة من الأحكام بأن السعادة الحقة إنما هى فى هذا الالتجاء إلى الله ، واستمداد القوة من قدرته ، وبذا كان هذا الدعاء مؤذناً بالانتهاء ، باعثاً برد الراحة فى الفؤاد ، بعد معركة طال فيها بيان الحق ، ومناقشة الباطل وهدمه .

وحيناً حديث عن الله بإجلاله وتقديسه ، أو بتعداد صفاته الباعثة على حبه وإجلاله معاً ، فتراه فى ختام سورة المائدة يقول : « لله ملك السموات والأرض ، وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير » ، وفى ختام سورة الإسراء يقول : « وقل : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ، ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولىّ من الذل ، وكبره تكبيراً » إلى غير ذلك من سور كثيرة ، وكأن فى هذا الختام

خلاصة الدعوة التى تهدف السورة إليها ، فكان ذكره مؤذناً بانتهائها ، كما تذكر خلاصة الكتاب فى نهايته .

وفى أحيان كثيرة تختم السورة بما يشعر بأن القرآن قد أدى رسالته ، فعلى السامع أن يتدبر الأمر ، ليرى أى الطرفين يختار ، والختم بذلك يبعث فى نفس القارىء التفكير أيؤثر الهدى أم يختار الضلال ، فتراه مثلا فى نهاية سورة براءة يقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » ، أو تختم بإنذار أو وعد أو أمر بركن من أركان الحياة الرفيعة الصالحة ، فيختم آل عمران بقوله : « يأيها الذين آمنوا ، اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله ، لعلكم تفلحون » .

وقل أن تختم السورة بحكم تشريعى جديد ، كما فى سورة النساء . وفى كل ختام تشعر النفس بأن المعانى التى تناولتها السورة قد استوفت تمامها ، ووجدت النفس عند الخاتمة سكونها وطمأنينتها ، حتى إن السورة التى ختمت باستفهام لم يشعر المرء عنده بنقص يحتاج إلى إتمام ، بل كان جوابه مغروساً فى القلب ، مستقراً فى الضمير ، فتم بالاستفهام معنى السورة ، وأثار فى النفس ما أثار من إقرار لا تستطيع تحولا عنه ولا إخفاء له .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الرابع

أسلوب القرآن

أول ما يتسم به أسلوب القرآن هو الفخامة والقوة والجلال ، يكتسبها من انتقاء ألفاظ ، لا امتهان فيها ولا ابتذال ، ومن استخدام ألوان التوكيد والتكرير . تشعر بهذه الفخامة فى كل ماتناوله القرآن من الأغراض ، واستمع إليه يصف جنة الخلد قائلا : « إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم ، ولقّاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك ، لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها ، وذللّت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير ، قوارير من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ، وإذا رأيت ثمّ رأيت نعيما وملكاً كبير ، عاليهم ثياب سندس خضر ، وإستبرق ، وحُلّوا أساور من فضة ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء ، وكان سعيكم مشكورا » . وهكذا يكتسب الأسلوب القرآنىّ قوّته من اختيار ألفاظه وموسيقاه .

وثانى مايتصف به التصوير ، وقد أوضحنا بعض ذلك فيمامضى ، عندماتحدثنا عن تخيرّ اللفظ فى الجملة ، وعن التصوير بالتشبيه والاستعارة . ونضيف إلى ذلك أنه كثيراً ما ينقل الحوار ، ويحكى نص القول بعثا للحياة فى الأسلوب ، واستمع إلى ألوان الحوار فى قوله تعالى : « فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، أو كذب

بآياته ، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ، حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفّونهم ، قالوا : أين ما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ؛ وشهدو اعلى أنفسهم أنهم كانوا كافرين ؛ قال : ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا ادّاركوا فيها جميعا ، قالت أخراهم لأولاهم : ربنا ، هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفامن النار ، قال : لكل ضعف، ولكن لاتعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » . والحوار كما ترى ينقل الحقيقة أمامك مصورة .

وثالث ما يختص به هذا الانسجام الموسيقىّ ، الذى فيه تؤلف العبارةمن كلمات متسقة ، ذات حركات وسكنات ، يشعر المرء عند تلاوتها بما يكمن وراء هذا النظام من موسيقى واتساق ، وإن هذه الموسيقى التى تكمن وراء هذا النظم هى التى مكنت المرتلين من تلاوته بهذه الأنغام الموسيقية . وإن شدّة هذا الانسجام يصل فى بعض الأحيان إلى أن تتفق الآية مع وزن بحر من بحور الشعر ، كما نرى ذلك فى قوله تعالى : « وجفان كالجواب ، وقدور راسيات » فهى تتفق مع بحر الرمل ، وقوله تعالى : « من تزكى فإنما يتزكى لنفسه » مما يتّزن على بحر الخفيف ، وقوله تعالى : « هيهات هيهات لما توعدون » ، مما هو شطر بيت من بحر السريع ، وقوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب » ، مما يوزن على بحر المتقارب ، وقوله سبحانه : « ودانية عليهم ظلالها ، وذللت قطوفها تذليلا » ، وبإشباع حركة الميم يوزن على بحر الرّجز ، وقوله تعالى : « ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » وزنوه على بحر الوافر ، وقوله تعالى : « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا » وما على شاكلته ، مما يوزن على بحر البسيط . وليس ذلك بمدخل القرآن فى الشعر ، لأنه « إنما يطلق متى قصد القاصد إليه ، على الطريق الذى يعتمد ويسلك ، ولا يصح أن يتفق مثله

إلا من الشعراء، دون ما يستوى فيه العامىّ والجاهل، والعالم بالشعر واللسان وتصرّفه، وما يتفق من كل واحد، فليس يكتسب اسم الشعر، ولا صاحبه اسم شاعر، لأنه لو صح أن يسمى شاعراً كل من اعترض فى كلامه ألفاظ تتزّن بوزن الشعر، أو أن تنتظم انتظام بعض الأعاريض، كان الناس كلهم شعراء، لأن كل متكلم لا ينفك من أن يعرض فى جملة كلامٍ كثير يقوله ما قد يتزّن بوزن الشعر، وينتظم انتظامه، ألا ترى أن العامى قد يقول لصاحبه: « أغلق الباب، وائتنى بالطعام » ... ومتى تتبّع الإنسان هذا عرف أنه يكثر فى تضاعيف الكلام مثله وأكثر منه[1] ».

ويتسم الأسلوب القرآنى بالهدوء عندما يتطلب الأمر هدوءاً وتأملا وفضل تدبر، كما فى الآيات التى تدعو إلى إعمال الفكر، وفى القصص والأخبار والأحكام، كما فى قوله تعالى: « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخّر الشمس والقمر، كل يجرى لأجل مسمى، يدبر الأمر، يفصّل الآيات، لعلكم بلقاء ربكم توقنون، وهو الذى مدّ الأرض، وجعل فيها رواسى وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفى الأرض قطع متجاورات، وجنات من أعناب، وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، يسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل، إن فى ذلك، لآيات لقوم يعقلون؛ وإن تعجب فعجب قولهم: إئذا كنا تراباً أئنّا لفى خلق جديد؟ أولئك الذين كفروا بربهم، وأولئك الأغلال فى أعناقهم، وأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون، ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة، وقد خلت من قبلهم المثلات، وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم، وإن ربك لشديد العقاب ». وقوله تعالى: « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر: أتتخذ

---

(١) إعجاز القرآن ص ٥٧.

أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربى ؛ فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ؛ فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ؛ فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم ، إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا ، وما أنا من المشركين ، وحاجّه قومه ، قال . أتحاجُّونى فى الله ، وقدهدان ؟ ولا أخاف ماتشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزّل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .

وحينا يتدفق الأسلوب ويندفع ، فى جمل قصيرة ، مثيراً بذلك الانفعال السريع العنيف ، وذلك حيث يتطلب هجوم الحق على الباطل هذا العنف المثير ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « أم اتخذوا آلهة من الأرض ، هم ينشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش ، عما يصفون ، لايسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لايعلمون الحق ، فهم معرضون » . وقوله تعالى : « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا ، إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكّر وقدّر ، فقتل ، كيف قدّر ؟ ! ثم قتل ، كيف قدّر ؟ ! ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ، وما أدراك ما سقر ، لا تبقى ولا تذر » أو عندما يتطلب الأمر

إسراعا كما فى قوله تعالى : « يأيها المدّثر ، قم فأنذر ، وربك فكبّر ، وثيابك فطهّر ، والرُّجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر » .

وأسلوب القرآن منه المسجوع ومنه المرسل ، وهو فى كليهما يخالف غالباً ما ألف الناس فى السجع والإرسال ، فالقرآن يلتزم حرف السجع فى أكثر من آيتين ، بل قد تكون السورة كلها على حرف واحد ، كسورة القمر ، التى التزم فيها حرف الرّاء ، ومن أمثلة ما تعدى فيه السجع جملتين ، قوله تعالى : « عبس وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، ومايدريك لعله يزّكّى ، أو يذّكر فتنفعه الذّكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدّى ، وما عليك ألا يزّكّى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهّى » .

وقد يأتى بين الجمل المسجوعة بجملة لاتتفق فاصلتها مع ماسبقها ولحقها ، وكأنما تلك الكلمة تتطلب عناية خاصة ، تستدعى قدراً كبيراً من الرعاية ، تثيره هذه المخالفة لنسق الآيات ، كقوله تعالى : « من نطفة خلقه ، فقدّره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته ، فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا ، لما يقض ما أمره ، فلينظر الإنسان إلى طعامه ، إنا صببنا الماء صبّا ، ثم شققنا الأرض شقّا ، فأنبتنا فيها حبّا ، وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلا ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبّا ، متاعا لكم ولأنعامكم ، فإذاجاءت الصّاخّة ، يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » ، فَأَنْتَ تَرى كلمَتَىْ : طعامه والصاخة ، بخروجهما على النسق ، قد أثارا انتباه السامع ، ودفعاه إلى التريث وإنعام النظر . كما أنك ترى فى الآيات السالفة أن الكلمة قد تحافظ على وزن زميلتها فى السجع لا فى الحرف الأخير ؛ كما نجد ذلك فى قضباً ونخلا ، وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك فى فصل الفاصلة .

وقد تكون الجملتان المسجوعتان متوازنتين فى القصر ، كما فى قوله تعالى : « إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا الوحوش حشرت . . . » ، وحيناً تتوازنان فى الطول ، ولا يكون باقياً من مظاهر السجع سوى هذه الفاصلة التى تتفق فى آخر الآيات ، أما الآيات نفسها فمرسلة ، وإن كانت لا تتفق مع مرسل كلام الناس ، لوجود الفاصلة المتحدة أو المتماثلة فى آخرها ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناء ، وصوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم ، فتبارك الله رب العالمين ، هو الحى ، فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ، قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ، لمّا جاءنى البينات من ربى ، وأمرت أن أسلم لرب العالمين ؛ هو الذى خلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون » ؛ وفى هذه الأيات فضلا عن ذلك ، مظهر من مخالفة السجع القرآنى لسجعنا العادى ، فبينا يجلب تكرير الكلمة ، لغير تورية أو جناس ، ضعفا فى التأليف ، إذا به فى نظم الآى يزيدها جمالا ورونقا ، وكأنما هذه الكلمة لازمة النشيد ، تكرر فتزيده حسنا وحلاوة .

وقد تتوأزن الآى القرآنية من غير سجع ، كما فى قوله تعالى : « إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجّا ، وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا ، وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة » .

وفى القرآن إرسال ، كما فى قوله تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم

الآخر ، يوادّون من حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، رضى الله عنهم ، ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ؛ ألا إن حزب الله هم المفلحون » . وهو يخالف إرسالنا العادى بهذه الفواصل فى آخره كما ذكرنا .

الكتاب الثانى

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

الفصل الأول

المعانى القرآنية

سنتناول فى هذا الفصل بعض ما أورده القرآن من المعانى ، مبينين النواحى التى تناولها القرآن منها ، فلاختيار عناصر الموضوع قيمته فى التأثير فى النفس الإنسانية ، فليس رونق اللفظ وحده هو الذى له السلطان على النفوس ، ولكن لجوانب المعانى التى عولجت وعلاقتها بالعواطف الإنسانية والغرائز البشرية أثر فى السيطرة على الأفئدة ، وامتلاك جوانب القلب ، بل إن السحر كل السحر إنما هو فى المقدرة على انتقاء هذه المعانى ، والمقدرة على حسن التعبير عنها ، وهاك بعض ما تحدث عنه القرآن .

الله

صور القرآن الله المثل الأعلى فى جميع صفات الكمال ، فهو السميع الخبير ، على كل شىء قدير ، غفور رحيم ، عزيز حكيم ، حى قيوم ، واسع ، عليم ، بصير بالعباد ، يحب المحسنين والصابرين ، ولا يحب الظالمين ، ويمحق الكافرين ، غنى حميد ، واحد قهار ، نور السموات والأرض ، قوى ، شديد العقاب ، خالق كل شىء ، لا إله إلا هو ، على كل شىء شهيد ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، الأول والآخر ، والظاهر ، والباطن ، والصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ،

سريع الحساب ؛ غنى عن العالمين ، عليم بذات الصدور ، بكل شىء محيط ، علىّ كبير ، عفو غفور ، شاكر حليم ، ليس بظلام للعبيد ، يجـــزى المتصدقين ، ولا يهدى كيد الخائنين ، لا يخلف الميعاد ، عزيز ذو انتقام ، خير الرازقين ، لطيف خبير ، ذو القوة المتين . أوليس من يتصف بهـذه الصفات المثالية جديراً بالعبادة والتقديس ، وألا يتخذ له شريك ، ولا من دونه إله .

ومن بين ماعنى القرآن به أكبر عناية إبراز صفة الإنعام التى يتصف بهـا الله سبحانه ؛ فيوجه أنظارهم إلى النعمة الـكبرى التى أودعها قلوبهم ، وهى نعمة الهدوء والسكينة يحسون بها ، عند ما يعودون إلى بيوتهم ، مكدودين منهوكى القوى . وإلى هدايتهم إلى بناء بيوت من جلود الأنعام ، يجدونها خفيفة المحمل فى الظعن والإقامة . وإلى اتخاذ أثاثهم وأمتعتهم من أصوافها وأوبارها . وإلى نعمة الظل يجدون عنده الأمن والاستقرار . وإن للشمس وحرارتها لوقعاً مؤلما فى النفوس وعلى الأجسام . ومن أجل وسائل الاستتار هذه الثياب تقى صاحبها الحر ، وبها تتم نعمة الله ، فيقول : « والله جعل لـكم من بيوتـكم سكنا ، وجعل لـكم من جلود الأنعام بيوناً تستخفونها يوم ظعنـكم ، ويوم إقامتـكم ، ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ، والله جعل لـكم مما خلق ظلالا ، وجعل لـكم من الجبال أكنانا ، وجعل لـكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم ، لعلـكم تسلمون » . ويوجه أنظارهم إلى مافى خلق الزوج من نعمة تسكن إليها النفس ، وتجد فى ظلها الرحمة والمودة ، فيقول : « ومن آياته أن خلق لـكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها : وجعل بينكم مودة ورحمة ؛ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » . وهوالذى يرزقهم ، ويرزق ماعلى الأرض من دواب ، لا تستطيع أن تتكفل برزق نفسها ، « وكأين من دابة لا تحمل رزقها ، الله يرزقها وإياكم . وهو السميع العليم » ؟ وينبههم إلى مافى اختلاف الليل

والنهار من تجديد النشاط للجسم ، وبعث القوة فى الأحياء ، وما فى الفلك المسخرة تنقل المتاجر فوق سطح البحر ، فتنفع الناس ، وفى الماء ينزل من السماء فيحيي الأرض بعد موتها ، وفى الرياح تحمل السحاب المسخر بين السماء والارض ، ينبههم إلى ذمع ذلك كله فيقول : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ويسأل عمن يلجئون إليه ، حين يملأ قلبهم الرعب من ظلمة البر والبحر ، أليس الله هو الذى ينجيهم منه ومن كل كرب، فيقول : «قل : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟ تدعونه تضرعاً وخفية ، لئن أنجانا من هذه ، لنكونن من الشاكرين ، قل : الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون » ويحدثهم عن نعمة تبادل الليل والنهار ، وعما خلق له الليل من نعمة الهدوء والسكون ، وعن الشمس والقمر يجريان فى دقة ونظام فيحسب الناس بهما حياتهم ، وينظمون أعمالهم ، وعن النجوم فى السماء تزينها كمصابيح ، ويهتدى بها السائر فى ظلمات البر والبحر ، وعن المطر ينزل من السماء ، فتحيا به الأرض وتنبت به الجنات اليانعة ، ذات الثمار المشتبهة وغير المشتبهة ،وكان للمطر فى الحياة العربية قدره وأثره ، فعليه حياتهم ، فلا جرم أكثر القرآن من الحديث عنه نعمة من أجل نعمه عليهم ، فيقول : « فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً ، والشمس والقمر حسباناً ، ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم ، لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفسٍ واحدةٍ ، فمستقرٌ ومستودع ، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضراً ، نخرج منه حباً متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان

دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان ، مشتبهاً وغير متشابهة ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » ، وتحدّث عن هذه النعم نفسها مراراً أخرى ، كقوله : « الله الذى خلق السموات والأرض ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم ، الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار » . وتحدث إليهم عما أنعم به عليهم من أنعام ، فيها دفء ومنافع ، وجمال ، وعاد فذكرهم بنعمة المطر وإنباته الزرع ، وخص البحر بالحديث عن تسخيره ، وما نستخرجه منه من اللحم والحلى ، وما يجرى فوقه من فلك تمخر عبابه ، فقال ، : « والأنعام خلقها لكم ، فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال ، حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير ، لتركبوها وزينة ، ويخلق مالا تعلمون ؛ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر ، لتأكلوا منه لحماً طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وانهاراً وسبلا ، لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ؟ ! وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » ، وللأنعام فى حياة العرب بالبادية ما يستحق

أن يذكروا به ، وأن يسجل فضله عليهم بها . ويوجه القرآن نظرهم إلى خلقهم وما منحهم الله من نعمة السمع والبصر والعقل ، فيقول : « قل هو الذى أنشأكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلاما تشكرون » . وكثيراً ماامتنّ عليهم بنعمة الرزق ، فيقرّرها مرة ، ويقررهم بها أخرى ، فيقول حيناً : « الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناء ، وصوّركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربُّكم ، فتبارك الله رب العالمين » ، ويقول حيناً : « قل : من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحىّ من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدّبر الأمر ، فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون » ؛ ويسترعى انتباههم إلى طعامهم الذى هو من فيض فضله ، فيقول : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنّا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا فيها حباً ، وعنباً وقضبا ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلبا ، وفاكهة وأبّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم » .

وإن فى إكثار القرآن من الحديث عن هذه النعم ، وتوجيه أنظارهم إليها ، وتقريرهم بها ، مايدفعهم إلى التفكير فى مصدرها ، وأنه جدير بالعبادة ، وما يثير فى أنفسهم شكرها ، وتقديس بارئها ، ولا سيما أن تلك النعم ليست فى طاقة بشر ، وأنها باعترافهم أنفسهم من خلق العلىّ القدير . وهكذا يتكىء القرآن على عاطفة إنسانية يثيرها ، لتدفع صاحبها عن طريق الإعجاب حيناً ، والاعتراف بالجميل حيناً ، إلى الإيمان بالله وإجلاله وتقديسه . كما أن ذلك الوصف يبعث فى النفس حب الله المنعم ، فتكون عبادته منبعثة عن حبه وشكر أياديه .

ومما عنى القرآن بإبرازه من صفات الله وحدانيته ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، وقد أبرز القرآن فى صورة قاطعة أنه لايقبل الشرك ولا يغفره : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد

انترى إثماً عظيماً » ؛ ويعد الإشراك رجساً فيقول : « يأيها الذين آمنوا ، إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام ، بعد عامهم هذا . . . »

أوَ ليس فى هذا التصوير ما يبعث فى النفس النفور منه والاشمئزاز ؟ !

والقرآن يعرض لجميع ألوان الإشراك ، فيدحضها ويهدمها من أساسها، فعرض لفكرة اتخاذ ولد ، فحدثنا فى صراحة عن أنه ليس فى حاجة إلى هذا الولد ، يعينه أو يساعده ، فكل من فى الوجود خاضع لأمره ، لايلبث أن ينقاد إذا دعى ، « وقالوا : اتخذ الله ولدا ، سبحانه ، بل له ما فى السموات والأرض ، كل له قانتون ، بديع السموات والأرض ، وإذا قضى أمراً ، فإنما يقول له : كن ، فيكون » ، وحيناً يدفع ذلك دفعاً طبيعياً بأن الولد لايكون إلا إذا كان ثمة له زوجة تلد ، أما وقد خلق كل شىء ، فليس ما يزعمونه ولداً سوى خلق ممن خلق « بديع السموات والأرض ، أنّى يكون له ولد ، ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء ، فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل » .

ويعرض مرة أخرى لهذه الدعوى ، فيقرر غناه عن هذا الولد ، ولِمَ يحتاج إليه ، وله ما فى السموات وما فى الأرض ، فيقول : « قالوا : اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات ومافى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لاتعلمون ؟ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » ، ويعجب القرآن كيف يخيل للمشركين عقولهم أن يخصوا أنفسهم بالبنين ، ويجعلوا البنات لله ، فيقول : « أفأصفاكم ربكم بالبنين ، واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيما » .

ويصور القرآن — فى أقوى صور التعبير — موقف الطبيعة الساخطة

المستعظمة نسبة الولد إلى الله ، فتكاد — لشدة غضبها — أن تنفجر غيظاً ، وتنشق ثورة ، وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء ، وضخامة هذا الكذب ؛ وأصغ إلى تصوير هذا الغضب فى قوله : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال هدّا ، أن دعوا للرحمن ولدا » ؛ أما هؤلاء الذين دعوهم أبناء الله ، فليسوا سوى عباد مكرمين ، خاضعين لأمره ، ولن يجرؤ واحد منهم على ادعاء الألوهية ، أما من تجرأ منهم على تلك الدعوى فجزاؤه جهنم ؛ لأنه ظالم مبين ، وهل هناك أقوى فى هدم الدعوى من اعتراف هؤلاء العباد أنفسهم الذين يدعونهم أبناء ، بأنهم ليسوا سوى عبيد خاضعين ، ومن جرؤ منهم على دعوى الألوهية كان جزاؤه عذاب جهنم خالداً فيها ، قال تعالى : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وماخلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم : إنى إله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين » .

وعلى هذا النسق نفسه جرى فى الرد على من زعم ألوهية المسيح ، فقد جعل المسيح نفسه يتبرأ من ذلك وينفيه ، إذ قال : « وإذ قال الله : ياعيسى بن مريم ، أأنت قلت للناس : اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، مايكون لى أن أقول ماليس لى بحق ، إن كنت قلته ، فقد علمته ، تعلم مافى نفسى ، ولا أعلم مافى نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ماقلت لهم إلا ما أمرتنى به : أن اعبدوا الله ربى وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ، وأنت على كل شىء شهيد » .

وتعرض القرآن مراراً لدعوى ألوهية عيسى ، وقوض هذه الدعوى من أساسها ، بأن هذا المسيح الذى يزعمونه إلهاً ، ليس لديه قدرة يدفع بها عن نفسه إن

أراد الله أن يهلكه ، وأنه لا امتيازله على سائر المخلوقات ، بل هو خاضع لأمره ، مقر بأنه ليس سوى عبد لله ، وليس المسيح وأمه سوى بشرين يتبوّلان ويتبرّزان . أوَ تقبل الفطرة الإنسانية السليمة أن تتخذ لها إلهاً هذا شأنه ، لا يتميز عن الناس فى شىء ، ولا يملك لهم شيئاً من الضر ولا النفع ، ولننصت إلى القرآن مهاجماً دعوى ألوهية عيسى قائلا : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، قل : فمن يملك من الله شيئاً ، إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ؟ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء ، والله على شىء قدير . لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم ، وقال المسيح : يابنى إسرائيل ، اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله ، فقد حرّم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ، ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ، ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنّى يؤفكون ، قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ، والله هو السميع العليم » .

وإن الغريزة لتنأى عن عبادة من لا يملك الضرر ولا النفع . وتأمل جمال الكناية فى قوله : «يأكلان الطعام» . والمسيح مقر — كما رأيت — بعبوديته ، ولا يستنكف أن يكون لله عبداً ، « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر ، فسيحشرهم إليه جميعاً » .

وهاجم القرآن بكل قوة الإشراك بالله ، وهو يهاجم ببلاغته العقل والوجدان معاً ، فيأخذ فى نقاش المشركين ، ليصلوا إلى الحق بأنفسهم ، ويلزمهم الحجة ، ويقودهم إلى

الصواب ، فيسألهم عمن يرزقهم ، ومن يملك سمعهم وأبصارهم ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر أمر العالم ، ومن يبدأ الخلق ثم يعيده ، ومن يهدى إلى الحق ؟ وإذا كان المشركون أنفسهم يعترفون بأن ذلك إنما هو من أفعال الله ، فما قيمة هؤلاء الشركاء إذاً ، ومامعنى إشراكهم لله فى العبادة ، أوَ ليس من يهدى إلى الحق جديراً بأن يعبد ويتّبع ؟ أما من لايهتدى إلا إذا اقتيد فمن الظلم عبادته ، ومن الجهل اتباعه ، وليست عبادة هؤلاء الشركاء سوى جرى وراء وهم لا يغنى من الحق شيئاً . وتأمل جمال هذا النقاش الذى يثير التفكير والوجدان معاً : يثير التفكير بقضاياه ، ويثير الوجدان بهذا التساؤل عن الجدير بالاتباع ، وتصويره المشرك ، مصروفا عن الحق ، مأفوكا ، ظالماً ، يتبع الظن الذى لايغنى عن الحق شيئاً ، وذلك حين يقول : « قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبّر الأمر ؟ فسيقولون : الله ، فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنّى تصرفون ؟ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون . قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، فأنّى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل : الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحقُّ أن يتبع ؟ أم من لايهدى إلا أن يهدى ؟ فمالكم كيف تحكمون ؟ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، إن الظن لايغنى من الحق شيئاً ، إن الله عليم بما يفعلون » ، وفى التحدث إليهم عن الرزق ، وهدايتهم إلى الحق ، مايثير فى أنفسهم عبادة هذا الذى يمدهم بالرزق ، ويهديهم إلى الحق ، واستمع إلى هذا النقاش الذى يحدثهم فيه عن نعمه عليهم ، متسائلا : أله شريك فى هذه النعم التى أسداها ، وإذا لم يكن له شريك فيما أسدى ، فكيف يشرك به غيره فى العبادة ؟ فقال مرة:

« قل ، الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير أم ما يشركون ؟ أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهاراً ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون ، أم من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض ، أإله مع الله ؟ قليلا ماتذكرون ؛ أم من يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، أإله مع الله ؟ تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، ومن يرزقكم من السماء والأرض ، أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » أوَ ليس فى إنبات الحدائق ذات البهجة ، وتسيير الأنهار خلال الأرض ، وإجابة المضطر إذا دعا ، وكشف السوء ، وجعلهم خلفاء الأرض ، ما يبعث الابتهاج فى النفس والحب لله ، ويدفع إلى عبادته وتوحيده ، مادام هو الملجأ فى الشدائد ، والهادى فى ظلمات البر والبحر ، ومرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ؟ ومرة يسائلهم قائلا : « وهو الله لا إله إلاهو ، له الحمد فى الأولى والأخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بضياء ؟ أفلا تسمعون ؟! قل : أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون ؟! ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار ، لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ؟ أو ليس فى الليل السرمد والنهار السرمد مايبعث الخوف فى النفس ، والحب لمن جعل الليل والنهار خلفة ؟! .

وكثيراً ما تعجب القرآن من عبادتهم مالا يضر ولا ينفع . والقرآن يبعث الخوف من سوء مصير هؤلاء المشركين يوم القيامة ؛ فمرة يصورهم محاولين ستر

جريمتهم بإنكارها ، حين لا يجدون لها سنداً من الحق والواقع ، فيقول : «ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ؟ . لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ، ما كنا مشركين ! انظر كيف كذبوا على انفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ! » .

وحيناً يصورهم ، وقد تبرأ شركاؤهم من عبادتهم ، فحبطت أعمالهم ، وضل سعيهم ، وذلك حين يقول : « ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ، فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون ؛ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين ، هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

وحيناً يصورهم هلكى فى أشد صور الهلاك وأفتكها ، إذ يقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » أما المصير المنتظر لمن يشرك بالله فأن يلقى فى جهنم ملوماً مدحورا .

ومن أبرز صفات الله فى القرآن قدرته ، ويوجّه النظر إلى مظاهرها ، ويأخذ بيدهم ليدركوا آثار هذه القدرة ، مبثوثة فى أرجاء الكون وفى أنفسهم ، فهذه الأرض هو الذى بسطها فراشاً ، وتلك السماء رفعها بناء ، وهذه الجبال بثها فى الأرض أوتاداً ، وهذه الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ووجه النظر إلى هذه الحبوب فلقها بقدرته ، كما فلق النوى ليخرج منه النخل باسقات ، ويوجه أنظارهم إلى ألوان المخلوقات وأنواعها « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شىء قدير » ؛ « ومن آياته أن خلقكم من تراب ، ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته

خلق السموات والأرض، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إنّ فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً ، وينزل من السماء ماء ، فيحيى به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » ، « خلق السموات بغير عمد ترونها ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ، وبث فيها من كل دابة ، وأنزلنا من السماء ماء ، فأنبتنا فيها من كل زوج كريم » ، ويوجّه النظر إلى توالى الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، فيقول : « ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل ، وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى إلى أجل مسمًّى ، وأن الله بما تعملون خبير ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير » ؛ وكرر ذلك مراراً عدة كقوله : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها ، وزيّناها ، وما لها من فروج، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ؛ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ، فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » ؛ ويوجه أنظارهم إلى قدرته فى خلقهم ، إذ يقول : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم » ، ويقول : « يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق ، فى ظلمات ثلاث ، ذلكم الله ربكم ، له الملك ، لا إله إلا هو ، فأنى تصرفون » .

صوّر القرآن قدرة الله الباهرة التى لا يعجزها شىء ، والتى يستجيب لأمرها كل شىء ، بهذا التصوير البارع إذ قال : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون » .

ولما وجّه النظر إلى مظاهر قدرته ، اتخذ ذلك ذريعة إلى إقناعهم بأمر البعث ؛ فحيناً يتساءل أمن خلق السموات والأرض ، ولم يجد مشقة فى خلقهما يعجز عن إحياء الموتى ، فيقول : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى ؟ بلى إنه على كل شىء قدير » ؛ ويقرر أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ، ولذا صح هذا التساؤل ليقروا : « أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ؟ ! رفع سمكها فسوّاها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم » .

وسوف نكمل الحديث عن ذلك فى فصل اليوم الآخر .

ومن أظهر صفات الله فى القرآن علمه ، وإحاطة علمه بكل شىء فى الأرض وفى السماء « وما يغرب عن ربك من مثقال ذرّة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا فى كتاب مبين » ، ويقول على لسان لقمان لابنه : « يابنى ، إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة ، أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير » ، أرأيت هذا التصوير المؤثر لإحاطة علم الله بكل شىء ، فلا يغيب عنه موضع ذرّة بين طيات صخرة ، أو فى طبقات السموات ، أو فى أعماق الأرض ، ويعلم الله الغيب ، ومن ذلك ما يرونه بأعينهم فى كل يوم من أمور غيبيّة ، يدركون أنها مستورة عليهم ، مع قرب بعضها منهم ، إذ يقول : « إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير » . « وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى » ، واقرأ هذا التصوير الشامل لعلمه فى قوله : « وعنده مفاتح الغيب ، لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر

والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » ، وهكذا يصور القرآن شمول علم الله تصويراً ملموساً محساً .

ومن أظهر صفاته كذلك شدة قربه إلى الناس ، « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شىء عليم » . وأمر الرسول بأن يخبر الناس بقربه ، يسمعهم ويصغى إليهم إذا دعوا ، فقال : «وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداعى إذا دعان» ، ولا يستطيع فرد أن يعيش بعيداً عن عينه ، « يعلم ما يلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم ، والله بما تعملون بصير» . بل هو أقرب شىء إلى الإنسان . يعلم خلجات نفسه ، ويدرك أسراره وخواطره لا يغيب عنه منها شىء ، « ولقد خلقنا الإنسان ، ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .

والعدل ، وقد أطال القرآن فى تأكيد هذه الصفة ، وأكثر من تكريرها ، فكل إنسان مجزىٌّ بعمله « وما الله يريد ظلماً للعالمين » ، « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » ، ويقرر فى صراحة « إن الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » و « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » .

وإن فى تقرير هذه الصفات وتأكيدها لدفعا للمرء إلى التفكير قبل العمل ، كى لا يغضب الله العالم بكل صغيرة وكبيرة تصدر منه ، والقريب إليه قرباً لا قرب أشد منه ، وفى تأكيد صفتى العلم والقرب ما يبعث الخجل فى الإنسان من أن يعمل ما يغضب الله وما حرمه ، وفى تأكيد صفة العدل ما يبعث على محاسبة

النفس لأن الخير سيعود إليها ثوابه ، والشر سيرجع عليها عقابه .

وكان وصف القرآن لله بالرحمة والرأفة والحلم والغفران والشكر ، أكثر من وصفه بالانتقام وشدة العذاب ، بل هو عندما يوصف بهما ، تذكر إلى جانبهما أحياناً صفات الرحمة ؛ فكثيراً ما يكرّر القرآن معنى قوله : « إن الله بالناس لرءوف رحيم » وقوله : « ومن يعمل سوءاً ، أو يظلم نفسه ، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما» ، وأكّد هذا الوصف حتى قال : « كتب ربكم على نفسه الرّحمة: أنه من عمل منكم سوءاً بجهاله ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم » ، « وقل : رب ، اغفر ، وارحم ، وأنت خير الراحمين » ، « أنت وليّنا فاغفر لنا ، وارحمنا ، وأنت خير الغافرين » . ويفتح باب رحمته وغفرانه ، حتى لمن أسرف ولج فى العصيان ، إذ يقول : « قل: ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم » ، وبذلك كانت الصورة التى رسمها القرآن مليئة بالأمل والرجاء ، تحيى فى النفس التفاؤل ، كما أن كثرة وصفه بالرحمة وأخواتها ، تجعل عبادة الله منبعثة عن الحب ، أكثر منها منبعثة عن الرهبة والخوف ، ولكن لما كان كثير من النفوس يخضع بالرهبة دون الرغبة وصف القرآن الله بالعزة والانتقام وشدة العذاب ، يقرن ذلك بوصفه بالرحمة حيناً ، ولا يقرنها بها حينا آخر ، فيقول مرة : « اعلموا أنّ الله شديد العقاب ، وأن الله غفور رحيم » ، « غافر الذنب ، وقابل التّوب ، شديد العقاب ، ذى الطول » ، « إن ربك لذو مغفرة ، وذو عقاب أليم » ، ويقول أخرى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » ، « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » ، « إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ، والله عزيز ذو انتقام » ، « ومن يضلل الله ، فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل ، أليس الله بعزيز ذى انتقام » وبرغم

وصفة بالعزّة والانتقام والجبروت كانت الصفة الغالبة فى القرآن هى الإنعام والرحمة والتّفضّل وأنه الملجأ والوزر ، يجيب المضطرّ إذا دعاه ، ويكشف السوء ، وينجّى فى ظلمات البرّ والبحر ، فهى صورة محبّبة إلى النفوس ، تدفع إلى العبادة ، عبادة من هو جدير بها ، لكثرة فضله وخيره وإنعامه .

وأفحم القرآن من ادّعى الألوهية من البشر إفحاماً لا مخلص له منه ، وذلك فى الحديث الذى دار بين إبراهيم وهذا الملك الذى ادعى أنه إله ، إذ يقول : « ألم تر إلى الذى حاجّ إبراهيم فى ربّه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم : ربّى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى ، وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وأرشد القرآن إلى أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يرشدان إلى وجود الله ، ويدلاّن على وحدانيته ، فهذا إبراهيم قد وجد قومه يتخذون أصناماً آلهة ، فلم ترقه عبادتهم ، فمضى إلى الكون يلتمس إلهه ، فلما رأى نورا يشع ليلاً من كوكب فى الأفق ظنه إلهاً ، ولكنه لم يلبث أن رآه قد أفل ، فأنكر على نفسه اتخاذ كوكب يأفل إلهاً ، إذ الإله يجب أن يكون ذاعين لا تغفل ولا تنام ، وهكذا أعجب بالقمر ، واستعظم الشمس ، ولكنهما قد مضيا آفلين ، فأدرك إبراهيم أن ليس فى كل هؤلاء من يستحق عبادة ولا تقديساً ، وأنّ الله الحق هو الذى فطر السموات الأرض . واستمع إلى القرآن يصوّر تأمل إبراهيم فى قوله : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربى ؛ فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين ؛ فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ؛ فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى

لأكونن من القوم الضالين ؛ فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : يا قوم ، إنى برىء مما تشركون . إنى وجّهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين » .

كان الإيمان بالله ووحدانيته ، أساس الدين الإسلامى ، وقد رأينا كيف عنى القرآن بإبراز صفاته التى تتصل بالإنسان خالقاً له ، ومنعماً عليه ، وعالماً بكل صغيرة وكبيرة تصدر منه ، وقريباً منه أقرب إليه من حبل الوريد ، ورحيما به ، عادلا لا يظلمه ، ولا يغبنه ، يهبه الرزق ، ويمنحه الخير ، ويجيبه إذا دعاه . أوَ ليس من له هذه الصفات الكاملة جديراً من الناس بالعبادة والتقديس والتنزيه عن النقص والإشراك ؟ .

محمد

رسم القرآن لمحمد صورة محبّبة إلى النفوس ، فيها لين ورقة ، وفيها الخلق المثالى ، والقلب الرءوف الرحيم ، والنفس الوادعة المطمئنة ، نزل عليه روح من أمر الله ، يهدى إلى الصراط المستقيم ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يقول الله تعالى يخاطبه : « ن ، والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربّك بمجنون ، وإن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم » ، ويقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتّم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » ، ويقول : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ، ويقول : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً ، نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض » ، ويقول : « قد أنزل الله إليكم ذكراً : رسولاً يتلوعليكم آيات

الله مبينات ، ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور » ، ويدعوه سراجاً منيرا ، فى قوله : « يأيّها النبىُّ ، إنّا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا » ورحمة ، فى قوله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ويأمره باستشارتهم وخفض الجناح لهم ، إذ يقول : «فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » ، ويقول : « واخفض جناحك للمؤمنين ، وقل : إنى أنا النذير المبين »

ولكن هذه الصفات فى سموّها المثالى لم ترفع محمداً عن البشرية ، وهذه صفة من الصفات التى أكدها القرآن وأطال فى الحديث عنها ، فهو حيناً يثبت هذه الصفة على لسانه ، وحيناً ينفى عن نفسه القدرة على ما لا يقدر عليه البشر ، « قل : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد » ، وهو لهذا لا يملك لنفسه أمرا ، ولا يدرى من الغيب شيئاً ، « قل : لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرّا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، ولننصت إليه يتبرأ من قدرته على فعل ما ليس فى طاقته ، عند ما سألوه ما ليس فى طوقه ، « وقالوا : لن نؤمن لك ، حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجّر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء ، كما زعمت ، علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أوترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيّك ، حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل : سبحان ربى ، هل كنت إلا بشراً رسولا » ، ومما يلحظ أنهم طالبوه بأمور يستحيل وجودها فى الصحراء ، من تفجير الأرض ينابيع وأنهاراً ، وانظر إليه كيف يعجب من أمرهم ، وكيف يقرر فى صراحة أنه ليس سوى بشر رسول ، ولأنه بشر ، يجوز أن يموت كما يموت سائر البشر ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ،

ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » . ولم يتميز محمد من البشر إلا بأنه ، كالرسل ، بشير ونذير ، « قل : ما كنت بدعاً من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، إن أتّبع إلا ما يوحى إلىّ ، وما أنا إلا نذير مبين » « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » وهو ليس ألا مذكّراً ، لا سيطرة له على القلوب ، ولا مقدرة عنده على تحويل الأفئدة ، « فذكر ، إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » .

ومما أكده القرآن من صفات محمد الأمّية ، يصفه بها فى قوله : « قل : يأيها الناس ، إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو ، يحيى ، ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمّى ، الذى يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه ، لعلكم تهتدون » ؛ ويبين حكمة اختياره أميا فى قوله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذاً لارتاب المبطلون » ، وإذا كانت الأمية مما يعاب فهى المعجزة التى تحول بين رسالة النبى والشك فيها ، ولو أنه كان يقرأ ويكتب ، لكان للمبطلين مجال للرّيب فى صدق رسالته .

والقرآن يعظم أمر الرسول ، فيحدّثنا عن صلاة الله عليه والملائكة ، « إن الله وملائكته يصلون على النبى ، يأيها الذين آمنوا ، صلوا عليه ، وسلموا تسليما » ويعظم من أمر مبايعته ، حتى لكأن من يبايعه إنما يبايع الله ، « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » ويشهد له القرآن بالخلق القويم كما سبق أن نقلنا ، وبأنه لا ينطق عن هوى النفس ، ولا يميل إلى ضلالة ولا غواية ، ويقسم على ذلك : « والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم ، وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » ، كما يقسم على رسالته ، فيقول : « والقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين ، على صراط مستقيم ، تنزيل العزيز الرحيم » ويعدّد القرآن نعم الله عليه فيقول : « ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ،

ورفعنا لك ذكرك » ، « ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا ، فأغنى » ؛ ويقسم له القرآن أن الله ما تخلى عنه وما قلاه ، ويؤكد أن الذين يناصبونه العداء سيكبتون ويخذلون مذلولين ، « إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلّين » ويحذر المؤمنين من معصيته ، « يأيها الذين آمنوا ، إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرّسول » ، ويأمرهم بأن يقفوا عند الحدود التى رسمها الرسول ، ولا يبطلوا أعمالهم بعصيانه ، « يأيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، ولا تبطلوا أعمالكم » ، « وما آتاكم الرّسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ، « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً » ، ويؤكد لهم أنهم لن يكونوا مؤمنين حقاً حتى يجدوا العدالة المطلقة فى أحكامه ، ولا يجدوا فيها غضاضة ولا حرجاً فى نفوسهم ، ويقسم على ذلك قائلا : « فلا وربك ، لا يؤمنون ، حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما » ؛ ذلك أنه لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

وإذا كان محمـــد رسولا ، فله حرمته ومنزلته الاجتماعية ، ومن الواجب احترامه ، فلا يليق أن ينادى باسمه ، كما ينادى الناس بعضهم بعضا ، ولا أن ترتفع أصواتهم فوق صوته ، « يأيها الذين آمنوا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول ، كجهر بعضكم لبعض ، أن تحبط أعمالكم ، وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرة وأجر عظيم ، إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم » و « لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا » وفى تربية الشعب على احترام الرسول ما يدفعهم إلى طاعته ، فإن الطاعة أساسها الاحترام

كما وضع القرآن أساسها الثانى وهو الحب ، بما وصف القرآن به محمداً من حبّ لهداية قومه ، وحدب عليهم ، ورحمة بهم ورأفة ، وشوق ملح إلى هدايتهم ، حتى صح للقرآن أن يقول : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ، إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، وهكذا بنى القرآن الطاعة على أساسين من الحب والاحترام معاً .

ويؤيد القرآن رسالة محمد بشهادة الله الذى لا يشهد بغير الحق ، « والله يشهد إنك لرسوله » ، « ويقول الذين كفروا : لست مرسلا ، قل : كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب » ، « لكن الله يشهد بما أنزل إليك ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً » ، وبأن عيسى قد بشر به قومه ، وأخبرهم برسالته ، « وإذ قال عيسى بن مريم : يابنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوارة ، ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات ، قالوا : هذا سحر مبين » ، وبأنه فيما أتى ليس بدعاً ، فقد أوحى الله إلى كثير من الرسل قبله ، « إنا أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، واسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وعيسى ، وأيوب ، ويونس ، وهرون ، وسليمان ، وآتينا داود زبورا » ، وبأنه أمى ما كان يتلو قبله كتابا ، ولا يخطه بيمينه . كما سبق أن ذكرنا ؛ أوَليس من يشهد الله له بالرسالة ، ويبشر به رسول ذو كتاب ، ويجرى على سنن من سبقه من الأنبياء — جديراً بأن يصدق إذا ادعى ، وأن يطاع إذا أمر ؟ .

ويناقش من أنكر رسالته ، ويدفع دعاويهم فى هدوء وقوّة معاً ، فأخبرنا القرآن مرة أنهم كانوا ينسبون ما يعرفه محمد من قصص وأخبار وأحكام إلى عالم فارسى يعلمه ، وما كان أسهل دحض تلك الدعوى بأن لسان من يدعون أنه يعلم محمداً — أعجمى ، أما هذا الكتاب فعربى مبين . « ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » ، وحيناً

نسبوه إلى أنه سحر أو شعر أو كهانة ، « بل قالوا : أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر » ، « ويقولون : أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ؟ ! » ، فوجه القرآن أنظارهم إلى أن النظرة الصائبة تنفى عن القرآن السحر والشعر والكهانة ، فللحق آياته البينات التى لا تشتبه بالسحر ، « وإذا تتلى عليهم آياتنا ببنات ، قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى ، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين » ، ونفى القرآن عن النبي قول الشعر والكهانة ، « وما علمناه الشعر ، وما ينبغى له ، إن هو إلاّ ذكر وقرآن مبين » . « وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون » .

ومن أكبر ما أنكروه على الرسول أنهم وجدوه لا يمتاز عن البشر فى شىء ؛ فهو يأكل الطعام كما يأكلون ، ويمشى فى الأسواق يبيع ويشترى كما يمشون ، وظنوا أنه لا يكون نبياً إلا إذا امتاز بملك ينذر الناس معه ، أو أصبح غنياً غنى مطلقاً عن الناس ، فألقى إليه كنز ، أو كانت له جنة يأكل منها ، وقد حكى القرآن عنهم ذلك الحديث ، وردّ عليهم ردًّا رفيقاً فى قوله : « وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ! لولا أنزل إليه ملك ، فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون : إن تتّبعون إلا رجلا مسحورا ، انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا ، تبارك الذى إن شاء جعل لك خيراً من ذلك : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا » ، فهو يشير فى رفق إلى أن الحكمة إنما هى فى أن يساوى الرسول الشعب فى الاحتياج ، حتى لا يكون امتيازه على الناس فى أمور لا تتصل بالرسالة ، ولا دخل لها فى النبوة ، وحتى يبقى تقويم الرسول بعيداً عن زخارف الحياة وما ليس من صميم الرسالة ، فقد يتهيأ الغنى الفاحش لفرد من الناس ، من

غير أن يجلب له ذلك رسالة ولا نبوّة ولو أراد الله لفعل للرسول ما اقترحوه وزاد عليه ، ولكن الخير والحكمة فيما كان ، أما ما اقترحوه من نزول الملك مع الرسول فقد رد عليه في قوله : « وقالوا : لولا نُزِّل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » ، ألا ترى أن نزول الملك كما اقترحوا لا يدع لهم فرصة التفكير بعد نزوله ، ومن الخير أن يترك لهم مجال التدبّر وتقليب الأمر على وجوهه ، وإنزال الملك لن يحل المشكل ، لأنه سيكون في هيئة رجل ، ويلتبس الأمر كما لو كان الرسول رجلا . والقرآن ، برغم ذلك ، يوحي بأن الرسول كانت عنده رغبة ملحة في أن يحقق لهم بعض ما اقترحوه ليؤمنوا ، ولتجتمع كلمتهم على الدين ، حتى صحّ للقرآن أن يقول للرسول : « وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين » ، ويقول في أخرى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ، أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ، أو جاء معه ملك ، إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل » .

وكانت صفة البشرية حائلة دون الإيمان به ، ومدعاة للهزء بالرسول والسخرية به ، « قالوا : أبشراً منا واحداً نتّبعه ؟ إنا إذاً لفي ضلال وسعر » ؛ « ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون » وقد ردّ الله تلك الدعوى بأن الحكمة تقضي بأن الرسول يكون من جنس المرسل إليهم ، ليكون أدنى إلى نفوسهم ، يألفونه ويسهل اتصالهم به ، ولو أن في الأرض ملائكة يسكنونها ، ما أرسل الله إليهم رسولا ، سوى ملك من جنسهم ، قال سبحانه : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ، إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزّلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » .

وعندما تعرَّض القرآن للاستهزاء بالرسول ، كان لا يعنيه كثيراً الرَّد على ما يتعلق بشخص الرسول ، بل ينتقل مباشرة إلى صميم الدعوى يناقشهم فيها ، ويحدثهم عن مغبَّة كفرهم ، قال تعالى : « وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ، أهذا الذى يذكر آلهتكم ، وهم بذكر الرحمن هم كافرون ، خلق الإنسان من عجل ، سأريكم آياتى ، فلا تستعجلون ، ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفُّون عن وجوههم النار ، ولا عن ظهورهم ، ولا هم ينصرون ، بل تأتيهم بغته ، فتبهتهم ، فلا يستطيعون ردها ، ولا هم ينظرون » ، ألا تراه قد مرَّ مرَّ الكرام باستهزائهم بالرسول ، وكأنه لغو لا يؤبه له ، ولا يستحق الالتفات إليه ، ولا التَّنبُّه لشأنه ، وانتقل من ذلك إلى الحديث عما يعنى القرآن بشأنه ، من الحديث عن الله واليوم والآخر ، وما ينتظرهم من عذاب كان جديراً به أن يصرفهم عن التمادى فى الباطل ، لو أنهم فكروا فى الأمر وتدبَّروا العاقبة ، ويقول فى موضع آخر : « وإذا رأوك إن يتَّخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ! إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، لولا أن صبرنا عليها ، وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضلُّ سبيلا ، أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا ؟ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » ؛ وهو هنا أيضاً ينتقل إلى صميم الدعوى ، فيتحدث عن اتخاذهم الهوى إلها ، وأنهم لا يستخدمون آذانهم وعقولهم فيما خلقت لأجله ، فصاروا بذلك أضل سبيلا من الأنعام .

ويهوِّن القرآن على الرسول أمر الاستهزاء به وتكذيبه ، فحيناً يخبره بأن ذلك دأب الرُّسل ، يكذَّبون برغم ما يجيئون به من البينات والهدى ، ويؤكد له مرة بأن هؤلاء الساخرين سينالهم ما نبِّئوا بنزوله بهم ، وكانوا يسخرون ولا يطيعون ، فيقول للرسول : « فإن كذَّبوك فقد كذِّبت رسل من قبلك ، جاءوا بالبينات

والزُّبر والكتاب المنير » ، « ولقد استهزىء برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون » .

وينذر القرآن المكذبين والمستهزئين بأن عاقبتهم كعاقبة من كذَّب الرسل من قبل : أخذ شديد وعقاب أليم ، وهنا يلجأ القرآن إلى غريزة المحافظة على النفس ، فيصوِّر رفض الدعوة والتكذيب لها معرِّضاً أنفسهم للتهلكة ، وجالباً الوبال عليها ، فماذا تكون النتيجة إذا هم أصرُّوا على كفرهم ؟ أضمنُوا أعماراً طويلة ، يصلحون فيها ما كانوا قد أفسدوه ؟ « أوَ لَمْ ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ » ، أأمنوا مكر الله ؟ أم اطمأنوا إلى أن القيامة لن تأتيهم فجاءة ؟ « أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله ، أو تأتيهم الساعة بغتة ، وهم لا يشعرون » إنهم بنهيهم عنه ونأيهم عنه لا يضرون إلا أنفسهم ولا يهلكون غيرها ، « وهم ينهون عنه ، وينأون عنه ، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » ، ولن يُضَرَّ الرسولُ بكفرهم ، « فإن تولّوا فإنما عليك البلاغ المبين » ، « فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلاّ البلاغ » ، أو ليس فى قصر أمر الرسول على البلاغ ، ما يدفعهم إلى التفكير فى أمر هذه الدعوة التى لن يحمل عبء أضرار رفضها غيرهم ، والتى يتحمَّل الرسول المشاق فى سبيل إذاعتها ، لا يبغى من وراء ذلك أجرا ، ولا يريد إلا أن تصل الهداية إلى قلوبهم ، « قل : ما سألتكم من أجر ، فهو لكم ؛ إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد » ؛ وإن فى تنزُّه الرسول عن الغرض المادىّ ، وإخلاصه فى دعوتهم وإرشادهم ، لبعثاً لهم على تدبر أمر هذه الدعوة المبرأة من الهوى والغرض ، والنفس بطبيعتها تنقاد لمثل هذه الدعوة وتؤمن بها . وقد دعاهم القرآن إلى التفكير فى شأن الرسول ، فرادى وجماعات ، ليقلبوا أمره على وجوهه ، ويتفكروا أبه جنة أو شذوذ ؟

وسوف يصلون إذا فكروا إلى أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد .

ويمضى القرآن محبباً لهم إجابة دعوة محمد ، مبيناً طبيعتها ، وأنها توافق الإنسانية السليمة ، فهو لا يأمر إلا بما تعترف به النفوس الصحيحة ، ولا ينهى إلا عما تنكره ، لا يحلّ سوى الطَّيب ، ولا يحرّم سوى الخبيث ، وأنه يعمل على تخليصهم من عادات ثقيلة على النفوس ، وقيود كانت تغل حياتهم ، وقد خفف الإسلام كثيراً من القيود التى كانت على أهل الكتاب ، يقول الله : « الذين يتَّبعون الرسول النَّبىّ الأمّىّ الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرِّم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ، والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزَّروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » أما الأميون ، وقد كانوا فى ضلال مبين فإنه يعلمهم الكتاب والحكمة ويهديهم ، « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ، ويزكّيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ، ويجعل طريق حب الله ونيل رضوانه اتباع منهجه والاقتداء به ، « قل : إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ، ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » ومن أطاعه فسيكون مع من أنعم الله عليهم من أكرم الرفقاء ، « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين ، وحسن أولئك رفيقا » ؛ ومن آمن وعمل صالحاً فسوف يورِّثه الله الأرض ، ويمكن له دينه ، ويبدله بالخوف أمناً وطمأنينة ، « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنَّهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدِّلنَّهم من بعد خوفهم أمنا » .

ولا يكتفى القرآن بالوعد المحبوب حين طلب إليهم طاعة الرسول ، بل أنذرهم

وأوعدهم ، وأكّد لهم أن النهاية ستكون نصراً مؤزّراً للرسول ؛ « ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأنّ له نار جهنم خالداً فيها » ، ويقول : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ، أو يصيبهم عذاب أليم » ، « إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة ، وأعدّ لهم عذاباً مهيناً » . ويخاطب الرسول قائلاً : « ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدّل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين » . وينزل القرآن إلى أعماق نفوسهم ، فيحدثنا عن شكوكهم التى تنتابهم ، فهم يقولون فى أغوار قلوبهم : إذا كان محمد على صواب ، ونحن على خطأ ، فلِمَ يدعنا الله أحراراً فى هذه الحياة ولا يعذبنا بسبب هذه التّصرّفات ، والله ينبئهم بأن جهنم مصيرهم المنتظر ، « ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ، ثم يعودون لما نهوا عنه ، ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وإذا جاءوك حيّوْك بما لم يحيِّك به الله ، ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول . حسبهم جهنم يصلونها ، فبئس المصير »

يعلم القرآن ما لحوادث التاريخ من الأثر فى النفوس ، ولذا أكثر ، فى معرض الأمر بطاعة الرسول ، من توجيه أنظارهم إلى من كذّب من الماضين كيف كانت عاقبتهم ، فلعلهم يتّعظون بها ، فيسأل : « أو لم يسيروا فى الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ، كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم ، وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ، فكفروا ، فأخذهم الله ، إنه قوىّ شديد العقاب » ويقصّ عليهم قصص الماضين كقوله : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله ، قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون ؛ فأما عاد فاستكبروا

فى الأرض بغير الحق ، وقالوا : من أشدُّ منا قوَّة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى أيام نحسات ؛ لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، وهم لا ينصرون ، وأمّا ثمود فهديناهم ، فاستحبّوا العمى على الهدى ، فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ، بما كانوا يكسبون ، ونجينا الذين آمنوا ، وكانوا يتقون » .

ولم يأل القرآن جهداً فى تصوير من لا يستجيب إلى دعوة محمد فى صورة ينفر منها العاقل ، ويأنف من أن تكون صورته ، فحيناً يرسمهم أمواتاً لا يعون ، صما لا يسمعون ، عمياً لا يبصرون ، فيقول : « ومايستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ، إن أنت إلا نذير » ، « ومنهم من يستمعون إليك ، أفأنت تسمع الصم ، ولو كانوا لا يعقلون ، ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟ ! » :

وأكثر القرآن من أمر الرسول بالصَّبر ، وهو خليقة أولى العزم من الرسل فقال : « فاصبر ، كما صبر أولو العزم من الرسل ، ولا تستعجل لهم » ، وقال : « واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا » ، وقال : « واصبر ، وماصبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم » ، وقال : « واصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجراً جميلاً » ، إلى غير ذلك من كثير الآيات التى تدعو الرسول إلى الصبر ، وتحثه عليه ، ولا ريب أن دعوة دينية جديدة تتطلب زاداً لا ينفد من الصبر على المكروه ، حتى تنجح ، وتؤتى ثمارها .

أما المنهج الذى رسمه القرآن ، لكى ينهجه محمد فى دعوته ، فقد بينه فى قوله : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » وتلك هى خطة الإقناع التى تتألف القلوب وتستهوى الأفئدة .

ولكى أكمل الصورة التى رسمها القرآن لمحمد صلوات الله عليه ، أضعه بين صحبه

الذين أخلصوا له ، فهم رحماء فيما بينهم ، أشداء على أعدائهم ، قد أخذ أمره بهم يشتد ، كما يشتد الزرع إذا أخرج براعمه ، فيصبح مرآه باعثاً الزراع على الإعجاب به ، فهم بين يدى الله يبتغون رضوانه ، وأمام أعدائهم قوة لا يستهان بها ، ترى تلك الصورة فى قوله : « محمد رسول الله والذين معه ، أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركّعاً سُجّدا ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ؛ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه ، فآزره ، فاستغلظ ، فاستوى على سوقه ، يعجب الزارع ، ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » .

القرآن

هو العلمَ الخاص بهذا الكتاب الذى نزل على محمد ، لم يشركه غيره من كتب الله فى هذا الاسم ، وقد اختار الكتاب العزيز له من الصفات ما يوضّح رسالته ، والهدف الذى نزل من أجله ، فهو « هدى وبشرى للمؤمنين » « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » ، « هذا بيان للناس ، وهدى وموعظه للمتقين » ، « هو للذين آمنوا هدى وشفاء » ، « يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم » « أنزل على عبده الكتاب ، ولم يجعل له عوجا ، قيّما ، لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً » ؛ فرسالة القرآن الأساسية هداية الناس إلى الحق وطريق الصواب ، وتبشير المهتدى وإنذار الضال ، « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليما » .

وإذا كان الكتاب قد أنزل للهداية صح وصفه بأنه شفاء ، أليس هو بلسما

يبرىء أدواء القلوب ، ودواء لعلل النفوس ، « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » ، وصح وصفه بأنه كالمصباح ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، « كتاب أنزلناه إليك ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » ، وبأنه لم يدع سبيلا للإرشاد إلا بيّنه ، « ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » ؛ ولما كان كتاب هداية كان واضحاً فى دلالته ، بيّناً فى إرشاده ، « هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » ، وكان خير ذكرى ، يلجأ إليه المسترشد فيرشد ، والضال فيجد عنده التوفيق والهداية ، « إن هو إلا ذكرى للعالمين » ، « وإنه لذكر لك ولقومك » ، « ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ، ليذكروا » ، وهو ذكر مبارك ، ناضج الثمر ، جليل الأثر ، « وهذا كتاب أنزلناه مبارك » ، وهو حق لا مرية فيه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » وهو قول فصل « ما هو بالهزل » وكتاب حكيم ، وذكر مبين ، قد أحكمت آياته ، ثم فصلت .

أليس كتاب هذا شأنه وتلك صفاته جديراً بالاتّباع ، خليقاً بالاسترشاد والاقتداء ، أو ليس فى تلك الصفات ما يحرك النفس إلى الاستماع إليه ، وتدبر آياته ، والإنصات إلى عظاته ، ولا سيما أنه كثيراً ما يقترن بذكر الحكمة ، وفى الحكمة ما يغرى بحبها واتباعها ، إذ يقول : « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم ، يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » .

وردد القرآن كثيراً أنه نزل من الله بالحق ، « وبالحقّ أنزلناه ، وبالحقّ نزل » ، ويؤكد ذلك فى قوله : « إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا » ، وينفى أن يكون وحى شيطان ، أو أن يستطيع الشياطين الإيحاء بمثله ، « إنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ... وما تنزلت به الشياطين ،

وما ينبغى لهم وما يستطيعون » ، ويؤكد فى صراحة أن الإنس والجن مجتمعين لايستطيعون الإتيان بمثل القرآن ، ولو ظاهر بعضهم بعضا ، وإذا كان المجىء بما ليس فى طوق مخلوق فمن غير المعقول أن يفترى من دون الله ، « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب ، لا ريب فيه من رب العالمين » ؛ ولما ادعى المعارضون أن محمداً تقوّله أو افتراه تحداهم القرآن أن يأتوا « بحديث مثله إن كانوا صادقين » ثم تحداهم أن ائتوا « بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » ، ثم نزل إلى سورة مثله ، « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين » .

ويتحدث القرآن فى صراحة عما كان يمكن أن ينتظر محمداً من الجزاء الصارم لو أنه افترى أو تقوّل ، فقال: « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » أرأيت كيف يصوّر القرآن كيف يلتزم محمد ما أوحى إليه ، من غير أن يستطيع تعدى الحدود التى رسمت له ، فى جلاء ووضوح ، لأنه ليس سوى رسول عليه بلاغ ما عهد إليه ان يبلغه فى أمانة وصدق .

كما ردد كثيراً أنه بلسان عربىّ مبين ، « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » ، وفى ترديد هذه الفكرة ودفع العجمة عن القرآن ، ما يدفع العرب إلى التفكير فى أمره وأن كونه بلسانهم ثم عجزهم عن المجىء بمثله ، مع تحديهم صباح مساء ، دليل على أنه ليس من عند محمد ، ولا قدرة لمحمد على الإتيان بقرآن مثله ، وهو بهذا الوصف يقرر عجزهم الدائم ، وأنه لا وجه لهم فى الانحراف عن جادة الطريق ، وما يدعو إليه العقل السليم والتفكير المستقيم .

وقرر أنه كتاب متشابه مثان ، ومعنى تشابهه أن بعضه يشبه بعضا فى قوة

نسجه ، وعمق تأثيره ، وإحكام بلاغته ، فكل جزء مؤثر بألفاظه وأفكاره وأخيلته وتصويره ، ومعنى أنه مثان أن ما فيه من معان يثنى فى مواضع مختلفة ، ومناسبات عديدة ، فيكون لهذا التكرير أثره فى الهداية والإرشاد ، وهو بهذا التكرير يؤدى رسالته التى جاء من أجلها ، ولذا كان بتشابهه وتكرير ما جاء به من عظات ، مؤثراً أكبر الأثر فى القلوب ، حتى لتقشعرّ منه جلود أولئك الذين يتدبرونه ، وتنفعل له قلوبهم ، ثم لا يلبثون أن تطمئن أفئدتهم إلى هداه ، وتهدأ نفوسهم إلى ذكر الله ، « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابهاً مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربّهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » . ويعرف القرآن ماله من تأثير قوى بالغ حتى لتتأثر به صم الحجارة إذا أدركت معناه ، « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » .

ومع طول القرآن وتعدد مناحيه لا عوج فيه ، ولا اضطراب فى أفكاره ولا أخيلته ، أولا ترى أن أمّيا لا يستطيع تأليف كتاب على هذا القدر من الطول من غير أن يقع فيه الخلل والاختلاف والاضطراب ، « أفلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

ومما أكده القرآن أنه مصدق لما نزل قبله من التوراة والإنجيل ، وإلى جانب ذلك ، سجل القرآن ما قابله به أهل الكتاب والمشركون ، من كفر به وإنكار له ، أما بعض أهل الكتاب فقد مضوا يكابرون ، منكرين أن يكون الله قد أنزل كتابا على إنسان ، وما كان أسهل دحض هذه الفرية بما بين أيديهم من كتاب موسى ، يبدون بعضه ويخفون الكثير منه ، قال سبحانه : « وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس ، تبدونها وتخفون

كثيراً ، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ، قل : الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ، ولم يزد الكثيرَ من أهل الكتاب نزولُ القرآن إلا تمادياً فى الكفر وشدة فى الطغيان ؛ « قل : يأهل الكتاب ، لستم على شىء ، حتى تقيموا التوراة والإنجيل ، وما أنزل إليكم من ربكم ، وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفرا ، فلا تأس على القوم الكافرين » ، وقالوا : إن محمداً يتعلم القرآن من إنسان عليم بأخبار الماضين ، وكان من السهل أيضاً إبطال تلك الدعوى ، فإن هذا الذى زعموه يعلمه ذو لسان أعجمى ، « ولقد نعلم أنهم يقولون: إنما يعلّمه بشر ، لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين » ، ثم زعموا أنه إفك اختلقه ، وأعانه على إتمامه سواه ممن يعرفون أساطير الأولين ويتقنونها ، وهنا يرد القرآن فى هدوء بأن هذه الأسرار التى فى القرآن ، والتى ما كان يعلمها محمد ولا قومه ، إنما أنزلها الذى يعلم أسرار السموات والأرض ، « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل : أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، إنه كان غفوراً رحيما » ، ونزلوا فى المكابرة إلى أعمق درك ، فزعموا مرة أن ليس مافى القرآن من أخبار سوى أضغاث أحلام ، وحيناً زعموا أنه قول شاعر ، وأن القرآن لا يصلح أن يكون آية قاطعة كآيات الرسل السابقين ، « بل قالوا : أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية ، كما أرسل الأولون » ، ولم يتحمل القرآن الرد على دعوى أضغاث الأحلام لتفاهتها ، ووضوح بطلانها ، ولكنه نفى أن يكون القرآن شعراً ، بوضوح الفرق بين القرآن والشعر ، الذى لا يليق أن يصدر من محمد ، وجعلوا القرآن سحراً من محمد ، لا صلة لله به ، وهنا يبين القرآن مدى مكابرتهم ، فيقول : « ولو أنزلنا عليك كتاباً فى قرطاس ،

فلمسوه بأيديهم ، لقال الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » .

ومضى بعض الناس يذيع الأحاديث الباطلة ليضل عن سبيل الله ، ويصم أذنيه عن سماع القرآن مستكبراً مستهزئاً به ، والقرآن يغضب لموقف هؤلاء شديد الغضب ، وينذرهم كما استهزءوا ، بعذاب يهينهم ويؤلمهم ، « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ، ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ، كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم » .

ومن عجب أن كثيراً من الكافرين كان لا يرضى عما فى القرآن من أفكار التوحيد والعبادة ، فكان يطلب من الرسول أن يأتى بقرآن غير هذا القرآن ، فكان رد الرسول صريحا فى أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من تلقاء نفسه ، « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » .

ومما اعترضوا به على القرآن أنه نزل منجماً ، واقترحوا أن ينزل دفعة واحدة ، ولكن القرآن ردّ على هذا الاقتراح ، بأن نزوله على تلك الطريقة ، فيه تثبيت لفؤاد الرسول ، ليكون دائم الاتصال بربه ، أو ليس فى نزوله كذلك تثبيت لأفئدة المؤمنين أيضا إذ ينقلهم القرآن بتعاليمه مرحلة مرحلة إلى الدين الجديد ، ويروى القرآن هذا الاعتراض ، ويرد عليه فى قوله سبحانه : « وقال الذين كفروا : لولا نزّل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » .

ولقد تعبوا فى صد تيار القرآن الجارف ، ووقف أثره فى النفوس فما استطاعوا ، ثم هداهم خيالهم الضيّق إلى طريقه يحولون بها بين القرآن وسامعيه تلك هى

الصّخب عند سماع القرآن واللغو فيه ، ولما كان فى ذلك استقبال لا يليق بالقرآن قابله الله بتهديد عنيف ، وإيعاد شديد ، إذ يقول : « وقال الذين كفروا: لاتسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه ، لعلكم تغلبون ، فلنذيقن الذين كفروا عذابا شديدا ، ولنجزينّهم أسوأ الذى كانوا يعملون ، ذلك جزاء أعداء الله النار ، لهم فيها دار الخلد ، جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » . وذلك أقوى دليل على الإخفاق ، وأنه لا حجة عندهم يستطيعون أن يهدموا بها حجة القرآن .

وحرّك القرآن فيهم غريزة الخوف إن كذبوا به ، فسألهم ماذا تكون النتيجة إذا ثبت حقاً أنه من عند الله ، وظلوا كافرين ، أيكون ثمّ من هو أضل منهم أو أظلم ، يثير تلك الغريزة فى قوله : « قل: أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ، من أضل ممن هو فى شقاق بعيد » ، ويقف منهم موقف من بيّن الخير والشر ، ثم تركهم لأنفسهم يفكرون ، ألا يثير فيهم ذلك كثيراً من الخوف من أن ينالهم سوء إعراضهم بأوخم العواقب ، إذ يقول : « إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنت عليهم بوكيل».

أما سورة الفرقان فيراد به هنا القرآن ، كما أنه فى مواضع أخرى يطلق على كتب الله ، لأنها تفرق بين الحق والباطل ، والصواب والخطأ .

ولعل[1] بدء هذه السورة بقوله سبحانه : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا» ، فيه دلالة على أنها تحوى إنذاراً ووعيداً وتهديدا . وحقا لقد اتسمت هذه السورة بالرد المنذر على كثير من دعاوى المنكرين لأحقية القرآن ورسالة محمد ووحدانية الله ، وقد بدأها بالحديث عن منزل القرآن ، وتفرده بالملك وتعجبه من أن « اتخذوا من دونه آلهة ، لا يخلقون شيئا ، وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا »

(١) فى تحليل هذه السورة نموذج آخر لوحدة السورة والارتباط بين آياتها .

وبدأ بعد ذلك يعدد مفترياتهم على القرآن وتشكيكهم فى رسالة محمد ، ثم يتعمّق فى السبب الذى دفعهم إلى إنكار القرآن ونبوة محمد ، فيراه التكذيب باليوم الآخر ، وكأنما غضبت جهنم لهذا التكذيب ، حتى إنها «إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيرا» ، ويمضى فى تصوير ما ينتظرهم فى ذلك اليوم من مصير مؤلم موازناً بين ذلك ، وبين جنة الخلد التى وعد المتقون ، ثم يعود إلى أكاذيبهم ، فيرد على بعضها ، ويبسط بعضها الآخر ، واضعاً إلى جانب هذه الأكاذيب ما ينتظرها من عقوبة يوم الدين ، وهنا يلجأ إلى التصوير المؤثر ، يرسم به موقفهم فى ذلك اليوم ، علّة يردهم بذلك إلى الصواب ، إذا ذكروا سوء المغبة ؛ وتأمل قوة تصوير من ظلم نفسه بهجر القرآن وتكذيبه ، فى قوله : « ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول : يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ، ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للإنسان خذولا ، وقال الرسول: يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » . ويعود مرة إلى شبهة من شبهاتهم فى القرآن فيدحضها وينذرهم بشر مكان فى جهنم ، ويعد لهم عواقب من كذب الرسل من قبلهم . ثم يأتى إلى إثم آخر من آثامهم باستهزائهم بالرسول الذى كاد يصرفهم عن آلهتهم ، لولا أن صبروا عليها ، وهنا يناقشهم فى اتخاذ هذه الآلهة التى لا يصلح اتخاذها إلهاً ، إذا ووزنت بالله الذى يعدد من صفاته ما يبين بوضوح وجلاء أنهم « يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم ، ويطيل القرآن فى تعداد صفات الله وبيان مظاهر قدرته . وإذا كانت السورة قد مضت تنذر المنكرين وتعدّد آثامهم ، فإنها قد أخذت تذكر كذلك صفات المؤمنين الصادقين ، ليكونوا إلى جانبهم مثالاً واضحاً للفرق بين الصالح والطالح ، ولتكون الموازنة بينهما مدعاة إلى تثبيت النموذجين فى النفس ، وختمت السورة بالإنذار بأن العذاب نازل بهم لا محالة ، ما داموا قد كذبوا ، فكانت السورة كلّها من المبدأ إلى المنتهى

تتجه إلى الوعيد ، ما دامت تناقش المنكرين فى مفتريات تتعلق بالقرآن ومن نزل عليه القرآن ، وقد رأينا كيف كان يقرن كل افتراء بما أعدَّ له من العذاب .

يوم القيامة

له فى القرآن أسماء كثيرة تطلق عليه فى المواضع المختلفة ، لتوحى هذه الأسماء فى أماكنها بالمعانى التى يستدعيها المقام ، فهو اليوم الآخر والآخرة ، عندما يكون فى مقابلة الحديث عن الدنيا وموازنته بها ، أو عند الحديث عنه ملاحظاً فيه هذا التقابل ، كما تجد ذلك فى قوله تعالى : « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة » ، وقوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ، يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ، ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألاّ يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا ما فيه ، والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون » .

ويدعى بيوم القيامة مثيراً فى النفس هذه الحركة المائجة المضطربة ، التى ينبعث فيها الأموات من أجداثهم كالجراد المبثوث ؛ وبيوم الدين ملحوظاً فيه أنه اليوم الذى يجزى فيه كل إنسان بعمله خيراً أو شرا ، ولما كان المثيب والمعاقب يومئذ هو الله وحده كان جميلاً رائعاً قوله : « مالك يوم الدين » ؛ وبيوم الفصل ؛ إذ فيه يفصل بين الصواب والباطل فصلا عمليا لا شبهة فيه . وبيوم البعث لأنه يوم الحياة بعد الموت ؛ فإذا دعى بالساعة كان ملاحظا فيه عنصر المفاجأة الباغتة ؛ أو بالحاقة فلأن وجودها حق لا مرية فيه ؛ أو بالقارعة فلشدة هولها وما فيها من مصائب وأهوال ؛ أو بيوم الآزفة فلأنها شديدة القرب والمفاجأة .

وقد عنى القرآن أيّما عناية بأهمية الإيمان باليوم الآخر ، يذكره كلما ذكرت صفات المؤمن المثالى ، ويقرن الإيمان به بالإيمان بالله ، حتى لا يذكر الإيمان باليوم

الآخر منفرداً دونه ، فيقول : « من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » ، ويقول : « ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البرّ من آمن بالله واليوم الآخر » . وأوعد القرآن شديد الوعيد من كفر باليوم الآخر ، وقرنه كذلك بمن كفر بالله ، فقال : « ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » . وقال : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ... » وسرّ العناية باليوم الآخر أن الإيمان به يعدُّ الدعامة الأولى فى بناء الدين كله ، وإذا انهار هذا الأساس انهار الدين ، فلم يعد له بقاء ، فعقيدة المرء فى الحساب وأنه مجزىٌّ بعمله ، على الخير والشر ، هى التى تدفعه إلى التفكير السليم ، كى يصل إلى العقيدة الصحيحة التى يؤمن بها ، وإلى العمل الصالح واجتناب مساوىء الأمور ، كى يجزى على الخير بالحسنى ، ويتقى أليم العذاب ، ولو أن عقيدة البعث قد انمحت ، ما كان للفضيلة سلطان على نفوس الجماهير يقودها ، رهبة ورغبة ، وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله : « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ، فهم يعمهون » ، وقوله سبحانه : « إلهكم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون » . ولما كان لليوم الآخر هذه الأهمية فى بناء الدين ، عنى القرآن بغرس عقيدته فى النفوس ، وتصويره منذ أول عهد الدعوة ، ولهذا كان أكثر الحديث عنه فى السور التى نزلت بمكة .

وقد دلل القرآن فى مواطن كثيرة على أن اليوم الآخر آت لا ريب فيه ، يبرهن على ذلك بقدرته على خلق هذا العالم وما فيه ، « ألم نجعل الأرض مهاداً ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتا ، وجعلنا الليل لباساً ، وجعلنا النهار معاشا ، وبنينا فوقكم سبعاً شدادا ، وجعلنا سراجا وهاجا ، وأنزلنا

من المعصرات ماء ثجاجا ، لنخرج به حباً ونباتا ، وجنات ألفافا » ، بل يؤيد مقدرته على البعث بما هو معروف لدينا ، من أن إعادة ما عمل العامل أسهل عليه من بدء العمل ، فيقول : « وهو الذى يبدأ الخلق ، ثم يعيده ، وهو أهون عليه » ، ويقول « وضرب لنا مثلا ، ونسى خلقه ، قال : من يحيى العظام ، وهى رميم ؟ قل : يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً ، فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى ، وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن ، فيكون » . فأنت تراه هنا يعجب من هذا الذى ينكر البعث ناسياً بدء خلقه ، وأنه لم يكن شيئاً مذكورا ، فأخذ يتساءل من يستطيع أن يحيى العظام البالية ، فأجابه القرآن فى يسر بأن الذى أنشأها أول مرة هو الذى يحييها ، وهو عالم بكل صغيرة وكبيرة ، فى الخلق ، ففى مستطاعه أن يعيد ما بدأ خلقه أو ليس هذا القادر على أن يخلق النار من الشجر الأخضر الملىء بالماء قادراً على أن يعيد خلقهم ؟ أو ليس من خلق السموات والأرض وهى بهذه الفخامة والإحكام قادراً على أن يخلق مثل هذا الإنسان الحقير الضئيل ، « لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . وتنتهى الآيات بتصوير قدرة الله ، يستجيب لها الكون فى خضوع وسرعة ، فلا يلقى الله أمراً حتى يخضع الكون لأمره ، ولا يلبث أن يقول لشىء : كن ، حتى يتحقق ويكون . وفى سورة أخرى يؤكد قدرته على جمع عظام المرء وتسوية أدق ما فيه من هذه العظام ، وهى عظمة البنان ، فيتساءل متعجباً ، ثم يجيب فى تأكيد : « أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه ؟ بلى ، قادرين على أن نسوِّى بنانه » .

ويقرِّب القرآن أمر البعث إلى نفوسهم ، فيوجه أنظارهم إلى الأرض الميتة

ينزل عليها الماء ، فتنبعث فيها الحياة ، وتنبت من كل زوج بهيج ، فيقول : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شىء قدير » ، ويقول : « والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميّت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور » وإذا كانوا يرون هذه الظاهرة فى كل حين ، فمن المعقول أن يكون لها شديد التأثير فى نفوسهم ، لقربها منهم ، وقوة دلالتها على قدرة الله على بعث الحياة فى الجماد الميت .

وحفل القرآن بكثير من صور هذا اليوم ، يرسم الطبيعة فيه والناس .

أما الأرض فإنها تميد تحت الأقدام مزلزلة مرتجفة ، تنشقّ فى كل مكان ، مخرجة أثقالها ، ويقف الإنسان فى ذهول ودهشة يتعجب : مالهـذه الأرض قد خرجت على طبيعتها الهادئة ، فثارت تلك الثورة المريعـة ؟ ! وتظل الأرض تلفظ مابداخلها ، تنبئ بأنها تفعل ما تفعل بأمر الله الذى أوحى بذلك لها ، « إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان : مالها ؟ يومئذ ، تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها » ، وأما الجبال فتصبح فى هشاشة الصوف « وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ، ثم لاتلبث أن تنمحى من فوق صفحة الأرض ، فتصبح مستوية لا عوج فيهـا ولا ارتفاع ، « ويسألونك عن الجبال ، فقل : ينسفها ربى نسفا ، فيذرها قاعاً صفصفاً ، لاترى فيها عوجاً ولا أمتا » ، وتتفجر البحار ، وتتبعثر القبور مخرجة ما استودعته من أشلاء البشر ، « وإذا البحار فجرت ، وإذا القبـور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت » . ويشتد ارتجاج الأرض وارتجافها ، حتى لينـكرها الإنسان ، ويجف لها قلبه ، ويراها أرضاً غير ما آلف ، وتربة مضطربة لا عهد له بها من قبل ، « يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيبا » ، « يوم تبـدل الأرض غير الأرض ، والسموات ،

وبروزا لله الواحد القهار » .

وأما السماء فإنها تطوى كما يطوى السجل كتابا ، فلا تعود ترى بناء محكما ، كما نراها بأعيننا فى هذه الحياة الدنيا ، بل تصبح بيّنة الفجوات ظاهرة الشقوق ، ومما يزيد الأمر هولاً هذا الغمام المتكاثف يمور فى السماء موراً يبعث الرهبة والفزع « يوم نطوى السماء كطىّ السجل للكتب » ، و « تشقّق السماء بالغمام ، ونزل الملائكة تنزيلا » و « تمور السماء مورا ، وتسير الجبال سيرا ، فويل يؤمئذ للمكذبين » . ويلف الكون ظلام دامس ، فالكواكب تنتثر لا رابط بينها ، ولا اتساق ينظمها ، والشمس ينمحى ضوءها ، فتصبح كرة مظلمة لا يشع منها نور يضىء أرجاء الكون ، وتنكدر النجوم التى كانت تبدو فى السماء كأنها مصابيح ، فينطمس نورها ، ولما فقدت الجاذبية بين الكواكب انتثرت فى الجو ، ويملأ النفس رعبا أن ترى الشمس والقمر قد اقترنا مجتمعين ، لا ضوء لهما ولا بهجة ، « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت » ، و « إذا الشمس كوِّرت ، وإذا النجوم انكدرت » و « إذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يؤمئذ : أين المفر ؟ كلا ، لا وزر ، إلى ربك يومئذ المستقر » .

فى هذه الظلمة الحالكة يخرج الناس من أجداثهم فى سرعة وهلع ، أما الأبصار فخاشعة ، وأما القلوب فواجفة ، يذهلهم ما لم يكونوا قد ألفوه من كون قد تبدل وتغير ، يخرجون فى كثرة بالغة جماعات جماعات « كأنهم جراد منتشر » ، « يخرجون من الأجداث سراعا ، كأنهم إلى نصب يوفضون » ، يسيرون على غير هدى ، وكأنهم يهربون من الظلمة ، أو يفرون مما يرونه أمامهم من مناظر تبعث الرعب وتثير المخافة . ولا يلبثون أن يدعوا إلى الحساب ، حتى يسرعوا إلى الداعى متهافتين ، كما يتهافت الفراش المبثوث ، ظنا منهم أن سوف يجدون عنده

الأمن والطمأنينة .

ولا تشعر النفوس وقد خرجت من أجداثها ، بأنها قضت وقتاً طويلا تحت أطباق الثرى ، بل كأنها قد غادرت الدنيا منذ وقت قصير ، « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

ويزيد النفوس رهبة أن يمدوا أبصارهم فيروا النار تتلظى ، وقد اشتد أوار لهبها ، « وبرزت الجحيم لمن يرى » فلا عجب أن بعث هـذا اليوم فى النفوس هولا ورهبة ، فشعرت به عابساً مكفهرا ، وأن تبلغ القلوب فيه الحناجر اضطراباً وخوفا ، « وأنذرهم يوم الآزفة ، إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين » ، وأن يملك الهول قلوب المبعوثين هولاً يشيب له الوليد ، « فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيبا » . ولم لا يشيب الوليد ، وهذه الأرض ترتجف تحت قدمه ، والكواكب قد انتثرت تتهاوى وتضطرب ، مظلمة كدرة ، وهذه الشمس والقمر قد اجتمعا مظلمين اجتماعاً يبعث الرهبة فى النفوس ؟ ! .

ولما كان ذلك يوم الجزاء ، وقف الملائكة جند الرحمن صفاً ، خاضعين لأمر الله ينفذون ما يأمر به فى ذلك اليوم ، وإن فى وقوف الملائكة صفاً ما يزيد فى رهبة هذا اليوم وجلاله ، « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ، وقال صوابا » .

وقد تحدث القرآن عن المفاجأة التى يذهل لها من كان ينكر يوم البعث ، ويصور القرآن مشهد الحديث يدور بين من آمن بالبعث ومن كفر به ، ويصور ذهول هؤلاء وقد فوجئوا بيوم القيامة ، فيقول : « ويوم تقوم الساعة ، يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان : لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لا تعلمون ، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ، ولا هم يستعتبون » .

يبدأ الحساب ، فيناقش هؤلاء الذين لم يرعوا حق يومهم هذا ، وأنكروه ، ولم يصغوا إلى إنذار الرسل ، بل غرتهم الحياة الدنيا ، « ويوم يحشرهم جميعاً ، يا معشر الجن ، قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله ، إن ربك حكيم عليم ، وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون ، يامعشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » ، « ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » . وقال الذين كفروا : « يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم ، إنهم مسئولون ، مالكم لا تناصرون ؟ ! بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان ، بل كنتم قوماً طاغين ، فحق علينا قول ربنا ، إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون » ، أرأيت استسلامهم فى ذلك اليوم ، والتعجب من أن بعضهم لا ينصر بعضاً ، كما كان شأنهم فى الدنيا ، بل إن بعضهم يسأل بعضاً ، ويبرأ بعضهم من بعض ، ويؤكد القرآن مرة أخرى معنى انصراف كل إنسان إلى نفسه ، وعنايته بأمره فحسب ، إذ يقول : « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » ، « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ماعملت ، وهم لا يظلمون » . « واتقوا يوماً لا تجزى

نفس عن نفس شيئا » .

فى هذا اليوم الذى حشر فيه الناس جميعاً ، وشغل كل فرد فيه بنفسه عمن عداه ، تتراءى للمرء أعماله ، ويعود إلى ذاكرته ماقدّم من خير ، أو سوء ، ويقرأ هذه الأعمال مسجلة عليه ، فهو يقرأ فى كتاب منشور ، والقرآن يعرض عرضاً مؤثراً من يرى نفسه قد قدم خيراً ، ومن يرى الشر غالباً عليه ، فيقول : « فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول : هاؤم اقرءوا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية ، قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه » ، ويعجب الكفار من دقة الإحصاء والتقييد ، « ووضع الكتاب ، فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون : ياويلتنا ! ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا » . وتوزن الأعمال وتنال تقديرها ، « فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وماأدراك ماهيه ؟ نار حاميه » وينزل إلى أغوار النفوس عندما ترى أعمالها ، فما تراه من خير تسفر به وجوهها ، « وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيدا » . وتشتد الحسرة بمن كفر حسرة تملك قلبه ، «ويقول الكافر : ياليتنى كنت ترابا» ، «يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ، ولا يكتمون الله حديثا» ، ويصور تصويراً ناطقاً ما يشعر به من خسر عمله من تفاهة الحياة الدنيا ، فيتمنى أن لو كان قدقدم من العمل الصالح ما يستفيد به فى هذه الحياة الباقية التى يشعر بها الحياة الحقة الدائمة ، « يومئذ يتذكر الإنسان ،وأنى له الذكرى ، يقول : ياليتنى قدمت لحياتى» لاعجب إذاً أن تفصح الوجوه عما تحس به النفوس ، وأن نرى وجوهاً تتلألأ

ابتهاجاً ونورا ، ووجوها قد خبا ضوءها ، وأظلمت ، « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم ، أكفرتم بعد إيمانكم ؟! فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله ، هم فيها خالدون» ، ويصف القرآن هذه الوجوه فى موضع آخر ، فيقول : « وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » .

وتتعدد المناظر فى هذا اليوم الحافل ، فهذا قد حوسب حساباً يسيرا ، وانقلب إلى أهله مسرورا ، وذاك قد أوتى كتابه وراء ظهره ، فعاد خاسراً يدعو ثبورا ، وهذه طائفة قد اشترت بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، فأعرض الله عنهم ، « ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » ، وتلك طائفة قد بخلت بما آتاهم الله من فضله ، فيصهر ما بخلوا به ، ويطوّقونه ، وهذا أعمى قد أعرض عن ذكر الله فى الدنيا ، « فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال : رب ، لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى » ؛ وهؤلاء أناس قد اسودت وجوههم لكذبهم على الله ، وهؤلاء مجرمون قد قرنوا فى القيود والأصفاد ، قد لبسوا سرابيل من قطران ، وتغشى وجوههم النار ، « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون » وهؤلاء ضالون « لن تجد لهم أولياء من دونه ، ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم ، عميا وبكما وصما » ، وهؤلاء كفار قد ملأهم الذهول فشخصت أبصارهم فى رعب وخوف . ومن أكثر الصور تأثيراً فى ذلك اليوم صورة هؤلاء المجرمين ، وقد نكسوا رءوسهم عند ربهم قائلين : «ربنا أبصرنا وسمعنا ، فارجعنا نعمل صالحا ، إنا موقنون » ، ولكن أنى يستجاب لهم ، أو يسمع دعاؤهم . أوليس من الخير أن يبادروا إلى الإيمان فى الدنيا ، حيث ينفع الإيمان ،

قبل أن يقفوا هذا الموقف اليائس ، وقبل أن يجابوا بأن يقال لهم : « ذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، إنا نسيناكم ، وذوقوا عذاب الخلد ، بما كنتم تعملون». وإن الأسف ليشتد بهؤلاء حين يرون العذاب ، فيتمنون أن تكون لهم كرة ليكونوا من المحسنين ، وذلك إنذار بما يترقبهم من يأس قاتل ، من الخير ألا يضعوا أنفسهم فى مكانه . ومن أشد هذه الصور تأثيراً كذلك هذا التقاطع الذى يتم بين المشركين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين ما كانوا يشركون من دون الله ، « فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ، ثم قيل لهم : « أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ؟ قالوا : ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين » ، « وقال : إنما اتخذتم من دون الله أوثانا ، مودة بينكم فى الحياة الدنيا ، ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين » ، « ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ، ولم يكن لهم من شركائهم سفعاء ، وكانوا بشركائهم كافرين » ؛ وإذا كانت تلك الخاتمة نهاية صلة المشركين بعضهم ببعض وبما كانوا به يشركون ، فمن الطبيعى أن يتدبروا مصيرهم فى هذه الحياة ، قبل ألا يكون ثمة مجال للرجوع عن الخطأ ولا للاعتراف بالحق ، وقبل أن يقال لهم وهم فى ذهول ورهبة : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون» . تلك هى الصورة التى رسمها القرآن لليوم الآخر ، وهى صورة تبعث فى النفس الرهبة ، من شهود هذا اليوم بلا إعداد له إعداداً يكون سياجا بين المرء وما يحذره من هذه الأهوال ، ودرعا يقيه الشدائد والخطوب ، وتدعو المرء إلى التفكير السليم فى المصير ؛ حتى يهيئ له ما يصل به إلى السلامة والنجاة .

وقد وازن القرآن كثيراً بين الحياة الدنيا والآخرة ، فيرى نعيم الحياة الدنيا

فى الآخرة قليلاً ضئيلا ، كمتاع يستمتع به مسافر على عجل ، ويقول : « وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » ، « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » ، ويرى عذاب الآخرة أشد العذاب ، وهو أشد وأبقى من عذاب هذه الحياة « ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » ؛ وبعد الحشر والحساب ينقسم الناس جماعات ، يساق بعضها إلى جهنم ، ويمضى بعضها الآخر إلى الجنة ؛ وها هو ذا القرآن يصور هذه الجماعات ، حاشدة تمضى إلى قدرها المقسوم ، وتستقبل بما يليق بها وما تستحقه ، فيقول : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل : ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم ، فادخلوها خالدين ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش ، يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق ، وقيل : الحمد لله رب العالمين » وهكذا ينقسم الناس : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

الجنـــة

تحدث القرآن كثيراً عن الجنة وما فيها من النعيم ، الذى ينتظر من آمن وعمل صالحاً ، وعندما أراد أن يقرب إلى أذهاننا سعة هذه الجنة وضخامتها ، قال : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » ولما كان العرض عادة أضيق من الطول ترك للخيال أمر تصور طول يكون عرضه السموات والأرض ؛ وقد أعد فى هذه الجنة مساكن وصفها القرآن بأنها طيبة ، تطيب فيها الحياة ، ويسعد فيها المقيم .

عنى القرآن أكثر ما عنى وهو يتحدث عن الجنة بأن الأنهار تجرى من تحتها ، فكثيراً ما تسمع فيه هذا الوصف الذى ورد فى قوله سبحانه : « أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم » ولا ريب أن للأنهار منظراً يروق العين ، ويثلج النفس ، ويبهج القلب ، فضلا عن أن الماء يوحى بمعنى الحياة والاطمئنان إليها . وليست هذه الأنهار الجارية مياها متدفقة فحسب ، ولكنها أنهار متنوعة بين ماء عذب ، ولبن سائغ ، وخمر شهى ، وعسل صاف ، « مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى » ، ومن هذه الأنهار يعب الشاربون كما يشاءون . ولا يكتفى القرآن بذكر هذه الأنهار الجارية فيها ، بل يحدثنا عن العيون المتفجرة فى أرجائها ، ولتفجر العيون فى النفس أثره المبهج السار .

ويعيش أهل الجنة فى جو لايؤذيه حر الشمس ولا قوة البرد ، « لا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا » ولكنها ظل ظليل لا يمحوه وهج الشمس ، وقد أكثر القرآن من الحديث عن ظل الجنة ، فقال مرة : وندخلهم ظلا ظليلا » ، وقال :

« إن المتقين فى ظلال وعيون » ، وقال : « أكلها دائم وظلها » ؛ وقال : « ودانية عليهم ظلالها » ، وقال : « هم وأزواجهم فى ظلال ، على الأرائك متكئون » ؛ والظل مما تجد النفس عنده الطمأنينة ، وتشعر لديه بالهدوء والغبطة يلجأ إليه السائر فى حر الظهيرة ، فيجد راحة نفسه وهدوء قلبه ، وكأن القرآن بهذا الوصف يعقد مباينة تامة بين النار الملتهبة لا يجد فيها الإنسان مأوى من لظاها ، وبين الجنة ذات الظل الوارف الظليل .

وأجمل القرآن مرة ما فى الجنة من نعيم الطعام والشراب حين قال : « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين » وخص القرآن من بين أنواع الطعام ، الفواكه بالحديث يجمعها حينا ، ويعدد بعض أنواعها حيناً آخر ، ويتحدث عن قرب مجتناها ، ودنو قطوفها ، فقال مرة : « أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه ، وهم مكرمون ، فى جنات النعيم » وقال ثانية . « تلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فواكه كثيرة منها تأكلون » وقال أخرى : « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان . . . فيهما فاكهة ونخل ورمان » و « إن للمتقين لحسن مآب : جنات عدن ، مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب » « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة » . « وإن للمتقين مفازا ، حدائق وأعناباً » .

وأشار إلى اللحم بعامة ، ولحم الطيور بخاصة فى موضعين من القرآن . ولعل العناية بذكر الفاكهة ، مع أن القرآن قد أشار إلى أن فى الجنة من كل الثمرات ، وبذكر اللحم — تشير إلى ما فيه أهل الجنة من الترف والنعيم ، فالمعتاد أن هذين

النوعين من الطعام يسعد بغزارتهما الأغنياء المترفون .

وخص القرآن من بين أنواع الشراب الماء واللبن والخمر والعسل ، وتحدث كثيراً عن خمر الجنة وما تمتاز به عن خمر هذه الحياة ، فهى خمر خالصة للذة لا تعتدى على العقل ، ولا تنتهب قواه ، « يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ، ولا هم عنها ينزفون » ، خمر يحتفظ فيها الشارب بخير ما أعطى من النعم وهو عقله ، وإذا كانت الخمر يجمل شربها من يد ساق جميل ، فقد أعد فى الجنة هؤلاء السقاة «ويطوف عليهم غلمان لهم ، كأنهم لؤلؤ مكنون» ، هذا إلى ألوان أخرى من الشراب ، خصت بها الجنة ، هذا ، وما فى الجنة من ألوان الطعام والشراب دائم لا نفاد له ، « إن هذا لرزقنا ، ماله من نفاد » .

ويقدم الطعام والشراب فى صحاف وأكواب صيغت من الذهب والفضة « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديراً » .

أما ملابسهم فمن الحرير والإستبرق[1] ، « يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق » ، ويجلسون متقابلين « متكئين على فرش بطائنها من استبرق ، و « على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين » يتحدثون ، وقد بدت على وجوههم البهجة والسرور ، « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » ، قد اطمأنت نفوسهم إلى هذا النعيم المقيم ، وملأ الرضا نفوسهم فلا غل فيها ولا حفيظة ، « ونزعنا ما فى صدورهم من غل ، إخواناً على سرر متقابلين » ، « تجرى من تحتهم الأنهار ، وقالوا : الحمد لله ، الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، لقد جاءت رسل ربنا بالحق » . وهذا مجلس من مجالس أهل الجنة يصفه القرآن فى قوله : «وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ،

---

(١) تخين الديباج .

وأكواب موضوعة ، ونمارق[1] مصفوفة ، وزرابى[2] مبثوثة » ويصف مجلساً آخر من مجالسها قائلا : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون[3] ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً ، إلا قليلا : سلاماً ، سلاماً » ، قد امتلأت نفوسهم بالغبطة لرضا الله عنهم ورضاهم عن نتيجة أعمالهم ، « رضى الله عنهم ، ورضوا عنه » ، وتدور بينهم أطيب الأحاديث وأسعدها ، وها هم أولاء قد ضمهم مجلس ، « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم : إنى كان لى قرين ، يقول : أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً ، أئنا لمدينون ؟ قال هل أنتم مطلعون ؟ فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال : تالله إن كدت لتردين ، ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم » ، وها هم أولاء قد ضمهم مجلس ثان ، « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، : قالوا : إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ، ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم » . ويصورهم « يتساءلون عن المجرمين ، ما سلككم فى سقر ؟ قالوا : لم نك من المصلين ، ولم نك نطعم المسكين ، وكنا نخوض مع الخائضين ، وكنا نكذب بيوم الدين ، حتى أتانا اليقين » ، « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا ، لا تجعلنا مع القوم الظالمين » ، أو ليس فى هذا التصوير ما يدفع إلى التفكير العميق حذراً من كارثة مقبلة .

---

(١) وسائد .
(٢) طنافس .
(٣) تذهب عقولهم

ويملأ هذه الجنة أنسا هؤلاء الزوجات اللاتى جمعن بين جمال الجسم وجمال النفس ، فهن حور كواعب ، كأنهن الياقوت والمرجان ، عين كأنهن بيض مكنون ، أما خلقهن فإنهن يتزين بأجمل صفات النساء وأسماها ، وهى صفة العفة التى عبر القرآن عنها بقصر الطرف ، إذ وصفهن مراراً بقوله : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » . وبذا كله تصبح الجنة كما وصفها القرآن — نعيما وملكا كبير .

تلك هى الجنة كما رسمها القرآن ، نعيم مقيم ، ولذة دائمة ، ومتعة لا تنفد . وقد يقال إن القرآن قد أكثر من ذكر اللذائذ الجسمية ، والمتع الجسدية ، ولكن يجب ألا ننسى أن الإنسان الطبيعى الكامل جسما وعقلا يسر لهذه اللذائذ ويهش لها ، ويتمنى أن لو عاش تلك الحياة السعيدة المنعمة ، فليس فى الطبيعة البشرية زهد فى اللذائذ ولا كراهة لها ، فلا جرم كان الوعد بالحصول عليها جزاء العمل الطيب ، مغريا بهذا العمل وحاثا عليه ، ولم يعمل الناس ويجاهدون ؟ إنهم يعملون للحصول على مستوى رفيع فى الحياة ، يمكنهم من الحصول على السعادة الجسمية والروحية . ومن يزعم أن الطبيعة البشرية المثالية تتجه إلى الزهد أو تميل إليه فهو مغال مسرف ، بل جاهل بحقيقة الطبيعة البشرية ، فالناس فى هذه الحياة يجاهدون ليصلوا بحياتهم المادية إلى مستوى سام رفيع ، ويحصلوا على أكثر ما يستطيعون الحصول عليه من هذه السعادة المادية ، لها يجاهد الناس ، ومن أجلها تقتتل الأمم ، وكان لذلك وصفُ النعيم مثيراً فى النفس رغبة العمل لنيله والحصول عليه ، وكان وصف لذائذ الجنة المادية مما يتفق مع طبيعة الإنسان ، والقرآن بهذا يلحظ الجانب الواقعى من حياة الإنسان . ومع قوة ما للنعيم المادى من أثر فى قوة توجيه المرء إلى الصالح النافع ، لم ينس القرآن اللذّة الروحية فى وصف نعيم الجنة ، فهذا الرضا النفسى عن نتيجة الأعمال التى قدمها المرء فى هذه الحياة ، والسرور برضوان الله ، لكل هذا لذة روحية سامية ، بل لقد أشار القرآن إلى أن هذا الرضوان من

الله أكبر من هذه اللذائذ حين قال . « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم » ، أرأيت أن القرآن لم يغفل الجانب الروحى فى الإنسان ، جانب السرور بمغفرة الله ورضوانه ، وأنه لم يغفل غرائز الإنسان التى تندفع إلى طلب اللذائذ ، واجدة فى هذه الملذات سعادتها وهناءتها ، ولو أن القرآن اقتصر على وصف اللذة الروحية ، كان فى ذلك الاتجاه انحراف عن الطريق الطبيعى الذى تسير فيه الطبيعة الإنسانية السليمة .

النار

أما جهنم فقد أعدت « للطاغين مآباً ، لابثين فيها أحقابا » ، ويقال لهم وقد كبكبوا فيها : « هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون » . وقد أجاد القرآن فى تصويرها تصويراً يبعث الرهبة فى النفوس والهلع فى القلوب ، والخوف من أن يكون المصير إليها ، فتلجأ إلى العمل تتقى به لظاها ، وتتخذه ستاراً بينه وبين لفحها ، وإذا كان عرض الجنة عرض السموات والأرض ، وكانت من السعة بحيث يشعر أهلها بالطلاقة والحرية أنى ساروا ، فعلى العكس من ذلك النار ؛ فإن ساكنها لا يحس بحرية ولا طلاقة ، ولكنه يحس بالضيق ، وكأنى بأهل النار يرصّ بعضهم رصاً إلى جوار بعض ، لا يكادون يجدون متسعاً للحركة ولا الانتقال ، ويزيد من ضيقهم أنهم مقيدون فى السلاسل ، مقرنون فى الأغلال ، يسحبون على وجوههم ويلقون فى النار ، « إذا ألقوا منها مكانا ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً » ، « إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون » ، وليس ذلك لضيق فى النار ، ولكن للتضييق على ساكنها ، أما النار فتسع أكثر من داخليها ، « يوم نقول لجنهم : هل

امتلأت ؟ وتقول : هل من مزيد ؟ » .

وتلتهب نيران جهنم بوقود من الناس الطّغاة والحجارة ، وإن الصلة لوثقى بين أهل النّار والحجارة ، فإنّ أهل النار لا يميّزهم من الحجارة ، ما يمتاز به الناس من العقل والإدراك والحسّ ، بل لقد ألغوا عقولهم ، فلم يفهموا بها الحق والصواب ، ولم يفكروا بها التفكير السليم المنتج ، وألغوا أعينهم ، وآذانهم ، فلا يهتدون بما يرون ولا بما يسمعون ، « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجنّ والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، أو ليس الغافل أشبه شيء بالجماد ، وبم يصير الإنسان إنسانا بغير عقله وإدراكه . ومن حطب جهنم كذلك جند إبليس الذين كانوا يغوون الناس ويضلونهم ، « فكبكبوا فيها هم والغاوون ، وجنود إبليس أجمعون » ، كما يقذف فى النار أولئك الآلهة التى كانوا يعبدون من دون الله ، وهنا يوجه القرآن أنظارهم إلى أن ما يعبدونه لو كان يستحق أن يكون إلهاً ما صح أن يلقى فى نار جهنم خالداً فيها ، إذ يقول : « إنكم وما تعبدون من دون الله حطب جهنم ، أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ، وكل فيها خالدون » .

ويصوّر القرآن شدّة لهيب هذه النيران بضخامة ما يتطاير منها من الشرر ، فهو ليس بذرات صغيرة كهذه الذرّات التى تتصاعد من نار هذه الحياة الدنيا ، ولكنه شرر كجذوع الشجر الضخم ، أو الجمال الصفر ، « إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالة صفر » ، فليترك المجال للخيال ، يتصوّر هذه النيران تلقى مثل هذا الشرر .

هذه النيران الملتهبة يسمع لظاها من مدى بعيد ، فكأنما تبدى غيظها مما اقترفه هؤلاء الجناة . واستمع إليه يصوّر ذلك فى قوله : « وللذين كفروا بربهم

عذاب جهنم ، وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ، وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ » أو لا تحس فى هذا التصوير بقوة غضب النيران يملؤها ، حتى لتكاد تضيق به وتنفجر ، وفى هذه النيران ذات اللظى ، يتنفسون لهبها « لهم فيها زفير وشهيق » وليصوّر خيالك هذا اللهب يتنفسون منه ويزفرون ، ليصوّر خيالك هذه النيران تحيط بالعصاة من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، « وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ، ومن تحت أرجلهم ، ويقول : ذوقوا ما كنتم تعملون » فهى مهادهم ، ومنها غطاؤهم ، وليصور الخيال هذه الوجوه تتقلّب فى النيران ، والرءوس تنزع منها شواها ، وهذه الأجسام تتخذ ثيابها من النار ، « فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار » وهذه الجلود كلما احترقت وصهرت ، استبدلت بجلود أخرى ، ليبدأ عذابهم من جديد ، « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ليذوقوا العذاب » ، وهكذا لا يجدون فى وسط هذه النيران ظلا يحسون عنده ببرد الراحة ، اللهم إلا ظلٌّ دخان قد تفرق وانتشر شعبا ، فصار ظلا غير « ظليل ولا يغنى من اللهب » ، « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم[1] ، لا بارد ولا كريم » ، ويظلون فى هذا العذاب خالدين ، « لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون[2] » . وعليهم حرس « ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » .

وأمّا طعامهم فمن شجرة الزقوم ، وهى « شجرة تخرج فى أصل الجحيم ، طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون » ، وهى « طعام الأثيم ، كالمهل[3] يغلى فى البطون ، كغلى الحميم » ، وجعل الله طعامهم فى

---

(١) دخان .
(٢) يائسون .
(٣) ماذاب من بعض المعادن أو القيح أو صديد الميت .

موضع آخر « من ضريع[١] ، لا يسمن ولا يغنى من جوع » ، فإذا ارادوا الشراب سقوا من عين آنية[٢] ، وشربوا حميما[٣] وغساقا[٤] ، وإن ما يتصاعد منه من حرارة يشوى الوجوه شيّاً « إنّا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها ، وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل، يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقا» ، وهم يملئون بطونهم من هذا الطعام ، ويقبلون على شرابهم فى شراهة كشراهة الهيم ، فيقطع أمعاءهم ، ولا يكتفى الأمر بأن يشربوا من هذا الحميم ، ولكنه يصبّ من فوق رءوسهم ، « يصهر به ما فى بطونهم والجلود » .

لا عجب إذاً أن حاول هؤلاء النزلاء أن يفروا من جهنم ، ولكن أنى لهم الفرار ، وقد أعدت « لهم مقامع[٥] من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق » ، أو إن تمنوا أن لو كانوا تراباً ، أودعوا الله أن ينالهم بالهلاك المبيد ، « لا تدعوا اليوم ثبورا واحداً ، وادعوا ثبوراً كثيرا » ، « يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه ، كلا « أرأيت كيف يشتد العذاب بأصحاب النار ، حتى يتمنى أحدهم أن يفدى نفسه بابنه ، الذى يتمنى المرء أن يفديه بنفسه ، بل يتمنى أن لو هلك الناس جميعاً ، ونجا وحده .

فى هذا اللهب المشتعل الذى لا يموت من فيه موتة تريحه ، ولا يحيا حياة يرضاها — يعلن أهل النار بعضهم بعضاً ، فإذا حوتهم جهنم جميعاً قال الرعاع عن

---

(١) جنس من الشوك ترعاه الإبل مادام رطبا، فإذا يبس تحامته الإبل، وهو سم قاتل.
(٢) متناهية فى الحر .
(٣) ماء حار .
(٤) ما يغسق من صديد أهل النار، أى يسيل.
(٥) سياط .

سادتهم : « ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار » فيجيبهم الله بأن لكل منهم ضعفاً ، ويقول السادة للرّعاع : أنتم مثلنا فى العذاب ، ولن يخفف عنكم « فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » وينادى على السيد منهم فيقال لمعذبيه : « خذوه فاعتلوه[1] إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق ، إنك أنت العزيز الكريم » . ويشتد الخصام بينهم وبين ما كانوا يعبدون من دون الله ، ويدركون مقدار ما كانوا عليه من الخطأ والضلال « قالوا وهم فيها يختصمون : تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين ، وما أضلنا إلا المجرمون ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم » . ويندمون على عصيان الله ورسوله ، ويتمنون أن لو كانوا قد أطاعوهما : «وقالوا : ربنا ، إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا ، فأضلونا السبيلا ، ربنا ، آتهم ضعفين من العذاب ، والعنهم لعناً كبيرا » وحينا يتجه هؤلاء الضعاف إلى رؤسائهم « فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد » . ويتجه هؤلاء العصاة إلى الله . ويصور القرآن ذلك فى قوله ، يوجه إليهم الأسئلة فيجيبون : « ألم تكن آياتى تتلى عليكم ؛ فكنتم بها تكذبون ، قالوا : ربنا ، غلبت علينا شقوتنا ، وكنا قوما ضالين ، ربنا ، أخرجنا منها ، فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال : اخسئوا فيها ، ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبدى يقولون : ربنا ، آمنا ، فاغفر لنا ، وارحمنا ، وأنت خير الرّاحمين ، فاتخذتموهم سخريا ، حتى أنسوكم ذكرى ، وكنتم منهم تضحكون ، إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ، قال : كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، فاسأل العادّين ، قال : إن لبثتم إلا قليلا ، لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم إلينا لا ترجعون » . وحيناً يصطرخون فيها قائلين : « ربنا ، أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل »

---

(١) قودوه بعنف .

فيسألون : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا ، فما للظالمين من نصير » . وفى النار لا يسعهم إلا اعترافهم بذنوبهم ، فهاهم أولاء الخزنة يسألونهم ، كلما أقبل فوج منهم : « ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذّبنا ، وقلنا : ما نزّل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير ، وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » ؛ وحيناً يجيبون إجابة من يريد أن يموّه ، طمعاً فى النجـــاة حيث لا مطمع ، فإذا قيل لهم : « أين ما كنتم تشركون من دون الله ؟ قالوا : ضلّوا عنا ، بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً » وحيناً يصمتون إذ « قيل لهم : أين ما كنتم تعبدون من دون الله ؟ هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ » .

ويتجه أصحاب النار حيناً إلى خازنها ؛ ويتضرعون أن يقضى ربهم عليهم ، فتكون الإجابة قاضية على آمالهم ، بأنهم مخلدون لا يفتّر عنهم العذاب ، « ونادوا : يامالك ، ليقض علينا ربّك ، قال : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكنّ أكثركم للحق كارهون » ، وحيناً ، وقد أضناهم العذاب ، يتوسلون لخزنة جهنم أن « ادعوا ربّكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا : أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوا : بلى ، قالوا : فادعوا ، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال » . وحيناً يتساءلون عن رجال مضوا إلى الجنة ، مع أنهم كانوا يعدونهم من الأشرار ، فإذا اتجهت أبصارهم تلقاء أصحاب الجنة نادوا « أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم ، كما نسوا لقاء يومهم هذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون » .

وأكبر ما يتمنون يومئذ أن يكون لهم شفعاء ، فيشفعوا لهم ، « يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل : قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء

فيشفعوا لنا ، أو نردّ فنعمل غير الذى كنّا نعمل ، قد خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

ذلك وصف حافل للعذاب الجسمى فى جهنم ، أما العذاب الروحى فشعور هؤلاء المجرمين بأنهم محجوبون عن رضوان الله الذى خلقهم ، وأنعم عليهم بما قل من النعم أو كثر ، ثم قابلوا نعمه بالجحود والنكران ، فلا « يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم » ، « ثم إنهم عن ربهم يؤمئذ لمحجوبون » ، وفى كفران النعمة شقاء نفسى ، يتعذب له الضمير ، ويشقى من أجله الوجدان .

الجهاد

قوبل الدين الجديد بأعنف مظاهر المعارضة ، واجتمع أعداؤه يريدون القضاء عليه ، ويحاولون بكل ما أوتوا من قوّة أن يخنقوه فى مهده ، وأن يبيدوا فكرته ومبادئه ، ولم يقفوا عند حدّ الجدل اللسانى ، أو المعارضه القولية ، بل تعدّوا ذلك إلى أشد ألوان الإيذاء فحملوا بقسوة على من اعتنق هذا الدين الجديد ، حتى أصبح مقامهم فى وطنهم عبئاً لا يحتمل ، وجحيماً لا يطاق ، ففروا بدينهم إلى المدينة ، وضحّوا فى سبيل عقيدتهم بأموالهم وأهليهم؛ فكان من الطبيعى أن يسمح لمعتنق هذا الدين الذى اتّخذوا شعاره : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » ، أن يعدوا العدة للدفاع عن أنفسهم ، والدفاع عن عقيدتهم ، حتى يتدبر الناس أمرها فى حرية وأمن ، ويتدبروا ما فيها من الحق والصواب ، فيعتنقوها عن اقتناع ، ويدخلوها مطمئنين ، لا يخافون . وقد بيّن القرآن ذلك فى قوله : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله » ، وإن أحق ما يعطاه المظلوم من الحقوق الدفاع عن النفس ، ليعيش آمناً فى سربه ، مطمئناً إلى حياته ،

لا يخشى أحداً على نفسه ولا عقيدته ، والجهاد هو الذى يدفع شرّة العدو ، ويحول بينه وبين الاعتداء والتعدى ، « فقاتل فى سبيل الله ، لا تكلف إلا نفسك ، وحرّض المؤمنين ، عسى الله أن يكفّ بأس الذين كفروا ، والله أشد بأساً ، وأشد تنكيلا» .

وإذا كان للجهاد ، هذا الأثر القوى فى تأمين الجماعة الناشئة على نفسها وعقيدتها ، فلا جرم كان له مكانه الممتاز بين مبادىء هذا الدين وقواعده ، حتى إنه لينكر أن يسوى به غيره مما لا يبلغ قدره وقيمته ، فيقول : « أجعلتم سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين ، الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون ، يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا ، إن الله عنده أجر عظيم » ، ويقول : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرَ أولى الضرر ، والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ، وكلاّ وعد الله الحسنى ، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » . أرأيت هذا التكرير وما يحمله من معانى التوكيد ، مثبتاً فى النفس فضل الجهاد وقدره وقيمته .

والقرآن يعترف بأن الجهاد فريضة ثقيلة على النفوس ، لا تتقبله فى يسر ، ولا تنقاد إليه فى سهولة ، فهو يعلم ما لغريزة حبّ الذات من أثر قوى فى حياة الإنسان وتوجيه أفعاله ، ولذلك تحدّث فى صراحة ، مقررا موقف النفس الإنسانية ، من تلك الفريضة الشاقة ، التى يعرّض المرء فيها حياته لخطر الموت ، وقد طبعت النفوس على بغضه وكراهيته ، فقال : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ، ويقرّر فى صراحة أن نفوس المسلمين قد رغبت فى أن تظفر بتجارة المكيين الآيبة من الشام ، والتى يستطيعون الاستيلاء عليها من

غير أن يريقوا دماءهم فى قتال مرير مع القرشيين ، إذ يقول : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين » .

وإذا كانت النفس الإنسانية تجد الجهاد فريضة شاقة ، فقد جمع القرآن حولها من المغريات ما يدفع إلى قبولها قبولاً حسناً ، بل إلى حبها والرغبة فيها .

وإذا كان أول ما يثنى المرء عن الجهاد هو حبه للحياة وبغضه للموت ، فقد أكد القرآن مراراً أن هذا الذى يقتل فى سبيل الله حىٌّ عند ربه يرزق ، وإن كنا لانشعر بحياته ولا نحسّ بها ، فقال : « ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » ، وإذا كان من يقتل فى سبيل الله حياً يرزق ، ويظفر بحياة سعيدة ، فرحاً بما أنعم الله به عليه ، لا يمسه خوف ، ولا يدركه حزن ، فلا معنى للإحجام عن الجهاد ، حرصاً على حياة لا تنقطع بالموت فى ميدان القتال ، ولا تنتهى بالاستشهاد ، بل يستأنف صاحبها حياة أخرى آمنة خالصة مما يشوب حياة الدنيا من القلق والمخاوف والأحزان .

ويمضى بعدئذ ، غارساً فى نفوسهم أن الموت قدر مقدور ، لا يستطيع المرء تجنبه أو الهرب منه ، فلا معنى إذاً لتجنب الجهاد الذى لا يدنى الأجل ، إذا كان فى العمر فسحة ، إذ الأجل لا يتقدم ولا يتأخر ، « فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون » ، فيقول : « قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ويقول : « يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . ويرد على أولئك الذين يزعمون الجهاد مجلبة للموت ردّاً رفيقاً حازماً

فى قوله : « ليعلم الذين نافقوا . . . الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ؛ قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت ، إن كنتم صادقين » . وإذا كان المرء يموت عند انقضاء أجله ، فلا معنى كذلك للفرار من ميدان القتال خوفاً من الموت إذ لا شىء يحول بينهم وبينه إن كان أجلهم قد دنا ، « قل : لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل ، وإذا لا تمتّعون إلا قليلا ، قل : من ذا الذى يعصمكم من الله ، إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا » .

وإذا كانت الدنيا زائلة لامحالة ، والموت قادما لاريب فيه ، وإذا كان الباقى الدائم هو الدار الآخرة ، والجهاد وسيلة من وسائل السعادة فى هذه الدار — كان العقل الحازم هو هذا الذى يقبل على الجهاد بنفس راضية ، مؤثراً ما يبقى على ما يزول ، قال سبحانه : « فليقاتل فى سبيل الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله ، فيقتل أو يغلب ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما » ، ويرد على هؤلاء الذين اعترضوا على فرض القتال بقوله : « وقالوا : ربنا ، لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ، ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ، ولو كنتم فى بروج مشيدة » .

ويثير فيهم النخوة الإنسانية ، وشهامة الرجولة ، حينما يمثل لهم واجبهم المقدس إزاء إنقاذ قوم ضعاف يسامون الذّل ، ويقاسون الظلم ، على أيدى قرية ظالم أهلها ، فلا يجدون ملجأ يتجهون إليه سوى الله ، يرجونه ويطلبون نصرته ، أليس هؤلاء الضعاف أجدر الناس بأن يهبّ من لديهم نخوة لإنقاذهم من أيدى ظالميهم ؟ قال سبحانه : « وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون : ربّنا ، أخرجنا من هذه القرية الظّالم أهلها ، واجعل

لنا من لدنك وليًّا ، واجعل لنا من لدنك نصيرا » .

ويمثلهم وأعداءهم معسكرين ، أحدهما ينصر الله ، وثانيهما ينصر الشيطان ، أحدهما يدافع عن الحق ، وثانيهما يدافع عن الباطل والغواية ، والدفاع عن الحق من عمل الإنسان الكامل ، أمّا الباطل فلا يلبث أن ينهار فى سرعة ، لأنه هش ضعيف ، « الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت . فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

أمّا جزاء الجهاد فقد أعدّ الله للمجاهد مغفرة منه ورحمة خيراً مما يتكالب الناس على جمعه فى هذه الحياة ، وهيأ له جنات تجرى من تحتها الأنهار ، فقد عقد معه عقد بيع وشراء ، يقاتل فى سبيله ، فَيَقْتُلُ وَيُقْتَلُ ، وله فى مقابل ذلك جنّة الخلد ، ذلك عهد قد أكد الله تحقيقه فى قوله : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله ، فَيَقْتُلُون ، وَيُقْتَلون وعدا عليه حقاً فى التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ، فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » وأكد القرآن هذا ، وكرّره فى مواضع عدّة ، فقال مرّة : « فالذين هاجروا ، وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقاتلوا ، وقتلوا ، لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهارُ ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » : وقال أخرى حاثا على الجهاد مغرياً به : « يأيها الذين آمنوا ، هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » .

ويشجعهم على تتبع أعدائهم بلا تباطؤ ولا وهن ، مبيناً لهم أن أعداءهم ليسوا بأسعد حالا منهم ، فهم يتألمون مثلهم ، ثم هم يمتازون عليهم بأن لهم أمالا فى الله ،

ورجاء فى ثوابه وجنّته ، ماليس لدى أعدائهم ، ولذا كانوا أجدر منهم بالصبر ، وأحق منهم بالإقدام ، فيقول : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون ، فإنهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليماً حكيما » .

تلك هى المغريات التى بثها القرآن هنا وهناك ، يحث بها على الجهاد ، ويوطن النفس على الرغبة فيه والإقبال عليه ، وأنت تراها مغريات طبيعية تدفع النفس إلى الإقدام على مواطن الخطر ، غير هيابة ولا وجلة ، مؤمنة بأنه لن يصيبها إلا ما كتب الله لها ، فلا الخوف بمنجٍّ من الردى ، ولا الإحجام بمؤخر للأجل ، مؤملة خير الآمال فى حياة سعيدة قادمة ، لا يعكر صفوها خوف ولا حزن .

وإذا كان الله قد حث النّفس الإنسانية على الجهاد ، وحبّبه إليها ، فقد حذرها من الفرار من ميدان القتال تحذيراً كله رهبة وخوف ، وإن الفرار يوم الزحف لجدير أن يظفر بهذا التهديد ، لأنه يوهن القوى ، ويفتّ فى العضد ، ويسلم إلى الانحدار ، والهزيمة ، فلا غرابة أن نسمع هذا الزجر العنيف فى قوله : « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ، فلا تولّوهم الأدبار ، ومن يولّهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيّزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم ، وبئس المصير » .

ويشير القرآن إلى أن الإعداد للحرب وسيلة من وسائل تجنّبها ، وهو من أجل ذلك يحث على إعداد العدّة واتخاذ الأهبة ، حتى يرهب العدو ويحذر ، فيكون ذلك مدعاة إلى العيش فى أمن وسلام ويدعو القرآن إلى البذل فى سبيل هذا الإعداد ، حتى ليتكفل بوفاء النفقة لمن أنفق من غير ظلم ولا إجحاف به ، والقرآن بتقرير هذا المبدأ عليم بالنفس الإنسانية التى يردعها الخوف فيثنيها عن الاعتداء . قال سبحانه : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم ، وآخرين من دونهم ، لا تعلمونهم ، الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء

فى سبيل الله يوفَّ إليكم ، وأنتم لا تظلمون » .

وبهذه القوة التى أمرنا القرآن بإعدادها نرهب العدو ، ونستطيع القضاء عليه ، إذا هو حاول الهجوم ، أو نقض عهداً كان قد أبرمه معنا ، وبها نقلم أظافره ، فلا نغترّ بما قد يبديه من خضوع ، يخفى وراءه رغبة فى الانقضاض ، إن واتته الفرصة ، أو وجد عندنا غفلة ، وبهذه القوة يشعر العدو بخشونة ملمسنا ، وأننا لسنا لقمة سائغة الازدراء ، فالقتال مباح حتى يأمن سرب الجماعة ، ويهدأ بالها ، فلا تخشى هجوماً ولا مباغتة ، ولكن من غير أن تحملنا القوة على الزهو فنعتدى ؛ وبهذه القوة نقابل الاعتداء بمثله ، من غير أن نظهر وهناً ولا استكانة يظنها العدو ضعفاً ، وبها نقضى على أسباب الفتنة ، حتى تصبح حرية العبادة مكفولة ، وحرية العقيدة ، موطّدة الأركان ، واستمع إلى هذه المبادى ، القوية مصوغة فى أسلوب قوىّ فى قوله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوهم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

و « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون ، فإما تثقفنّهم فى الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلهم يذّكرون » ، و « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمّة ، يرضونكم بأفواههم ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لا يرقبون فى مؤمن إلاّ

ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ، ونفصّل الآيات لقوم يعلمون ، وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم ، لعلهم ينتهون ، ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أوّل مرّة ، أتخشونهم فالله أحقّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » ، « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » ، « فلا تهنوا وتدعو إلى السلم ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم » .

ولم يدع القرآن باباً لتقوية الروح المعنوية لدى المسلمين إلا سلكه ، ففضلاً عن المغريات التي أسلفنا الحديث عنها ، يؤكد لهم مراراً أن الله معهم ، وأنه وعد من ينصره بالنصر المؤزر ، ويطمئنهم بأنه يمدهم بالملائكة يساعدونهم ويشدون عضدهم ، ويخبرهم بأنه ينزل السكينة على قلوبهم ، والأمن على أفئدتهم ، ويربط على قلوبهم ، ويثبت أقدامهم ، وهو يعلم ما للإيمان الصادق ، وما للروح المعنوية القوية من أثر بالغ في صدق الدفاع والنصر ، ولهذا جعل المؤمن الصابر الصادق يساوي في المعركة عشرة رجال ، ثم رأى أن هذا الجندي المثالي قليل الوجود ، فجعل المؤمن الواحد يساوي اثنين ، فللقوّة المعنوية أثرها الذي لا ينكر في ميدان القتال ، واستمع إليه يقول : « يأيها النبي ، حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا ، بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » .

ويقرر القرآن ما للرعب الذي يلقيه في قلوب أعدائهم من الأثر فيما يلحقهم من

الهزائم ، وفى كل ذلك تثبيت لقلوب المؤمنين ، وتقوية لروحهم المعنوية .

هذا ، ومن أهم ماعنى به القرآن وهو يصف القتال الناجح — وصفه المقاتلين يتقدمون إلى العدو فى صفوف ملتحمة متجمعة ، لا ثغرة للعدو ينفذ منها ، ولا جبان بين الصفوف يتقدم فى خوف ووهن ، وذلك حين يقول : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » ، وفى كلمة البنيان والرصّ ما يصور لك صفوف المجاهدين يتقدمون فى قوة وحزم ، يملأ قلوبهم الإيمان ، ويحدوهم اليقين .

كما عنى بالحديث عن الجند الخائن ، وأن الخير فى تطهير الجيش منهم ، فهم آفة يبثون الضعف ، ويبذرون بذور الوهن فى النفس ، ويقودون الجيش إلى الانهيار والهزيمة ، وقد أطال القرآن فى وصف هؤلاء الجند وتهديدهم وتحذير الرسول من صحبتهم ، فقال مرة : « وإن منكم لمن ليبطئنّ ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علىّ ؛ إذ لم أكن معهم شهيدا ، ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، كأن لم تكن بينكم وبينه موَدّة : ياليتنى كنت معهم ، فأفور فوزاً عظيما » ؛ ويصفهم مهدِّداً منذراً فى قوله : « فرح المخلَّفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لاتنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً ، لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلا ، وليبكوا كثيرا ، جزاء بما كانوا يكسبون ، فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبدا ، ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين ، ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون ، وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله ، وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون » ؛ ويبين أن الخير

فى عدم استصحابهم ، فيقول : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » ؛ وهذه النذر القوية تؤذن بما للجهاد من أثر فى صيانة الدين ، والتمكين له فى الأرض .

المعارك الحربية

سجّل القرآن كثيراً من المعارك الحربية التى دارت بين المسلمين وخصومهم بطريقته المصورة المؤثرة المتغلغلة إلى أعماق النفوس ، وأخفى أغوار القلوب ، وهاهو ذا يسجّل معركة بدر ، أولى المعارك الكبرى التى انتصر فيها المؤمنون ، على قلتهم ، انتصاراً مبيناً على عدوهم ، فيقول : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك فى الحق بعد ماتبيّن ، كأنما يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون ؛ وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ، ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون ، إذتستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنّى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ، ولتطمئن به قلوبكم ، وما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ، وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ، ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ، ويثبت به الأقدام ، إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم ، فثبتوا الذين آمنوا ، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار ؛ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال ، أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه

جهنم . وبئس المصير ، فلم تقتلوهم ، ولكن الله قتلهم ، وما رميت إذ رميت ، ولكن الله رمى ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا ، إن الله سميع عليم . ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ، إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ، وإن تنتهوا فهو خير لكم ، وإن تعودوا نعد ، ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ، وأن الله مع المؤمنين » .

تسجل الآيات الكريمة نقاشاً حاداً جرى بين النبي وطائفة من المؤمنين ، هو يريد أن يقنعها بأن الخير فى الخروج لملاقاة العدو ، وهى تريد أن تقنعه بأن الأفضل البقاء وتجنب ملاقاته ، يشفع لها فى اتخاذ هذا الرأى قلة عددها ، ويسجل القرآن على هذه الطائفة شدة فرقها من لقاء العدو ، حتى لقد دفعها ذلك إلى جدال الرسول فى رأيه جدالاً شديداً ، وكأنما تمثلت مصارعهم أمامهم ، وكأنهم يرون أنفسهم مسوقين إلى الموت سوقا ، وتسجل الآيات أن الله وعد المؤمنين الظفر بالعير أو بقريش ، وأنهم كانوا يؤثرون أخذ العير ، لسهولة ذلك عليهم ، ولكن الله قد دفعهم إلى الخروج لا للظفر بالغنيمة ، بل ليكون ذلك تمهيداً للتمكين للدين ، وإحقاق الحق وإزهاق الباطل .

ها هو ذا جيش المسلمين يسير ، بقلب واجف ، وفؤاد مضطرب ، يستمد المعونة من الله ، ويستغيث به ، ويطلب منه النصر ، والله يستجيب له ، ويعده بأن يمده بالملائكة ، ليطمئن قلبه ، وتسكن نفسه ، وتثبت قدمه ، وها هو ذا الأمن يملأ أفئدة الجند ، فيجد النوم سبيله إلى عيونهم ، وتجود السماء بالماء ، فلا يتسرب الخوف من العطش إلى نفوسهم ، والله يلقى الأمن والسكينة فى قلوبهم ، فيقبلون على القتال ، فى جرأة وبسالة وإقدام ، يتزعزع لها قلب العدو ، ويمتلىء بالرعب والذهول ، والمسلمون ماضون فى عنف ، يضربون الأعناق ، ويبترون الأكف ، فلا تستطيع حمل السلاح ، وذلك جزاء عناد المشركين لله ورسوله .

ويتخذ القرآن من تلك المعركة درساً ، ويرى أن النصر إنما كفل بهذا الإقدام المستميت ، فيحذرهم إذا لاقوا العدو أن يفروا من ميدان القتال ، وينذرهم إذا هم فعلوا ، بأقسى ألوان العقوبات ، وشر أنواع المصير ، يذكرهم بأن الله هو الذى أمدهم بهذه القوة التى استطاعوا بها هزيمة عدوّهم ، وكأنه ينبئهم بأنهم ليس لهم عذر بعد اليوم ، إذا هم أحجموا عن الجهاد ، وخافوا لقاء العدوّ .

ويمضى القرآن بعدئذ منذراً الكافرين ، مهدداً إياهم بشر مصير ، إن هم فكروا فى إعادة الكرّة ، أو غرتهم كثرتهم ، ومتجهاً إلى المؤمنين يأمرهم بطاعة الرسول ، بعد أن تبينوا أن الخير فيما اختار ، والنجح فيما أشار به وأمر .

والقرآن فى حديثه عن هذه الغزوة قد اتجه أكثر ما اتجه إلى رسم نفسية المقاتلين والتغلغل فى أعماقها ، لأن هذه النفسية هى التى تقود خطا المجاهدين ، وتمهد الطريق إلى النصر أو الهزيمة ، كما اتجه إلى ما يؤخذ منها تجربة وعظة .

وإذا كانت غزوة بدر قد انتهت بالنصر فإن غزوة أحد قد انتهت بإخفاق بعد نصر كان محققاً ، وقد سجل القرآن تلك الغزوة فى قوله : « وإذ غدوت من أهلك تبوّىء المؤمنين مقاعد للقتال ، والله سميع عليم ، إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليّهما ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ولقد نصركم الله ببدر ، وأنتم أذلّة ، فاتقوا الله ، لعلكم تشكرون ، إذ تقول للمؤمنين : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى ، إن تصبروا وتتقوا ، ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، وما جعله الله إلا بشرى لكم ، ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا ، أو يكبتهم ، فينقلبوا خائبين ، ليس لك من الأمر شىء ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، فإنهم ظالمون ... ولا تهنوا ، ولا تحزنوا ، وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ، إن يمسسكم قرح ، فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها

بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ، ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ، ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين ... وما كان لنفس أن تموت إلاّ بإذن الله ، كتاباً مؤجلاً ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين ، وكأين من نبيّ قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا ، وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ... ولقد صدقكم الله وعده ، إذ تُحسّونهم[1] بإذنه ، حتى إذا فشلتم ، وتنازعتم فى الأمر ، وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ، منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ، ليبتليكم ، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، إذ تصعدون ، ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم ، والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغمّ أمنة نعاسا ، يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ، ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ، قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ، قل : لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، وليبتلى ما الله فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور ، إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم ، يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا ، وقالوا لإخوانهم ، إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزّى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم ، والله يحيى ويميت ، والله بما تعملون بصير ، ولئن قتلتم فى سبيل الله ، أو متّم لمغفرة من الله ورحمة

---

(١) تستأصلونهم .

خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظًا غليظ القلب لا نفضُّوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ... أو لمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ ! قل : هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شىء قدير ، وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم : تعالوا ، قاتلوا فى سبيل الله ، أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله أعلم بما كانوا يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم ، وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ، قل : فادرءوا عن أنفسكم الموت ، إن كنتم صادقين ، ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما أتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، أن لا خوفٌ عليهم ، ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

هذا الحديث المطول مؤذن بأن المحدث عنه ذو أهمية خاصة تحتاج إلى هذا الطول ، ولم لا ؟ وهو حديث عن هزيمة ، يريد أن يقتلع آثارها من نفوسهم ، وأن يبدلهم من اليأس أملاً ، وأن يبين لهم الحكمة فيما حدث ، ولنتتبّع الآيات الكريمة نرى ما رسمته ، وما توحى به ، وما عالجته من نفوس القوم ، وكيف مستها برفق حتى اندمل جرحها واطمأنت .

صورت الآيات الكريمة الرسول فى ميدان القتال ، يرتّب الجند ، ويخص كل طائفة بمكان ، ويعيّن موضع كل فريق من المعركة ، وقد همّ فريقان أن يتركا ميدان القتال ويفشلا ، ولعلهما كانا يريان أن يعودا وينتظرا العدو فى المدينة ،

وربما ذكر الرسول المؤمنين بنعمة الله إذ نصرهم ، وهم ضعاف أذلة يوم بدر ، كما أخذ الرسول يقوى روحهم المعنوية ، فيحدثهم عن تأييد الله لهم بالملائكة ليطمئن قلوبهم ، ويثبت أقدامهم ، ليكون ذلك وسيلة لدحر الكفار ، أو لتذكيرهم فيتوبون .

ذلك رسم لما كان فى بدء المعركة ، وما قام به الرسول من دور هام فى تنظيم قوى المؤمنين ، وملء أفئدتهم بالأمل وروح الإقدام .

ويمضى القرآن بعدئذ يمس جرحهم فى رفق فينهاهم عن الوهن والحزن ، ويعدهم بالفوز إذا كان الإيمان الحق يملأ قلوبهم ، ويحدثهم بأنهم إن كانوا قد أصيبوا فقد أصيب عدوهم بمثل ما أصيبوا به ، وكأنه يقول لهم : إن القوم برغم ما أصيبوا به ، لم يهنوا ولم ييئسوا ، بل جاءوا إليكم مقاتلين .

ويحدثهم عن السر فى انتهاء المعركة بما انتهت به ، وأن ذلك وسيلة لتبين المؤمن الحق ، وتمحيصه عن طريق اختباره ، فليس دخول الجنة من اليسر بحيث لا يحتاج إلى اختبار قاس ، كهذا الاختبار الذى عانوه فى معركة القتال ، ثم ينتقل بعدئذ يقر فى نفوسهم أن الأجل أمر مقدور لا سبيل إلى تقديمه أو تأخيره ، وأن كثيراً من الأنبياء حدث لأتباعهم هزائم لم تضعف من عزيمتهم ولم تؤد بهم إلى الوهن والضعف والاستكانة ، وهو بذلك يضرب لهم المثل الواجب الاقتداء ، وبالصبر سيظفرون كما ظفر من سبقهم .

ويعود بعد ذلك متحدثاً عن سبب الهزيمة ، فيبين أنهم كانوا خلقاء بالنصر ، وأن الله قد صدقهم وعده ، وأراهم ما يحبون ، ولكنهم فشلوا وتنازعوا فى الأمر ، فمنهم من أراد الظفر بالغنيمة ، ومنهم من كان يريد الآخرة ، فكانت النتيجة هزيمة ، فرُّوا على إثرها مولين ، لا يلوون على شىء ، والرسول يدعوهم إلى الثبات . ويصف القرآن طائفة منهم قد تغلغل الشك فى نفوسهم ، فمضوا يظنون بالله غير الحق ،

ويقولون : لو كان من الأمر شيء ماقتلنا ههنا ؛ فيرد عليهم القرآن فى رفق بأن الأجل مقدر ، وأن من كتب عليه القتل لابد ملاقيه ، ثم يسبغ الله عفوه على من فر فى ميدان القتال ، غافراً له زلة دفعه إليها الشيطان .

ويكرر القرآن مرة أخرى فكرة إصابتهم ، وأن أعداءهم قد أصيبوا من قبلهم ، وأن سبب هذه الهزيمة راجع إلى أنفسهم ، كما سبق أن حدثهم عن فشلهم وتنازعهم ، وأن هذا الاختبار ليتبين من آمن ، ومن نافق ، هؤلاء الذين ثبطوا عن القتال جبناً ، والذين زعموا أن الجهاد فى سبيل الله هو الذى دنا بآجال من قتلوا ، والقرآن يرد عليهم فى إفحام قائلا : « ادرءوا عن أنفسكم الموت ، إن كنتم صادقين » .

ويختم حديثه مسهلاً عليهم قتل من قتل فى سبيل الله بأنه شهيد حىّ عند ربه يرزق ، فرح بما أوتى من فضل الله ، مستبشر بمن سيلحق به من المجاهدين ، مبتهج بحياة لا خوف فيها ولا حزن .

كانت سمة هذا الحديث الطويل الرّفق فى الخطاب ، واللين فى العتاب ، يريد بذلك تأليف القلوب ، وجمع الأفئدة ، وربما جر العنف إلى أن تجمح النفوس ، وتتشتت الأهواء ، فى وقت كان الإسلام فيه أحوج ما يكون إلى الألفة وجمع الشمل ، حتى إن الفارين أنفسهم وجدوا من عفو الله ما وسعهم بعد أن استزلهم الشيطان .

وسمة أخرى واضحة فى تلك الآيات الكريمة ، وهى : خلق الأمل فى القلوب ، وإبعاد شبح اليأس ومرارة الهزيمة من النفوس ، وقد رأينا كيف ضرب لهم الأمثلة بمن مضوا ممن قاتلوا مع النبيين ، وأثار فيهم نخوة ألا يكونوا أقل قوة من أعدائهم الذين أصيبوا أشد من إصابتهم ، ومع ذلك لم يهنوا ولم يضعفوا ، وملأ قلبهم طمأنينة على من قتل من أحبابهم ، فقد أكد لهم حياتهم حياة سعيدة ، وبذلك كله مسح

على قلوبهم ، ومحا بعفوه آلام المنهزمين منهم ، وأعدّ الجميع لتحمل أعباء الجهاد من جديد بنفوس مشرقة ، وقلوب خالصة ، يملؤها الأمل ، ويحـــدوها الرجاء فى ألا تقصر فى قتال ، أو يدفعها زخرف الحيـاة الدنيا فتنصرف إليه ، ناسية الهدف الرئيسى الذى تركت من أجله الوطن والأهل والولد .

وتحدث القرآن حديثاً طويلا عن غزوة الأحزاب ، إذقال : « يأيها الذين آمنوا ، اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ جاءتكم جنود ، فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا ، وإذ قالت طائفة منهم : يا أهـل يثرب ، لا مقام لـكم ، فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى ، يقولون : إن بيوتنا عورة ، وماهى بعورة ، إن يريدون إلا فراراً ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة لآتوها ، وما تلبثوا بها إلا يسيرا ، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ، وكان عهد الله مسئولا ، قل : لن ينفعكم الفرار ، إن فررتم ، من الموت أوالقتل ، وإذاً لا تمتعون إلا قليلا ، قل : من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا ، قديعلم الله المعوّقين منكم والقائلين لإخوانهم : هلم إلينا ، ولا يأتون البأس إلا قليلا ، أشحّة عليكم ، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ، تدور أعينهم ، كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ، أشحّة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا ، فأحبط الله أعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا ، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب ، يسألون عن أنبائكم ، ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلا ، لقد كان لـكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان

يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً ، ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا : هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم ، ويعذب المنافقين إن شاء ، أو يتوب عليهم ، إن الله كان غفوراً رحيما ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم ، لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون ، وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، وأرضاً لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديراً » .

أجملت الآيات فى وصف نتيجة المعركة بانهزام الأحزاب ومن ظاهروهم ، إجمالاً يغنى عن كل تفصيل ، ويحمل إلى النفس معنى النعمة التى أنعم الله بها على المؤمنين ، فقد كفاهم القتال بقوته وعزته ، ولاسيما إذا قرنت تلك النعمة بما أصاب المؤمنين من الخوف والرهبة من إحاطة الأعداء بهم ، فقد جاءوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ألا ترى أن هذا الوصف الدقيق لنفسية المؤمنين وقد أحيط بهم ، هذا الوصف الموحى المصور ، المؤذن بأن اليأس من النجاة ، كاد يستولى على النفوس ، ثم رأى المحاصرون أنه قد انجلى الغم عنهم ، ومضى الخوف إلى غير رجعة ، وأن ذلك قد تمّ بقدرة الله وحده ، وأنهم قد كفوا القتال ، وصاروا آمنين فى ديارهم — ألا ترى ذلك جديراً بشكر المنعم على تلك النعمة ، التى تضؤل النعم بجوارها .

وأطالت الآيات فى الحديث عن هذه العوامل التى تفت فى عضد الجيش الإسلامى ، والتى كانت خليقة أن تنزل به أقسى الهزائم ، وتلك هى المعوقون والمنافقون ، وكأنه بذلك يريد أن يتدبر هؤلاء موقفهم ، وأن يروا قدرة الله التى

جلبت النصر وحدها ، من غير أن يشترك المسلمون فى قتال ، فلعل فى ذلك تطهيراً لقلوبهم ، وسبباً لعودتهم إلى الطريق السوىّ ، وخير السبل ، وقد تحدث القرآن طويلا عما يعتلج فى نفوسهم ، وما يبثونه من أسباب الهزيمة فى صفوف المسلمين ، وحكى معتقداتهم وردّ عليها فى حزم . فكان حديث القرآن عن هذه الغزوة حديث المصلح الذى يضع هدفه إصلاح نفوس الأفراد وتطهير الجماعة من أسباب ضعفها وخذلانها . وإلى هذا يهدف القرآن حين يتحدث عن الغزوات ، يعنى بالنهوض بالفرد ، فتطهر نفسه ، ويؤمن بالله أعمق الإيمان وأصدقه ، وبالجماعة فتتلافى وسائل نقصها ، وتخلص مما يقعد بها دون الوصول إلى غايتها من النصر المؤزّر والاستقرار والأمن ، يرفق فى سبيل ذلك حيناً ، ويقسو حيناً آخر .

الإنسان المثالى

أجمل الله الإنسانية المثالية وما ينتظرها من الجزاء المادى والروحى فى قوله سبحانه : « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه » . فالإنسان المثالىّ هو ذلك الذى يؤمن ويعمل صالحاً ، وقد فصل القرآن فى مواضع كثيرة هذا العمل الصالح فمنه مايرتبط بالله ، ومنه مايرتبط بالناس ، ومنه مايعود إلى الشخص نفسه .

أما ما يرتبط بالله فأن يؤدّى فرائضه فى محبة وخشوع ، يصلى ذاكراً جلاله وعظمته ، وإذا أصغى إلى آيات الله سجد لما فيها من عظة وحكمة قائلا : «سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا » ، لا يغيب ذكر الله عنه ، مفكراً فى خلق السموات والأرض ، « ربنا ، ماخلقت هذا باطلاً ، سبحانك ، فقنا عذاب النار ، ربنا ، إنك من تدخل النار فقد أخذيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً

ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم ، فآمنا ، ربنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفّر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا ، وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » . وفى ذكر الله ورقابته دائماً إحياء للضمير الإنسانى ، وإقامة هذا الضمير رقيباً على أعمال المرء ، فلا يفعل منفرداً ما يخجل من فعله مع الجماعة ، وإذا حيى الضمير ، وقويت شوكته ، كان للإنسان منه رقيب على نفسه ، فى كل ما يأتى من الأمور وما يدع ، وتربية الضمير هو الهدف الرئيسى للتربية ، والغرض الأول الذى يرمى إليه المربون .

أما صلته بالناس فصلة رفق وحب وعطف ، يفى بالعهد إن عاهد ، ويؤدى الأمانة إن أؤتمن ، ويربأ بنفسه عن اللغو ، فلا يضيع وقته سدى فيه ، «قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ... والذين وهم لأماناتهم وعهدهم راعون » ، « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » ، ويؤتون «المال على حبّه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب » ، يأمر بالصدقة والمعروف ، ويصلح بين الناس ، « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضـــاة الله ، فسوف نؤتيه أجراً عظيما » . وهو هنا لا يكتفى بأن يكون المرء صالحاً فى نفسه ، بل لابد أن يكون عضواً نافعاً فى جماعته ، وقوة عاملة فيها ، فهو يتصدق ، ويأمر غيره بالصدقة ، ويصلح بين الناس ، ويأمر غيره بالإصلاح بينهم ، ولا يكتفى القرآن بأن يقف المرء موقف الواعظ المرشد فحسب ، بل من الواجب أن يأخذ بحظه من الخير الذى يدعو إليه ، ولهذا وبّخ القرآن أولئك الذين يدعون إلى الخير ، وينسون أنفسهم فى قوله : «أتأمرون الناس بالبر ، وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون ؟ » .

والإنسان الكامل هو ذلك الذى يبذل جهده فى خدمة جماعته ، ويعمل على النهوض بها ، فلا يعيش كلا ، ولا يقبل أن يرضى غروره ، بأن يسمع ثناء على ما

لم يفعل ، أما هؤلاء « الذين يفرحون بما أتوا ، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم » .

ومن أكبر سماته أنه يدفع السيئة بالحسنى ، فيؤلف القلوب النافرة ، ويستل الخصومة من صدر أعدائه ، « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ، وأنت ترى القرآن يعترف بأن هـذا الخلق لا يتصف به إلا من كان ذا قدم عظيمة فى التفوق فى مراتب الكمال ، وذا حظ عظيم منه . ويتصل بهذه الصفة كظم الغيظ والعفو عن الناس، وهما مما مجد القرآن ، إذ قال : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض ، أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » ، « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون » .

وهو عادل ، يقول الحق ، ولا يحيد عنه ، ولا يصرفه عن قوله ذو قرابه أو عدواة ، « وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى » ، « كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله ، إن الله خبير بما تعلمون » .

قد طهر قلبه ، فلا يحمل لأحد غلا ولا موجدة ، ويسأل الله السلامة من شر ذلك قائلا : « ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا ، إنك رءوف رحيم » . ولا يسعد إنسان فى حياته ، إذا كان يحمل فى قلبه ضغناً على أحد أو حسداً أو غلا ، فإن ذلك يقلب الحياة شقاء ، وينغص على المرء أيامه ولياليه فضلاً عن ضياع الوقت ، وما أجمل الحياة إذا طهر قلب المرء ، وبعد عنه ما يئوده من هموم الحقد والحسد ، حينئذ يعمل فى طمأنينة ، ويجاهد فى سكينة .

وحسنت صلته بجاره ذى القربى والجار الجنب ، ولذلك أثره فى سعادة الحياة ، والطمأنينة فيها ، ويعامل الناس برفق ، فلا يغره منصب يظفر به ، ولا مال يحويه ، ولا يدفعه ذلك إلى تعاظم أو كبر ، ، ولا يخرجه ما يظفر به إلى البطر والمرح ، « ولا تصعّر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور ، واقصد فى مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » .

يرد التحية بأحسن منها ، « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها ، أو رودوها ، إن الله كان على كل شىء حسيبا » ولا يدخل بيتاً غير بيته حتى يستأذن ، « يأيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا ، وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم ، لعلكم تذكّرون ، فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها ، حتى يؤذن لكم ، وإن قيل لكم : ارجعوا ، فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم » ويجلس مع الناس فى رفق ، فلا يجد غضاضة فى أن يفسح لغيره من مجلسه ، « يأيها الذين آمنوا ، إذا قيل لكم : تفسحوا فى المجالس ، فافسحوا يفسح الله لكم ، وإذا قيل : انشزوا ، فانشزوا ، يرفع ، الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعلمون خبير » .

وإذا كانت السخرية بالغير ، بأى لون من ألوان السخرية ، مدعاة إلى تأصل العداء ، وتقطع الصلات ، كان الإنسان النبيل هو من يجتنب السخرية من الناس ، وعيبهم ، ولمزهم بألقاب يكرهونها ، « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

ومن أهم أخلاق الإنسان المثالىّ الصبر ، وقد أثنى به الله كثيراً ، وحث عليه

كثيراً ، وجعله خلّة لا يظفر بها إلا الممتازون من الناس ، ذوو الحظ الكبير من الرقّ الخلقى ، قال سبحانه : « وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » ، وقال : « وبشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم » ، وقال : « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

ومما يرتبط بالصبر شديد الارتباط مقابلة الأحداث وتوازل الحياة ، بل ماتأتى به من سعادة وخير ، فى هدوء وطمأنينة ، فلا يستفزه فرح ، ولا يثيره حزن ولا ألم ، « لكيلا تأسوا على مافاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم ، والله لا يحب كل مختال فخور » .

ويسير فى إنفاقه سيراً مقتصداً لا تقتير فيه ولا تبذير ، « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما » ، « ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفورا ... ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسورا » . وهو لذلك يأكل ويشرب ، ويستمتع ، فى غير إسراف ولا خيلاء ، « وكلوا ،واشربوا،ولاتسرفوا إنه لا يحب المسرفين » . ويأخذ بحظه من الحياة الدنيا فى غير تكالب عليها ، ولا جعل الاستمتاع بها الهدف الأساسى فى الحياة .

ويكره القرآن للمرء أن يتبجّح بالقول ، فيدعى أنه سيفعل ويفعل ، ثم تنجلى كثرة القول عن تقصير معيب فى العمل ، « يأيها الذين آمنوا ، لم تقولون ما لا تفعلون ؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » .

ويحسن أن أوجه النظر هنا إلى أن القرآن لا يبرىء الإنسان من فعل السوء ، ولا ينزهه عن الإثم ، ولكن الذى يأخذه عليه هو أن يتمادى فى العصيان ، ويصر على مايفعل ، فلا يندم ، ولا يتوب ، أما أبواب الجنة فمفتحة لأولئك

« الذين إذا فعلوا فاحشة ، أو ظلموا أنفسهم ، ذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصرُّوا على مافعلوا ، وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم ، وجنات تجرى من الأنهار ، ونعم أجر العاملين » .

وهذه بعض آيات من القرآن يصف بها أولئك المثاليين ، إذ يقول : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً . وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا : سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما ، والذين يقولون : ربنا ، اصرف عنا عذاب جهنم ، إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ، ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ، ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن ، وعمل عملاً صالحاً ، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيما ، ومن تاب وعمل صالحاً ، فإنه يتوب إلى الله متابا ، والذين لا يشهدون الزُّور ، وإذا مرُّوا باللغو مرُّوا كراما ، والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم ، لم يخروا عليها صمًّا وعميانا ، والذين يقولون : ربنا ، هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاما » .

الحياة الدنيا

سمى القرآن الحياة الدنيا لعباً ولهواً ، وتحدث فى مواضع كثيرة عن مصير هذه الحياة ، وأنها مهما بلغت من الجمال والزينة والبهاء — إلى الفناء والزوال ، « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وازّينت ، وظن أهلها

أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلاً أو نهارا ، فجعلناها حصيدا ، كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » ، « إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ، لنبلوهم أيهم أحسن عملا ، وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزا[1] » . وأنها إذا وزنت بالآخرة ليست سوى متاع قليل ذاهب ، « الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع » ، « إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار » ، « فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

وإذا كان القرآن قد قلل من أمر هذه الحياة فإنه تحدث عن حقيقة لامجال للشك فيها ، لأن عمر الإنسان مهما طال ، له نهاية لاريب فيها ، وهو عمر قصير محدود ، وليس هو بالنسبة للخلود فى الآخرة ، سوى فترة قصيرة عابرة ، وليس ما يظفر به المرء فى هذه الفترة القصيرة العابرة من متعة سوى قدر ضئيل محدود ، إذا قيس بهذا النعيم الخالد ، والسعادة الدائمة فى جنة الخلد .

وليس معنى التقليل من متاع الحياة الدنيا التزهيد فيه ، أو صرف الناس عن المتعة به ، فإن الدين إنما جاء الكثير من أحكامه لتنظيم شئون هذه الحياة والرقى بها إلى مستوى رفيع ، وإجادة استغلال ما أودع فى هذه الطبيعة من القوى ، والقرآن نفسه يدعو إلى الاستمتاع من غير إسراف ، ويعجب ممن يحرم طيبات ما أحل الله ، « قل : من حرّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟! » ولا يدعو الناس إلى أن ينصرفوا عن متع الحياة وما فيها من جمال ولذة . ولكن القرآن يعنف أولئك الذين يجعلون كل همهم الظفر بمتع تلك الحياة ، ونسيان الحياة الآخرة ، والانصراف التام عن التفكير فيها ، وفى الحق أن ضلال هؤلاء واضح الوضوح كله ، فإنهم قد اشتروا متاعاً قليلا ينفد ، بنعيم خالد مقيم ، فلا عجب إذا رأينا القرآن يفنّد رأى هؤلاء قائلاً : « الذين يستحبون الحياة الدنيا على

---

(١) الجرز : أرض غليظة يابسة لانبت فيها .

الآخرة ، ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد » ، ويقول : « بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى » ، ويهدد من يجعل همه تلك الحياة بقوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » ، « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون » ، « من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم ، يصلاها مذموماً مدحورا » ، « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون » ، « وقيل : اليوم ننساكم ، كما نسيتم لقاء يومكم هذا ، ومأواكم النار ، وما لكم من ناصرين ، ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا ، وغرتكم الحياة الدنيا ، فاليوم لا يخرجون منها ، ولا هم يستعتبون » .

والقرآن بذلك كله يعنف رجلين : أحدهما قد كفر باليوم الآخر ، وأنكره ، واعتقد أن ليس ثمة سوى هذه الحياة الدنيا ، فاغتر بها ، ونسى اليوم الآخر وما فيه ، وذلك هو المقصود بمعظم هذه الآيات ، وقد ذكرنا أن الإيمان باليوم الآخر ، ركن أساسى من أركان الدين ، إذ الإيمان به يدفع إلى العمل الصالح رغبة أو رهبة ؛ وثانيهما رجل يؤثر الحياة الدنيا على الآخرة ، ويجعل همه كله أن يظفر من الحياة الدنيا بأوفى نصيب ، ومثل ذلك الرجل جدير ألا يحكمه ضميره ، فيعمل ما لا يرضيه فى سبيل الفوز بدنياه ، فيبعد بقدر كبير عن قوانين الإنسانية السليمة ، ولا يعنيه إلا أن ينال مآربه وآماله ، وصور لنفسك تاجراً أو صانعاً أو مستخدماً لا يعنيه سوى الظفر بآماله فى الغنى ، ولا سلطان عليه من الإيمان بأنه محاسب يوم القيامة ، وخيل لنفسك ما يرتكبه من الآثام ، وما يلم بعمله من النقائص ، وما قد يرتكبه

من ألوان الغش والتزوير ، ما دام كل هذا يدنيه من أمله فى الثروة وبلوغ المناصب السامية ، فالإيمان باليوم الآخر هو الرقيب الذى يدفع الإنسان إلى محاسبة نفسه ، قبل أن يحاسب يوم الدين ، وبه تستقيم شئون الحياة ، ويخشى الناس الجزاء العادل إن هم فرطوا ، أو أساءوا .

على هذا الوجه نفهم هذا العنف الموجه إلى هؤلاء الذين يؤثرون بحبهم وجهدهم تلك الحياة الدنيا ، ولا نفهم أن القرآن يدعو إلى كراهية الحياة الدنيا ، والزهد فيها ، والانصراف بالكلية عنها ، إلى حيث العكوف فى المساجد لعبادة الله والصدوف عن الدنيا وزينتها ، لا نفهم أن القرآن يدعو إلى ذلك ولا أن ذلك من أهدافه ، كيف وهو — كما قلنا — إنما جاء كثير منه لتنظيم شئون هذه الحياة . والمثل الكامل لصلة المرء بالحياة الدنيا والآخرة هو قوله سبحانه : « فمن الناس من يقول : ربنا آتنا فى الدنيا ، وما له فى الآخرة من خلاق ؛ ومنهم من يقول : ربنا ، آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ، أولئك لهم نصيب مما كسبوا ، والله سريع الحساب » . فالمثل الأعلى القرآنى هو أن يظفر المرء بدنيا حسنة ، فيها متعة وفيها سعادة ، وأن يظفر بآخرة سعيدة ، فيها متعة كذلك ، وفيها سعادة ، وقد عجب القرآن — كما رأينا — من هذا الذى يحرم طيبات الله والاستمتاع بها ، ودعا إلى الأخذ بنصيب من الحياة الدنيا فى قوله : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين » وترك الفساد فى الأرض ، وكبح جماح النفس الطاغية التى يزدهيها الغنى ، ينبع من الإيمان باليوم الآخر ، الذى فيه يحاسب الإنسان مالك يوم الدين .

عبادة الأوثان

جاء الدين الجديد يدعو إلى إفراد الله بالعبادة ، وترك عبادة الأصنام التى أشركوها به ، وزعموا حينا أنهم إنما يعبدونها ، لتقربهم إلى الله زلفى ، وقد فند القرآن هذه العقيده تفنيداً قوياً ، وبرهن على ضلالهم فى عبادتها برهنة لاتدع مجالا للشك فى تفاهة هذه الأوثان ، وأنها لاتصلح أن تكون إلهاً يعبد .

لقد وجه القرآن نظرهم إلى أن هذه الأصنام أقل منهم ، فإن لعابديها أرجلا يمشون بها ، وأعيناً يبصرون بها ، وآذاناً يسمعون بها ، أما هذه الأثان فجاثمة لاتستطيع الحركة والانتقال ، ولاتستطيع البطش والدفاع ، ولا تبصر ، ولا تسمع ، « ألهم أرجل يمشون بها؟ أم لهم أيد يبطشون بها؟ أم لهم أعين يبصرون بها ؟ أم لهم آذان يسمعون بها ؟ » ، « إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا مااستجابوا لكم » ؛ أوَيليق بالعاقل أن يعبد مَنْ دونه ، ومن يراه عاجزاً لايستطيع شيئا ؟ ! ولم يعبد المرء إلهاً لايسمع دعاءه ، ولا يستطيع أن يجيبه إلى مبتغاه ، ولا يقدر على أن يرد عن عابده أذى نزل به ، « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » ، وإذا استنصره لم يجد عنده ما يؤمل من النصر ، والمرء عند الشدائد يلجأ إلى الله ، يطلب منه المعونة والمساعدة ، فماذا يصنع بعبادة إله لا يمده بهما ، بل إن هذه الأثان لاتستطيع أن تحمى نفسها ، « والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم ينصرون » ، فهى إذاً حجارة لاتنفع ولا تضر ، وعابدها « يدعو من دون الله ما لا يضره وما لاينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد» ، وأى ضلال أشد من عبادة من لايملك الضر والنفع ؟ وماذا بقى لهم من صفات الآلهة ، أخلقوا شيئا فى السموات والأرض ؟ أبأيديهم الموت والحياة والبعث ؟ لا ، لقد « اتخذوا من دونه آلهة

لا يخلقون شيئا ، وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا » ، والقرآن يتحداهم أن يدلوه على شيء خلقه هؤلاء الشركاء فى الأرض أو فى السماء ، فيقول : « قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات ، أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ، بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غرورا » ، ثم يمضى فى التحدى مؤكداً لهم أن أولئك الذين يدعونهم شركاء لله لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابا ، ولو ظاهر بعضهم بعضاً ، وتعاون بعضهم مع بعض ، برغم حقارة الذباب وضعفه ، بل إن هذا الذباب الحقير الضعيف لا يستطيعون استخلاص شيء منه ، إن سلبهم إياه ، « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ، ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » ، وإذا كانوا لم يخلقوا شيئا ، فهل يملكون من شيء فى السماء أو الأرض ؟ لا . إنهم « لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير » ، « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » .

وإذا كانت هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ، ولا تجلب النصر ، ولا تكشف الضر ، ولا تملك من أمر نفسها شيئا ، ولا تخلق شيئا ، وليس بيدها حياة ولا موت ، بل هى أقل من عابديها قدرا ، إذ هى لا تستطيع الحراك ، ولا تطيق الدفاع عن نفسها — فقد انمحت عنها حقيقة الألوهية ، ولا يعدو الأمر بعدئذ أن تكون المسألة أسماء وضعوها ، من غير أن تدل هذه الأسماء على آلهة حقيقية لها ما للآلهة من سلطان وقوة ، وتستحق العبادة رغبة أو رهبة ، « أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر ، وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان » .

وها هو ذا يتهكم بهم تهكما لاذعا عندما منحوا هذه الأسماء التى لا حقيقة لها ، صفة الشفعاء الذين يملكون لهم نفعاً عند الله ، إذ يقول : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ، ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون » فأى تهكم مر يثيره قوله : « أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض » .

والقرآن يثير فى نفوسهم — فضلا عما أثاره من الزراية بهذه الآلهة ، وأنها لا تستحق سوى الإهانة والاحتقار — الخوف والفزع من سوء المصير ، حين يصور لهم يوم القيامة ، وما ينالهم فيه من خيبة الأمل ، عندما يرون هذه الآلهة التى اتخذوها ليعتزوا بها ، قد أنكرت أن تكون أهلا لعبادتهم ، ويشهدون عليهم بأنهم لم يكونوا عقلاء فى هذه العبادة ، فيقول : « واتخذوا من دون الله آلهة ، ليكونوا لهم عزّا ، كلا ، سيكفرون بعبادتهم ، ويكونون عليهم ضدا » .

والقرآن بما عرضه من هذه الأفكار قد أثار فيهم احتقار تلك المعبودات ، واحتقار الرضا بها آلهة ، لأن عاقلا لا ينزل إلى درك عبادة من هو أقل منه ، والخوف والحب لما لا يساوى شيئا ، وأثار الخوف من مصير مظلم إن تمادوا فى تلك العبادة لمن سينقلب عليهم ضدا يوم القيامة .

العقائد والعبادات

من أهم العقائد التى وردت فى القرآن عقيدة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وقد بينا كيف عرض القرآن هذه العقائد .

أما العبادات فمنها الصلاة ، وقد أكثر القرآن من الحديث عنها ، وعدها ركنا مؤكداً من أركان الدين ، حددت له أوقاته ، وليس ثمة ما يبيح تركها ،

حتى أشد ألوان الخوف فى الحرب ، ذلك لأن « الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

والقرآن يجعل الصلاة سمة من سمات المؤمنين ، ومظهراً من مظاهر التقوى ، ودليلا على تمام الخضوع لله : « ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة » ، « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقام الصلاة » ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ، ويقيموا الصلاة » ولذا كان من تمامها الخشوع فى أدائها ، « قد أفلح المؤمنون الذين هم صلاتهم خاشعون » .

وإذا كان للصلاة هذه المنزلة الرفيعة من الدين ، فقد أكثر القرآن من الأمر بها ، والحث عليها ، فقال : « وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، واركعوا مع الراكعين » ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين » ، « قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة » ، « وأمر أهلك بالصلاة ، واصطبر عليها » ، وأثنى على هؤلاء الذين لايصرفهم شاغل من الحياة عن أدائها ، إذ قال : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة » ، وجعل الكسل فى أدائها والنهوض إليها مظهراً من مظاهر النفاق ، « إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ، ولا يذكرون الله إلا قليلا » ، وجعل الهزء بها كفرا كالهزء بالدين نفسه ، « يأيها الذين آمنوا ، لاتتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

ويقرر القرآن أن الصلاة عبادة شاقة على النفس ، وهو من أجل ذلك يضع الخاشعين مثالا يقتدى به ، فهؤلاء لايجدونها ثقيلة ولا شاقة ، كما وضع إلى جانب

ذلك اليوم الآخر وما فيه من نعيم أو عذاب ، يدفع المرء إلى الصلاة رغبة أو رهبة ، فقال : « واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ، الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم ، وأنهم إليه راجعون » . وأمر رسوله بالصبر على الصلاة ، إذ قال : « وأمر أهلك بالصلاة ، واصطبر عليها » ووعد القرآن وعداً كريماً من يؤديها على وجهها بأن أجره عنده ، ويعيش يوم القيامة فى سلامة وأمن ، « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولاهم يحزنون » . وقد فرضت الصلاة ليتذكر الإنسان فى الحين بعد الحين خالقه ورب نعمته ، أو ليس الخالق المنعم جديراً بأن يذكر ويشكر ، فهذه الصلاة وسيلة الذكر والشكران ، « إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى » ولذا كان من أكبر أمانى الشيطان أن يصد عن إقامة الصلاة لذلك المعنى الذى أشرت إليه ، ويتخذ الشيطان الخمر والميسر وسيلة إلى نسيان الصلاة وذكر الله ، « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوه والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » .

وكانت الصلاة بأشكالها المختلفة مظهر ذلك فى الأديان التى سبقت الإسلام ، « وأوحينا إلى موسى وأخيه ، أن تبوأا لقومكما بمصر بيوتاً ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » ، وإبراهيم يدعو ربه قائلا : « رب ، اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى » ، وعيسى يقول : « إنى عبد الله آتانى الكتاب ، وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أينما كنت ، وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا » ، « واذكر فى الكتاب إسماعيل ، إنه كان صادق الوعد ، وكان رسولا نبياً ، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيا » .

وذكر الله فى الصلاة عدة مرات فى الليل والنهار يدفع إلى تقواه ، والوقوف عند حدود ما أمر به ونهى عنه ، ولذلك قال سبحانه : « وأقم الصلاة ؛ إن الصلاة

تنهى عن الفحشاء والمنكر » ، وفى ذكر الله فى الصلاة تذكر لقدرته الباهرة ؛ فيلجأ إليه المرء مستعيناً بهذه القدرة على تحقيق ما يصبو إليه من أمان وآمال ، ولذلك قرنها بالصبر ، فقال : « واستعينوا بالصبر والصلاة » والاستعانة بقدرة الله توحى إلى النفس بان المرء ليس وحيدا فى جهاده فى تلك الحياة ، فيُقوِّى ذلك من روحه المعنوية ، وتقوية هذه الروح أساس النجاح والظفر ، فإذا انضم إليها الصبر زال اليأس ، وامتلأ القلب بالأمل .

تلك هى الدوافع التى وضعها القرآن إلى جانب الصلاة ، لتحث عليها ، وتدفع إلى إقامتها . وعد كريم من الله بالثواب على أدائها ، وهى مظهر لشكر الله على نعمه وأفضاله ، والشكر على النعمة تدفع إليه الإنسانية المهذبة ويدفع إليه العقل السليم ؛ ثم إنها بصورها المتعددة مظهر هذا الشكر عند الأمم السابقة ، ولا يقف فضل الصلاة عند هذا الحد ، بل هى ينبوع لطهارة النفس ، وبعدها عن الشرور والمآثم ، وفيها تقوية للمرء على مجابهة الحياة مزوداً بقوة معنوية ، ينجح بها فى الحياة ، أو لا يستحق هذا الينبوع العذب لتهذيب النفس ونجاحها أن يحافظ المرء عليها ، وأن يؤديها ، موفيا أركانها فى تؤدة واطمئنان ، ولعل هذا هو السر فى أن القرآن يستخدم كلمة « يقيم » فالمادة تدل على الدوام والاستمرار ، كما تدل على معنى التقويم والتهذيب .

ولم يتعرض القرآن لتفصيل هيئة الصلاة ، تاركاً ذلك لفعل رسول الله ، ولكنه عرض بعض أحكامها فى إجمال ، كقصر الصلاة ، وصلاة الخوف ، والوضوء .

وتقترن إقامة الصلاة فى القرآن غالباً بإيتاء الزكاة ، وقد جعلهما القرآن معاً مظهرين من مظاهر الإسلام ، « فإذا انسلخ الأشهر الحرم ؛ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا ، وأقاموا

الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم » ، ولا سبيل لكم عليهم ، لأنهم « إخوانكم فى الدين » .

ويقرر القرآن غريزة الملكية ، ويعرف مالها من آثار فى تصرفات الإنسان ، وهو من أجل ذلك دعا هذه الأموال التى يبذلها المرء على سبيل الصدقة ، دعاها قرضا يقرضه المتصدق لله ، « إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم » ، كما أضاف الأموال إلى أصحابها فى قوله : « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة » وقرر كسبنا لها فى قوله : « يأيها الذين آمنوا ، أنفقوا من طيبات ما كسبتم » ، وفى ذلك تقرير لملكية الإنسان لما تحت يده ؛ وليست غريزة الملكية بالضعيفة ولا الواهنة فى نفس الإنسان ، بل هى قوية عنيفة يقرر القرآن عنفها فى قوله : « قل : لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى ، إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتورا » ، وقوله . « وأحضرت الأنفس الشح » ولذلك عالج القرآن هذه الناحية النفسية علاجا مستفيضاً ، كى تسمح النفس ، بما تملك ، وتجود عن رضا ورغبة .

وإذا كانت غريزة الملكية هى التى تدفع إلى الشح ، فقد أثارها القرآن إلى الصدقة مؤكداً أن ماسينفقه المرء فى الصدقه اليوم ، سيخلفه الله عليه غداً ، وكأنه يوحى إلى الإنسان بأنه إذا تصدق وزكى فلن يخسر شيئاً ، فلا داعى إلى الشح والإمساك ، فضلاً عما فى الصدقة من استجابة إلى داعى الإنسانية ، واتصاف بصفة الكرم ، وهو من صفات المروءة ، « قل : إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر له ، وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » ، بل إنه يخلفه مضاعفاً ، « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم » ، « ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، وتثبيتاً من أنفسهم ، كمثل جنة بربوة ، أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ،

والله بما تعملون بصير » ، « ومثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم » ، « وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس ، فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » ، وفى ذلك تحريك لغريزة حب الذات التى تعمل على جلب الخير للنفس ، فلا جرم كان وعدها بمضاعفه الجزاء مغرياً لها بالصدقة والزكاة ، بل إن الجزاء لا يقف عند حد العوض المضاعف ، ولكن الله سيوفى المتصدقين أجرهم ، ويتولى هو مكافأتهم ، وحسبك جزاء الله جزاء يرضى النفس ويكفيها ، «الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى ، لهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون» « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، فلهم أجرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون » ، « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً ، فيضاعفه له ، وله أجر كريم » ، « ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ، ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون » . وإذا كان الأمر كذلك فليست هذه الصدقة فى حقيقة الأمر سوى خير يعود نفعه على المرء نفسه ، « وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ، « وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، إن الله بما تعملون بصير » ، وإذا كانت الزكاة والصدقة خيراً يجب اكتسابه ، فمن الخير أن يستكثر الإنسان منه فى هذه الحياة وأن يبادر إليه قبل أن تضيع الفرصة ، ولا تعود ، « وأنفقوا مما رزقناكم ، من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقول : رب ، لولا أخرتنى إلى أجل قريب ، فأصّدّق ، وأكن من الصالحين » ، « قل لعبادى الذين آمنوا ، يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال » وفى ذلك إثارة لغريزة الخوف ، أن يضيع على المرء خير مأمول .

ويمضى القرآن مخففاً من آثار غريزة التملك ، فيذكر هؤلاء الذين بأيديهم المال أن الذى أعطاهم ذلك المال إنما هو الله ، وهو الذى يطالبهم بأن يعطوا عباده الفقراء بعض ما أعطاهم هومن المال ، فيقول : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ؛ ثم يصل إلى الحقيقة ، فيبين لهم أن هذا المال الذى تحت أيديهم إنما هو فى الواقع مال الله ، وأنهم ليسوا بأكثر من مستخلفين فيه ، أعطاه إياهم لينفقوه حيث يرشدهم إلى مواضع إنفاقه ، « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم ، وأنفقوا ، لهم أجر كبير » ؛ وليس ما أعطيناه من مال سوى أحد الاختبارات التى اختبرنا الله بها ، ليرى أنشكر أم نكفر ، « واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم » ، وإذا كان المال فى الواقع مال الله ، فإن الشح به ليس من سمات الخير ، ولا مؤذناً بفلاح صاحبه ، أما « من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

ويجعل القرآن من صفات المؤمن المثالى أداء الزكاة ، ويعده عليها بخير ما يعد به من يعمل صالحاً ، فيقول : « إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما أتاهم ربهم ؛ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل مايهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم » ، وفى اختيار كلمة المحروم هنا ما يحرك فى النفس الشفقة والرحمة والحنان .

واقترن طلب إيتاء الصدقة فى القرآن بصفات إنسانية سامية ، فنهى عن الرياء فى أدائها ، أو إتباعها بالمن والأذى ، أو اختيار أردأ المال للتصدق به ، وجعل أداءها فى السر خيرا ، حتى تخلص من الرياء ، « يأيها الذين آمنوا ، أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد » ، « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى . . .

يأيها الذين آمنوا ، لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب ، فأصابه وابل، فتركه صلداً ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا » ، أرأيت تخير القرآن لكلمة صفوان ، يدل بها على قسوة قلب هذا المتصدق الذى يتبع صدقته بالمن والأذى ، أوينفق رياء، فهو لا ينبعث إلى الصدقة بعامل الشفقة والرحمة ، ولكن بعامل الغرور والزهو ، ولا أريد أن أسرف فى الحديث عن أسواء المن والأذى والرياء ، فهى من الوضوح بمكان ، ويقول فى الحديث عن كتمان الصدقة : « إن تبدوا الصدقات فنعما هى ، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ، والله بما تعملون خبير » .

هذا وقد توعد القرآن أولئك الذين لا ترق قلوبهم للإنسانية ، ولا يعطفون على البائسين والمحرومين ، وقرنهم بهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله ، وكأنما الكفر بالله قرين الكفر بالإنسانية ، قال سبحانه : « وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين » .

أما الصوم فلم يطل القرآن الحديث عنه ، واقتصر على الحديث عن بعض أحكامه ، ولكنه لم يترك بيان ما يحفزنا إلى الصوم ، فأثارنا إليه بأننا لم ننفرد بأدائه ، بل كان مفروضا على من سبقنا ، وهو ينبوع من ينابيع تقوى الله بما فيه من إمساك النفس عما تشتهى ، والتمكين للضمير كى يقوى ويشتد ، كما أن اختصاص شهر رمضان بهذه العبادة ، لما اختص به من ميزة نزول القرآن فيه « هدى للناس ، وبينات من الهدى والفرقان » ، فكان هذا الشهر جديرا أن يتقرب فيه إلى الله .

وتحدث القرآن عن الحج ، فقال : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » وانتثر فى القرآن الأسباب الباعثة على أداء هذه الفريضة ، فقال : « وأذن فى الناس بالحج ، يأتوك رجالا ، وعلى كل ضامر يأتين ، من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ، ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ... ، ذلك ، ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، . . حنفاء لله غير مشركين به ، . . ومن يعظم شعائر الله ، فإنها من تقوى القلوب ، لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ، ثم محلها إلى البيت العتيق ، ولكل أمة جعلنا منسكا ، ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فإلهكم إله واحد ، فله أسلموا ، وبشر المخبتين » فالحج مفروض لهذه المنافع التى يحصل عليها من يشهدونه فى الأشهر الحرم ، وأى منافع أكبر من انعقاد هذا المؤتمر الإسلامى الجامع ، يعرف فيه كل بلد ما يحتاج إليه البلد الآخر ، وينعقد بين المسلمين فى أرجاء الأرض أعظم الصلات السياسية والثقافية والاقتصادية ، فإذا انعقد هذا المؤتمر كل عام ، تم الربط بين قلوب المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وكونوا قوة لهـــا قيمتها وقدرها ، ومن الميسور الانتفاع بأيام الحج فى تحقيق هذه الهدف ، إذا أحسن استغلال وقت الحج على وجه يحقق هذه المنافع التى أشار إليها القرآن ، وفى الحج كذلك منافع اقتصادية واضحة لسكان البيت الحرام . وفضلا عن هذه المنافع الدنيوية ، ذات الأثر البالغ فى حياة الإسلام ــ تخلص النفوس فى أيام الحج لذكر اسم الله فتخلع عن نفسها مظاهر هذه الحياة الدنيا ، ويقف الحاج أمام الله عبدا قد تجرد من زخرف الدنيا وزينتها ، ويومئذ يحاسب كلٌّ نفسه على ماقدم ، وما يجب أن يفعل ، وفى الحج تعظيم لحرمات الله وشعائره ، يدفع إلى التقوى ، ويحفز إلى تطهير القلوب ، وهو الهدف المقصود من الحج ، « والبدن جعلناها لكم ، من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها ، وأطعموا

القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ، لن ينال الله لحومها ، ولا دماؤها ، ولكن يناله التقوى منكم » .

وتحدث القرآن فى مواضع عن الكعبة ، فقال : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ، مباركا وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمنا » ، « وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا ، وطهر بيتى للطائفين ، والقائمين ، والركع السجود » ؛ وإن بيتاً هذا شأنه جدير بأن يزوره المسلمون ، ويعبدوا ربهم عنده .

الأحكام

تقترن الأحكام فى القرآن بما يدفع إلى العمل بها ، أو ينهى عن اقترافها ، فإلى جانبها مغريات تدفع النفس وتحثها ، أو تخوّفها وتحذرها ، معتمدة على التوضيح للسبب ، او الترغيب ، والترهيب ، وهذه بعض آيات عرضت بعض الأحكام ، لنرى المنهج القرآنى فى هذا العرض . قال تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ، ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » ، ألا تراه قد قرن النهى عن الزواج من المشرك بما ينفر منه ، فمن هذا الذى يرضى أن يقاد إلى جهنم ، بينما الله يدعو إلى الجنة والغفران .

وهاك حكماً آخر ، قال سبحانه : « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض ، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنّى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنكم ملاقوه ،

وبشر المؤمنين » ، فحذرنا من قربان النساء فى ذلك الحين ، بأننا نؤذى أنفسنا إن فعلنا ، ثم ذكرنا بأن ذلك نهى من الله الذى يجب تقواه ، ولجأ إلى الإرهاب والترغيب ، فأكد أننا سنلقى الله الذى نهانا ، فكيف يكون المصير إن جئنا إليه ، وقد فعلنا ما كان قد نهانا عنه ، أما من أطاع واتّقى ، فبشره بمغفرة من الله ورضوان .

واقرأ قوله تعالى : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ، إن كنّ يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ، ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة ، والله عزيز حكيم ، الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ألا يقيما حدود الله ، فلا جناح عليهما فيما افتدت به ، تلك حدود الله فلا تعتدوها ، ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ، فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ، وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا ، واذكروا نعمة الله عليكم ، وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ، واتقوا الله ، واعلموا أن الله بكل شىء عليم ، وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ، إذا تراضوا بينهم بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ؛ فتأمل مزج الأحكام بهذه الإثارات الوجدانية ، الدافعة إلى العمل أو المسببة للإحجام ، وقف عند نهيه للمطلقات أن يكتمن ما فى بطونهن من أجنة ،

فقال : « ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر » ، فانظر كيف عبر عن الأجنة بأنها ماخلق الله فى الرحم ، وكأنما كتمها معاندة لله ومكابرة لا تليق ، وكيف أثارهن إلى الاعتراف ، موحياً بأن هذا الإنكار لا يتناسب مع الإيمان بالله واليوم الآخر ، وكيف قرن الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان ، وسمى المعتدى لحدود الله ظالما ، وجعل تبين حدود الله للقوم العالمين ، ووصف الإمساك ضراراً بأنه اعتداء ، وفاعله بأنه ظالم لنفسه ، وختم الحديث عن هذه الأحكام بأن الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ، يتعظ ويعمل بتلك القوانين ، والعمل بها طهر وفلاح .

وختم القرآن أحكام المواريث بقوله : « وصية من الله ، والله عليم حليم ، تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ، ويتعد حدوده ، يدخله ناراً خالداً فيها ، وله عذاب مهين » ؛ أو لا ترى أن الوصية من الله جديرة أن تسمع وتطاع ، وأنه إذا كان الوقوف عند حدود الله يؤدى إلى الخلود فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، والخروج على الحدود يخلد فى النار ، فجدير بالعاقل أن يقف عند تلك الحدود ولا يتعداها .

وبعد أن تحدث عن محرمات النساء فى الزواج ، وما أحل زواجهن ، قال : « يريد الله ليبين لكم ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الإنسان ضعيفا » ، وإذا كان الله يبين لنا ، ليهدينا سواء السبيل ، وليتوب علينا ، ويميل بمن يتبعون الشهوات إلى الرشد والخير ، هذا مع أنه ليس فيما فرض عنت ولا مشقة ، لعلم الله بما خلق عليه الإنسان من الضعف ، إذا كان ذلك حقا ، أفلا يجدر بالمرء أن يتقبل ما أباحه

قبولا حسنا ، وينتهى عما نهى عنه .

وتأمل التوعد الشديد لمن يقتل مؤمنا عمدا ، إذ يقول : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما » .

ولما تحدث عن بعض أحكام الوضوء والتيمم ، ختم ذلك بقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم ، لعلكم تشكرون » وإن عملا يطهر المرء ، وبه تمام النعمة ، جدير أن يؤديه المرء شاكراً نعمة ربه .

وأصغ إليه يصور أسواء الخمر والميسر فيقول : « يأيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه ، لعلكم تفلحون ؛ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله ، وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون ؟ » ؛ وهكذا صور تلك الرذائل مفسدة لعلاقة المرء بالناس ولعلاقته بالله ، فلِمَ يقترفها وهى تقلب الحياة هكذا شقاء ؟!

وبعد أن نهى عن قتل الصيد والمرء محرم بالحج قال : « ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم ، يحكم به ذواعدل منكم ، هديا بالغ الكعبة ، أو كفارة طعام مسكين ، أو عدل ذلك صياما ، ليذوق وبال أمره ، عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، والله عزيز ذو انتقام » ، وتأمل مايثيره فى النفس ذكر انتقام الله وعزته ، ممن يعود فيفعل ما نهى عنه .

تلك أمثلة قليلة تتبين منها النهج القرآنى فى عرض الأحكام ، وكيف تصطحب هذه الأحكام بما يدفع النفس إلى قبولها والاطمئنان إليها ، وإذا كان الغالب فى الإنسان أن يقبل على العمل رغبة أو رهبة ، فقد عمد القرآن إلى ذلك ، فيعد ويوعد ، ويبشر وينذر ، يثير فى النفس غريزة حب الذات التى تدفع المرء إلى عمل ما يعود

عليها بالخير والفلاح ، ويثير غريزة الخوف من مصير مظلم شقّ ، وهكذا اعتمد القرآن على الغرائز الثابتة فى الإنسان ، كى يقوده إلى ترك الشر وفعل الخير ، وكل ذلك فى أسلوب متسق موسيقى تتخير فيه اللفظة الموحية بالمعنى المراد ، وتأمل لذلك اختيار كلمة أم عند عدّ المحرمات من النساء ، وكلمة والدة عند عدّ من يرضع الطفل . وبذلك كله اكتسبت الأحكام فى القرآن حياة وقوة ، وكان لها تأثيرها فى النفس من ناحية صياغتها ومنهجها ، وبذلك كله امتاز القرآن من كتب القوانين الجافة ، وكان له من الأثر فى النفوس ماليس لهذه الكتب فى هداية الناس وقيادتهم إلى الخير .

مظاهر الطبيعة

دعا القرآن فى مواضع شتّى إلى التفكير فيما يحيط بالإنسان من مظاهر الكون ، لأن هذا التفكير يدفع إلى إجلال خالقه ، والإيمان العميق بقدرته وحكمته ، « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ؛ فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ، وأثنى على أولئك الذين تدفعهم مظاهر الكون إلى التفكير فيها ، لإدراك ما أودع فيها من أسرار ، وما تدل عليه من أن مودع هذه الأسرار عليم قدير ، « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ، ماخلقت هذا باطلا ، سبحانك ، فقنا عذاب النار » ، ونعى على هؤلاء الذين يمرون بهذه المظاهر ، فلا تسترعى انتباههم ، ولا تدفعهم إلى التدبر ، والتفكير ، « أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون

لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ، وهم عنها معرضون » .

ولأن القرآن كتاب دين اتجه ، وهو يتحدث عن مظاهر الطبيعة ، إلى تلك الناحية التى تقود إلى الإيمان بالله ، وقدرته التى لايعجزها شىء ، ووجه النظر إلى أن كثيراً من تلك المظاهر يقود إلى الإيمان بالبعث والحياة الثانية .

فهو يوجه النظر إلى قدرة الله فى خلق السموات والأرض إذ يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفورا » ، « ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرءوف رحيم » ، « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخّر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الأرض ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات ، وجنات من أعناب ، وزرع ونخيل ، صنوان ، وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « إن فى خلق السموات والأرض . واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » ، « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين » ، « وآية لهم

الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار ، وكلّ فى فلك يسبحون » ، « أَلَمْ يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ، ما يمسكهن إلا الله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون » ، « ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره » ، « أم من خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء ، فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قراراً ، وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى ، وجعل بين البحرين حاجزاً ، أإله مع الله ؟ بل أكثرهم لا يعلمون » ، « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كلّ شىء حى ، أفلا يؤمنون ؟ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ، وجعلنا السماء سقفاً محفوظا ، وهم عن آياتها معرضون ، وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر ، كل فى فلك يسبحون » ، « أفلا ينظرون إلى الإبل ، كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » ، « تبارك الذى جعل فى السماء بروجاً ، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيرا » ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها ، وزيناها ، وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج » ، فهو فى كل هذه الآيات يدل بمظاهر الطبيعة على قدرته ، وهو من أجل ذلك يوجه النظر إلى السموات والأرض وما فيها ، طالباً التدبر والتأمل ، لنصل بذلك إلى الإيمان بقدرته وجلال سلطانه ، ولا أريد أن أطيل ببيان ما فى هذه المظاهر من دلالة على تلك القدرة البالغة ، فالآيات واضحة لاعناء فى تفهمها .

وفى التأمل فى مظاهر الكون ، فضلا عن الإيمان بقدرة الله ، دعوة إلى عبادته ، وهى دعوة مقرونة بأسبابها ودواعيها ، والقرآن من أجل ذلك يقرن هذه المظاهر بالحديث عما فى خلقها من نعم يسعد بها الإنسان ، وفى توجيه النظر إلى هذه النعم تحريك الطبيعة الإنسانية النبيلة إلى عبادة خالق تلك النعم ومسديها ، فشكر الجميل سجية من سجايا الإنسان الكريم ، واستمع إلى القرآن يعدد النعم قائلا : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ، وأخرجنا منها حبّا ، فمنه يأكلون ، وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ، ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أفلا يشكرون ؟ ! . . . وآية لهم أنّا حملنا ذرّيتهم فى الفلك المشحون ، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » ، « الله الذى جعل لكم الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا ، وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ، « والذى خلق الأزواج كلها ، وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه ، وتقولوا : سبحان الذى سخر لنا هذا ، وما كنا له مقرنين » ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور » ، « والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجاً » ، أو ليس فى تذليل الأرض وتمكيننا من الانتفاع بها ، ما مهد لنا سبيل الحياة عليها ، والانتفاع الكامل بها ؟ ويذكر نعمته فى تمكيننا من الأرض ، ننتفع بها كما نشاء ، فيقول : « ولقد مكناكم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » ، ويوجه نظرهم إلى السماء وما فيها من زينة ، وإلى الأرض وما ينبت بها من زرع بهيج ، « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم ، كيف بنيناها ، وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا ،

فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات ، لها طلع نضيد ، رزقا للعباد » ، « أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم ؟ » ، « والأرض بعد ذلك دحاها ، ، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها ، متاعا لكم ولأنعامكم » ؛ « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم ، منه شراب ، ومنه شجر ، فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » ، « الذى جعل الأرض مهدا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء ، فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم ، إن فى ذلك لآيات لأولى النهى » ، « وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء ، فأسقيناكموه ، وما أنتم له بخازنين » ، وإلى نعمة خلق الشمس والقمر ، « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدّره منازل ؛ لتعلموا عدد السنين والحساب » ، ونعمة خلق النجوم والكواكب ، فهى زينة وجمال ، تزدان بها السماء فى الليل ، « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب» « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا» ، وهى أعلام يهتدى الناس بها فى الظلمات ، « وهو الذى جعل لكم النجوم ، لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » وأكثر القرآن من توجيه النظر إلى ما فى اختلاف الليل والنهار من نعمة على الإنسان ، وإلى ما خلق له الليل من الهدوء والاستقرار والسكن فيه ، وما خلق له النهار من الجهاد فى سبيل العيش ، « هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه ، والنهار مبصرا » ، « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » ؛ « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » ، وإلى نعمة النوم ، إذ قال : « ومن آياته منامكم بالليل والنهار ، وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . ولما فى اختلاف الليل والنهار من نعمة السكون استعدادا لطلب الرزق نهارا ، تساءل القرآن موجها

النظر إليها فى قوله : « قل :أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَن إله غير الله ، يأتيكم بليل تسكنون فيه ؟ أفلا تبصرون !؟» .

ويتخذ القرآن من مظاهر الطبيعة وسيلة لإقناعنا بالبعث ، فهذه الأرض الهامدة لا يلبث المطر أن ينزل عليها حتى تحيا وتخضر وتثمر ؛ وهذه الظاهرة نراها بأعيننا فى كل حين ، تقرب إلى أذهاننا فكرة الحياة بعد الموت ، وقد كرر القرآن ذلك المعنى حتى تقبله النفس ويثبت فيها ، « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت ، فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى ، لعلكم تذكرون » ، « والله الذى أرسل الرياح ، فتثير سحابا ، فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور » ، « وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على شىء قدير » ، « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيي الموتى ، إنه على كل شىء قدير »

ومن ذلك يبدو أن مظاهر الطبيعة التى نراها بأعيننا ، قد وجه القرآن النظر إليها ، ليصل بها إلى تثبيت الإيمان فى النفس إيمانا منشؤه الاقتناع ، ويدعمه الحب الذى يدفع إلى العبادة . وإن ما يدركه العلماء كل يوم مما أودع فى الطبيعة من أسرار ، ليزيد النفوس يقينا بقدرة الخالق ، وحكمته . والقرآن يتخذ ما عليه الكون من نظام دقيق حجة على وحدانية الله ، ودليلا على تفرده بالصنع والإتقان ، فيقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، ولا جرم يفسد النظام ، إذا كان يدير الكون إلهان ، ويشعر كل منهما بالقوة والسلطان ، وإذا كان الله هو المنفرد بخلق السموات والأرض فلا معنى لأن يشرك به سواه ممن « لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب ،

ما قدروا الله حق قدروه ، إن الله لقوى عزيز » .

المـــدح

أثنى الله على نفسه بما هو له أهل ، وبهذا الثناء الحق يثنى عليه من يتقدم إليه بالعبادة ، وفاتحةُ الكتاب التى تتلى فى الصلاة كلها مدح له وثناء ، مدح له بالعظمة والجلال ، فهو رب العالمين ، وصاحب النعمة عليهم بالقليل والكثير ، بأنه السيد ذو السلطان يسألهم عن تصرفاتهم يوم الدين . ولا تخلو صفحة فى القرآن من ثناء على الله ومدح له ، وذلك طبيعى فى كتاب جاء ليوجه الناس الوجهة الصحيحة فى عبادة الله وتوحيده .

وأثنى القرآن على محمد ثناءجماً ، فجعله « لاينطق عن الهوى ، إن هوإلا وحى يوحى » ، ومن أهم ما أشاد به القرآن أخلاقه الكريمة ، وقد أكد ذلك فى قوله سبحانه : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، كما كان خلق الرفق واللين من بين الصفات التى خصّها القرآن بالحديث عنها ، إذ قال : « فبمارحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » ؛ فبالرفق تُملك قلوب الأتباع ، وُينال صادق مودتهم .

ومدح القرآن أصحاب محمد ، وكان من أهم ما وصفهم به التراحم بينهم ، والشدة على أعدائهم ، « أشدّاء على الكفار ، رحماء بينهم » .

ومدح من آمن واتبع الرسول ، فوصفهم حيناً بأنهم على الهدى ، فقال : « ذلك الكتاب لاريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » ، وبأنهم أولو الألباب إذ قال : « فبشر عباد ، الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ،

أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب » ، وبأنهم كالسميع البصير الذى يهديه سمعه وبصره ، على عكس أولئك الذين لا يتبعون أحسن القول : «مثل الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟! ». وجعل القرآن للمؤمن نوراً يمشى به فى الناس ، فإنه يهتدى بهذا النور إلى طريق الخير وإلى صراط مستقيم ، « أوَ من كان ميتاً فأحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » . وفى عقد هذه الموازنات تمجيد للإيمان وتعظيم من شأن المؤمنين .

الهجاء

فى القرآن هجاء لمن تعرض للدعوة ، ووقف فى سبيل نجاحها ، ولمن أنكرها من غير حجة ولا برهان ، ولمن نافق فأظهر بلسانه الإيمان ، ولم يؤمن قلبه ولا ضميره ، وجدير بهؤلاء أن ينالهم الذم والتقريع . والهجاء فى القرآن يمتاز بهذه النزاهة التى ينأى بها عن الفحش ويبعد عن الدنس ، كما يمتاز بأنه يتجه إلى الفعل يندد به ، ويعيبه ، ولا يعنيه الأشخاص ولا يذكرها ، لأنه يرمى إلى ترك الفعل والابتعاد عنه ، ومن الحكمة ألا يذكر فاعله ، لأن ذلك أدعى إلى أن يجد الباب مفتوحا أمامه ، يدخله من غير أن يكون لماضيه ما يحول بينه وبين قبول الدين الجديد ، أو يكون هناك سمة خالدة تؤذيه دائما ، إذا هو قبل هذا الدين الجديد ، فالقرآن يهجو الفعل ، ويترك لفاعله فرصة اجتنابه ، وهذه بعض نماذج تبين النهج القرآنى فى الهجاء ، قال سبحانه فى المنافقين : « إذا جاءك المنافقون قالوا : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة ، فصدوا عن سبيل الله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم ، فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم

تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم ، كأنهم خشب مسندة ، يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ، وإذا قيل لهم : تعالوا ، يستغفر لكم رسول الله ، لوّوا رءوسهم ، ورأيتهم يصدون ، وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم ، أم لم تستغفر لهم ، لن يغفر الله لهم ، إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله ، ولكن المنافقين لا يعلمون » ؛ فأنت تراه يهاجم عقيدة المنافقين وأعمالهم ، وأقوالهم ويفندها ، ويصورهم ، ويصور عقليتهم ، ويرد على مزاعمهم فى قوة تحطم نفسيتهم ، وتبعث فى قلوبهم الوهن . وللمنافقين من الأثر السيئ فى صفوف المؤمنين ما ليس لخلص الكافرين ، فلا عجب إذا نالوا هذا الهجاء العنيف .

صورت الآيات المنافقين جبناء ، يتخذون نفاقهم وسيلة لسلامتهم ، وسبباً يصلون به إلى هدفهم من الصد عن سبيل الله ، فهم يجيئون إلى الرسول ، ويقسمون له أنهم يشهدون برسالته ، ويؤمنون بها ، ولكن الله يفضح نيتهم ، ويعلن أمرهم ، ويؤكد كذبهم ، ويذم هذه الخطة النكراء ، التى نتجت من أنهم أغلقوا قلوبهم ، وأهملوا عقولهم ، فلم يدعوا لأنفسهم مجالا للتفكير السليم ، ويمضى القرآن فى تحقيرهم ، فيسخر من هذه الأجسام التى تغر بمرآها ، ولكنها تحمل قلوبا خاوية ضعيفة ، ملأها الجبن ، واستولى عليها الخوف ، فهى تهلع لكل صيحة ، تظن العدو قادما يغير عليهم ، ويصور حركة استهزائهم إذا دعوا إلى التوبة ، واستكبارهم عن الخضوع والطاعة ، فهم يلوون رءوسهم إعراضاً وكبراً ، وهنا يهددهم القرآن بأن الله لن يغفر لهم ؛ لأنهم قوم فاسقون ، يعملون على هدم الدعوة ، والتضييق عليها من الناحية المالية ، فيدعون الناس إلى قبض أيديهم عن معاونتها بمالهم ،

وهنا يسخر القرآن من أوهامهم ، فيذكرهم بأن لله خزائن السموات والأرض ، وينسبون لأنفسهم العزة ، وأنهم قادرون على إخراج المؤمنين من المدينة ، وهنا يؤكد القرآن أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

تصوير القرآن للمنافقين فيه حركة وحياة ، ينقل أعمالهم ، ويسجل كلامهم ، ويصف ما يختلج فى أعماق نفوسهم ، فكأنك تراهم قادمين إلى الرسول يقسمون له أغلظ الأيمان ، فإذا مضوا أخذوا يصدون عن سبيل الله ، وتلمح لىّ رءوسهم عند ما يدعون إلى التوبة والإنابة ، وتسمعهم يدعون الناس إلى قبض أيديهم عن معونة المؤمنين ، ويقولون والغيظ يملأ أفئدتهم : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » .

وتأمل القرآن يندد بالفعل ويعيبه قائلا : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، ويشهد الله على مافى قلبه ، وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد ، وإذا قيل له : اتق الله ، أخذته العزة بالإثم ، فحسبه جهنم ، ولبئس المهاد » . والقرآن هنا مصور كذلك ، يرسم العمل ، ويحكى القول ، ويسجل الجواب ؛ كما نراه يصور المهجوين فى قوله سبحانه : « وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ، لتحسبوه من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، ويقولون : هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب ، وهم يعلمون » ، ألا ترى أن لىّ لسان هذا الفريق بالكتاب ، يصور مايريد أن يقوم به هذا الفريق من إيهام الناس كذبا أن مايقولونه من عند الله ، وما هو من عند الله .

ومن أوجع الهجاء فى القرآن قوله تعالى : « إن شر الدوابِّ عند الله الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ، ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون » ، ففى إطلاق اسم الدواب مايؤذن بخروجهم عن دائرة العقلاء ،

كما قال فى موضع آخر : « والذين كفروا يتمتعون ، ويأكلون، كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم » ، وفى موضع ثان « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى ، فهم لا يعقلون » .

وتأمل الاستفهام التهكمى فى قوله سبحانه : « وإذا قيل لهم: اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ، ولا يهتدون» — والتشبيه الموجع فى قوله : « مثل الذين حملوا التوراة ، ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

وإذا كان القرآن الكريم يقصد من الهجاء ذم الفعل للتنفير منه ، فإنا نراه يتبع الهجاء بما يستخلص منه من عظة حينا . ومن أمر يجب اتباعه حينا آخر، ومن موازنة بين هذا الذى استحق الهجاء بسوء ما فعل ، وذاك الذى انتهج النهج السليم ففاز وظفر ، وفى ذلك تحقيق لهدف القرآن الذى يهدى بالتى هى أحسن .

العتاب

من أوضح ماجاء من العتاب فى القرآن قوله تعالى يعاتب رسوله ، وقد جاءه أحد المسلمين يسأله فى أمور الدين ، وكان الرسول ساعتئذ فى حديث مع طائفة من المشركين ، مؤملا أن يفضى به الحديث إلى إيمانهم ، فلم يعن بأمر هذا المسلم السائل ، بل أعرض عنه عابساً ، فنزل قوله سبحانه : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى» بدأ هذا العتاب متحدثا عن الغائب ، وكأنه بذلك يريد ان يرسم الصورة لرسوله

على لوحة يراها أمام عينيه على وجه غير وجهه ، لتكون الصورة واضحة القسمات بينة المعالم ، فالمرء لا يرى وجه نفسه ، ثم اتجه العتاب إلى الخطاب فى رفق قريب من العنف ، مبيناً مالعله يرجى من الخير من هذا الأعمى السائل ، ثم عقد موازنة بين من عنى به النبى ومن أعرض عنه ، فهذا مستغن لا يعنيه أن يصغى إلى الدعوة أو يطيعها ، والآخر مقبل ، تملأ قلبه الخشية ، ويدفعه الإيمان ، وقد سجل القرآن معاملة الرسول لهما ، ولكن هذا العتاب يحمل فى ثناياه عذر الرسول ، فهو ماتصدى لمن استغنى إلا أملا فى هدايته وإرشاده .

وقد يقسو القرآن فى العتاب ، بعد أن يكون قد استخدم الرفق واللين ، وذلك فى الأمور التى يترتب على التهاون فيها ما يودى بالدعوة ، كما ترى ذلك فى قوله سبحانه : « يأيها الذين آمنوا ، مالكم إذا قيل لكم : انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم . ولا تضروه شيئا . والله على كل شىء قدير » ولعله بعد رفقه بهم ، وبيانه لهم أن متاع الحياة الدنيا قليل ، إذا قيس بمتاع الآخرة — رأى ألا يقف عند هذا الحد من الموازنة بل مضى محذراً منذراً .

ومن العتاب القاسى لأنه يمس أساساً من أسس نشر الدعوة لتأخذ طريقها إلى النصر والنجاح — قوله تعالى : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا ، والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . أما إذا لم يتصل العتاب بمثل ذلك من مهمات الأمور فإن العتاب يرق ويلين كما ترى ذلك فى قوله تعالى : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » وقوله سبحانه : « يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؟ تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور

رحيم » ، فمعرفة الصادق والكاذب إذا كانت قد ضاعت فى فرصة ، فمن الممكن أن يتوصل إليها فى فرصة أخرى ، وتحريم النبى لما أحل الله له مسألة شخصية ليس لها من الأثر مثل ما للجهاد من آثار .

مصر فى القرآن

أشار القرآن إلى مصر مرات عدة ، ففيها جرى معظم حوادث قصة يوسف ، وإلى فرعونها أرسل موسى ، وقد كررت قصته كثيراً ، ولم يؤرخ القرآن لمصر ، ولكنه أشار إلى النواحى التى ترتبط بهدفه من الهداية والإرشاد .

وقد أثبت القرآن ما كان لمصر من عظمة ومجد وغنى ، فقد قال على لسان موسى : « وقال موسى : ربنا ، إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالاً فى الحياة الدنيا » ، كما أشار إلى عظمة ما كان لها من ملك ضخم فوق سطح الأرض ، ترمقه الأمم بعين الإكبار والإجلال ، حين قال على لسان هذا المصرى الذى آمن بموسى : « ياقوم ، لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض » .

أما فرعون فإنه معتز بملك مصر ، وبأنهارها التى تجرى تحت قصوره : « ونادى فرعون فى قومه ، قال : ياقوم ، أليس لى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، أفلا تبصرون ؟ » وإذا كانت مصر بهذه العظمة والجلال فلا جرم كان فرعون يشعر فى نفسه بعلو لا يسامى ، وجلال لا يقارب . ولذا أكثر القرآن من وصفه بالعلو فى الأرض ، وانتهى الأمر بالفراعنة فى مصر إلى أن ادعوا الألوهية ، ولهذا قال فرعون عند مادعاه موسى إلى عبادة الله : « لئن اتخذت إلهاً غيرى لاجعلنك من المسجونين » ، « وقال فرعون : يأيها الملأ ، ماعلمت لكم من إله غيرى ، فاوقد لى ياهامان على الطين ، فاجعل لى صرحا ، لعلى أطلع إلى إله موسى ، وإنى لأظنه من الكاذبين » ، وبهذا بلغ فرعون مدى الطغيان الذى

لا طغيان بعده ، ولما أرسل إليه موسى « استكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » ، وأثبت القرآن على فرعون وملئه أنهم قوم عالون فاسقون ظالمون ، ولعل سبب وصفهم بذلك أنهم لم يؤمنوا بالله ، ولم يتركوا اتخاذ فرعون إلهاً ، « واتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد » . ورفض فرعون وملؤه اتباع موسى لأمور :

أولها : أن موسى وهرون بشران ، لا يمتازان عنهم بشىء ما ، فضلا عن أن قومهما يعبدون فرعون ، ويتخذونه إلهاً . « فقالوا : أنؤمن لبشرين مثلنا ، وقومهما لنا عابدون ؟ » بل رأى فرعون أنه « خير من هذا الذى هو مهين ، ولا يكاد يبين » ، فقد كان بلسان موسى عقدة تحول بينه وبين الإفصاح فى يسر . ورأى فرعون أنه مما كان يعزز دعوى موسى فى الرسالة أن لو كان ملكاً متوجاً ، أو عزز بملائكة تؤيده « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين » .

ثانيها : أنهم رأوا فى اتباع موسى وهرون نزولاً من مكانة الرئاسة التى كانوا يستمتعون فيها بحقوق ومزايا سوف يفقدونها إذا اتبعوهم ، إذ يصبحون من السوقة والأتباع « قالوا : أجئتنا ، لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين » .

ثالثها : أنهم رأوا صلة وثقى بين الأرض التى نبتوا فيها وترعرعوا عليها ، وبين التقاليد والعقائد التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، ورأوا فى الخروج على تلك التقاليد والعقائد اغتراباً عن وطن توارثوه ، ووجدوا أنهم إذا آمنوا بموسى فكأنهم أخرجوا من أوطانهم ، وقد كرّر القرآن فكرتهم هذه فى مواضع عدّة منه ، فقال على لسان فرعون يخاطب موسى : « قال : أجئتنا ، لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ؟ » ، وقال على لسانه ، يخاطب الملأ حوله يريد أن يثيرهم ضد

موسى : « قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ؟ » .

وأصر المصريون تعنتا على ألا يؤمنوا بموسى وإلهه ، برغم ما نزل بمصر من محن أنذرهم بها موسى ، وكانوا يتطيرون به وبقومه ، ويحدثنا القرآن عما نزل بمصر يومئذ من البلاء فى قوله : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ، ونقص من الثمرات ؛ لعلهم يذّكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه ، وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا إنما طائرهم عند الله ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها ، فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا ، وكانوا قوماً مجرمين ، ولما وقع عليهم الرجز قالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك بما عهد عندك ، لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » .

والظاهر أن موسى لم يدع الشعب المصرى إلى اتباعه ، ولكنه مضى رأساً إلى فرعون يدعوه إلى دينه ، مؤملا بعد هدايته أن يقتدى به قومه فيؤمنوا ، ولم يوجه موسى دعوته إلى غير فرعون ، وإن كان السحرة قد آمنوا به بعد أن اعتقدوا أن قوة خارقة هى التى أمدّته .

القصة فى القرآن

من الفنون الأدبية الرفيعة التى وردت فى القرآن القصة ، جاءت فيه لتساهم فيما يرمى إليه القرآن بعامة من الوعظ والنصح والإرشاد ، وليكون فيها معين لا ينضب من الأُسى للرسول الكريم ، فيصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، وقد أوضح القرآن هذين الهدفين من إيراد القصة فيه حين قال : « ذلك مثل القوم

الذين كذبو بآيات الله ، فاقصص القصص ، لعلهم يتفكرون » ، « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » ، وقال : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » وعلى ضوء هذين الهدفين نزن ما ورد فى القرآن من القصص، فليس هو بكتاب أنشىء للقصة قصدا ، ولكنه ينظر إلى القصة من هذه الزاوية التى تحقق أهدافه العامة ، فلا يصح حينئذ أن يؤخذ[1] عليه أنه لا يتناول القصة من جميع أطرافها ، ولا أنه لا يتسلسل فى إيراد حوادثها مرتبة منظمة ، وأنه يصعب فهم القصة من القرآن ، على من لم يطلع عليها فى مصدر آخر ، ذلك أن القرآن يأخذ من القصة ما يحقق أهدامه من التهذيب والوعظ ، فحينا يقص القصة كلها ، محبوكة الأطراف ، موصولة الأجزاء ، مرتبطا بعضها ببعض ، فى تسلسل واتساق يسلمك السابق منها إلى لاحقه ، حتى تصل إلى خاتمتها ، وندر ذلك فى القرآن ، كما نراه فى سورة يوسف ، وفى معظم الأحيان يأخذ من القصة بعضها ، لأن فى هذا البعض ما يحقق الهدف ، وقد يلمح القرآن ويشير إلى القصة تلميحا يستغنى به عن الإطالة ، اعتمادا على أن القصة معروفة مشهورة . أرأيت الخطيب حين يستشهد بقصة من القصص ، أتراه يعمد إلى القصة كلها فيسردها ؟ أم إنه يعمد أحيانا إلى جزء من القصة يورده فى خطبته ، وأحيانا يكتفى بالإيماء إلى القصة والإشارة إليها ، من غير أن يكون فى مثل هذا العرض نقص فى الخطبة ، أو اعتراض على الخطيب وقد يتكرر جزء القصة فى القرآن إذا استدعى المقام تكرير هذا الجزء .

ولنأخذ قصة إبراهيم نتبين النهج القرآنى فى عرضها ، والسر فى اتباع هذا النهج .

وقد تحدث القرآن كثيراً عن إبراهيم ، فعندما عرض له أول مرة فى سورة البقرة كان فى معرض الرد على اليهود والنصارى ، وهنا ذكر من قصة إبراهيم

---

(١) راجع رأى نولدكه ص ٤٨ من كتاب تطور الأساليب النثرية .

ما يؤيد دعوة محمد ، وبيان أن محمداً قد تبع ملة إبراهيم ، وأن إبراهيم وصى بنيه من بعده وصايا هى تلك التى جاء محمد بإذاعتها ، وهاك بعض ماجاء فى هـذا المقام تتبين به شدة المناسبة للموضع الذى جاء فيه ، قال سبحانه : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ، حتى تتبع ملتهم ، قل : إن هـدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من الله من ولى ولا نصير ، . . وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ، فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ، قال : لا ينال عهدى الظالمين ، ... وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا ، تقبل منا ، إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا ، وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال ربه : أسلم ، قال : أسلمت لرب العالمين ، .. وقالوا : كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ، قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

وعرض القرآن مرة ثانية لإبراهيم فى سورة البقرة ، وهو فى معرض الحديث عن انفراد الله بالألوهية ، وأنه لا شريك له فى السموات ولا فى الأرض ، فعرض من قصته فى هذا المقام ما يناسبه ؛ إذ عرض هذا الحديث الذى دار بين إبراهيم ، وبين الملك الذى آتاه الله الملك ، فادعى الألوهية ، فأفحمه إبراهيم إفحاماً لم يستطع الملك أن يتخلص منه ، وتتبين جمال الاستشهاد بهـذا الجزء من قصة إبراهيم إذا أنت قرأت آية الوحدانية التى منها : «الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه

سنة ولا نوم ، له مافى السموات وما فى الأرض ... » ثم قرأت قوله متعجباً : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين ». وكان الحديث عن إبراهيم وسؤال ربه « رب ، أرنى كيف تحيى الموتى » مرتبطاً تمام الارتباط بالحديث عن الله الذى يحيى ويميت .

وجاء بجانب من قصة إبراهيم فى سورة الأنعام ، وكان يتحدث عن قلة غناء عبادة غير الله ، وضلال من يتخذ من دون الله إلهاً لا ينفع ولا يضر ، وحيرته وفقدان صوابه ، إذ يقول : « قل : أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ... » فلا جرم ناسب المقام أن يورد هنا من قصة إبراهيم هذا الحديث الذى دار بينه وبين أبيه آزر ، ينكر فيه إبراهيم على أبيه أن يتخذ من دون الله إلهاً ، ثم يمضى القرآن مبيناً كيف اهتدى إبراهيم إلى الله الحق ، بعد أن رأى سواه ليس خليقاً بالألوهية ، ولا يصلح للعبادة ، فيقول : « إذ قال إبراهيم لأبيه آزر : أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً ، قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لئن لم يهدنى ربى ، لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة ، قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : ياقوم ، إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين » . أرأيت شدة الصلة بين هذا الجزء من قصة إبراهيم ، وبين المقام الذى ورد فيه .

وجاء الحديث عن استغفار إبراهيم لأبيه فى سورة التوبة ، بعد نهى الرسول الكريم عن استغفاره للمشركين ، فكان الربط قوياً متيناً : « ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ، ولو كانوا أولى قربى ، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم » .

أما ما ورد من قصة إبراهيم فى سورة هود ، فهو الجزء الذى تحدث فيه عن نجاته وعذاب قومه ، وذلك فى معرض الحديث عن نجاة من نجا من الأنبياء ، وهلاك من هلك من أقوامهم الذين لم يؤمنوا بهم ، فأورد من ذلك ما حدث لنوح وقومه ، وهود وقومه عاد ، وصالح وقومه ثمود ، يعرض من قصصهم لهذه الناحية التى عرض لها من قصة إبراهيم ، التى ختمها هنا بقوله : « يا إبراهيم ، أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

وكان الحديث عن إبراهيم فى سورة إبراهيم ، وارداً بعد الحديث عن نعم الله التى لا تحصى ، وهنا ذكرهم بتلك النعمة الكبرى وهى نعمة أمنهم فى حرمهم ، تلك النعمة التى استجاب الله فيها دعوة إبراهيم ، ويضم القرآن إلى هذه النعمة دعاء إبراهيم أن يجنبه ربه عبادة الأصنام ، ولننصت إلى حديث أمن البيت الحرام ، تلك النعمة التى لا تستطيع قريش إنكارها ، إذ يقول : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ، وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا البلد آمنا ، واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ، رب ، إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ربنا ، إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ، ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات ، لعلهم يشكرون ... » وكأنه وهو يذكّر بهذه النعمة ، يبين لهم طريق شكرها بتوحيده وعبادته .

وورد جزء من قصة إبراهيم فى سورة مريم ، ولما كان المقام مقام تنزيه الله عن الشريك ، ورد من القصة تلك المناقشة التى دارت بين إبراهيم وأبيه ، يبين فيها إبراهيم خطل الرأى فى الإشراك بالله ، « واذكر فى الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه : ياأبت ، لم تعبد مالا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئاً ، ياأبت ، إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى ، أهدك صراطاً سويا ، ياأبت ، لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، ياأبت ، إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن ، فتكون للشيطان وليا ، قال : أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا ، ... » . ولما كان الحديث فى سورة الأنبياء عن وحدانية الله كذلك وأن ماسواه لا يليق به أن يكون إلهاً يعبد ، ورد فى هذه السورة من قصة إبرهيم ما يوضح هذه الحقيقة ويؤكدها فى الذهن ، فقص القرآن حادث تحطيمه للأصنام ، حادثا عملياً يبين قلة غنائها : وأنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها فكيف تصلح أن تكون معبودة من دون الله ، « ... فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم ، لعلهم إليه يرجعون ، قالوا : من فعل هذا بآلهتنا ؟ إنه لمن الظالمين ، قالوا : سمعنا فتى يذكرهم ، يقال له : إبراهيم ، قالوا : فأتوا به على أعين الناس ، لعلهم يشهدون ، قالوا : أأنت فعلت هذا بآلهتنا ، يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم ، فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، ... » . وفى سورة الشعراء حديث عن الرسل ، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده ، فبهذه الدعوى أرسل موسى إلى فرعون ، وأرسل هود ، وأرسل صالح ، فلما جاءت قصة إبراهيم تنوولت من تلك الناحية ، فعرض إبراهيم مادفعه إلى ترك عبادة ما كان قومه يعبدون ، وإلى الاتجاه إلى الله وحده بالعبادة ، قال : سبحانه : « واتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه وقومه : ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناماً ، فنظل لها عاكفين ، قال : هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم

أو يضرون ؟ قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ؛ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ، الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ، ..» أى براعة فى هذا العرض وأية قوة خارقة ، فالمقام فى السور الثلاث تحدث عن وحدانية الله ، وتعدد المعروض من قصة إبراهيم ، لتأييد هـذه الوحدانية ؛ فعرض من هذه القصة مرة خوف إبراهيم من سوء مصير من يشرك بالله ، وحذر والده من سوء هذا المصير ، وفى موضع آخر عرض منها حادثاً عملياً يبين قلة غناء هؤلاء المعبودين من دون الله ، وعرض فى موضع ثالث الأسباب التى دفعت إبراهيم إلى عبادة الله وحده . كما عرض فى سورة العنكبوت ما تحدث به إلى قومه مما يدفعهم إلى تلك العبادة ، « إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون » .

وتبدو البراعة القوية كذلك فى عرض القرآن حادث تحطيم الأصنام عرضاً آخر غير العرض الأول ، يصور تصويراً ملموساً عجز هؤلاء الآلهة وقلة حيلتها ، حين « راغ إلى آلهتهم ، فقال : ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون ؟ ! فراغ عليهم ضرباً باليمين » .

وهكذا تبين ماذكرناه من استشهاد القرآن بما يعنيه من أجزاء القصة ، وبلوغ القرآن أهدافه من ذكر هذه الأجزاء ، وفى الاستطاعة تتبع ذلك فيما جاء من قصص فى القرآن .

الجدل

لا يجرى الجدل فى القرآن على هذا النظام المنطقى الجاف ، تذكر فيه المقدمات على نظام خاص ، تتبعها النتائج ، فإن القرآن لم ينزل لهداية طائفة خاصة لها ثقافتها الخاصة ، بل نزل لهداية الناس جميعاً ، وما به من أدلة يلقى فى النفس الاقتناع به ، ويملأ القلب باليقين ، سواء فى ذلك العامة والخاصة .

وقد ذكر العلماء من ألوان الجدل القرآنى القول بالموجب[1] ، قال ابن أبى الأصبع : وحقيقته رد كلام الخصم من فحوى كلامه ، وقال غيره هو قسمان : أحدهما أن تقع صفة فى كلام الغير كناية عن شىء أثبت له حكم ، فتثبتها لغير ذلك الشىء ، كقوله تعالى : « يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، فالأعز وقعت فى كلام المنافقين كناية عن فريقهم ، والأذل عن فريق المؤمنين ، وأثبت المنافقون لفريقهم إخراج المؤمنين من المدينة ، فأثبت الله فى الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم ، وهو الله ورسوله والمؤمنون ، فكأنه قيل : صحيح ذلك : ليخرجن الأعز منها الأذل ، لكن هم الأذل المخرَج ، والله ورسوله الأعز المخرِج . والثانى حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه ، كقوله تعالى : «ومنهم الذين يؤذون النبى ، ويقولون : هو أذن ، قل : أذن خير لكم » . يريدون[2] أنه صلى الله عليه وسلم سمّاع لكل شىء ، مصدق لكل قول ، ولكن الآية لم تترك الأذن مطلقة ، بل نسبتها إلى الخير ، ولهذا كان تمام الآية « يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين

---

(١) الإتقان جـ٢ ص ١٣٧ .

(٢) تاريخ الأدب العربى للأستاذ السباعى بيومى ص١٣٩ .

ورحمة للذين آمنوا منكم » أى أنه يصدق بالله ، ويسلم للمؤمنين ، لا لكم ، لعدم تصديقه إياكم ، ثم هو مع ذلك رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، حيث قبلهم ، ولم يكشف حقيقتهم .

وعدوا من أنواع الجدل القرآنى الانتقال [١] ، وذلك أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذى كان آخذاً فيه ، لعدم فهم الخصم وجه الدلالة من الاستدلال الأول ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه ، أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحيى وأميت ، قال : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » ، فإن الملك الذى جادله إبراهيم فهم من الإحياء والإماتة قدرته على إبقاء من يستحق القتل ، وحكمه على الحىّ بالموت ، فلم يرد إبراهيم مناقشته ، لكى يبين له مراده من الإحياء والإماتة ، بل انتقل إلى استدلال لا يجد الملك له وجهاً يتخلص به منه ، فقال : إن الله يأتى بالشمس من المشرق ، فأت بها من المغرب ، وهنا بهت الملك ، ولم يمكنه أن يقول : أنا الآتى بها من المشرق ، لأن من هو أسن منه يكذبه .

ومنها مجاراة الخصم [٢] ، بتسليم بعض مقدماته ، للإشارة إلى أن هذه المقدمات لا تنتج ما يريد أن يستنتجه ، وذلك كقوله تعالى : « قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا ، تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » ؛ فليس المراد أنهم سلموا انتفاء الرسالة عنهم ، بل كأنهم قالوا : إن ما ادعيتم من كوننا بشراً حق لا سبيل إلى إنكاره ، ولكن هذا لا ينافى أن يمن الله علينا

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) المرجع السابق نفسه .

بالرسالة ، وقد أثبت القرآن فى موضع آخر ، كما ذكرنا ، أن الرسول لا يكون إلا بشراً ، « ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون » . وفى هذا النوع من الجدل استدراج للخصم ، واستجلاب لإصغائه ، وربما كان من الممكن بهذه الوسيلة ثنيه عن الإنكار .

ومنها الإسجال [1] ، بأن يثبت على لسان الخصم حقيقة كان ينكرها ، كما فى قوله تعالى : « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، قالوا : نعم ، فأذن مؤذن بينهم ، أن لعنة الله على الظالمين » ، وفى مثل هذا اللون من التسجيل إثارة لوجدان المتشككين والمنكرين وإثارة الخوف فى أنفسهم ، حين يسمعون اعتراف من على شاكلتهم ، ويدفعهم الخوف إلى التأمل ، عساهم يهتدون .

ومنها التسليم [1] ، وهو أن يسلم بوقوع المحال تسليما جدلياً ، لبيان ما يترتب على ذلك من أمور محالة ، وقد يبدأ الكلام حينئذ بحرف امتناع ، ليدل على أنه ممتنع للوقوع لامتناع وقوع شرطه ، كما فى قوله سبحانه : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، وحيناً ينفى صراحة ، ثم يسلم وقوعه تسليما جدلياً ، لا يلبث أن يحكم الواقع بانتفائه ، كما فى قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » ، فالمعنى ليس مع الله من إله ، ولو سلم أن معه إلهاً لزم من ذلك ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق ، وعلو بعضهم على بعض ، فلا يتم فى العالم أمر ، ولا ينفذ حكم ، ولا تنتظم أحواله ، والواقع خلاف ذلك ، ففرض وجود إلهين محال ، لما يترتب عليه من المحال . وفى هذا اللون من الجدل تقليب للأمر على جميع وجوهه ، ليكون الحكم المراد سليما لاشك فيه .

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٣٧ .

ومنها التقسيم [1] والسبر، بأن يقسم ما هو محل الجدل إلى منتهى أقسامه، ويسبر كل قسم بأن ينفى عنه ما يريد الخصم إثباته له، كقوله سبحانه يرد على المشركين تحريمهم ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى: « كلوا مما رزقكم الله، ولا تتبعو اخطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين، ثمانية أزواج من الضأن اثنين، ومن المعزاثنين، قل: آلذكرين حرم، أم الآنثيين، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟! نبئونى بعلم إن كنتم صادقين، ومن الإبل اثنين، ومن البقراثنين، قل: آلذكرين حرم أم الأنثيين، أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟! أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا؟! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا، ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين ». رد الله عليهم تحريمهم بطريق السبر والتقسيم، فبين أنه قد خلق من كل زوج مما ذكر، ذكراً وأنثى، فما علة تحريم ما حرمتم؟ لا يخلو أن يكون ذلك من جهة الذكورة أو الأنوثة أو إليهما معاً، أو لايدرى له من علة بأن يكون تعبدياً أخذ عن الله تعالى، والأخذ عنه سبحانه إما بوحى وإرسال رسول، أوسماع كلامه، وتلقى ذلك عنه، وهو معنى قوله تعالى: « أم كنتم شهداء إذوصاكم الله بهذا »، تلك هى وجوه التحريم لاتخرج عن واحد منها، ويلزم على الأول أن يكون جميع الذكور حراماً، وعلى الثانى أن يكون جميع الإناث حراماً، وعلى الثالث تحريم الصنفين معاً، وهم يحرمون البعض فى حالة، والبعض فى حالة أخرى، ولم يأتهم رسول قبل محمد يحرم عليهم ماحرموه، ولم يدّعوا الأخذ عن الله بلا واسطة، وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدعى، وهو أن ما قالوه ضلال وكذب على الله. ومثل هذا التقسيم والسبر لايدع مجالاً للشك، وتستريح النفس إلى ما تصل إليه من نتائج عن طريقه.

هذا، ومن أكبر الموضوعات التى حدث فيها الجدل موضوع توحيد الله،

---

(١) المرجع السابق ص١٣٦ ج٢.

واليوم الآخر ، ورسالة محمد ، وقد بينا فى إفاضة ألوان هذا النقاش ، وكيف كانت ردود القرآن باعثة على التفكير ، مثيرة للوجدان معاً .

الابتهال

من الأغراض التى جاءت فى القرآن تعليم المؤمن كيف يتجه إلى الله ، وتخلص نفسه من شوائب هذه الحياة ، فيتجه إليه حيناً يحمده ويستعينه ، كما فى فاتحة الكتاب ، وقد فرضت هذه الفاتحة سبع عشرة مرة فى اليوم ، وفى الاستعانة بالله بين الحين والحين ، فى الليل والنهار تقوية للروح المعنوية فى المرء ، وتربية لضميره .

وهذا ابتهال آخر ، يلجأ فيه الإنسان بضعفه إلى الله فى قوته ، يطلب منه أن يسبغ عليه غفرانه وأن ينصره فيقول : « ربنا لا تؤاخذنا ، إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ، ولا تحمل علينا إصراً ، كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين » .

ونؤمر بأن نذكر عظمة الله وجلاله وقوته فى أسلوب يجمع إلى قوة المعنى فخامة الأسلوب ، « قل : اللهم ، مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب » .

وفى هذا الابتهال تصعد الكلمات مسجلة نعمة الإيمان ، ضارعة إلى الله أن يبعد الخزى ، مؤمنة بحكمة خلق السموات والأرض ، « ربنا ، ما خلقت هذا باطلاً ، سبحانك ، فقنا عذاب النار ، ربنا ، إنك من تدخل النار فقد أخزيته ، وما للظالمين من أنصار ، ربنا ، إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان ، أن آمنوا بربكم ، فآمنا ،

ربنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار ، ربنا ، وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، ولا تخزنا يوم القيامة ، إنك لا تخلف الميعاد » ؛ وفى تكرير كلمة الرب ما يشعر بهذه الصلة الروحية السامية ، التى بها يطمع المؤمن فى أن يستجاب له .

وفى سورة الفلق ، يلجأ الإنسان إلى الله من شر ما يستكن فى الظلام من شرور ، ومن شر ما يستكن فى النفوس المظلمة من هذه الشرور ؛ وفى سورة الناس يلجأ إلى الله أن يحميه من إغواء الشيطان ومن على شاكلته من الناس .

وقد يكون فيما يعلمنا الله من دعاء بياناً للخطة المثلى الواجبة الاتباع ، كما نجد ذلك فى قوله تعالى : « ربنا ، آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » ؛ فقد بينا فيما مضى أن تلك الصلة بالدنيا والآخرة هى الصلة المثلى للإنسان المثالى . ولم يقتصر الابتهال على طلب التوفيق فى أمور الدين ، بل شمل طلب السعادة فى شئون الدنيا ، فقد أثنى الله على الذين يقولون : « ربنا ، هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماما » .

بعض صور الحياة الجاهلية

سجل القرآن بعض ألوان هذه الحياة منددا بها حيناً ، وممتناً عليهم حيناً آخر ، أن نقلهم من تلك الحياة إلى حياة أخرى رفيعة ، وإنما عارض القرآن الحياة التى نزل ليهذبها ، أو يغير من عاداتها وعقائدها ، ولذا كانت الحياة الجاهلية التى يعرض بعض صورها هى تلك التى عاصرها القرآن ، أما الجاهلية القديمة ، فما لم يعن القرآن بها ، إلا إذا كانت آثارها لاتزال باقية .

فمن الناحية الدينية ، صور القرآن العرب طوائف ، فطائفة ، ، ولعلها الغالبية الكبرى ، قوم يشركون بالله ، ويتخذون أصناماً يعبدونها ، ويتقربون إليها ؛

والقرآن يصورهم برغم اعترافهم بأن الله هو الذى خلقهم ، وخلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، وله ملك السموات والأرض ، وهو الرازق المدبّر — برغم ذلك يتخذون من الأوثان آلهة ؛ وقد سجل القرآن تلك العقيدة فى قوله : « ولئن سألتهم : مَن نزل من السماء ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها ، ليقولن : الله ، قل : الحمدلله ، بل أكثرهم لا يعقلون » ، « ولئن سألتهم : من خلق السموات والأرض ، وسخر الشمس والقمر ، ليقولن : الله ، فأنى يؤفكون » ، « ولئن سألتهم : من خلقهم ليقولن : الله » ، « قل : لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون : لله » ، « قل من يرزقكم من السماء ، والارض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون : الله » ؛ وقد كان من الطبيعى أن يتجهوا إلى الله وحده بعبادتهم ، ماداموا يعتقدونه متصفاً بتلك الصفات ، ولكنهم أشركوا به غيره فى العبادة ، واتخذوا من الأصنام المنحوتة آلهة يعبدون ، وجعلوا لهذه الآلهة نصيبا من أرزاقهم يقدمونه قرابين إليها ، وحيناً يجعلون لله نصيباً من هذه القرابين ، ولأوثانهم نصيباً ، ثم ينسون نصيب الله ويقدمونه لهذه الأوثان . وذكر القرآن أسماء بعض هذه الأصنام إذ قال : « أفرأيتم اللات والعزّى ، ومناة الثالثة الأخرى » ، وقد ندد القرآن بهذا الإشراك فى العبادة ، وتسوية هذه الأصنام بالله ، فقال : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله » ، ذلك أنهم اتخذوا هذه الأصنام شفعاء لهم عند الله ، فقالوا : إننا « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ؛ ولذلك كان أكبر ما عجبوا له عند ما دعاهم الرسول إلى الإسلام ، هذا التوحيد لله فى العبادة ، ونبذ ما عداه مما اتخذوه آلهة ، فقالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ ! إن هذا لشىء عجاب » ؛ وقد حطم القرآن عقيدة الشرك ، ومضى إلى الأصنام فلم يدع باباً يبين خطل الرأى فى عبادتها ، مما

ذكرنا بعضه فى الفصول الماضية .

وكانت هذه الطائفة تجعل « الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً » وسموهم بنات الله ، وعجب القرآن لتلك القسمة الضيزى ، « أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون » ، قدتعجب القرآن منهم قائلا : « وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون » ؛ وقد نفى القرآن عن الله فكرة الوالدية إذ قال : « لم يلد ، ولم يولد » .

كما كان في بلاد العرب أهل كتاب من النصارى واليهود ، وقد ناقش القرآن ما بدلوه من عقائدهم وشرائعهم وكتبهم ، ومن أهم ما أخذه عليهم فكرة اتخاذ الله ولداً ، « وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح بن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ،لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون ، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون » ؛ وقد أطال القرآن فى الرد عليهم ، وادعائهم أنهم إبناء الله وإحباؤه ، وأنه « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى » ، ويطول بى مجال القول إذا أنا فصلت هذه المناقشات ، وتحدثت عن عناصرها .

وكان مشركو العرب ينكرون البعث ، ولا يؤمنون باليوم الآخر ، « وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر » . وكان إثبات هذه العقيدة والرد على منكريها من أهم أغراض القرآن ، كما سبق أن وضحنا .

ومن عقائد العرب فى الجاهلية تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، وقد اختلف فى معنى كل واحد من هذه الأربعة .

أما البحيرة [1] فقال الزجاج : إن أهل الجاهلية كانوا إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها ، وامتنعوا من نحرها وركوبها ، ولا تطرد من ماء ، ولا تمنع عن مرعى ، وهى البحيرة ، وقيل : إنها إذا نتجت خمسة أبطن نظر فى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه وأكلوه ، وإن كان أنثى شقوا أذنها ، وتركوها ترعى ، ولا يستعملها أحد فى حلب وركوب ونحو ذلك ، وقيل غير ذلك ، ويظهر أن مذاهب العرب كانت مختلفة فيها ، فاختلف لذلك أئمة اللغة فى تفسيرها ، وكل قول يرجع إلى مذهب .

وأما السائبة فقيل : هى الناقة تبطن عشرة أبطن إناث ، فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ، ولا يشرب لبنها إلا ضيف ، وقيل : هى التى تسيب للأصنام ، فتعطى ، ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل ونحوهم ، وقيل هى البعير يدرك نتاج نتاجه ، فيترك ولا يركب ، وقيل غير ذلك .

وأما الوصيلة ، فقال الفراء : هى : الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين [2] ، وإذا ولدت فى آخرها عناقاً وجدياً ، قيل وصلت أخاها ، فلا يشرب لبن الأم إلا الرجال دون النساء ، وتجرى مجرى السائبة ، وقيل : هى الشاة تنتج سبعة أبطن ، فإن كان السابع أنثى لم ينتفع النساء منها بشىء ، إلا أن تموت ، فيأكلها الرجال والنساء ، وقال ابن قتيبة : إن كان السابع ذكراً ذبح ، وأكلوا منه دون النساء ، وقالوا : خالصة لذكورنا ، محرمة على أزواجنا ، وإن كانت أنثى تركت فى الغنم ، وإن كان ذكراً وأنثى ، قالوا : وصلت أخاها ، فتترك معه ، ولا ينتفع بها إلا الرجال دون النساء ، وقيل غير ذلك .

وأما الحامى فقيل : هو الفحل إذا لقح ولد ولده ، فيقولون : قد حمى ظهره ،

---

(١) بلوغ الأرب جـ٣ ص٣٦ .

(٢) العناق : الأنثى من أولاد المعز .

فيهمل ، ولا يطرد من ماء ولا مرعى ، وقيل : هو الفحل ، يولد من ظهره عشرة أبطن ، فيقولون : حمى ظهره . فلا يحمل عليه ، ولا يمنع من ماء ولا مرعى ، وقيل غير ذلك ، ولعل اختلاف التفسير راجع إلى اختلاف مذاهب العرب ، كما سبق أن ذكرنا .

وقد أبطل الإسلام ذلك ، فقال : « ما جعل الله من بحيرة ، ولا سائبة ، ولا وصيلة ، ولاحام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، و أكثرهم لا يعقلون » ، كما أبطل عقيدتهم فى تحريم إناث الأنعام حيناً وذكورها حيناً ، وقد سبق أن ذكرنا ذلك فى باب الجدل .

ومن الناحية الاجتماعية صور القرآن العرب جماعات متعادية ، تعتز كل قبيلة بعصبيتها ، وتزهو بنسبها ، وتفتخر بنفسها ، وقد هدم القرآن الوحدة القبلية ، وأراد أن يضع مكانها وحدة إسلامية شاملة ، لا يعتز المرء فيها بجنسه ، ولكن بعمله ، فقرر أن العالم مكون من شعوب وقبائل للتعارف ، لا للتناحر والتنافر ، « يأيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فلا يكون ذلك مصدر حرب وقتال ، ولا سبباً للتكاثر والافتخار ، وقرر أخوّة المؤمنين ، لا فرق بين عربى وعجمى ، وأن مصدر التفاضل عند الله إنما هو التقوى ، فقال : « إنما المؤمنون إخوة » ، « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . وقد امتن الله على العرب بإنقاذهم من تلك الحياة التى يسودها البغض ، ويملؤها العداء ، فقال : « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء ، فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخوانا » ، وقد حثهم القرآن على الاحتفاظ بهذه الأخوة ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعاً ، ولا يتفرقوا .

ونزل القرآن وكان بعض العرب يئد البنت ، ويكره أن تولد له بنت ، وقد نعى القرآن على هذا البعض تلك النظرة الخاطئة ، منددا بها ، فقال : « وإذا بشر أحدهم

بالأنثى ظل وجهـه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون ، أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » ، كما عطف القلوب على هذه الموءودة تسأل يوم القيامة عما جنته من ذنوب أدت إلى وأدها ، وهو بذلك يثير تفكير الوائدين ، ليروا حقيقة الدافع إلى وأد بناتهم ، وتثير وجدانهم ، حين يتمثلون قسوتهم فى وأد طفلة بريئة لم تجن ذنباً ، فقال وهو يصف اليوم الآخر : « وإذا الموءودة سئلت ، بأى ذنب قتلت » .

كما كان بعض العرب يقتل أولاده خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وهم الفقراء من بعض قبائل العرب ، وقد نزل فى هؤلاء قوله تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم ؛ إن قتلهم كان خطئاً كبيرا » .

ولم يرض القرآن عن كثير من صِلاتهم بالمرأة فمن ذلك أن الرجل من العرب كان إذا مات عن المرأة أو طلقها ، قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد ، وقد أبطل الله ذلك بقوله سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا » .

ومن ذلك أنهم كانوا يطلقون النساء ، فإذا قرب انقضاء عدتهن راجعوهن لا عن رغبة فى هذه المراجعة ولا عن محبة ، ولكن ضراراً ، لقصد تطويل العدة ، فنهى القرآن عن ذلك فقال : « وإذا طلقتم النساء ، فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضراراً ، لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » .

ومن ذلك إنهم كانوا يمنعون النساء أن يتزوجن مَنْ أَرَدْنَ من الأزواج بعد انقضاء عدتهن ، حمية جاهلية ، فأنكر القرآن ذلك بقوله : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ، إذا تراضوا بينهم

بالمعروف ، ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ذلكم أزكى لكم وأطهر ، والله يعلم ، وأنتم لاتعلمون » .

ومن ذلك أنهم كانوا إذا مات الرجل منهم ، كان أولياؤه أحق بامرأته ، فإذا أراد بعضهم تزوجها ، وإن رأوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها ، وإن أرادوا سمحوا لها بالزواج على أن يأخذوا ميراثها ، أو تدفع إليهم صداقها ، فنهى الله عن ذلك فى قوله : « يأيها الذين آمنوا ، لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » . وفى هذه المعاملة إجحاف بحق المرأة وحجر على حريتها يأباه الإسلام .

وسجل القرآن على المرأة الجاهلية تبرجها ومبالغتها فى التزين ، ونهى الإسلام المرأة المسلمة عن التشبه بها فى قوله : « ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

ومما سجله القرآن من عوائدهم شربهم الخمر ، ولعبهم الميسر ، واستقسامهم بالأزلام ، ومعنى الاستقسام بالأزلام أن الرجل كان إذ أراد سفرا أو تجارة أو زواجاً ، أوغير ذلك مما يعنيه من الأمور — جاء إلى هبل ، وهو أعظم صنم لقريش بمكة ، ولدى سادن الكعبه أزلام ، وهى قداح مستوية فى المقدار ، وطلب منه أن يجيل هذه القداح ، فإذا خرج القدح الآمر مضى لطيته ، ولن خرج الناهى أعرض وانتهى ، وقد حرم القرآن ذلك كله ، فقال : « يأيها الذين آمنوا ، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ومن عاداتهم التى سجلها القرآن ونهى عنها النسىء ، فقد كانوا يعتقدون أن من الدين تعظيم الأشهر الحرم وهى أربعة : المحرم ، ورجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، فكانوا يمتنعون فيها عن القتال ، ولكن قبائل كانت تستبيح القتال فى الشهر الحرام ، على أن يحرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل ، وهذا هو النسىء ، فكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد ، لا هذه الأشهر بأعيانها ، فحرم القرآن

هذا النسىء فى قوله : « إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله ، يوم خلق السموات والأرض ، منها أربعة حرم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم ، وقاتلوا المشركين كافة ، كما يقاتلونكم كافة ، واعلموا أن الله مع المتقين ، إنما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، زين لهم سوء أعمالهم ، والله لا يهدى القوم الكافرين » .

أما حياتهم الاقتصادية فقد صورهم القرآن قوماً يحبون التجارة ، لدرجة أنها تملك عليهم قلوبهم فينصرفون إليها ، حتى عن الصلاة والعبادة ، قال سبحانه : « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ، وتركوك قائماً ، قل : ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ، والله خير الرازقين » ، ونزلت سورة يمنّ فيها على قريش بنعمة الأمن التى بها يحوبون البلاد العربية فى الشتاء والصيف من غير أن يزعجهم إغارة مغير أو قطع طريق .

هذا ، وقد كان فى بلاد العرب من يستحل الربا ، ولا يرى فارقاً بين البيع والربا ، ومن هؤلاء من كان يأخذ الربا أضعافاً مضاعفة ، وقد نهى القرآن عن الربا فقال : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا ؛ وأحل الله البيع وحرم الربا » . « يأيها الذين آمنوا ، لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وصور القرآن حياتهم الثقافية قوماً أميين ، ليست لديهم معارف منظمة مكتوبة ؛ ولذلك امتن عليهم بأن هذا الدين الجديد فاتحة عهد عرفان وهداية ، فقال : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ، ولكنهم كانوا

يعرفون القلم ، وبه كان يكتب بعضهم ، «اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم» وبرغم هذه الأمية يقرر القرآن شدة لددهم ، وقوتهم فى المراء والجدل ، إذ قال : « فإنما يسرناه بلسانك ، لتبشر به المتقين ، وتنذر به قوماً لداً » . ومن معارف العرب التى أشار القرآن إليها علمهم بالنجوم ومواقعها ، ولذلك امتن عليهم بخلق هذه النجوم ، لأنها مصباح فى الظلام ، يهديهم فى البر والبحر ، « وهو الذى جعل لكم النجوم ، لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر » .

الفصل الثانى

موازنات

أقصد بعقد هذه الموازنات أن تتبين الدقة القرآنية فى تصوير المعنى تصويراً ينقل إلى النفس الفكرة نقلا أميناً ، ولكنى لا أريد أن أعقد كل ما يمكن من الموازنات ، فذلك ما لم يتيسر لى القيام به إلى اليوم ، فضلا عن أنه فوق طاقتى ، وكل ماأريده الآن هو عرض ما أمكننى من هذه الموازنات ، راجياً أن أوفق إلى الإكثار منها ، بقدر ما أستطيعه فى قابل الطبعات إن شاء الله .

١ — قال تعالى : « والقمر قدرناه منازل ، حتى عاد كالعرجون القديم » .

وقال ابن المعتز :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا ... مثل القلامة قد قدّت من الظفر

وقال أيضاً :

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وقال أيضاً :

انظر إلى حسن هلال بدا ... يهتك من أنواره الحندسا

كمنجل قد صيغ من فضة ... يحصد من زهر الدجى نرجسا

وقال السرىّ الرفاء :

وكأن الهلال نون لجين ... غرقت فى صحيفة زرقاء

وقال أيضاً :

ولاح لنا الهلال كشطر طوق ... على لبّات زرقاء اللباس

تتحدث هذه النصوص كلها عن الهلال ، ولكى ندرك الفرق فى القيمة بين هذه النصوص بعضها وبعض ، نتبين معنى كل نص منها ، لنرى أيها أدق وأوفى:

أما الآية الكريمة فإنها تتحدث عن تلك التنقلات التى تحدث للقمر بقدرة الله ؛ فبينا هو وليد ، إذا به ينمو رويداً رويداً ، حتى يصبح بدراً مكتملا ، ثم يعود أدراجه ، وينقص قليلاً قليلا ، حتى يعود كعود الكباسة القديم ، دقيقاً معوجاً لا يكاد يرى ، ولا يؤبه له ، بعد أن كان ملء البصر ، وملء الفؤاد ، وأنت بذلك ترى أن التشبيه الذى جاء فى الآية كان له نصيب فى أداء المعنى ، ولم يجىء بعد أن استوفى المعنى تمامه ، وكان دقيقاً أتم دقة ، فى أداء المعنى وتصويره كاملا .

أما بيت ابن المعتز الأول ، فإن التشبيه الذى أورده لادخل له أصلا فى الفكرة التى يريد نقلها إلى قارئه ، فإن كون الهلال مثل قلامة الظفر لا دخل له فى أنه كاد يفضحهم ، بل على العكس يقلل من شأن الفكرة ويضعفها ، فإن هذا الهلال الضئيل الذى يشبه قلامة الظفر ، خليق به ألا يكون له أثر ما فى تبديد ظلمة الليل المتكاثفة ، وخليق به ألا يفضحهم ، ولا يبين عن مكانهم ، وبذلك ترى أن الصلة ليست وثيقة بين شطرى البيت ، ولا بين التشبيه والفكرة التى جاء من أجلها.

وفى بيته الثانى سبق أن بينا وجوه النقص فيه[1] ، وتحدثنا عن أن نفاسة المشبّه به لا ترفع من شأن التشبيه ، ولا تستر ما فيه من ضعف ، وذكرنا أن انتزاع الصورة من الخيال لا تزيد المشبه وضوحاً ، ولا تمنحه قوة .

أما بيته الثالث فضعيف متهالك ، لم يصور الهلال كما تراه العين ، ولا كما تحس به النفس ، ففضلا عن غفلة ابن المعتز عما يبعثه الهلال الجديد من آمال جديدة فى النفس ، ووقوفه عند حد التصوير البصرىّ ، لم يوفق فى هذا التصوير ، فإن

(١) راجع ص ١٨٩ .

الهـلال فى نظر العين هادىء ساكن ، والمنجل فى يد الحاصد متحرك فى سرعة ، فكيف نتخيل الهلال منجلا يحصد وهو لم يتحرك ، ثم ما الصلة بين زهر الدجى وبين النرجس ، وكيف يحصد الهلال هذا الزهر ، والزهر باق فى مـكانه لا ينمحى ولا يزول ، والعهد بما يحصد أن يتخلى عن مكانه . ومن ذلك ترى نقص التشبيه وقصوره .

واقتصر السّرىّ الرفاء على التصوير البصرى أيضاً ثم فاتته الدقة عندما جعل هذه النون من اللجين غريقـة فى صحيفه زرقاء ، فصور لنفسك أى قدر هذه التى تشبه بها السماء ، وتأمل أهناك سبب يدعو إلى جعل هذه النون غريقة فى تلك القدر الضخمة ، فالغريق يعلو ، ويهبط ، ويبدو ، ويختفى ، مما لا تراه العين فى الهلال الهادى المطمئن .

وانظر ، أتجد فى بيته الثانى تشبيهاً زادك شعوراً بالهلال عند ما جعله نصف طوق ، فضلا عن عدم دقته ، وتأمل أى صـلة تربط بين السماء ولبة فتاة تلبس ثياباً زرقاء ؟ !

وبذلك العرض الموجز تتبين الفرق بين تشبيه القرآن الدقيق المصور وبين تلك التشبيهات الضعيفة العرجاء .

٢ — وأطال القدماء فى الموازنة بين قوله تعالى : « ولـكم فى القصاص حياة » ، وقولهم : « القتل أنفى للقتل » . قالوا : وفضله عليه من وجوه : أولها أن الآية الـكريمة أقل حروفاً من كلامهم ، وثانيها النص على المطلوب وهو ثبوت الحياة ، بخلاف قولهم ؛ لأنه إنمـا يدل على المطلوب باللزوم ، من جهة أن نفى القتل يستلزم ثبوت الحياة ؛ وثالثها أن تنـكير حياة يفيد تعظيما لمنعهم عما كانوا عليـه من قتل جماعة بواحد ؛ ورابعها اطراده ، بخلاف قولهم ؛ فان القتل ينفى القتل إذا كان على وجه القصاص المشروع ، وقد يـكون أدعى للقتل ، كما إذا وقع ظلماً ، كقتلهم غير

القاتل ، وظاهر العبارة يحتمل المعنيين بخلاف القصاص ؛ وخامسها أن فيه تكريراً غيره أبلغ منه ، ومتى كان التكرير كذلك فهو مقصر عن أقصى طبقات البلاغة ، وسادسها استغناؤه عما ذكره أكثر من حذفه ، وهو (من) بعد أفعل التفضيل الواقع خبراً ؛ وسابعها أن القصاص سبب للموت الذى هو ضد الحياة ، فما فى الآية ملحق بالطباق ، وثامنها سلامة الآية الكريمة من لفظ القتل المشعر بالوحشة ، وتاسعها ظهور العدل فى كلمة القصاص .

٣ — وتحدث الشعراء عن الصبح ، فقال السرى الرفاء :

انظر إلى الليل ، كيف تصدعه ... راية صبح مبيضة العذب
كراهب جن للهوى طربا ... فشق جلبابه من الطرب

وقال الشريف الرضى :

وكأنما أولى الصباح وقد بدأ ... فوق الطويلع [1] راكب متلثم
وأذاع [2] بالظلماء فتق [3] واضح ... كالطعنة النجلاء يتبعها دم

وقال أيضاً :

وليلة خضتها على عجل ... وصبحها بالظلام معتصم
تطلع الفجر من جوانبها ... وانفلتت من عقالها الظلم

وقال أيضاً :

والصبح قد أخذت أنامل كفه ... فى كل جيب للظلام مزرر
فكأنما فى الغرب راكب أدهم ... يحتثه فى الشرق راكب أشقر

وليس كل ذلك الشعر بباعث إلى نفسك الشعور بما فى الصبح من يقظة وحياة ، كما يبعثه إلى نفسك تلك الكلمة القرآنية المختارة : «والصبح إذا تنفس» فإنها تحمل إليك معنى الحياة التى دبت فى الكون بعد طول هجوعه ، واليقظة

(١) هضبة بمكة . (٢) ذهب . (٣) صبح .

التى شملته بعد رقاد وهمود ، ويصور لك الوجود، وقد بدأ يفتح عينيه وينهض من سبات ، أما هذه الأبيات من الشعر فإنها وقفت تتلمس لهذه الظاهرة الكونية شبيهاً بصريا ، وقد أخفقت جميعها فى هذا التصوير البصرى ، فشعر السرى الرفاء تلمس للصبح مثيلا ، فوجد فى الراية ذات العذبات البيض شبيهاً له ، ولا شىء يجمع بين المشبه والمشبه به سوى هذا اللون الأبيض ، أما الإحساس النفسى فلا دخل له فى الربط بين هذين الطرفين ، ثم جعل السرى الليل راهباً ، ولا ندرى كيف يدفع الهوى راهباً إلى الجنون وهو راهب ، وليت شعرى ما الذى يبدو من الراهب إذا شق ثوبه ؟ ! وإذا كان الراهب أسود اللون فهل يبدو تحت جلبابه سوى السواد ، وشق الثوب من مجنون إنما يكون فى سرعة لا تمثل ضوء الصباح الزاحف فى بطء .

أما شعر الشريف الرضى الأول فقد أجهدت ذهنى فى أن أربط صلة بين الصبح والراكب المتلثم ، فلم أجد رابطاً ذا قيمة يصل بينهما ، ولماذا اختار الشاعر الراكب دون الماشى ؟ وما لون هذا الراكب ؟ وعلى أى شىء يركب ؟ وهل الصبح كمتلثم يظل متلثما ، ثم يبدى صفحة وجهه دفعة واحدة ؟ وما الصور التى ترتسم فى ذهنك لهذا الصبح المتلثم الراكب ؟ وهل هيئة الصبح تشبه هيئة راكب متلثم ؟ وفيم ؟

كل هذه أسئلة تخرج منها بوهن الصلة بين الصبح وهذه الصورة التى يرسمها الشاعر ، وفى البيت الثانى يصور لك هذا الصبح ، وما فيه من جمال وروعة ، تبعث فى النفس حب الجمال لهذه الطبيعة الباسمة المشرقة — صورة دامية بشعة ، تثير فى النفس الخوف والألم والنفور ، صورة طعنة نجلاء يقطر منها الدم ، وسبب ذلك إغفال الجانب النفسى الشعورى من الشاعر عند التشبيه ، والوقوف عند حد اللون الذى يربط لون الصبح بتلك الآلة الحادة الطاعنة ، وذلك الضوء الأحمر الحى تزجيه الشمس بين يديها ، ولون قطرات الدماء ، ألا ما أعظم الفرق بين الشعورين !

وما أقوى أن يتنافراً ، حتى لا يجمع بينهما رباط ! .

وأخطأ الشريف الرضى التوفيق أيضاً عند ما وصف الصبح يسفر بعد ظلام الليل ، وإن كانت هذه الصورة فى بعض نواحيها أضوأ من صاحبتها ، عندما قال: « تطلع الصبح من جوانبها » ؛ فى هذا التصوير نوع من الحياة ، ولكنه بعيد كل البعد عن أن يصور حياة الكون كما صورتها الآية الكريمة ، أما باقى الصورة التى ترسمها الأبيات فقد أخطأت فى رسم هذه الظاهرة الطبيعية ، فإن الشعر يصور لك أن الصبح لم يلبث أن أطل من الأفق ، حتى مضى الليل مسرعاً يهرول فى جريه ، كأنما قد أسفر الصبح ومضى الليل بين غمضة عين وانتباهتها ، وذلك تصوير غير دقيق ، لأن الليل ينحسر قليلا قليلا عن الصبح ، حتى يتم إسفاره ، كما أن النهار ينحسر قليلا قليلا ، تاركا الكون لظلام الليل ، وعبر القرآن عن ذلك فى قوله سبحانه : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، فإذا هم مظلمون » ، فاستخدم كلمه السلخ لتوحى بما ذكرناه .

وعاد فى شعره الثالث إلى الراكب ، لا يلمح من جمال الصبح وبهجته سوى لونه ، ونقدنا لهذا الشعر هو ما سبق أن أوضحناه .

٤ — ووصف الرسول كتاب الله ، كما وصف الله كتابه فى القرآن ، فقال النبى : « إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله فى قلبه ، وأدخله فى الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أصدق الحديث وأبلغه[1] » وقال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله ، يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » . وأنت ترى الفرق واضحاً بين قوة الكلامين ، والمنهجين ، والاتجاهين .

---

(١) ورد النص فى كتاب إعجاز القرآن ص ١٢١ .

٥ - وصاغ أبو بكر جملة على مثال الجملة القرآنية ، فقال من خطبة له : « واعلموا أن أكيس الكيس التقى[1] » على مثال قوله تعالى : « وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى » ، ولا ريب أن النص القرآنى ، يصور تلك الرحلة التى ينتقل فيها الإنسان من الحياة الدنيا إلى الآخرة ، وهى رحلة تنتهى بحياة خالدة يحتاج المرء فيها إلى زاد يعيش عليه ، فتصور التقوى بأنها خير زاد يوحى بذلك كله ، كما يوحى بالحاجة إليها ، كما يحتاج المسافر إلى ما يتزود به فى غربته ، ولم تزد جملة أبى بكر على أن وصفت التقوى بأنها أحكم ما يتصف به العقلاء ، فلم توح الجملة إلى النفس بما أوحت به جملة القرآن .

٦ — ومن كتاب أرسله أبو عبيدة ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب : « إنا نحذرك يوما تعنو فيه الوجوه وتجب فيه القلوب[2] » ، وقد وصف القرآن هذا اليوم ، فقال : « رجال لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار » ، وكلمة « التقلب » فى الآية أشد دلالة على ما يصيب القلوب من الفزع و الاضطراب فى ذلك اليوم من الوجيب ، فضلا عما فى النص القرآنى من خلوصه من تكرير « فيه » الواردة فى الرسالة .

٧ — وعندما يتأثر الشاعر القرآن ، يبدو الفرق واضحاً بين الأصل والتقليد ، وأصغ إلى حسان يقول :

وهل يستوى ضلال قوم تسفهوا عمى ، وهداة يهتدون بمهتد

أخذه من قوله سبحانه : « قل : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ ! أم هل تستوى الظلمات والنور ؟ » فأنت ترى حسان يوازن بين ضلال وهداة ، وليس الفرق بينهما من الوضوح والقوة كالفرق بين الأعمى والبصير ، والظلمات والنور ،

---

(١) ورد فى المصدر السابق ص١١٥ .

(٢) ورد فى المصدر السابق ص١١٦ .

فالفرق هنا واضح ملموس ، يشعر به الناس جميعاً ، حتى إذا اطمأنت النفس إلى هذا الفرق ، وآمنت بأن هناك بوناً شاسعاً بينهما ، انتقلت من ذلك إلى تبين مدى ما بين الضال والمهتدى من فرق بعيد .

٨ — وقال حسان أيضاً فى رثاء رسول الله :

عزيز عليه أن يحيدوا عن الهدى حريص على أن يستقيموا ويهتدوا

أخذه من قوله تعالى : « عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » ، وقوة الآية القرآنية تبدو فى إظهار نتيجة الحيد عن الهدى ، وهى الهلاك والعذاب ، وفى ذلك من التخويف لهم مافيه ، فهو يبرز هذه النتيجة كأنها حقيقة واقعة ، تؤلم الرسول ، وتثقل عليه ، وتبدو هذه القوة أيضاً فى تعميم الحرص ، فهو حريص على هدايتهم ، حريص على خيرهم ، حريص على أن يظفروا فى الآخرة بالثواب والنعيم المقيم ، وكل ذلك وأكثر منه يفهم من قوله : « حريص عليكم » ، أما حسان فقد خصص ولم يطلق .

٩ — وقال حسان فى غزوة بدر .

سرنا وساروا إلى بدر لحينهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا
دلاهمو بغرور ، ثم أسلمهم إن الخبيث لمن والاه غرار
وقال : إنى لكم جار ، فأوردهم شر الموارد ، فيه الخزى والعار
ثم التقينا ، فولوا عن سراتهم من منجدين ، ومنهم فرقة غاروا

يستوحى ذلك من قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم ، فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى مالا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب » ، وتأمل التصوير القوى البارع فى القرآن لتزيين الشيطان أعمال الكافرين لهم ، فإن القرآن قد نقل ذلك الحديث الذى أوحى به الشيطان إلى أوليائه وكيف

ملأ قلبهم بالغرور ، وهنا يجمل حسان ، بينما يفصل القرآن ، وفى هذا التفصيل سر الحياة ، تلك الحياة التى ترينا الشيطان ناكصا على عقبيه ، عندما تراءت الفئتان ، يبرأ من هؤلاء الذين غرهم بخداعه ، وأسلمهم إلى الموت بكذبه وإيهامه ، وهذه الحياة هى التى تنقص شعر حسان .

١٠ — وتأمل الفرق فى الأسلوب ، عندما حور النابغة الجعدى أسلوب القرآن قليلا ، فقال :

الحمد لله ، لا شريك له من لم يقلها فنفسه ظلما
المولج الليل فى النهار ، وفى الليـ ـل نهاراً ، يفرج الظلما

فقد حور قوله سبحانه : « يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل » ، فحذف المولج ، وتقديم فى الليل ، وتنكير نهاراً . والمجىء بجملة «يفرج الظلما» ، كل ذلك أضعف أسلوب الشاعر ، وباعد بينه وبين الأسلوب القوى للقرآن .

١١ — وخذ قول الشاعر :

فإنك لا تدرى بأية بلدة تموت ، ولا ما يحدث الله فى غد

المستمد من قوله تعالى : « وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ، تر التعميم فى الآية الكريمة أكسبها فخامة وقوة ، والتعبير بتكسب فيه تصريح يعجز النفس عن أن تعرف ما تعمله هى نفسها فى الغد ، وذلك ما لا تجده عند الشاعر الذى عمم فيما يحدثه الله فى غد ، ولم يكن لهذا التعميم ما للتخصيص من قوة التعجيز .

١٢ — وهذا الشعر الذى ينسب إلى حمزة فى غزوة بدر ، يتحدث عن الكفار :

أولئك قوم قتلوا فى ضلالهم وخلوا لواء غير محتضر النصر
لواء ضلال قاد إبليس أهله فخاس بهم ، إن الخبيث إلى غدر

فقال لهم إذ عاين الأمر واضحا : برئت إليكم ، ما بى اليوم من صبر
فإنى أرى ما لا ترون ، وإننى أخاف عقاب الله ، والله ذو قسر
فقدمهم للحين ، حتى تورطو وكان بما لم يخبر القوم ذا خبر

وهو يستوحى لحسان قوله تعالى : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ...

فأى فرق شاسع بين الأسلوبين وبين التصويرين ، فالأسلوب فى الشعر متهاو ضعيف ، بينما هو فى الآية قوى رائع ، يصور الشيطان وقد ملأ أفئدتهم إعجابا بأعمالهم ، فاغتروا بها ، وتكاد تستمع إلى وسوسته ، وهو يؤكد لهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ما دام جاراً لهم ، وتتخيله موليا الأدبار بعد أن تراءت الفئتان ، وبدت أمام عينيه الهزيمة ، فيسلم قومه إلى القتل ، ويفر غادرا بهم ، ويرن فى أذنك براءته منهم ، معللا ذلك بأنه يرى مالا يرون ، وبأنه يخاف الله ، وفى ذلك التصوير من التهكم بهم ما فيه .

أما الشعر فبين الضعف ، يصف اللواء بأنه غير محتضر النصر . وقوله إذ عاين الأمر واضحاً ، ليس بأسلوب شعرى . والفرق قوى بين : والله شديد العقاب ، وقوله : والله ذو قسر ، وأنت ترى أنه برغم أن المعنى قد أوضحه القرآن ، لم يستطع الشاعر أن ينهض به إلى مستوى رفيع .

* * *

وللبلاقلانى منهج فى الموازنة ، يبين به فضل كتاب الله ، هو « أن تنظر أولا فى نظم القرآن ، ثم فى شىء من كلام النبى صلى الله عليه وسلم ، فتعرف الفصل بين النظمين ، والفرق بين الكلامين ، فإن تبين لك الفصل ، ووقعت على جلية الأمر ، وحقيقة الفرق ، فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد ، وإن لم تفهم الفرق ، ولم تقع على الفصل ، فلابد لك من التقليد ، وعلمت أنك من جملة العامة ،

وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان[١] » ، ثم أورد الباقلانى بعض خطب الرسول وكتبه ، وعلق عليها بقوله : « ولا أطول عليك ، وأقتصر على ما ألقيته إليك ، فإن كان لك فى الصنعة خطر ... فما أحسب أن يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فى خطبه ورسائله ، وما عساك تسمعه من كلامه ، ويتساقط إليك من ألفاظه ، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بوناً بعيداً ، وأمدا مديداً ، وميداناً واسعاً ، ومكاناً شاسعاً[٢] ... »

« فإذا أردت زيادة فى التبيين ... فتأمل (هداك الله) ما ننسخه لك من خطب الصحابة والبلغاء ، لتعلم أن نسجها ونسج ما نقلنا من خطب النبى صلى الله عليه وسلم واحد وسبكها سبك غير مختلف ، وإنما يقع بين كلامه وكلام غيره ما يقع من التفاوت بين كلام الفصيحين ، وبين شعر الشاعرين ... فإذا عرفت أن جميع كلام الآدمى منهاج ، ولجملته طريق ، وتبينت ما يمكن فيه من التفاوت — نظرت إلى نظم القرآن نظرة أخرى ، وتأملته مرة ثانية ، فتراعى بعد موقعه وعالى محله وموضعه[٣] ... » ثم يورد بعض خطب البلغاء وكتبهم ، ويقول : « تأمل ذلك وسائر ما هو مسطر من الأخبار المأثورة عن السلف وأهل البيان واللسن ، والفصاحة والفطن ... فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن نظم القرآن يخالف نظم كلام الآدميين ... فإن خيل إليك ، أو شبه عليك وظننت أنه يحتاج أن يوازن بين نظم الشعر والقرآن ، لأن الشعر أفصح من الخطب ، وأبرع من الرسائل وأدق مسلكا من جميع أصناف المحاورات ... فتأمل ما نرتبه

---

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ص١٠٩ .
(٢) المصدر السابق ص١١٤ .
(٣) المصدر نفسه ص١١٥ .

ينكشف لك الحق : إذا أردنا تحقيق ما ضمناه لك فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدة متفق على كبر محلها وصحة نظمها ، وجودة بلاغتها ومعانيها ، وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها ، مع كونه من الموصفين بالتقدم فى الصناعة ، والمعروفين بالحذق فى البراعة : فنقفك على مواضع خللها ، وعلى تفاوت نظمها . وعلى اختلاف فصولها ، وعلى كثرة فضولها ، وعلى شدة تعسفها ، وبعض تكلفها ، وما تجمع من كلام رفيع يقرن بينه ، وبين كلام وضيع ، وبين لفظ سوقى يقرن بلفظ ملوكى ...[1] »

ثم عرض تطبيقاً على منهجه معلقة امرى القيس ، وأخذ يبين ما فيها من مجال النقص ، ووجوه العيب ، ثم قال : « وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت فى أبياتها تفاوتاً بيناً فى الجودة والرداءة ، والسلاسة والانعقاد ، والسلامة والانحلال ، والتمكن والتسهل ، والاسترسال والتوحش والاستكراه ، وله شركاء فى نظائرها ، ومنازعون فى محاسنها ، ومعارضون فى بدائعها ، ولا سواء كلام ينحت من الصخر تارة ، ويذوب تارة ، ويتلون تلون الحرباء ، ويختلف اختلاف الأهواء ، ويكثر فى تصرفه اضطرابه ، وتتقاذف به أسبابه ، وبين قول يجرى فى سبكه على نظام ، وفى رصفه على منهاج ، وفى وضعه على حد ، وفى صفائه على باب ، وفى بهجته ورونقه على طريق ، مختلفه مؤتلف ، ومؤتلفه متحد ، ومتباعده متقارب وشارده مطيع ، ومطيعه شارد ، وهو على متصرفاته واحد ، لا يستصعب فى حال ، ولا يتعقد فى شأن[2] » .

ذلك هو منهج الباقلانى فى الموازنات

* * *

وإن مجال الموازنات لمتسع بين القرآن والشعر عندما يكون الموضوع واحداً ؛

---

(١) المصدر السابق ص١٢٦ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ص١٤٧ .

فقد تحدث القرآن والشعر عن كثير من الغزوات ، ولم يستطع الشعر برغم تقليده فى كثير من الأحيان للقرآن أن يصل إلى السمو القرآنى ، وأن يتناول شتى الأغراض التى تنتظم شئون الجماعة الإسلامية ، فى حين أن الشعر الذى تحدث عن هذه الغزوات ضعيف فى جملته لا يخرج عن أغراض الشعر المعروفة يومئذ : من مدح ، أو هجاء ، أو فخر ، أو رثاء .

خاتمة

من ذلك يبدو أن القرآن مكون من ألفاظ مختارة دقيقة موحية ، قد اتسقت فى جملها ، واستقرت فى مكانها ، وكونت مع زميلاتها آيات تؤثر فى نفس سامعها بقوة نسجها ، وجمال موسيقاها ، قد قدم فيها ماقدم ، وأخر ما أخر ، وذكر ما ذكر ، وحذف ماحذف ، واستعملت صيغة دون أخرى ، لاعتبارات نفسية دقيقة ، وكونت تلك الآيات سوراً ، ترمى إلى توجيه النفس الوجهة الصحيحة المستقيمة ، ولم تكدس الآيات فى السورة تكديساً لارابط فيه بين الآية وأختها ، ولكن كان النهج القرآنى الذى يصل بين الآيات خير نهج يؤثر فى النفس الإنسانية ، ويدفعها إلى العمل الصالح المثمر ، فى أسلوب يدعو إلى التفكير الهادىء ، أو يؤثر تأثيراً سريعاً عنيفاً .

أما عناصر الموضوعات القرآنية فهى ترتكز على الغرائز الثابتة فى النفس ، وهى من أجل ذلك تؤثر عميق التأثير ، وتخلد مابقى الزمن .

هذا ، وقد كان لبلاغة القرآن أثر كبير فيما ألف من كتب البلاغة ، فمنه اقتبست تلك الكتب كثيراً من أمثلتها ، وألف بعض العلماء كتباً خاصة تعالج ناحية معينة من نواحى البلاغة القرآنية ، كما ترى ذلك فى بعض ما أثبتناه من مراجع البحث ، ولكن وقف معظمه عند حد الدراسة اللفظية ، وعند حدود الجملة .

ولست أزعم أننى وفيت الموضوع حقه ، لأن ذلك يتطلب من الجهد والوقت مالا أملكه إلى اليوم ، وحسبى الآن أننى وضعت منهجاً ، ورسمت خطة لدراسة البلاغة القرآنية ، كما ينبغى أن تكون ، مؤملا أن أفتح بذلك أبواب البحث لمن يتخصص فى هذه الدراسة ، فيتناول دراسة المفرد والجملة والسورة والمعنى ، على أسس من الاستقراء الشامل ، معيداً خصائصها إلى قواعد مطردة ، وأصول ثابتة .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

مراجع البحث

١ — الإتقان فى علوم القرآن ، (المطبعة الأزهرية المصرية سنة ١٣١٨هـ) .
تأليف جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ .

٢ — أسرار البلاغة ، (الطبعة الثالثة سنة ١٣٥٨ هـ ، ١٩٣٩ م) .
تأليف عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

٣ — الأسلوب ، (المطبعة الفاروقية بالإسكندرية سنة ١٩٣٩) .
تأليف الأستاذ أحمد الشايب .

٤ — الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز ، (طبع القسطنطينية سنة ١٣٠٣ هـ) .
تأليف عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠ هـ .

٥ — الأصل والبيان لمعرّب القرآن ، (مطبعة مصر الحرة) .
تأليف الشيخ حمزة فتح الله .

٦ — أصول النقد الأدبى ، (المطبعة الفاروقية بالإسكندرية) .
تأليف الأستاذ أحمد الشايب .

٧ — إعجاز القرآن (القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ) .
تأليف محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ .

٨ — إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، (مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٣٤٦هـ ، ١٩٢٨ م) .
تأليف مصطفى صادق الرافعى .

٩ — الإعجاز والإيجاز ، (المطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩٧ م) .

تأليف أبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

١٠ — الأقصى القريب فى علم البيان ، (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ) .

تأليف أبى عبد الله محمد بن محمد بن عمر التنوخى ، أحد أعيان المائة السابعة .

١١ — بدائع القرآن ، (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٥٠ بلاغة) .

تأليف عبد العظيم بن أبى الإصبع المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

١٢ — البديع ، (مخطوط بدار الكتب رقم ٥ م بلاغة) .

تأليف أسامة بن منقذ المتوفى سنة ٥٨٤ هـ .

١٣ — البلاغة وعلم النفس (محاضرة) .

للأستاذ أمين الخولى .

١٤ — بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب ، (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٣ هـ) .

للسيد محمود شكرى الألوسى البغدادى .

١٥ — البيان والتبيين ، (المطبعة التجارية الكبرى سنة ١٣٤٥ هـ ، ١٩٢٦ م) .

تأليف أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

١٦ — تاريخ آداب العرب ، (الطبعة الرابعة ، مطبعة الاستقامة) .

تأليف مصطفى صادق الرافعى .

١٧ تاريخ الأدب العربى ، فى صدر الإسلام والعصر الأموى .

(مطبعة العلوم بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ ، ١٩٣٥ م) .

تأليف الأستاذ السباعى بيومى .

١٨ — تحرير التحبير ، (مخطوط بدار الكتب رقم ٤٦٥ بلاغة) .

تأليف عبد العظيم بن أبى الأصبع المتوفى سنة ٦٥٤ هـ .

١٩ — تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى ، (مطبعة سركيس ببيروت سنة ١٩٣٥ م) .
تأليف أنيس المقدسى .
٢٠ — تفسير جزء : عم يتساءلون ؟ (الطبعة الثالثة سنة ١٣٤١ هـ) .
تأليف الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ ، ١٩٠٥ م) .
٢١ — التفسير : معالم حياته ، منهجه اليوم ، (القاهرة سنة ١٩٤٤ م) .
تأليف الأستاذ أمين الخولى .
٢٢ — التهذيب فى أصـــول التعريب ، (الطبعة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ . ١٩٣٣ م) .
تأليف الدكتور أحمد عيسى بك .
٢٣ — حصاد الهشيم ، (الطبعة الثانية سنة ١٩٣٢ م) .
تأليف إبراهيم عبد القادر المازنى المتوفى سنة ١٩٤٩ م .
٢٤ — خزانة الأدب وغاية الأرب ، (مطبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .
تأليف أبى بكر على المعروف بابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ .
٢٥ — الخواطر الحسان فى المعانى والبيان ، (مصر سنة ١٨٩٦ م) .
تأليف جبر ضويط .
٢٦ — دراسات فى الأدب الإسلامى ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧ م) .
تأليف الأستاذ محمد خلف الله .
٢٧ — دراسات فى علم النفس الأدبى ، (المطبعة النموذجية سنة ١٩٤٩ م) .
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
٢٨ — دفاع عن البلاغة ، (مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥ م) .

تأليف الأستاذ أحمد حسن الزيات .

٢٩ — دلائل الإعجاز ، (مطبعة المنار سنة ١٣٣١ هـ) .

تأليف عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ .

٣٠ — رد معانى الآيات المتشابهات إلى معانى الآيات المحكمات .

(مخطوط بدار الكتب رقم ١٠١٩ تفسير) .

تأليف ابن العربى المتوفى سنة ٦٣٨ هـ .

٣١ — روح الاجتماع ، (المطبعة الرحمانية) .

تأليف الدكتور جوستاف لوبون، وترجمة أحمد فتحى زغلول باشا .

٣٢ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، (إدارة الطباعة المنيرية بمصر)

تأليف السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ .

٣٣ — سر الفصاحة ، (المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٥٠ هـ ، ١٩٢٣ م .

تأليف ابن سنان الخفاجى الحلبى المتوفى سنة ٤٦٦ هـ .

٣٤ — شرح الإيضاح للخطيب القزوينى ، (المطبعة المحمودية التجارية بمصر سنة ١٣٥٣ هـ ، ١٩٣٥ م) .

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

٣٥ — الصناعتين ، (مطبعة محمد على صبيح بمصر) .

تأليف أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ .

٣٦ — الطراز ، (مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢ هـ ، ١٩١٤ م) .

تأليف يحيى بن حمزة العلوى .

٣٧ — العمدة فى صناعة الشعر ونقده (الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥هـ ١٩٠٧م)

تأليف الحسن بن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ .

٣٨ — غريب القرآن ، (مطبعة حجازى بالقاهرة) .
تأليف أبى بكر محمد بن عزيز السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ .
٣٩ — فقه اللغة وسر العربية ، (الطبعة الأولى ١٣٤١ هـ ، ١٩٢١ م) .
تأليف أبى منصور عبد الملك محمد الثعالبى المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .
٤٠ — فن القول ، (مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٣٦٦هـ، ١٩٤٧م) .
تأليف الأستاذ أمين الخولى .
٤١ — فنون الأدب ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥ م)
تأليف هـ . ب . تشارلتن ، وتعريب الأستاذ زكى نجيب محمود .
٤٢ — فى علم النفس ، (مطبعة المعارف) .
تأليف الأستاذين : على الجارم ومصطفى أمين .
٤٣ — القرآن الكريم (المطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٣٥٤ هـ) .
٤٤ — قصص القرآن . (الطبعة الأولى) سنة ١٣٥٩ هـ ، ١٩٣٧ م) .
تأليف محمد أحمد جاد المولى بك وزملائه .
٤٥ — قواعد النقد الأدبى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م) .
تأليف أسل أبركرمبى ، وتعريب الدكتور محمد عوض محمد .
٤٦ — الكامل . (المطبعة الأزهرية بمصر) .
تأليف أبى العباس محمد بن يزيد المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ .
٤٧ — كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان . (مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٧ هـ) .
تأليف ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ .
٤٨ — الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (المطبعة البهية المصرية سنة

١٣٤٣ هـ) .

تأليف محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ .

٤٩ - الكلمات الحسان فى الحروف السبعة وجمع القرآن . (المطبعة الخيرية سنة ١٣٢٣ هـ) .

تأليف الشيخ محمد بخيت .

٥٠ — المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر . (المطبعة البهية سنة ١٣٦٢ هـ) .

تأليف نصر الله بن محمد بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ .

٥١ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل . المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٤٤ هـ) .

تأليف أبى البركات عبد الله النسفى .

٥٢ — مراجعات فى الآداب والفنون . (المطبعة العصرية) .

تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد .

٥٣ — المعرب فى الكلام الأعجمى . (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٦١ هـ) .

تأليف أبى منصور الجواليقى المتوفى سنة ٥٤٠ هـ .

٥٤ — مغنى اللبيب . (المطبعة الشرقية سنة ١٢٩٩ هـ) .

تأليف ابن هشام الأنصارى المتوفى سنة ٧٦١ هـ .

٥٥ — مقدمة لدراسة بلاغة العرب . (القاهرة سنة ١٩٢١ م) .

تأليف الدكتور أحمد ضيف .

٥٦ — من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧ م) .

تأليف الأستاذ محمد خلف الله .

٥٧ — المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية (الطبعة الأولى سنة ١٣١٢ هـ)
تأليف الشيخ حمزة فتح الله .

٥٨ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية . (مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م) .
تأليف محمد محمود جمعة .

٥٩ — النظم الفنى فى القرآن . (المطبعة النموذجية) .
تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى .

٦٠ — نقد النثر . (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ) (١٩٣٨ م) .
ينسب إلى قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣١٠هـ .

٦١ — نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز . (مطبعة الآداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ) .
تأليف محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

٦٢ — الهول المطرب فى القول بالموجب . (مخطوط بدار الكتب) .

٦٣ — الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية . (الطبعة الأولى سنة ١٢٨٩ هـ) .
تأليف الشيخ حسين المرصفى المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٨٩ م) .

الفهرس

صفحة	الموضوع
	إهداء الكتاب .
	مقدمة
١	الكتاب الأول .
٢	مقدمات تمهيدية :
٢	العمل الأدبى .
١٠	مجال الأدب بين مظاهر الشعور .
١٨	علوم البلاغة والنقد الأدبى .
٢٤	القراءة الأدبية .
٢٧	المنهج الأدبى فى القرآن .
٤٦	إعجاز القرآن .
٥٤	الفصل الأول : ألفاظ القرآن .
٥٤	البلاغة والنظم .
٥٧	تخير اللفظ .
٧٥	الفاصلة .
٨٩	الغريب .
٩٢	المعرب .
٩٥	الزائد .
١٠٥	الفصل الثانى : الآية القرآنية .

صفحة	الموضوع
١٠٥	تكوينها .
١١٢	التقديم والتأخير .
١١٨	الذكر والحذف .
١٢٨	التنكير والتعريف .
١٣٩	الإفراد والتذكير وفروعهما .
١٤٣	التوكيد والتكرير .
١٥٦	القصر .
١٦٣	الاستفهام .
١٦٦	الأمر والنهى .
١٦٧	التمنى والترجى .
١٦٨	النداء .
١٧٠	القسم .
١٧٣	الفصل والوصل .
١٨١	بدائع القرآن .
١٨٧	التشبيه فى القرآن .
٢١٢	« كذلك » فى القرآن الكريم .
٢١٧	التصوير بالاستعارة .
٢٢٣	مجازات القرآن .

صفحة	الموضوع
٢٢٦	الكناية والتعريض .
٢٢٩	الفصل الثالث : السورة .
٢٤٤	الفصل الرابع : أسلوب القرآن .
٢٥١	الكتاب الثانى .
٢٥٣	الفصل الأول : المعانى القرآنية
٢٥٣	الله .
٢٦٩	محمد .
٢٨١	القرآن .
٢٨٩	يوم القيامة .
٣٠٠	الجنة .
٣٠٥	النار
٣١١	الجهاد .
٣٢٠	المعارك الحربية .
٣٢٩	الإنسان المثالى .
٣٣٤	الحياة الدنيا .
٣٣٨	عبادة الأوثان .
٣٤٠	العقائد والعبادات
٣٤٩	الأحكام .
٣٥٣	مظاهر الطبيعة .
٣٥٩	المدح
٣٦٠	الهجاء .
٣٦٣	العتاب .
٣٦٥	مصر فى القرآن .
٣٦٧	القصة فى القرآن .
٣٧٤	الجدل .
٣٧٨	الابتهال .
٣٧٩	بعض صور الحياة الجاهلية .
٣٨٨	الفصل الثانى : موازنات .
٤٠١	خاتمة
٤٠٢	مراجع البحث .

للمؤلف

١ — سيوية .

٢ — شاعر بنى حمدان .

٣ — رفاعة الطهطاوى بك .

٤ — من بلاغة القرآن .

٥ — ديوان المتنبى فى العالم العربى وعند المستشرقين [ترجمة عن الفرنسية]

٦ — ديوان المعتمد بن عباد . (جمع وتحقيق ، بالاشتراك) .

٧ — الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .

٨ — مأمون بنى أيوب .

٩ — ديوان أسامة بين منقذ [تحقيق بالإشتراك] .

١٠ — الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام .

١١ — نفس تحطمت [تمثيلية] .

١٢ — المطرب من أشعار أهل المغرب . (تحقيق ، بالاشتراك) .

١٣ — حياة البحترى وفنه .

١٤ — البحترى .

١٥ — مع الصحفى المكافح : أحمد حلمى .

١٦ — أسس النقد الأدبى عند العرب .

١٧ — البديع فى نقد الشعر لأسامه بن منقذ [تحقيق بالإشتراك] .

١٨ — ديوان الوزير المصرى : طلائع بن رزيك .

١٩ — شعر الثورة فى الميزان ج ١ .

٢٠ — من النقد والأدب .

٢١ — عصر الحروب الصليبية [تحت الطبع] .

٢٢ — ديوان القاضى الفاضل [تحقيق] [تحت الطبع] .

٢٣ — الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم [تحقيق [تحت الطبع] .

b-12285225
i.13600291

DEC 1972 -

FEB 7 1987

PJ
6696
B2x

AUC - LIBRARY

DATE DUE

~~26 JUL 1967~~	